دِرياق الذُّنُوب وكشف الرَّين عن القلوب

(وَفي مَخطُوطَةٍ: وَترياقُ القُلُوب)

تصنيف

عَبْد الرَّحمن بن عَلي بن محمَّد ابن الجوزي

المتوفى سَنة ٥٩٧ هجريَّة

اعتنى به

محمَّد عبد السَّلام إبراهيم



دِرْيَاقُ الذُّنُوبِ وَكَشْفُ الرَّيْنِ عَنِ القُلُوبِ

(وَفِي مَخْطُوطَةٍ: وَتِرْيَاقُ القُلُوبِ)

تصنيف

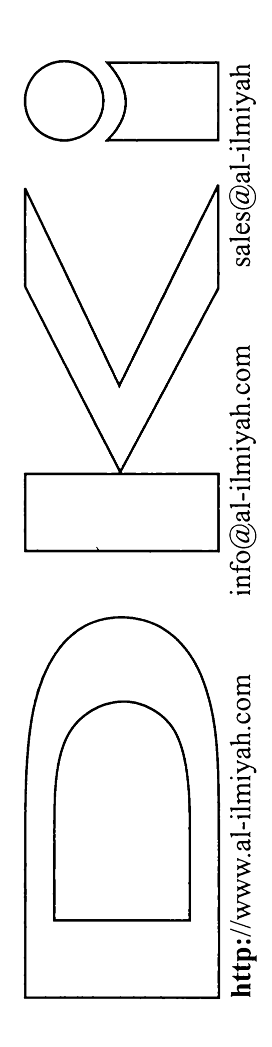
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنُ الجَوْزِي

المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية

اعتنى به

محمد عبد السلام إبراهيم





الكتاب: درياق الذنوب وكشف الرين عن القلوب

Title: DIRYĀQ AḎ-ḎUNŪB WA KAŠF AR-RAYN 'AN AL-QULŪB

التصنيف: مواعظ - زهد ورقائق

Classification: Asceticism

المؤلف: عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)

Author: Abdulrahman ben Ali ben Mohammed ibn Al-Jawzi (D. 597 H.)

المحقق: محمد عبدالسلام إبراهيم

Editor: Mohammed Abdulsalam Ibrahim

الناشر: دار الكتـــب العلمـيــــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah - Beirut

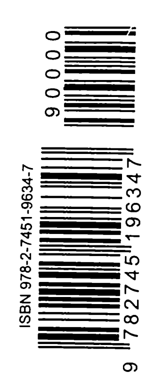
Pages	336	عدد الصفحات
Size	17 x 24 cm	قياس الصفحات
Year	2021 A.D. - 1443 H.	سنة الطباعة
Printed in	Lebanon	بلد الطباعة لبنـــان
Edition	1st	الطبعة الأولى

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٤ ٠ ٨ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٤ ٠ ٨ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله القائل في مُحكَم كتابه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] والصلاة والسلام على صاحب الخُلُق العظيم، والفضل العَميم، المبعوث مُتَمِّمًا لمكارم الأخلاق، سيِّدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن المُسَلَّم به أن الإسلام هو دين يدعو إلى أقوم طريق، ويرمي إلى أشرف الغايات، وما دعوته إلا هداية للناس إلى سبيل الحق، وتوجيههم نحو الفضيلة، ليحيا الناس حياة طيبة في العاجل، ويفوزوا بسعادة خالدة وعطاء غير مجذوذ في الآجل.

ومن المعلوم أن في الزُّهد والتزهُّد، الدعوة إلى ما فيه خير وصلاح، والتحذير مما فيه شرٌّ وفساد، والمُتزهِّد في الدِّين هو الذي يرشِد الجاهلين، وينبِّه الغافلين، ويعالج النفوس الطائشة مع أهوائها، ليُعيدها إلى الفِطرة السليمة، من الإقبال على الفضائل، والترفُّع عن الرذائل، وذلك بمعونة دراية الزاهد والواعظ بالطرق الحكيمة، مع حيازة فقهه ووفور علمه، كي يميِّز بين الحق والباطل، ويفرِّق بين المعروف والمُنكَر، مع اتِّصافه بالنَّباهة، وطِيب السَّريرة، واستقامة السِّيرة.

والزُّهد في الله هو باب من أبواب الدعوة إلى الله بالسِّيرة الحسنة والكلمة الطيبة، وأحد أسباب إقامة حجَّة الله على خلقه، والإعذار إلى الله، مع رجاء نفع المأمور به، واحتِساب الثواب من الله عليه، إذ الزهد في الدِّين باب عظيم من أبواب البِر، ففيه إجلال لله سبحانه وتعالى، مع النصيحة للمؤمنين، والرحمة بهم، ومحبة الخير لهم، والرغبة في تقرّبهم لله عزَّ وجلَّ، وإنقاذهم من التعرّض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وإن كتابنا هذا الموسوم بـ «درياق الذنوب وكشف الرين عن القلوب» تأليف: الإمام أبي الفرج، عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي (المتوفَّى سنة **٥٩٧ هـ**)، قد جمع فيه مواعظ مستحسنة في الزهد، ضمن مجالس متعددة، استفادها من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسوله ﷺ، والحكايات المعتبرة من كتب التفاسير، والأحاديث والمواعظ المُعتَمَد عليها، والموثوقة، متحدِّثًا فيه عن قصص الأنبياء والمُرسَلين، وذاكِرًا حالهم في الزهد في الدِّين والدعوة إلى الله، مع سَرْد سِيَر الخلفاء الراشدين والتابعين والأولياء والصالحين الموثوقة، مما يعطي أهمية جليلة ومصداقية كبيرة للزهد في النفوس، وقد جعله حَسَن الترتيب، فجاء موزَّعًا على أربعين مجلسًا احتوت هذه المجالس على تفصيل أحوال الأنبياء والمُرسَلين خلال دعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ بالموعظة الحسنة، وسِيَر الخلفاء الراشدين والأولياء والصالحين، وحُسْن دعوتهم للخَلْق إلى الزهد في الدنيا، ولا يخفى على المؤمن، ما في هذا الكتاب النفيس من الحَضِّ على طريق الخير، ومن المنفعة في الدنيا والآخرة.

ترجمة المصنِّف

هو الشيخ الإمام العلَّامة، الحافظ المُفَسِّر، شيخ الإسلام، فخر العراق أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي.

وُلِد في عام (٥١٠ هـ) في بغداد، ونشأ ابن الجوزي شَغوفًا بالعلم مع اختلاف فنونه، وتردّد على علماء عصره، ينهل من علمهم، ثم حُبِّب إليه في بداية الطلب طريق الزُّهَّاد، وحُبِّبَت إليه الخلوة، وتَصَدَّرَ للوعظ والإرشاد، وكان عَلَّامة عصره، وإمام وقته في الحديث، وصناعة الوعظ، صنَّف في الكثير من العلوم. له: «زاد المسير في علم التفسير»، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله «المنتظم في التاريخ»، وله «الموضوعات»، وكتابنا هذا الذي بين أيدينا وهو «درياق الذنوب وكشف الرين عن القلوب» في الزهد والرقائق.

توفي ليلة الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة (٥٩٧ هـ) ببغداد، ودفن بباب حرب في عهد الخليفة الناصر العباسي.

نماذج من صور المخطوط



صورة صفحة عنوان المخطوطة



صورة الصفحة الأولى من المخطوطة

ونة مفرحتي ما رجوته جاء في الخبر أنه يقول الله عز وجل يا داود حزني
جونك الرخيم فإذا قام داود يزكرد من السحر على القفون
رجوت أن أكون المعبر أنا أخوان مجلسنا روضة طعامنا فيها الجوع
وشرابنا فيها الدموع ونقلنا هذا الكلام المطبوع نتزاور به الأمرا ص
وترد الموارد ونوفي المسوع فليتني كان في كل يوم أجل أسبوع الأمر
أيقظتني في الصبا ووهبتني من العلم وأذقتني طعم المعاملة وأخفيتني
إذ الخلق عليك واصرف الوجود المنصرف عنك إليك ومن حيث
كان يكفي بعزوبة الصيانة وجعلتني في أخبار معروفنا بالأمانة
فبركن إلى أهل المعاملة ورضيني حسبنا أوفى الوزن سيدي لو
عرفوا أحلاسي ما عوملته عنوان مستور المضاد وخفي العفو
كان ما اجترت القضاء بعد أن نجا فتواب النار فبصر ربي وارد
المنا الأهي أنعامك علي بالسرور في رجائي تمام فضلك لن يلي
أعلى سعة رحمتك سبيل المراطع للرمي فإن لهلتي للعفو إن لم
أهيا لسجون الأولياء والمختبي في سجون الاعترا وحرم عربيا
ما يسع اعاثة سواك خلص أسيرا أما يملك وحالة إلا أعتق
رقبة من رقبت جودك لا تخيب أمالا كان تعلقه بك لا تعكس
قلبا قد عول على فضلك يا كريم يا رحيم من رضاها وجميع المسلمين ○

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه أنتسخ
بباب بني شيبة بالحرم الشريف بازاء باب ابرهيم [illegible] العبد الفقير
إلى رحمة ربه [illegible] محمد [illegible]
الله [illegible] والحمد لله [illegible] وصلى الله على سيدنا [illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وسلَّم تسليمًا

يَشْتَمِلُ على أَرْبعينَ مَجْلِسًا، وفي صَدْرِ كُلِّ مَجْلِسٍ خطبَةٌ، وهو مما عُنِيَ بتَصْنِيفِه وانْتُقِيَ مِنْ جَواهِرِ كَلامِ المُعتَبَرين من الأئمةِ الواعظين.

المَجْلِسُ الأوَّلُ
في قِصَّةِ آدم عليْهِ السَّلام

الحَمْدُ لله الذي سَيَّرَ بقُدْرَتِهِ الفُلْكَ والفَلَك، وَدَبَّر بِصَنْعَتِهِ النُّورَ والحَلَك، وَاخْتارَ آدَمَ فَحَسَدَهُ الشَّيْطانُ وَغَبَطَهُ الْمَلَكُ، وافْتَخَرُوا الملائِكة بالتَّسْبِيحِ والتَّقْدِيْسِ، فأمَّا إبْلِيسُ فَهَلَكَ، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

نَحْمَدُهُ وهُوَ بالحَمْدِ جَدِيْرٌ، وأُقِرُّ بأنَّهُ مَالكُ التَّصْويْرِ والنَّصِيْر، تَعَالَى عن نَظِيرِهِ وتَنَزَّهَ عن وَزِيرٍ، قَبِلَ من خَلْقِهِ القليل، وأعْطَى من رِزْقِهِ الكثير، أَنْشَأَ السَّحَابَ لِيَحْمِلَ المَاءَ النَّمِيْر، لِيَعُمَّ عِبادَهُ بالخَيْرِ وَيمِيْر، فَكُلَّمَا قَطَرَ القَطْرُ في الوَقْعِ صَاحَ الرَّعْدُ بصَوْتِ الأَمِيْر، وكُلَّمَا أَظَلَّتْ مَسَالِكُ الغَيْثِ لاحَ البَرْقُ يُوضِحُ ويُنِيْر، وقَامَتْ الوُرْقُ تَصْدَحُ وتَمْرَحُ عَلَى جَنبَاتِ الغَدِيْر، فَالجَمَادُ يَنْطِقُ بِلِسَانِ حَالِهِ، وَالنَّبَاتُ يَتَكَلَّمُ بِأَشْكالِهِ، وَالْكُلُّ إلَى التَّوحِيْدِ يُشِيْرُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وأُصَلِّي على مُحَمَّدٍ البَشِيْرِ والنَّذِيْرِ، وعلى صَاحِبِهِ الكَبِيْر، وعلى عُمَرَ ذِي العَدْلِ الغَزِيْر، وعلى عُثْمانَ مُجَهِّز جَيْشِ العُسْرَةِ في الزَّمَانِ العَسِيْر، وعلى عَلِيٍّ

المَخْصُوصِ بِالجَنَّةِ يَوْمَ الغَدِيْرِ، وعلى عَمِّهِ المُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ المَاءُ الكَثِيْرُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا بِحَقِّهِمْ مِمَّن تَصَرَّفَ بِطَاعَتِكَ في المَقَامِ والمَسِير.

اعلم أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله تَعَالَى القَلَمَ، لِيَكْتُبَ عُذْرَ آدَمَ قَبْلَ خَلْقِهِ، إِنَّمَا جُعِلَ آدَمُ آخِرَ الخَلْقِ؛ لأَنَّهُ مَهَّدَ الدَّارَ قَبْلَ السَّاكِنِ، وأَقَامَ عُذْرَهُ قَبْلَ الزَّلَلِ بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، والمُحِبُّ يَعْتَذِرُ عَنِ الحَبِيْبِ، دَلِيْلُهُ ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: الآية ١١٥]، وَنَبَّهَ الملائكةَ على تعظِيْمِهِ بقولِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢٩].

فَهُوَ من جِنْسِ غُضُّوا أَبْصَارَكُم لِتَجُوزَ فَاطِمَة مع أَنَّ الكُلَّ في الشُّغْلِ فَظَنَّتِ المَلائِكَةُ أن تَفضِيْلَهُ بِنَفْسِهِ فَضَنَّتْ بالفَضْلِ عليه فَنَطَقَت أَلْسِنَةُ تَسْبِيْحِهِمْ بِحُجَّةِ تَقْدِيسِهِم فقالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] فَأَخْرَسَ الله أَلْسِنَةَ الاعْتِراضِ بِرَدِّ ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

وَا عَجَبًا لهُم قَطَعُوا عَلى الغَيْرِ بلفظ ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، وأمنوا الغِيَرَ على النُّفوسِ في دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، فلما صَوَّرَهُ أَلْقَاهُ كاللِّقَى على بابِ الجَنَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ومِنْ شَأْنِ المُحِبِّ الوُقُوفُ على بَابِ الحَبِيْبِ وَرُمِيَ به في طريقِ ذُلٍّ لم يَكُ شَيْئًا مذكورًا لِئَلَّا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ يَوْمَ ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: الآية ٣٤] وكانَتِ المَلَائِكَةُ إذَا مَرَّتْ على جَسَدِهِ، مَرَّ إِبْلِيْسُ مِن بَيْنِهِمْ على جَسَدِهِ وهو لا يَدْرِي أن هَلَاكَهُ بِيَدِهِ.

رَأى إِبْلِيسُ طِيْنًا مُجَوَّفًا فَاحْتَقَرَهُ حَتَّى كَرَّرَ النَّظَرَ في الصُّورَةِ بَاتَ العدو مِنَ الهَمِّ في صَوْرَةٍ، فلما نُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ أَقْبَلَ الحَاسِد ليس فيه الروح يَنُوحُ. قال أنس بنُ مَالِكٍ رَضِيَ الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَمَّا نُفِخَ في آدَمَ الرُّوْحُ فَارَتْ فَطَارَتْ في رَأْسِهِ فَعَطَسَ فقالَ: الحَمْدُ لله، فَقَالَ الله تعالى: يَرْحَمُكَ الله**».

قالَ أَهْلُ العِلْمِ بالنَّقْلِ: وخُلِقَ آدم يومَ الجمعةِ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: الآية ٣١] وكانَ طولُهُ سِتِّيْنَ ذِراعًا، وعَرْضُهُ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ، فَلَمَّا بُسِطَ لهُ بِسَاطُ

العِزِّ عُرِضتْ عليه المخلُوقَاتُ فأُحْضِرَ مُدَّعِي ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] إلى حَاكِمِ ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ [البقرة: الآية ٣١] وقد أَخْفَى الوَكِيْلُ عَلَيْهِم بَيِّنَةً وعَلِمَ، فَنَكَسُوا رؤوسَ الدَّعَاوِي على صُدُورِ الأَقْرار، فقامَ مُنادِي التَّفْضِيل يُنادِي في نَادِي المَلائِكَةِ: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ [البقرة: الآية ٣٤]، فتطهَّرُوا من وَسَخِ دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] بِماءِ العُذْرِ مِنْ غَدِيْرِ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: الآية ٣٢]، وغَدِيْرُ الغادِرِ الماكر نَجِسٌ بِكِبْرِيَاءِ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٢].

وَسَجَدُوْا على طَهارةِ التَّسلِيْم فقامَ إبليسُ جانبًا لجَنابةِ الاعْتِراضِ وَمَا كانَتْ نجاسَتُهُ نَجاسَةً تُتَلَاقَى بالتَّطهير؛ لأَنها كانت عَيْنِيَّةً، فلما تَمَّ كمالُ آدم حامَ العدوُّ وحَوَّلَ المحمي فجرى القدر بالذنب ليبيِّنَ أثرَ العبوديةِ في الذُّلِّ، فلولا سَابقُ القدَرِ ما قَدَر عليه. قيل: يا آدَمُ ضِحْكُكَ في الجنَّةِ لَكَ فَانْزِلْ إلى دَارِ التَّكْليفِ وابْكِ لَنَا. قيلَ: مَكَثَ آدَمُ في الجنَّةِ نِصْفَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّام الآخِرَةِ وذلكَ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ من أيَّام الدُّنْيَا، وأُنْزِلَ مَعَهُ عَصَى مُوسَى وكانت مِن آسِ الجَنَّةِ.

قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: سَجَدَ آدَمُ على جَبَلِ الهِنْدِ مائَةَ عَامٍ يَبْكِيْ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ في وَادِي سَرَنْدِيب، فَأَنْبتَ الله في ذلك الوادِي من دُمُوعِهِ الدَّارَصِينيّ والقَرَنْفُلَ، وجَعَلَ طَير ذلك الوادِي الطَّواوِيْسَ، يَا آدَمُ مَا ضَرَّ مَنْ كَسَرَه غَيْرِي إذا جَبَرْتَهُ، أنا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي. وينشد في ذلك:

يَا قَلْبُ لاَ تَطْرَحْ سِلاحَكَ كُلَّهُ ... جَزَعًا وإن بان العتيق وبَانُهُ
لاَ غَرْوَ وإن تَجْنِيَ عَلَيَّ فَضَائِلِي ... سَبَبُ احْتِرَاقِ المَنْدَليّ دُخَانُهُ

آهٍ كَمْ غَرَسَ الآكِلُ من الشَّجَرِ من شَجَرَاتٍ
كَمْ أظْهَرَتْ تِلْكَ الجَنَّةُ لِلْمَحَبَّةِ مِنْ حَبَّاتٍ

فَلَمَّا نَزَلَ إلى الأَرْضِ خَدَّ خَدَّ الفَرَح بِدَمْعِ التَّرَح حتى أقلقَ الوُجُودَ، فجاء جبريلُ فقال: ما هذا الجهدُ؟ فصاح بلسان الوَجْدِ ينشد:

مَا دَخلَتِ العِيسُ عن أرْضِكُمْ ... فرأتْ عيناايَ شَيْئًا حَسَنًا
هل لنا نحوَكم من عَودةٍ ... ومن التَّعليلِ قُوْلي هَل لنا

قَد شَجَانِي البَأْسُ مِنْ بُعْدِكُمْ فَعِدُوْنِي بِأَحَادِيْثِ الْمُنَا
يَا نَدِيمَيَّ على ذِكرِهم وحديثُ الشَّوْقِ قد أسْكَرَنا
ولَعَمْرِي ما وَجَدْنَا رَاحةً مِن هَوَاهُمْ مَا أَلِفْنا شَجَنَا

يا آدم: لا تَجزَعْ من كأسِ خَطإٍ كان سببَ كَيْسك، فَقَدْ أَخرَجَ منك دَاءَ العُجْبِ، وأَلْبَسَكَ بُرْدَ النُّسْكِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ بِقَومٍ، وينشد:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّت الأَجْسَادُ مِنْ عِلَلٍ

لا تَحْزَنْ بقَوْلي لك اهْبِطْ منها فَلَكَ خَلَقْتُهَا، وَلَكِنْ أُخرُجْ إلى مَزْرَعَةِ الْمُجَاهَدَةِ وَاسْقِ مِنْ دَمْعِكَ سَاقِيَةً، واجعلها شجرة كرمك ساقية، فَإِذَا عَادَ العُوْدُ خَضِرًا افْعَلْ. وينشد:

إنْ جَرَى بينَنا وبينَكَ عَتْبٌ أو تَنَاءَتْ مِنَّا ومِنْكَ الدِّيارُ
فالعَلِيلُ الَّذِي عَهِدْتَ مُقيمٌ والدُّموعُ التي شَهِدْتَ غِزَارُ

وعظ:

يا ابن آدمَ: أَشْبَهْتَ أَبَاكَ في المُخَالَفَةِ فَتَشَبَّه بِهِ في النَّدَمِ، فالوَيْلُ لِمَن أَحْكَمَ عَقْدَ الإصْرَارِ.

أَيُّهَا العاصِيْ: تَفَكَّرْ في حَالِ أبيكَ، وتَذَكَّرْ ما جَرَى له، ويَكْفِيكَ أُبْعِدَ بَعْدَ القُرْب من رَبِّه، وأُهْبِطَ من الجنَّة بشُؤْمِ ذَنْبِهِ، وأسَرَهُ العَدُوُّ بِخَدِيعتِهِ في حَرْبِهِ وهَا هُوَ يَسْعَى في هَلاَكِكَ فَاعتَبِرْ به.

فَرحِمَ الله عبدًا تَأَهَّبَ لِمُحارَبَةِ عَدُوِّهِ في رَوَاحِهِ وَغُدوِّهِ؛ لأنه رَاصِدٌ لهُ في القَوْل والعَمَلِ، وَيُحسِّنُ له بالمكر والتَّسْويف والأَمَل، ويُذَكِّرُهُ الهَوَى وَيُنْسِيْهِ الأَجَلُ، فَلْيَلْبَسْ أحْصَنَ الحُلَلِ، فَالرَّامي يَطْلُبُ الخَلَلَ. وينشد:

إلاَمَ تَغُرُّ بالأمَلِ الطَّوِيْلِ فما بعدُ لَيْسَ إلى الإقَامَةِ مِنْ سَبِيلِ
فَدَعْ عَنْكَ التَّعَلُّلَ بالأَمَانِي فَما بَعْدَ المَشِيْبِ سِوَى الرَّحِيْلِ
تُؤَمِّلُ أَنْ تَدُومَ عَلى اللَّيَالِيْ وَكَمْ أَفْنَيْنَ قَبْلَكَ مِن خَلِيْلِ
وَمَا زَالَتْ بَنَاتُ الدَّهْرِ تُفْنِي. بَنِي الأَيَّامِ جِيْلًا بَعْدَ جِيْلِ

إخواني، ما زالت زَلَّةُ الأكل تُعَادِيْه، حتى اسْتَوْلَى دَاؤُهَا على أولادِهِ، فَنَمَّتْ هَيْمَنَةُ المَلائكَة بِعبَادَةٍ بَطَرِ العَافِيَةِ فَنَشَرُوا مَطْوِيَّ ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] فدَعُوا بِعِصِيِّ الدَّعَاوي ظُهُورَ العُصَاةِ فقيلَ لهم: لو كنتم بينَ أفَاعِي الهَوَى وعقارِبِ الشهواتِ، لَهَوَتْ بكُم في لَهَوَاتِ الهدف ولَبَاتَ سَلِيْمُكُمْ سَلِيمًا، ولَعَادَ الصَّحِيحُ بالزَّلَلِ سَقِيمًا، فأتَوْا لِلْجُرْأَةِ حَرِيْرَ الدَّعَاوِيْ، وحَدَّثُوا أنْفُسَهُمْ بِالتُّقى والتَّقَاوِيْ، فَنَقَّبُوا عن خِيَارِ نُقَبَائِهِمْ، وَانْتَقَوْا مَلِكَ الملوكِ فما رَأَوْا لمثلهَا مِثْلَ هَارُوتَ ومارُوْتَ، فَأَتَيَا لِسَفَرِ البَلَاءِ بالبَلِيَّةِ، فَلَمَّا نَزَلا حتَّى نَزَلا عن مَقامِ العِصْمَةِ فَنَزَلا مَنْزِلَ الدَّعْوَى فَرَكِبَا مَرْكَبَ البَشَرِيَّةِ، فَمَرَّتْ على المَرْأَيِنِ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَها الزُّهَرَةُ بِيَدِها مِزْهَرُ زَهْرَةِ الشَّهوَةِ فَغَنَّتِ الغَانِيَةُ بِغُنَّةٍ أَغَنَّ فَرَنَّتْ قِيَانُ الحبِّ فَوقَ قِيان الْهَوَى، فَهَوَى الصَّوتُ في صَوْبِ قَلِيْبِ قُلَيْبِهِمَا فقَلَّبَهُما عن تقوى التَّقْوِيْم، فانهار نَبَأ عَزْمِ هَارُوْتَ ومَارُوتَ وَهُدِمَ حَزْمُ مَارُوتَ، فأَرَادَاهَا عَلَى الرَّدَى فَرَاوَدَاهَا وما قَتَلَ الهَوَى نَفْسًا فَوَدَّاهَا، فَبَسَطَتْ نَطْعُ التنطّع على تَخْتِ التَّخْيِيْرِ، إمَّا أنْ تُشْرِكا وإمَّا أن تَقْتُلَا، وإمَّا أن تَشْرَبَا، فَظَنَّا أنَّ سُهُولَةَ الأَمْرِ في الخَمْرِ وَمَا فَطِنِا، فلمَّا امتَدَّ سَاعِدُ الخِلافِ، فَسَقَى فَسَقَا، فَدَخَلا مَسْلك السُّكْر، فَزَلّا في مَزَالِقِ الزِّنَا، فَرَآهُما مَعَ الشَّخْصِيَّةِ شَخْصٌ، فَشَخَصَا إليه فَقَتَلاهُ فَفَشَتْ فِتْنَتُهُما في فِئَةِ المَلَائِكَةِ فَاتَّخَذَوْا لِتِلْكَ الوَارِدَةِ وِرْدًا مِن تَضَرُّعِ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: الآية ٥]. ورُوِي في الخبر أنَّ الخَطايَا والذُنوبَ جُعِلَتْ في بيتٍ واحِدٍ وجُعِل مَفَاتِيحُهَا يتجها شُرْبَ الخمرِ يَعنِي إذا شَرِبَها فتَح على نفسِهِ أَبْوابَ الخَطَايَا كُلِّهَا. شعر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي   كَذَاكَ الإِثْمُ تَذْهَبُ بِالعُقُولِ

يَا ابنَ آدَمَ: يا مُضَيِّعَ الزَّمانِ، في ما يَنقصُ الإيمان، يا مُعْرِضًا عن الأَرْبَاحِ مُتعَرِّضًا للخُسْرَانِ مَتَى تَنْتَبِهُ مِن رُقَادِكَ، أَيُّها الوَسْنَانُ إلامَ تَرْفُضُ قَوْلَ النَّاصِحِ وَقَدْ أَتَاكَ بِأَمْرٍ وَاضِحٍ؟ أَتَرْضَى بالشَّيْنِ والقَبَائِح، لَقد أَبَانَتِ الدُّنْيَا عُيُوْبَهَا فَتَكَشَّفَتِ البَصائرُ عُيُوبَهَا، وَعُدِّدَتْ على المَسَامِعِ ذنوبها، وَمَا مَرَّتْ حَتَّى أَمَرَّتْ مَشْرُوبَهَا فَلذَّاتُهَا مثل لَمَعَانِ البَرْقِ، ومُصِيبتُها وَاسِعَةُ الخَرْقِ سَوَّلَتْ عَواقبَهَا بينَ سُلْطَانِ الغَرْبِ والشَّرْقِ، فما نَجا مِنْهَا ذُو عَدَدٍ،

ولا سَلِمَ منها صاحبُ مَدَدٍ، ومَزَّقَتْ والله الكُلَّ بكَفِّ البَدَدِ، ثُمَّ وَلَّتْ وَمَا أَلْوَتْ عَلَى أَحَدٍ.

إخواني، عِظُوْا أنْفُسَكُم بِأَبِيْكُم. بِالأَمْسِ جِبْرِيلُ يَسْجُدُ له، وَاليومَ يجر بِنَاصِيتِهِ وأَخَذَ لِلإِخراجِ، ولسانُ الحالِ يَسْتغيثُ، وينشد:

حُـدَاةَ الـعِـيـس رِفْـقًـا بـالأَسِـيْـرِ ... لِـيَـغْـنَـمَ نَـظْـرَةً قَـبْـلَ الـمَـسِـيْـرِ
ويـا بـانَ الـحِـمَـا هـل فِـيْـكَ ظِـلٌّ ... فـعـنـدَ حَـشَـايَ مُـزْدَحَـمُ الـزَّفِـيْـرِ
ويا ريحَ الشِّمَالِ بحقِّ حُبِّي وصِدْقِي ... ذُيُـوْلَـكِ يـا مُـبَـلْـبَـلَـةَ الـضَّـمِـيـرِ

إخواني، الْزَمُوا القَنَاعَةَ فإن آدم جَاءَهُ إِبْلِيسُ يُطْعِمُهُ في المُلْكِ، فلمَّا خَرَجَ إلى الطَّمْعِ خَرَجَ بِلُقْمةٍ أَوَّاهُ. بَكَى على زلَّته ثلاثمائة عامٍ حتى سَالَت الأوديةُ من دُمُوعِهِ، اسمع يَا مَنْ يَضْحَكُ عِنْدَ المعاصِي، وينشد:

سَلُوْا بَعْدَكُمْ وَادِي الحِمَى مَا أَسَالَهُ ... دَمِي ودُمُوعِي في هَواكُم أَمِ القَطْرُ
وَهَلْ مَا أَرَاهُ المَوْتُ حَادثُ النَّوَى ... وهَلْ هو شوقٌ في فُؤَادِي أَمْ جَمْرُ

إخواني، مَن تَذَكَّر كَثْرةَ ذنوبِهِ بَكَى، ومَن تَلَمَّحَ سِيَرَ السَّابقينَ وانقطاعَهُ شكَى، يا مَن جَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى على أبيه أُسْلُكْ طريقَهُ في البُكَاءِ وينشد:

خَـلِّ دَمْـعَ الـعَـيْـنِ يَـنْـهَـمِـلُ ... يَـا مَـنْ تَـهْـوَاهُ فَـاحْـتَـمِـلُـوا
كُـلُّ دَمْـعٍ صَـانَـهُ كَـلَـفُ ... فَـهُـوَ بَـيْـن يَـوْم الـبَـيْـنِ مُـبْـتَـذَلُ

وعظ:

يَا مَن أَعمالُهُ كُلَّما تُؤُمِّلَتْ سَقَطَ، كم أَثْبَتَ لَهُ عَمَلًا فلما طُولِبَ بالإخلاص سَقَطَ، يَا خَالِصًا في الهَوى فإذَا جَاءَهُ الدِّيْنُ خَلَطَ، يا مَنْ يَعِظُه وَهْنُ العَظْم وَكلَامُ الشَّمْطِ، أَمَا خَطُّ الشَّيْبِ يَضْحَكُ في مَفرقِ الرَّأْسِ وَخَطَّ، يَا مَن لاَ يَرْعَوِيْ ولا يَلْتَوِي، بل هو مِنْهَاجُ الخطأ فَقَطْ، يا مُثْبِتًا قَبِيْحَ المعاصِي لو تَابَ لأنْكشط، أما تَمِيلُ إلى الصَّوابِ أما تُؤثِرُ الغَلَطَ.

وَيحك بَادِرِ الزَّمَانَ الخَالِيَ المُلْتَقَط، فَالصِّحَّةُ غَنِيمةٌ، والعافِيَةُ لُقَطٌ كَأَنَّكَ بالموتِ قَدْ سَلَّ سَيْفَهُ عليكَ وَاخْتَرَطَ. أين العزيزُ في الدنيا؟ أين الغَنِيُّ المُغْتَبِطُ؟

خَيَّمَ بَيْن القُبُورِ وضرَبَ فُسْطَاطَه في الوَسَطِ، وبَاتَ في القبر مَحْبُوسًا كَالأَسِيْرِ المُرْتَبِط، واسْتُلِبَتْ ذَخَائِرُهُ فَفُرِّغَ الصَّندُوْقُ والسَّقْطُ، وتَمَزَّقَ الشَّعْرُ والجَعْدُ، وَذَهَبَ الغَلَطُ كأَنَّه مَا دَخَلَهُ قَطُّ وَلا امْتَشَطَ، وَبَعُدَ عنه مُحِبُّه وشطَّ، ورَضِيَ وَارِثُه بما أَصَابَهُ ونَصِيبُهُ السَّخَطُ، وفَرَّقُوا مَا كانَ يَجْمَعُهُ بكَفِّ البخلِ والقَنَطِ، ويحك اغْتَنِمْ رُخصَ السِّعْرِ فَكَان قَد قُحِطَ، وبَادِرِ السَّلَامَةَ فَكَان قدمه تبُضَ مَا انْبَسَط كُفَّ بالعُقُوْبَةِ كَفًّا إلى المَعَاصِي انْبَسَط، فاقْبَلْ نُصْحِيْ، ولا تتعَرَّضْ لِلسَّخَطِ فَقَدْ زَلَّ آدم وَبِزَلَّتِهِ مِنَ الجنَّةِ هَبَط.

يَا هَذَا اكْتُبْ قِصَّةَ النَّدَم بِمِدَادِ الدُّمُوعِ، وَابْعَثْهَا مَعَ رِيح الزَّفَرَاتِ لَعَلَّ الجوابَ يَصِلُ بِرَفْعِ الجَوَى. وينشد:

فكيفَ لا أبْكي على عَيْشٍ مَضَى ... بِعْتُ عُمرِي بِحَقِيْرِ الثَّمَنِ
كَيْفَ أرجُو البُرْءَ مِنْ دَاءِ الهَوَى ... وَطَبِيْبِي في الهَوَى أَمْرَضَنِي

لكَ الحدِيثُ: يَا مُعْرِضُ أَنْتَ المُرادُ، يَا غَافِلُ، يا مُستَلِذَّ بَرْدِ العَيْشِ تَذَكَّرْ حُرْقَةَ الفُرْقَةِ. وينشد:

يَا مالِكَ مُهْجَتِي وقَاضِيَ دَيْنِي ... كَمْ يَنشُرُني الهَوَى ولم يطوِني
هِجْرانُكَ مَعَ مَحَبَّتِي يُضْنِيْنِي ... هل تُدْرِكُنِي بِنَظْرَةٍ تُحْيِيْنِي

ويحكَ لو علمتَ قَدْرَ نَفسِكَ ما أَهْلَكْتَها بالمَعَاصِي إِنَّمَا أَبْعَدْنَا إبْلِيسُ، لأنَّه لَم يَسْجُدْ لك. وَا عَجَبًا مِنْكَ كَيْفَ صَالَحْتَهُ وهَجَرْتَنا. وينشد:

دَعَى اللهُ مَنْ أَهْوَى وإن كان مَا ... رَعَى حَفِظْنَا له الوُدَّ القَدِيمَ فضيَّعا
وَاصَلْتَ قومًا ما كنتُ أَنْهَاكَ عنهُم ... وحقِّكَ ما أبْقَيْتَ للصُّلْحِ مَوْضِعا

يا شَرِيْفَ القَدْرِ: كم مِن مَلَكٍ في السَّمواتِ يُسَبِّحُ، نَالَهُ مَرْتَبَةٌ تَتَجَافَى لا يَعْرِفونَ طَعْمَ طَعامٍ وَما لَهُم مقامٌ، أَنِيْنُ المُذنبيْنَ عندنَا أَوْفَى مِنْ تَسْبِيحِهِمْ، سُبحَانَ مَنِ اخْتَارَكَ على الكُلِّ وجَادَلَ عنكَ قبلَ وُجُودكَ أَنِّي أعلَمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْض وَاسْتَقرَضَ مِنكَ حبه، وخَلَقَ سَبعَةَ أَبحُرٍ، واسْتَقْرَضَ مِنْك دَمْعَةً. وينشد:

الْمَاءُ عِنْدَكَ مَبْذُوْلٌ لِشَارِبِهِ ... ولا يُرْوِيكَ إلاَّ دَمْعَةُ البَاكِي

قَالَ اللهُ العَظِيم: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طـه: الآية ١٢٢] سُبحان مَن وُفِّقَ لِلتَّوبةِ أقْوامًا ثَبَتَ لهم على صِرَاطِهَا أقْدَامًا، كَفُّوا الأكُفَّ عَنِ المحَارمِ احْتِرَامًا، وأتْعَبُوْا في اسْتِدْرَاكِ الفَارِط عِظَامًا، فكفَّر عنهُم ذُنوبًا عِظامًا، ونَشَرَ لَهُم بِالثَّناءِ على ما عَمِلُوا أعْلامًا، فَهُم عَلَى رِياضِ المدائِحِ بِتَرْكِ القَبَائِحِ يَتَقَلَّبُون.

التَّائِبُونَ العَابِدُونَ، كُشِفَ لهم سَجْفُ الدُّنيا، فَرَأَوْا عُيُوبَها وَلاحَ لهم الأُخْرَى فَتَلَمَّحُوا غُيُوبَها، وبَادَرُوا شَمْسَ الحياة يَخافُون غُروبَها، وأسبلوا من دموع الأجفان على تلك الأجفان غروبها، واشتغلوا بالطَّاعات، فَحَصَّلوا مَرغوبَهَا وحَثَّهُم الإيمانُ على الخوفِ فَما يأمَنُونَ.

التَّائِبُونَ العابدُونَ، نَدِمُوا على الذُّنوبِ، فَكَرِبُوا وسَافَرُوا إلى المطلُوب فَاغتَرَبُوا وسَقَوْا غَرْسَ الحُزْنِ بِدَمْعِ الأسَفِ، وشَرِبُوا فإذا أقْلَقَهُمُ الحَذَرُ طَاشُوا وهَرَبُوا، وإذا هبَّتْ عَلَيْهِم نَسِيْمُ الرَّجاء عَاشُوا وطَرِبُوا، فتَأَمَّل أرْباحَهُم.

واعلَمْ أنَّ نَيْلَ النَّصِيب بِالنَّصَبِ يَكُونُ.

التَّائِبُونَ العَابِدُونَ، نَظَرُوا إلى الدُّنيا بعين الاعتِبَارِ، فعَلِمُوا أنَّها لا تَصْلُحُ لِلقَرَارِ، وتأَمَّلُوا أسَاسَهَا فإذا به على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، فَرَفَضُوا بالصِّيَام لَذَّةَ الهَوَى بالنَّهَارِ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٨].

التَّائِبُون العابِدُون، هَجَرُوا والله المَنازِلَ الأَنِيْقَة، وقَصَمُوا عُرَى الهَوَى الوثيقَةِ، وبَاعُوا الفَاني بالبَاقِي وكَتَبُوا الوَثيقةَ، وحَمَّلُوا نَجائِبَ الصَّبْرِ فوقَ مَا هِي له مُطِيْعَةٌ، وطَلَبُوا والله الأُخرَى على الحقيقَةِ. هكذا يكون التَّائبونَ العابدُون، أبْدانهُم تَلْقَى من الجُوعِ الضُّمَرْ، وَأجْفَانُهُم قَد حَالفَتْ في اللَّيْلِ السَّهَرَ، ودُموعُهم تَجْرِي دائمةً كَالمطرِ، والقوْمُ قد تَأَهَّبُوا فهُم على أقدامِ السَّفرِ، عَبَرُوا لَدَيْكُم ومَرُّوا عليكُم وما عِنْدَكم خَبَر، وتَرَنَّمَتْ حُدَّاتُهُمْ لو أنَّكم تَسْمَعُونَ التائبونَ العابدونَ.

يا رَبَّنَا سِرْ بِنَا في سَرَب النَّجابَةِ، ووَفِّقْنَا لِلتَّوبَةِ والإنَابةِ، وافْتَحْ لأَدْعيَتِنَا

أبوابَ الإجابةِ، يَا مَن إذا سَألَهُ المضطَّرُّ أَجَابَهُ، يا مَن يقولُ للشيء كُنْ فَيكونُ. وينشد:

صَدَدْتَ فَكُنْتَ جَميلَ الصُّدُود وأَعْرَضْتَ أَفْدِيْك من مُعْرِضِ
في حالةِ السَّخَطِ لا في الرِّضا يَبِيْنُ المُحِبُّ مِنَ المُبْغِضِ
فمَن كَانَ في سَخَطِهِ مُنْعِمًا فكَيفَ يَكون إذَا هُوَ رَضِيَ

فَسُبحانَ مَنْ خَصَّنَا بكَراماتٍ لا نُحْصِيْهَا رَفَعَ السَّمَاءَ مِن أجلنَا بَانِيْها، وسَطَحَ الأَرْضَ مِهَادًا لَنَا دَاحِيْهَا، وسَخَّرَ الأنْهَارَ لِقِوامِنَا مُجْرِيْهَا، وجادَلَ الملائكَةَ عَنَّا ويَكْفِي في فَضْلِنَا تَنْبِيْهًا.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، قالت المَلَائِكَة عَنَّا: لاَ يُخْلَقُ خيرٌ مِنَّا، فآمِنُوا تُغَيَّرُ الحالات، وَمَا آمَنَّا فحالُوا على دَعوى ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ﴾ ونَحْنُ مِلْنَا على ذُلٍّ ولا تُحمِّلْنَا، لقَد أضْمَرَتِ الملائكةُ حالةً في خَافِيْهَا.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] يَا نَفْسُ خَافِيهَا لقد أظهَرَ فيْنَا سِرَّ عِلْمِهِ، وأَمْضَى في المحتَرَزِ مِنْهُم سَهْمَ حُكْمِهِ، والحرِيْصُ يَتبَعني ولا يحظى بغيرِ قِسْمَةٍ، ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم﴾ [الزخرف: الآية ٣٢] ظَنُّوا بنا ظَنًّا فَأَخْطَأَ الظَّنُّ في رَحْمِهِ، وقالوا مقالةً قالتِ الأَقْدَارُ مَا يُنافِيْهَا.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] أَفِي الملائكة حبيبٌ أو خَلِيلٌ أو كَلِيمٌ أَمَا أدْهَشَهُم يومَ ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩] صَبْرُ إبراهيمَ؟ أما ضَجُّوا يومَ أُضْجِعَ الذَّبِيْحُ وقالوا هذا أمرٌ عظيمٌ؟ ما لهم لَوِ ابْتُلُوا كابْتِلائنا لَم يَبْقَ منْهُم سَلِيمٌ، أَلَيْسَ منهُم هَارُوتُ ومارُوتُ ولكن الحَسَدَ قديم، اللَّهُمَّ ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: الآية ٥٨].

أَيَقْطَعُونَ علينا بالفَسادِ في الغَيْبَة، وفي الغَيْبَةِ ما فيها؟

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] لأفواهِهم الخَلُوفُ لِخَلفِ فَم الصَّائِم أمْ لَنَا؛ أَبِهِمْ يُبَاهِيْ في السُّجودِ أمْ بِنا؟ مَنْ مِنَّا مَنْ يُفَاخَر به في الأَرْضِ مِنَّا؟ أترى مَن يَلفِظُ يُحبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ عنَّا؟ مَن القائلُ لَوْ دَنَوتُ أَنْمُلَةً لاَحْتَرقْتُ؟ وَعن

مَن قيل ثم دَنَا أفتعِيْبُنا الملائِكةُ ولم ترَنَا، يا لهَا زَلَّةً يَصْعَبُ تَلَافِيْهَا.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] أمَا هُم لأَرْزاقِنَا يَعْمَلُونَ؟ أمَا يُصَلُّونَ علينَا بعد مَوتِنا ويترحمون ويَعْبُدُوْنَ؟ أما يَسْتأذِنُون علينا في الجنَّةِ ويدخلون؟ ألَهُمْ فَضِيْلَةٌ ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: الآية ٩]، أمْ لهم مَرْتَبةٌ ما يَهْجَعُونَ؟ أمَا شَغَلَهُم بِنَا ولنَا يَستَغفِرون ولكن إذا ثَارَت نَارُ الحَسَدِ فَمَن يُطْفِئُهَا؟

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ دَعْوَى السَّلامة مِن كلِّ آفَةٍ، والسَّعِيدُ مَن إذا رَأى ذَلِكَ الغَيْرَ خَافَهُ ولَو عَلِمَ آدَمُ كَدَرَ المَشْرَبِ عافَهُ، أتبسُطُ المَلائكة مُعجِبَةً علينا فأينَ الرَّأْفَةُ؟ أما عَلِمُوا أنَّ طريقَةَ العُبُوْدِيَّةِ مَسْبَعَةٌ في مَخَافَة، كم بَيْنَ خَوْفِ عُمَر يَقول: مَنْ يَشتري الخلافَةَ بما فِيهَا، وبَيْنَ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾؟

مَن يُباهِي به مِنَّا في السجود وَقَدْ رَقَدَ؟ مَن الرَّابِحُ في تِجَارةٍ فيضَاعفَه إذَا انْتَقَدَ؟ لَقَدْ سَبَقْنَاهُم باختيارِ المَوْلَى، لَقَدْ مَن فَتَّشَ منهم على مثيلِ فَضْلِنَا في كِيسِهِ فَقَدْ فَقَدَ اللهمَّ تقول النارُ جُزْ يَا مُؤمنُ فَقَدْ أهم يطفئونها أم نَحْنُ نُطْفِئُهَا.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ صَعِد مِنَّا إلَيْهِم إدرِيسُ وعيسى عليهما السلام، وجَالَ في مجالِهِم محمدٌ ﷺ، ونزل إلينَا هاروتُ ومَارُوتُ من الملائكة الكرام وَتَدَيَّرَ عِنْدَنَا إبْلِيسُ باللعن والآثام، فهذا عقبى الحسد وفحش ما فيها ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

إخواني، الذُّنُوبُ تُغَطِّي على القلب، فإذا أظْلَمَتْ مِرآةُ القَلْبِ لَمْ يَبِنْ فِيها وَجْهُ الهُدى، ومَن علم ضَرَرَ الذَّنبِ استَشْعَرَ النَّدَمَ عَقِبَها، ولو عَلِمَ المُرِيدُ ما سَيَظْهَرُ مِنَّا مَا سَأَلَ الأَنْظَارَ في كُلِّ مجلس، يقلَقُ لما يَرَى من النَّفْعِ، اليوم يُغْشى عليه قبل مَرِضَ آدمُ أحَدَ عشر يومًا، ثم جَاءَتْهُ الملائكةُ بالأكْفَان والحَنُوط، فقُبِضَ يومَ الجمعة.

وفي حديث أُبَيّ بنِ كعبٍ، عن النَّبي ﷺ: «**أن الملائكةَ صَلَّتْ عليه**

وكَبَّرَتْ أربعًا». وقال ابن عباس: مَات على جَبَلِ الهِنْدِ الذي أُهبِطَ عليه فصلَّى عليه ابْنُه شِيْث، وكَبَّر عليه ثلاثينَ تكبيرةً، فلما رَكِبَ نوحٌ في السَّفينةِ حملَ آدَمَ ودَفَنَهُ ببيت المقدسِ، ولم يَمُتْ حتى بَلَغَ وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ أربعين ألفًا.

وقال عُروَةُ: لمَّا مات وُضِع ببابِ الكعبةِ، وصلَّى عليه جَبرئيل فدَفَنَتْهُ الملائكة بمسجد الخَيْفِ.

اللَّهمَّ أصْلِحْ كَلامَنَا، وارحَم كُلًّا مِنَّا بإصْلَاحِ قلبِهِ، وأَنْعِمْ عليه بغفرانِ ذَنْبِهِ، وَانْفَعْنِي بِمَا أقولُ وَكلَّ حَاضرٍ بجسده وقلبِهِ بِرَحْمَتِكَ يا أرحم الرَّاحمين وصلَّى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ.

المَجْلِسُ الثَّاني
في قِصَّةِ قابِيْل وكيف قُتِل هَابِيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليمًا

الحمْدُ لله الذي نَصَبَ مِنْ كُلِّ كائِنٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بُرْهَانًا، وَتَصرَّفَ فِي خَلِيقَتِهِ كما يشاءُ عِزًّا وسُلطانًا، وَاختَارَ المتَّقينَ فَوَهَبَ لهم بنعمتِهِ أَمْنًا وإِيْمانًا، وعَمَّ المُذْنِبِيْنَ بِرَحْمَتِهِ عَفوًا وغُفْرانًا، ولم يَقْطَعْ أرزاقَ أهلِ مَعصِيتِهِ جُودًا وَامْتِنانًا، وأَعادَ شُؤْمَ الحَسَدِ على الحاسِدِ؛ لأَنَّهُ ارْتَكَبَ إِثْمًا وعُدْوانًا، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: الآية ٢٧].

وَرَوَّحَ أَهْلَ الإخلاصِ بِنَسِيْمِ قُرْبِهِ، وحَذَّرَ يَومَ القِصَاصِ بِجَسِيمِ كَرْبِهِ، حَكَمَ في بَرِيَّتِهِ فَأَمَرَ وَنَهَى، وأَيْقَظَ بموعِظَتِهِ مَن غَفَلَ وسَهَى، وَرَدَّ عُيونَ العُقولِ عن صفتِهِ فَأَغْشَاهَا، وَأَنْذَرَ بِيوم مُحاسَبَتِهِ مَنْ يَخشَاهَا، وخَلَقَ لآدَمَ حَوَّاء ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩].

أَحَمَدُهُ حَمْدَ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مُعْتَذِرٍ إليه من ذَنْبِهِ، وَأُقِرّ بتوحيدِهِ إقرارَ مُخلِصٍ مِنْ قَلْبِهِ، وأُصَلِّي على رسوله مُحَمَّدٍ وآله وأصحابه، أبي بكر ضَجِيْعِهِ في تُربةِ وعُمَرَ الَّذِي لا يَسِيْرُ الشَّيْطان في سِرْبه، وعُثمانَ الشَّهِيْدِ لا في صَفِّ حَرْبِهِ، وعلى عليٍّ مُعِيْنِه ومُغِيثِه في كَرْبِهِ، وعمِّهِ المقدَّمِ على أَهْلِهِ، وحِزْبِهِ رضي الله عنهم ما أَهَلَّ كَوْكَبٌ في غَرْبِهِ وشَرقِهِ.

قَالَ عُلَمَاءُ السِّيرةَ: عَاشَ آدمُ ألفَ سَنَةٍ، ووَلَدَت له حَوَّاء أربعينَ ذَكَرًا، وأربعينَ أُنثى، ذَكَرًا وأُنْثَى في كُلِّ بَطنٍ.

قَالُوا: فَأَوَّلُ وَلَدِهِ قَابِيل وتَوأَمَتُهُ إِقْلِيمَا، وجاءَ هابيلُ وَتوأَمَتُهُ لَيُودًا، فَقَابيلُ وهابِيلُ هُما المراد بِقَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾، وكان آدمُ يُزَوِّجُ غُلَامَ هذا البطنِ جَارِيَةَ هذا البَطْنِ الآخَرِ، وَكانَتْ أُخْتُ قابيلَ أحسَنَ من أُخْتِ هابيلَ فطَلَبَ هابيلُ، أن يَنْكِحَ أُخْتَ قابيلَ فأبى عليه، فـ﴿قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا﴾ بالمستحسنة، وقرَّب قربانًا هابيل جذعة سمينة، وقرَّب قابيلُ حُزمةَ سُنبلٍ فنزلتْ النارُ فأكلتْ قُربانَ هابيلَ وتركتْ قُربانَ قابيلَ، فغَضِبَ وقالَ: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] الآية، وفي كيفيَّة قتلِهِ ثَلَاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه رَمَاهُ بالحجارةِ حتَّى قتلهُ، قاله ابنُ عبَّاس.

والثاني: جاءَه وهو نائمٌ فضَرَبَ رأسه بصَخْرةٍ، رَواه مجاهدٌ عن ابن عبَّاس أيضًا.

والثالث: رَضَخَ رَأسَهُ بَيْن حَجَرَينِ، قاله ابن جَرير.

وفي موضع مَصْرعِهِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ وقيل: بالبَصرة. وقيل: قتله في جبلِ ثَوْرٍ. وقيل: في عقبَةِ حِرَاء.

قالَ ابنُ عباسٍ: لـمَّا قَتَلَهُ حَمَلَهُ على عاتِقِهِ مِائةَ سنةٍ، فإذا مَشَى يَخُطُّ رِجلَاهُ الأرضَ، فإذا قَعَدَ وَضَعَهُ إلى جانِبِهِ إلى أَنْ رَأى غُرَابًا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: الآية ٣١] الآية.

وكان عُمْرُ هَابِيلَ يَومَئِذٍ عشرينَ سنةً، وعُمْرُ قابيلَ خَمْسًا وعشرينَ سنةً، فلما قَتَلَهُ هَرَبَ إلى اليَمَنِ، وحَزُنَ آدمُ على هَابِيلَ فَمَكَثَ مِائةَ سنةٍ لا يَضْحَكُ. وقال شعرًا:

تَغَيَّرَتِ البِلادُ ومَن عَلَيْهَا فَوَجْهُ الأَرْضِ مُغْبَرٌ قَبِيحُ

وهيَ سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ، وأوصى آدَمُ بَنِيهِ أن لا يُناكِحُوا بَنِيْ قَابيلَ، وشاعَتِ المَعَاصِي في أولادِ قابيلَ وهم الَّذِينَ غَرِقُوا في زمن نوحٍ عليه السلام، فانْقَرَضَ نَسْلُ بَنِي آدمَ سِوَى شيث، وكان شيث وَصِيّ آدَمَ من البُنُوَّة وبنيه وتَبَنَّاه، وأَنزلَ

الله عليه خمسينَ صحيفةً، وأقامَ بمكَّةَ يَحُجُّ وَيَعْتَمِرُ، وبَنَى الكعبةَ بالحجارةِ والطِّين، فَلَمَّا احْتَضَرَ وَصَّى إلى ابْنِهِ أَنُوْشٍ. وَأَنُوْشُ أوَّلُ مَن غَرَسَ النَّخْلَ، وعَاشَ تسعمائةٍ وَخمسينَ سنةً، وَوُلِدَ له قَيْنَانُ، وأوصى له أَنُوشُ ووُلِدَ لقَيْنَانَ مَهلائيلُ، وَوُلِدَ لِمِهلائيلَ يَرْدُ فأَوْصى إليه، ووُلِدَ لِيَرْدٍ إدريسُ عليه السلام، وفي زمن يرد عُبِدَتِ الأصنامُ وكان له سَبَبٌ.

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

لقد دَعَاكم إلى البدار مَولاَكُمْ، وفَتَحَ بابَ الإجابةِ، ونَاداكُم ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وَدَلَّكم على منافعِكُم، وهَدَاكُم فَالْتَفتُّوا عنِ الهوى فقد آذاكم فَحَثوا جَرْيَكُم وصَبُّوا ذنوبَ الحُزْنِ على ذَنْبِكُم.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ بَابُهُ مفتوحٌ للطَّالبينَ، وجَنابُه مبذولٌ للرَّاغبينَ، وفضْلُه يُنادي يا غَافِلينَ، وإحْسَانُه هدًى ينادي للجاهِلِين فَاخْرُجُوا من دائرةِ المُذنبينَ، وبَادِرُوا مُبَادَرَةَ التَّائِبينَ، وتَعَرَّضُوا لِنِسْمَةِ الرَّحمَةِ، تخلَّصُوا من كَرْبكُم ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، كَم اشْتَغلتُم بِالمعاصي فذَهَبَ الفرضُ وبَارَزتُمْ بالخطايا ونُسِيَ العَرْض، وأَعرضتُم عن النَّذِيرِ وهو الشعر المُبْيَضُّ، وحَضَّكم على اكتِسَاب حضِّكُم فما نَفَعَ الحَضُّ، وطالَتْ آمَالُكُم بعد أن ذهب الشَّبَابُ الغَضُّ، وَرَأيتُم ذَهَابَ القُرَنَاء وتَوَالَى البَعْضُ، فَفِرُّوا إلى الله من سِجْنِ الهوى فقد ضَاقَ طولُه والعرضُ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣].

إخواني، المُسْتَقَرُّ يزولُ، والمقيمُ منقولٌ، والأحْوَالُ تَحولُ، والعِتَابُ على الفانِي يَطولُ وكَمْ نَعْذِل وكم نَقُولُ، وينشد شعرًا:

سَيَقْطَعُ رَيْبُ الدَّهرِ بين الفَرِيقَيْنِ ... لكلِّ اجتماعٍ فُرقةٌ مِنْ يَدِ البَيْنِ
وما الحشرُ إلا كالصَّبَاحِ إذا انْجَلَى ... يَقومُ له الرقدانُ مِن رَقْدَةِ العَيْنِ

إخواني، مَن عاملَ الدُّنيا خَسِرَ، ومَن حَمَلَ في صَفِّهَا كُسِرَ وإنَّ خَلَاصَ

مُحِبِّيهَا عَسِرٌ، وكُلّ عَاشِقِيْهَا قَدْ قُيِّدَ وَأُسِرَ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزَاب: الآية ٢٣]. وينشد:

أَرَى الشَّهْدَ يَرْجِعُ مثلَ الصَّبْرِ   فَما لابْنِ آدَمَ لا يَعْتَبِرُ
وَأَخْبَرَهُ صادِقٌ في الحديثِ   فَإن شَكَّ في ذاك فَلْيَعْتَبِرْ

إخواني، تَفَكَّرُوا في الَّذين خَلَوا أينَ نزلُوا، وتَذَكَّرُوا أن القومَ نُوْقِشُوا، وفي الحديث «**من نوقش الحساب عُذِّب**» وسُئِلوا، واعلمُوا أنَّهم كما قَتَلُوا قُتِلُوْا، وَلَو رُدُّوْا بَعْدَ الوَفَاةِ لَو قُتِلُوْا.

أين الَّذين كانت الأنفسُ تَهْذِي بِهِمْ لِتَهْذِيْبِهِمْ وَأَصْبَحَتْ مَلَكُ الاختيار تَجْرِي بِهِم لِتَجْرِيبِهِمْ، أَقَامَتْ إقامتُهُمْ مُنادِي الرَّحيلِ لتجْرِي بِهِم لِتَغْرِيبِهِمْ فبَاتُوا في القبورِ وُحْدَانًا لا أَنِيْسَ لِغرْبَتِهِمْ. وينشد:

هَاتِيكَ دِيَارُهُم وَفِيْهَا كَانُوا   بَانُوا عنها فَلَيْتَهُمْ مَا بَانُوْا
سَلْهَا عنهُم لِتَنْطِقَ الأوطانُ مُذْ   ارْتَحَلُوا أَقَامَتِ الأحْزانُ

لِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ بَادَرُوا الأَوْقَاتِ، وَاسْتدرَكُوا الهَفَوَاتِ، والعَيْنُ مَشْغُولةٌ بالدَّمْعِ عَنِ المُحَرَّمات، واللِّسانُ محبوسٌ فِي سِجْنِ الصَّمْتِ عن الشَّهواتِ، والكفُّ قد كُفَّتْ بالخَوفِ عن الشَّهواتِ، والقَدَمُ قَدْ قُيِّدَتْ بِقَيْدِ المحاسبَاتِ، واللَّيْلِ لِرَبِّهِمْ يَخِرُّونَ فيه بِالأَصْواتِ، فإذَا جَاءَ النَّهارُ قَطعُوه بمقاطعةِ اللَّذَّاتِ، فكم من شَهوةٍ مَا بَلَغُوهَا حَتَّى المَمَاتِ فَيَسْقُطُ لِلِحَاقِهِمْ من هذِهِ الرَّقَداتِ، ولا تَطْمَعَنَّ في الخلاصِ مع عَدَمِ الإخلاصِ في الطَّاعَاتِ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: الآية ٢١]. وينشد:

عَجَبًا لأَمْنِكَ والحَيَاةُ قَصِيرةٌ   وَبِفَقْدِ الفِكْرِ لا تَزَالُ تُرَوَّعُ
لَقَدْ رَضِيْتَ بأن تُعَلِّلَ بِالمُنَى   وإلى المَنِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفَعُ
لا تَخْدَعَنَّكَ بَعْدَ طُوْلِ تَجارُبٍ   دُنْيَا تَغُرُّ بِوَصْلِهَا وسَتَقْطَعُ
أَحْلامُ نَوْمٍ أو كَظِلٍّ زَائِلٍ   إنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لا يُخْدَعُ
وَتَزَوَّدَنَ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دَائِبًا   أَلِغَيْرِ نَفْسِكَ لاَ أَبَا لَكَ تَجْمَعُ

إخواني، ذَهَبَتْ أعْمَارُكُمْ في طَلَبِ الشَّهْوةِ، والمَوْتُ قَدْ دَنَا فَمَا هَذِهِ الشَّهَوَاتُ يا قليلَ التَّدْبِيرِ، ولاَ عَقلَ النِّسوَةِ إِلَى كَم شَيْبٌ وعَيْبٌ وعبث، أمَا فِيْكم نَخْوَةٌ، يا مَن يَرُوْحُ ويَغْدُوْ في طَلَبِ الأَرْبَاحِ، أَرِحْ نَفْسَكَ يا أطْفَالَ الهوى طال مُكْثكُم في مَكْتَبِ التَّعلِيم فَهَل فيكُم مَن أَنْجَبَ؟ اقْرَؤوا أدِلَّةَ التَّوحِيدِ مِن أَلْوَاحِ أَشْبَاحِكُم، وتَلَقَّنُوهَا من أَنْفَاسِ أَرْوَاحِكُمْ قَبْلَ أن يَسْتَلِبَ المَوْتُ مِنْ أيدي اللَّاهِينَ أَلْوَاحَ الصُّوَرِ ويَمْحُو مَسْطُورَ التَّركيب ومَا فُهِمَ المكتوبُ بَعْدُكَمْ يَبْقَى مِصْبَاحُ الحياةِ على نَكبَاء النَّكَبَاتِ، فَاغتَنِمْ زَمَانَ الصَّوم فأَيَّامُ الوِصَالِ قِصَارٌ كَمْ يَثْبُتُ قِنديلُ الحياةِ على عَواصِفِ الآفاتِ. وينشد:

أَرَى الدَّهر أَغْنَى خَطْبُهُ عَن خِطَابِهِ ... بِوَعْظٍ شَفَا أَلْبَابَنَا بِلُبَابِهِ
فلا فِضَّةٌ تُنْجِيكَ عِنْدَ انْفِضَاضِهِ ... ولا ذَهَبٌ يُغْنِيْكَ عِنْدَ ذَهَابِهِ

يا صاحبَ الخَطَايَا أَيْنَ الدُّمُوعُ الجارِيةُ، يا أَسِيرَ المَعَاصِيْ أَيْنَ الذُّنُوبُ الماضيةُ؟ يا مُبَادِرًا بِالقَبِيحِ أَتَصْبِرُ على الهاويةِ؟ يا ناسِيًا ذُنُوبَهُ والصُّحُفُ لِلمُسِيء حاويةٌ، أَسَفًا لَكَ إنْ جاءَكَ الموتُ وَمَا أَنَبْتَ، وَحَسْرةً لَكَ إذا دُعِيْتَ لِلتَّوبَةِ وما أَجَبْتَ، كَيْفَ تَصْنَعُ إنْ نُودِيَ بِالرَّحِيْلِ وَمَا تَأَهَبْتَ، أَلَسْتَ الَّذِي بَارَزْتَ بالقَبِيحِ وَمَا رَاقَبْتَ؟ يَا كَثِيْرَ الشِّقَاقِ، يا قَلِيلَ الوِفَاقِ، يا مَرِيرَ المَذَاقِ، يا قبيحَ الأَخْلاق، يا عظيمَ التَّوَانِيْ، قد سارَ المِرفاقُ، إخلاصُكَ مَعْدُومٌ، وسَاعِي الأَجَلِ كَأنَّه في سِبَاقٍ لا الوَعْظُ يُزْعِجُكَ ولا الموتُ يُنْذِرُكَ، يَا مُطْلِقًا طَرْفَهُ لقد عَقَلَكَ، يا مَن شَلا سَبُعُ فِيْه لقد أَكَلَكَ، يا مَشغولاً بِالهوى مَهلًا لَقد قَتَلَكَ، بادِرْ رَمَقَك فقد رَمَقَكَ، يا مَن أَيَّامُه تَعِظُه حين يَنْتَبِهُ وتُبْغِضُهُ، يَا مَن صِحَّتُهُ تُمْرِضُهُ وسَلامتُه تُحَرِّضُهُ، يُقْرِضُ عُمُرَهُ فَيَفْنَى، ومَن يُقْرِضُهُ أَسِفًا لعبْدٍ كُلَّمَا كَثُرَتْ أوزارُهُ قَلَّ استغفارُهُ، وكلَّما قَرُبَ منَ العبورِ قَوِي عندَه الفُتورُ، يا طوِيْلَ الأَملِ في قصيرِ الأَجَلِ، يا كثيرَ الزَّلَلِ في يسيرِ العملِ، خلَا لَكَ الزَّمانُ وما سَدَدْتَ الخَلَلَ، فَمَا عندَكَ وَجَلٌ مِن هجومِ الأَجَلِ. وينشد:

تَجَهَّزْ إِلى الأَجْدَاثِ وَيحَكَ والرَّمْسِ ... جِهَازًا مِنَ التَّقْوَى لأَطْوَلِ مَا حَبْسِ
فَإِنَّكَ لا تَدْرِي إذا كُنْتَ مُصْبِحًا ... بِأَحْسَنِ مَا تَرْجُو لَعَلَّكَ لا تُمْسِ

سَأُتْعِبُ نَفْسي كي أُصَادِقَ رَاحَةً فإنَّ هَوَانَ النَّفْسِ أكْرَمُ لِلنَّفْسِ
وَازهَدْ في الدُّنيا فإن مُقِيمَهَا كَظَاعِنِهَا مَا أَشْبَه اليَوْمَ بالأَمْسِ

إخواني، فَتِّشوا جَمالَ الأعمال قبلَ الرَّحِيلِ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: الآية ١٨]، يَا مُطْلِقَ النَّواظِرِ في مَحْرَمِ المَنظورِ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: الآية ٦]، لا يَغُرَّنَّكُم إمْهالُ العُصاةِ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: الآية ٢٥]، يَا مَن عَاهَدَنَا مِنْ يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، لا تُخْلِفْ عَقْدَ العَهْدِ، يَا كاملَ الزَّلَلِ فما يليقُ بشرفِ قدركَ خيَانَةٌ. وينشد:

بِحُرْمَةِ الوُدِّ الَّذِيْ بَيْنَنَا لا تُفْسِدِ الأَوَّلَ بالآخِرِ
يَا مَنْ عُمْرُهُ في حياتِهِ معدُودٌ وجِسمُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مَعَ دُوْدِ

يَا مَنْ عُمْرُهُ يَمضِي بِالسَّاعَةِ، يا كثيرَ التَّفْرِيْط في قَلِيلِ البِضَاعَةِ، يَا شَدِيْدَ الإِسْرَافِ، يا قويَّ الإِضاعةِ كَأَنِّي بِكَ عن قليلٍ تُرْمَى إلى جَوْفِ قَاعَةٍ، وَتَمَنَّيْتُ لو قدرت عليّ لحظة مَسْلوبًا لِبَاسَ القُدرة والاستِطاعَةِ، تَجْنِي ثَمَّ ثَمَرَةَ هذِهِ البِضاعةِ وتَمنَّيْتَ لَو قدَرْتَ على لحظةٍ لطاعةٍ، وقُلتَ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٩]، ومَا لَكَ كَلِمةٌ مُطاعةٌ، يا مُختلفًا عَن أقْرَانِهِ قد آن أن تَلحَقَ الجَمَاعَةَ. شعر:

يا سَاهِيًا لاهِيًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ أَنَّ الرَّحِيْلَ وَمَا قَدَّمْتَ مِن زادٍ
تَرجُو الحَيَاةَ صَحِيحًا دَائمًا أبَدًا هَيهَاتَ أنْتَ غَدًا في مَنْ غَدَا غَادٍ

اللَّهُمَّ اجْعَلِ التَّقْوى زَادَنا والثِّقَةَ بِكَ، والْطُفْ بِنَا عِنْدَ عَتَادِنا، وعَلَيْكَ تَوَكُّلْنَا وَاعتمادَنا، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا في حَضَائِرِ قُدْسِكَ، وَارْحَمْنَا وَانْفَعْنَا بِلَطَائِفِ أُنْسِكَ، ولا تُقَطِّعْنَا بِالاغْتِرَارِ عَنْ نَفْسِكَ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ وآلِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

المَجْلِسُ الثَّالِثُ
في قِصَّةِ إدريس عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وسلَّم تسليمًا

الحمدُ لله الَّذي لَمْ يَزَلْ عظيمًا جَبَّارًا عَلِيًّا، حَيًّا قادرًا قويًّا، رَفَعَ سقف السَّماءِ بصَنْعَتِهِ، فَاسْتوى مَبْنِيًّا، وسَطَحَ المِهادَ بقُدْرَتِهِ وَسَقَاهُ، كُلَّمَا عَطِشَ رَيًّا، أَخْرَجَ صنُوفَ النَّبَاتِ فكَسَا كلَّ نَبْتٍ رَيًّا، قَسَمَ الخلقَ سَعِيْدًا وشَقِيًّا والرِّزق بينهُم، فَتَرى فَقِيرًا وَغَنِيًّا، وقَسَمَ العقلَ فجَعَلَ منهم ذَكِيًّا وغَبِيًّا.

أَلْهَمَ إدريسَ الاحتيالَ على جَنَّتِهِ فَهُوَ يَتَناوَلُ لَذَّاتِهَا ويَلْبَسُ حِلِيًّا ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: الآيتان ٥٦، ٥٧].

وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ له شهادةً تَجْلُو عن قَلْبِ قائِلِها رَيْنَ سَوَادِهِ، وأنَّ محمَّدًا رسوله ﷺ وعلى آلِهِ الذين اصْطَفَاهم مِنْ عِبادِهِ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريَم: الآية ٥٦]، واسمُه خَنُوخ بنُ يَرْدِ بنِ مَهْلَائيلَ بنِ قَنْيانَ بنِ أَنُوْشَ بن شِيْثَ بنِ آدَمَ وَوُلِدَ له في حياةِ آدَمَ وقد مَضى من عُمْرِ آدَمَ سِتُّمائة سنةٍ واثنتانِ وعشرونَ سنة، وأنزلَ الله عليه ثلاثينَ صَحِيفةً، وهو أوَّلُ مَن خَطَّ بالقَلَمِ ورُفِعَ وهو ابنُ ثلثمائةٍ وخمس وستِّين سنةً، وعاش أبُوهُ بعد ارتفاعه مائة وخمسًا وثلاثين سنة، وفي الذي رُفِعَ إليه ثلاثةُ أقوال، وفي الصحيحين أنَّه في السَّماءِ الرَّابعة.

قال علماء السِّيرة: وكان إدرِيسُ قد وَصَّى قَبْلَ رَفْعِهِ إلى ولدِهِ مَتُوشْلَحْ، وكانَ ولدًا صالحًا ووُلِدَ لمتوشلَح لَمَكُ ووُلِدَ لِلَمَكَ نوحٌ عليه السلام، وكان مِنَ المُلُوكِ في زَمانِ إدريس صَهْنمُوْرَت مَلكَ الأقاليمَ كلَّها، وهو أوَّلُ مَن كَتَبَ بالفارسيَّةِ، وَاسْتَمَرَّتْ أحوالُه علَى الصَّلاحِ، وبين إدريسَ ونُوح كانتِ الجاهليَّة الأُولَى والتي قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

وعظ:

فتَفَكَّرُوا إخواني في أهلِ الفساد وأهلِ الصَّلاح، ومَيِّزُوا أهلَ الخُسْرَانِ من أَهْلِ الأَرْباحِ، وتَأَهَّبُوا للرَّحيلِ، فيَا قُربَ السَّرَاحِ، وتفَكَّروا في مَن غَرَّتْهُ أفْرَاحُ الرَّاح كيف رَاحَ عن الدُّنيا فارغَ الرَّاحِ، فالهَوى لَيلٌ مظلمٌ والفكر مِصباحٌ، سعِدَ مَن تَدَبَّر، وسَلِم مَن تفكَّر، ونَجا من الهوى مَن تَصَبَّر، وأهلكَ كُلَّ الهلاكِ، وأَدْبَرَ مَنْ نسِيَ الموْتَ مع الشَّعْر المُبَيَّضِ حَتَّى يَضِيقَ الطُّولُ والعرضُ، فيا أهلَ الهوى خَلُّوا الهَوَى وَاصْبِرُوا، فالدُّنيا قنطرةٌ فَجُوْزُوْا واعتَبِرُوا، وتَأَمَّلُوا هِلالَ الهوى، فإن غُمَّ عَلَيكُمْ فَاقْدِرُوْا، قال عليه السلام: «**إذا غُمَّ عليكم الهلال فاقدروها ثلاثين**» فقد نَادَى مُنَادِي الصَّلاح: حَيَّ على الفَلَاح. شعر:

يَا أَيُّها الرَّاقِدُ كم تَرْقُد ... قُمْ يا حبيبي قد دَنَا الموعِدُ
وخُذْ مِن اللَّيْلِ وساعاتِهِ ... حَظًّا إذا ما هَجَعَ الرُّقَّدُ
مَن نامَ حتَّى يَنْقَضِي لَيلُهُ ... لَمْ يَبْلُغِ المَنْزِلَ أو يَجْهَدُ
قُل لذَوِي الألبابِ أهلِ التُّقَى ... قَنْطَرَةُ العَرْضِ لَكُمْ مَوْعِدُ

إخواني، أمَا تَسمَعُوا صَرِيْفَ أنْيَابِ انصُرُوْنِ كم غافِلٍ وأكْفَانُهُ عِنْدَ القَصَّارِ يا سُخْنَةَ عَيْنٍ قَرَّتْ بالغُرُوْرِ، يَا خَرابَ قلبِ عُمِّرَ بالمُنَى، العُمُرُ زَادَ في البادِيَةِ يُؤْخَذُ منهُ ولا يُطْرَحُ فيه، يا مَن عُمرُهُ يَذُوبُ ذَوَبَانَ الثَّلجِ، فوالذي أبرد كان من يبيع الثلج ينادِي عليه ارْحَمُوا مَن يُذَوِّبَ رَأْس مَالِهِ ذوبان، يَا مُؤَخِّرًا توبتَه حَتَّى شابَ وذَهَبَ وَقْتُ الاخْتِيَارِ، يا ابنَ سبعِينَ قد أمْهَلَ المُتَقَاضِيْ الْبِدارَ البِدَارَ بَادِرْ بالتَّوبَةِ مِنْ هَفَواتِكَ قبل فَوَاتِكَ، فَالمَنَايَا بِالنُّفُوسِ فواتِكُ أعْجَبُ خلائِقِ الخلايِقِ

مُحْسِنٌ في ليلِ شَبَابِهِ، فلمَّا لاحَ الفَجْرُ فَجَرَ. وينشد:

أَرَدْنَاكُمْ صَرْفًا فلما مَزَجْتُمْ بَعُدْتُّمْ بِمِقْدَارِ الْتِفَاتِكُم عَنَّا
وقُلْنَا لكم لا تُسْكِنُوا القَلْبَ غَيْرَنَا فَأَسْكَنْتُمُ الأَغْيَارَ مَا أَنْتُمْ مِنَّا

أيّها الناس، ما أَعْظَمَ المُصِيبَةَ على مَن فَقَدَ قلبًا واعِيًا، وأَسْرَعَ العقوبةَ إلى مَن عَدِمَ طَرَفًا باكِيًا، وَأَكْبَرَ حَسْرَة مَن كان في أَمْرِهِ متدانيًا، وما أَدْوَمَ نَدَامَةَ مَن أَصْبَحَ وأَمْسَى لاهِيًا، لقد غَلَبَ على قلوبِكُمُ الهَوَى فتَمَلَّكَهَا، وَاسْتَحْوَذَ على نُفُوسِكُم الطَّمْعُ فَأَهْلَكَها، وأَنْتُمْ عمَّا يُرادُ بكُمْ غَافِلُونَ، وبخلافِ مَا قَد عَلِمْتُمُوه عَامِلون، فَلَا الوَعْظُ يَشْفِي مِنْكُم غَلِيْلًا، ولا الواعظ يَجِدُ إلى قُلُوبِكُم سَبِيلًا، وقد عَلِمْتُم أنَّ وراءَكم هَوْلاً وقَوْلاً ويَوْمًا ثَقِيلًا، فيا عجبًا لغفلةِ مطلُوبٍ لا بُدَّ مِن إدْراكِهِ، ووَا رَحْمَةً لمُعْتَرِفٍ بِالسَّلامَةِ لا رَيْبَ في هَلَاكِهِ، أَلا أُذُنٌ تَسْمَعُ؟ أَلا عَيْنٌ تَدْمَعُ؟ أَلا هَارِبٌ إلى الله يَفْزَعُ؟ وينشد:

دُعِيْتُ إِلَى دَارِ الجَلَالَةِ والسَّعْدِ
وَمَعْنَى العُلَى وَالعِزِّ وَالفَخْرِ والمَجْدِ
دَنَوْتُ مِنَ الدُّنْيا وَدِنْتُ بِحُبِّهَا
فَأَصْبَحْتُ في دارِ السَّعَادَةِ في بُعْدِ
دَعَاكَ الَّذِي أعْيَا الإِسَاءَةَ دَاؤُهُ
وَدَاؤُكَ قد أَرْبَى وَزَادَ عَلَى الحَدِّ
دُجَى الذَّنْبِ صَدَّ النَّفْسَ عن سَاطِعِ الهُدَى
وكيفَ تَلُوحُ الشَّمْسُ للأَعْيُنِ بالرَّمدِ
دِلاصُ التُّقَى لو كُنْتَ مُشْتَمِلًا بها
وَقَتْكَ سِهَام النَّازِعِ القاتِلِ المُرْدِي
دِماءُ الوَرَى في الأرض سَالَتْ بِسَيْفِهِ
ومَا شَعَرُوا بالقتْلِ مِن شِدَّةِ الوَجْدِ
دَرَى أَنَّهُمْ سُكَرَى النُّفوس بِخَمْرِهِ
وَصَالَ عَلَيْهِمْ صَوْلَةَ الأَسَدِ الوَرْدِ

دُيُـوْنٌ لَـهُ صَـحَّـتْ عَـلَـيْـهِـمْ بـحُـكْـمِـهِ
وقَـد دَخَـلُـوا تَـحْـتَ الـوَثَـائِـقِ وَالـعَـهْـدِ
دَعِ الـلَّـهْـوَ يـا بَـطَّـالُ واعـمَـلْ لِـمَـنْـزِلٍ
رَحِـيْـبٌ بِـهَـا الأنْـهَـارُ وَاسِـعَـةِ الـمَـدِّ
دَعَـائِـمُ الـدُّنْـيَـا تَـخِـرُّ سَـرِيـعَـةً
وأُخْـرَاكَ تَـبْـقَـى دون حـدٍّ ولا عَـدِّ

إخواني، أتَظَنُّوْنَ أنَّكُمْ في الدُّنْيَا عُمَّارًا؟ أَمْ تَحْسَبُونَ أنَّها لَكُمْ دَار؟ البِدَارَ البِدَارَ قَبْلَ هُجُومِ ما لا يُدْفَعُ وَذَهَابِ ما لا يُرْجَعُ، وَالنَّدَمِ حِيْنَ لا يَنْفَعُ، والاعتِذَارِ بِمَا لا يُسمَعُ، قبل شُخُوصِ الأَبْصَارِ في المَحَاجِرِ، وبُلُوغِ القلوبِ إلى الحَنَاجِرِ هُنَالِكَ يَبْرُقُ البَصَرُ، ويَنْزِلُ القَدَرُ وَيَتَحَقَّقُ الحَذَرُ و﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: الآيات ١٠ - ١٣].

يَوْمَ تَرْتَجّ الأَرْضُ بالعُصاةِ مِن أَقْطَارِهَا، وتَرْمِيْهِم النَّارُ بِشِرَارِهَا، وتُعرَضُ الحَدَائِقُ على جَبَّارِهَا، فيُحاسِبُها بِإعْلانِها وإسْرَارِهَا، ويُنَبِّئُهَا باكْتِسابِهَا في سَالِفِ أعمارِها، فَإمَّا إلى جَنَّتِهَا وإمَّا إلى نَارِهَا. زَحْزَحَنَا الله وإيَّاكُم عن دارِ البَوَارِ، وأَحَلَّنَا وإِيَّاكُم دَارَ القرارِ، وحَمَانَا وإِيَّاكُم مِن حُطَامِ هَذِهِ الدَّارِ. وينشد:

مَـثِّل وُقُـوْفَـكَ يَـوْمَ الـحَـشْـرِ عُـرْيَـانًـا ... مُـسْـتَـعْـطِـفًـا قَـلِـقَ الأَحْـشَـاءِ حَـيْـرَانًـا
الـنَّـارُ تَـزْفُـرُ مِـنْ غَـيْـظٍ ومِـنْ خَـنَـقٍ ... عَـلَى العُصَاةِ وَتَـلْـقَـى الرَّبَّ غَـضْـبَـانًـا
اِقْـرأْ كِـتَـابَـكَ يـا عَـبْـدِي عـلـى مَـهَـلٍ ... وانْـظُـرْ إليـه تَـرَى هَـلْ كَـانَ مَـا كَـانَـا
لَـمَّـا قَـرَأْتُ كِـتَـابًـا لا يُـغَـادِرُنِـيْ حَـرْفًـا ... وَمَـا كَـانَ فِـي سِـرٍّ وَإِعْـلَانَـا
قَـالَ الـجَـلِـيْـلُ خُـذُوْهُ يـا مَـلَائِـكَـتِـيْ ... مُـرُّوْا بِـعَـبْـدِي إِلَـى النِّـيْـرانِ عَـطْـشَـانَـا
يَـا رَبِّ لا تُـخْـزِنَـا يَـوْمَ الـحِـسَـابِ ولا ... تَـجْـعَـل لِـنَـارِكَ فِـيْـنَـا الـيَـوْمَ سُـلْـطَـانَـا

إخـوانـي، زُوْرُوا الآخِـرَة كُـلَّ يَـوْم بِـقُـلُـوبِـكُـم، وَشَـاهِـدُوا الـمَـوْقِـفَ يَـوْمًـا بِتَوَهُّمِكُمْ، وتَوَسَّدُوا القُبُورَ بِفِكْرِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لا مُحَالَةَ، وَاعْتَبِرُوْا

بِخِلْقَتِكُمْ كانَتِ النُّطْفَةُ مَغْمُوسَةً في دَمِ الحَيْضِ، ونَقَاشُ القُدرَةِ يَشُقُّ السَّمْعَ والبَصَرَ، ثُمَّ خلق منها ثلاثمائةٍ وسِتِّينَ عظمًا وخمسمائة وتسعةً وعشرين عَضَلَةً، كُلُّ شَيءٍ مِن ذَلِكَ تَحْتَهُ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ.

فالعَيْنُ سَبْعُ طَبَقَاتٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُوْنَ عَضَلَةً لِتَحْرِيْكِ حَدَقَةِ العَيْنِ وأَجْفَانِها، ولو نَقَصَتْ منها واحدَةٌ لاَخْتَلَّ الأَمْرُ وأَظْهَر في سَوَادِ العَيْنِ على صغرِهِ صُورَةَ السَّماءِ مَعَ اتِّسَاعِهَا، وخالَفَ بَيْنَ أَشْكَالِ الحَنَاجِرِ في الأَصْواتِ، وسَخَّرَ المَعِدَةَ لإِنْضَاجِ الطَّعَامِ، والكَبِدَ لإِحَالَتِهِ إلى الدَّم، والطِّحَالَ لِجَذْبِ السَّوادِ، والمَرَارَةَ لتناوُلِ الصَّفْراءِ، وَالعُرُوْقَ كَالْخَدَمِ لِلبَدَنِ يَنْفُذُ مَعَهَا الدَّمُ إلى أَطْرَافِ البَدَنِ.

فيا أَيُّهَا الغَافِلُ ما عِنْدَكَ خَبرٌ مِنْكَ ما تَعرِفُ مِن نَفْسِكَ إلاَّ أَنْ تَجُوعَ فَتَأْكُلَ وتَشْبَعَ فَتَنَامَ.

فَيَا عَجَبًا مِنْك، لو رَأَيْتَ خَطًّا مُسْتَحْسَنَ الرَّقْمِ لأَوْرَثَكَ الدَّهْشَ مِنْ حِكْمَةِ الكَاتِبِ، وأَنْتَ تَرى رُقومَ القُدرَةِ وَلا تَعْرِفُ الصَّانِعَ، فإِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ بِتِلْكَ الصَّنْعَةِ فَتَعَجَّبْ كَيْفَ أَعْمَى بَصِيْرَتَكَ مَعْ رُؤْيَةِ بَصَرِكَ. شعر:

قُلُوبُ العَارِفِيْنَ لَهَا عُيونٌ ... تَرَى مَا لا يَرَاهُ النَّاظِرُونَ
وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِيْ ... تَغِيْبُ عَنِ الكِرَامِ الكاتِبِيْنَا
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيْرُ بِغَيْرِ رِيْشٍ ... إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ العَالَمِينَا
سَيَسْقِيهَا العَزِيْزُ شَرَابَ صِدْقٍ ... وَتَشْرَبُ في كُؤُوسِ العَارِفِيْنَا

اسمَعْ يا بعيدَ التَّيَقُّظِ والموتُ مِنْهُ قَرِيبٌ. يَا مَن هُوَ عن قَلِيْلٍ في القبرِ غَرِيبٌ أَحَاضِرٌ أَنْتَ؟ قُل لي: مَا أَكْثَر ما تَغِيْبُ، ابْكِ عَلَى نَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ يُبْكَى عَلَيْكَ، وَإِذا رَأَيْتَ جنازَةً فَاحْسِبْهَا أَنْتَ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَبْرًا فَتَوَهَّمهُ قَبْرَكَ، وعُدَّ بَاقِي الحَيَاةِ رِبحًا.

وَاعْلَمْ أَنَّ وقوعَ الذَّنْبِ على القلبِ كوقوعِ الدُّهْنِ على الثَّوْبِ إنْ لم تُعَجِّل غَسْلَهُ وَإِلاَّ انْبَسَطَ يا مُخْتَارَ القَدَرِ، اعْرِفْ قَدْرَ قَدْرِكَ وإِنَّما خُلِقَتِ الأكوانُ كُلّها لأَجْلِكَ.

يا خَزَانَةَ الوَدَائِعِ، وَيَا وِعَاء البَدَائِعِ، كُلُّ الأَشْيَاءِ شَجَرَةٌ، وَأَنْتَ الثَّمَرُ،

وصُوْرَةٌ وَأَنْتَ المَعنيّ، وَصَدَفٌ وأَنْتَ الدُّرُّ مَكْتُوْبٌ. اخْتِيَارنَا لَكَ وَاضِحُ الخَطِّ غَيْرَ أنَّ اسْتِخْرَاجَكَ ضَعِيفٌ مَتَى رُمْتَ طَلَبَتِيْ فَاطْلُبْنِي عِنْدَكَ. وينشد:

بَادِرْ لِقَلْبِكَ فِي صَلَاحِ فَسَادِهِ ... وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ في وَظَائِفِ فِعْلِها
فالقَلْبُ سُلطانٌ لجِسْمِكَ قاهِرٌ ... وهُوَ المُحَرِّكُ لِلْجَوَارِحِ كُلِّهَا

وعظ على الآية:

كَيْفَ يَصلُح الفِكرُ لقلبٍ غَافِلٍ، يا عَجَبًا وكيف تقعُ اليقظةُ لعقلٍ ذَاهِلٍ وكيف يحصُلُ الفهمُ لِلُبِّ عَاطِلٍ، يا عجبًا لِلفرطِ وَالأيَّامُ زَوَائِلُ وَلِمَائِلٍ إلى رُكْنٍ مَائِلٍ، لقد خَابَ الغَافلونَ، وفازَ المُتيَقِّظُوْنَ.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، كم عَمَلٍ يُرَدُّ على عامِلِهِ، كَم آمِلٍ رَجَعَ بالخَيْبَةِ عَلَى آملِهِ، وكم عامِلٍ بالغٍ في إتْعَابِ مفاصِلِهِ، فهَبَّتْ ريحُ الشَّقَا لتبديد الشقا لتَبْدِيْدِ حَاصِلِهِ، لقد نُوْدِيَ عَنِ المطرُودِيْنَ ولكنَّهم لا يَسمَعُونَ.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، مَن كُتِبَ عليه الشَّقَا كَيْفَ يَسْلَمُ؟ ومَنْ عَمِيَ قلبُهُ كيفَ يَفْهَمُ؟ مَن أمرضه طبيبه كيف لا يسقم؟ ومَنِ اعْوَجَّ في أصلِ وَضْعِهِ كَيفَ يَتَقَوَّمُ؟ هَيْهَات هَيْهَاتَ مَن خُلِقَ لِلشَّقَا فَلِلشَّقَا يَكُونُ.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٠١]، جَعَلَنا الله وإيَّاكم مِمَّنْ أَفَاقَ بِنَفْسِهِ وفاق بالتحفيظ أبناء جنسه، وأعزّ عزة تصلح لنفسه واسْتَدْرَكَ من يومه مَا فَرَّطَ مِن أَمْسِهِ قبل ظُهُورِ العجائِبِ وشَيْبِ الذَّوَائِبِ وقُدُومِ الغائِبِ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد نَبِيِّهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسلّم تسليمًا كثيرًا كثيرًا، والحمد لله ربِّ العالمين.

المَجْلِسُ الرَّابِعُ
فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَمَا جَرَى لَهُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليمًا

الحمدُ لله الَّذي يُسَبِّحُ له البِحارُ الطَّوافِحُ، وَالسُّحُبُ السَّوابِحُ، والأَبْصارُ اللَّوامِحُ والأَفْكَارُ القَرَائِحُ، العَزِيْزُ في سُلطَانِهِ، الكَريمُ في امتنَانِهِ، وساتِرُ المُذنِبِ في عِصْيَانِهِ ورَازِقُ الصَّالِحِ والطَّالِحِ، تَقَدَّس عَن مِثْلٍ وشَبِيْهٍ، وتَنَزَّه عن نَقْصٍ يَعْتَرِيْه، يَعْلَمُ عَلَانِيَةَ الصُّدُوْرِ وما تُخْفِيْهِ مِنْ سِرٍّ أَسَرَّتْهُ الجوانِحُ، أَنْزَلَ القَطْرَ بِقُدْرَتِهِ، وَصَبَغَ لَونَ النَّباتِ بحِكمَتِهِ، وخَالَفَ بين الطُّعومِ بمشِيئَتِهِ، وَأَرْسَلَ الرِّياحَ لَوَاقِحَ.

مَوْصُوْفٌ بالسَّمعِ والبَصَرِ، يُرَى في الجَنَّةِ كما يُرَى القَمَرُ، مَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ أَوْ كَيَّفَهُ فَقَدْ كَفَرَ هَذا مَذْهَبُ أهلِ السُّنَّةِ وَالأَثَرِ، ودَلِيلُهم جَلِيٌّ وَاضِحٌ. يُنجِي مَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ ويُهْلِكُ، وَهُوَ السَّلامُ وَالمُسَلِّمُ المُهْلِكُ لَم يَنْتَفِعْ كَنْعَانُ بالنَّسَبِ يَوْمَ الغَرْقِ إِنَّهُ كانَ مُشْرِكًا، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هُود: الآية ٤٦].

أَحمدُه على تمهِيْدِ المَصَالِحِ، وأَشكرُه على سَتْرِ الفَضائِحِ، وأُصَلِّي على رسولِهِ مُحَمَّدًا أفْضلِ غَادٍ ورائِحٍ، وعلى صاحِبِهِ أبي بَكْرٍ ذي الفَضْلِ الرَّاجِحِ، وعلى عُمَرَ العَادِلِ فلم يُراقِبْ ولم يُسَامِح، وعلى عُثمانَ الَّذِي بَايَعَ عَنْهُ النَّبِيُّ بشِمالِهِ ﷺ، فيا لهَا من صَفْقَةٍ رَابِحٍ، وعلى عَلِيٍّ العابد الزَّاهِدِ الصَّالِحِ، وعلى

عَمِّهِ الَّذِي أَخَذَ لَهُ البَيعَةَ ليلةَ العَقَبَةِ وَكُلُّ الأَهْلِ نازِح.

اللَّهُمَّ هَبْ صَالِحًا لِلصَّالِحِ، وسَامِحْنَا فَأَنْتَ الحليمُ المُسَامِحُ، وَاغفِرْ ذُنُوبَنَا قَبْلَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْنَا الجَوَارِحُ، ونَبِّهْنا من رَقَدَاتِ الغَفَلَاتِ قبلَ أن يَصِيْحَ الصَّائِحُ، وانْفَعْني والحاضِرِينَ فَمِنْكَ الفَضَائِلُ والمَنَائِحُ.

وُلِدَ نُوحٌ عليه السلام بعد وفاةِ آدمَ بمائةٍ وعشرين سنةً، وهو نوح بن لامك بنِ مُتوشلَخْ بنِ إدْرِيْسَ.

وقِصَّتُهُ: لَمَّا أَعَمَّ أَهْلَ الأَرْضِ العَمْيُ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، بُعِثَ نوحٌ لِجَلَاءِ إبْصَارِ البَصَائِرِ، فمكَثَ يُدَارِيْهِم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: الآية ١٤] وكلُّهُم أَبْصَرُوا ولَكِنْ يَتَعَامَى، فكَم مِنْ عِلَّةٍ لا يَنْفَعُ فيها طِبُّ طَبِيبٍ، فَلاحَ اللَّاحي عدَمُ فَلَاحِهِم فَوَلاَّهُم نُوحُ الصَّلايَا يَأْسًا من صَلَاحِهِم، وبَعَثَ شِكَايَةَ الأَذَى في مَسطورِ ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ [نوح: الآية ٢١]، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ الطَّردِ على بَابِ دَارِ الزهد إِهْدَار دِمائِهِمْ ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هُود: الآية ٣٦]، فقامَ نوحٌ في مِحْرَابِ ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نُوح: الآية ٢٦]، فأَتَتْه رسالةٌ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: الآية ٣٧]، فغَرَسَ السَّاجَ فَتَكامَلَ في أربعينَ سنةً ثم قَطَعَهُ وَصَنَعَهَا وأَعانَهُ أولادُهُ، فلما تَمَّتْ نَادَى به نَذِيرُ الإعلام بالغضبِ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: الآية ٣٧].

فَلَمَّا انْهَالَ كَثِيبُ الإمْهَالِ، وَانقَطَعَ سِلْكُ التَّأخِيرِ، غَرَبَتْ شَمْسُ الإنْظارِ وطُوِيَ بِسَاطُ الموعِدِ، وبُسِطَ بِساطُ الإبْعادِ، فَاذْلَهَمَّتْ عِقَابُ العِقَابِ، فلما انْسَدَلَتِ الظُّلْمَةُ وفَاتَ النُّورُ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، فَقِيلَ: يا نُوحُ قد حانَ حِيْنُ الحَيْن فـ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: الآية ٤٠].

فَتَخَلَّفَ خَلْفَ نوحٍ خَلْفٌ مِن وَلَدِهِ، فَمَدَّ يَدَهُ بِالحُنُوِّ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هُود: الآية ٤٢]، فَأَجَابَ عَن ضميرٍ خَائِضٍ في المَسَاوِي ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: الآية ٤٣]، فَرَدَّ عليه بِلِسانِ الوَعِيدِ ﴿لَا عَاصِمَ

ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هُود: الآية ٤٣].

فَلَمَّا انْتُقِمَ مِن العُصاةِ بِمَا يكفي كَفَتَ كَفُّ النَّجَاةِ كِفَاتَ الأَرْضِ بِقِشْرِ ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هُود: الآية ٤٤] وقَلَعَ جزع السَّماءِ في وَكْفِ دَمْعِهَا بظُفْرِ ﴿أَقْلِعِى﴾ ونُودِيَتْ نجاةُ الجُودِيِّ جُوْدِي بِإِنْجَاءِ غَرقَى السَّيْرِ، وزُوِّدَ الهالكونَ في سَفَرِ الطَّرْدِ زَادَ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٤].

لَيْسَ لِنَمْرُودِ الهَوى حِيْلَةٌ في قدرةِ مَن يُهلِكَ تارةً بالبَعُوضِ، وأُخرى بالدَّمِ ومرَّةً بِالجَذْبِ، وأُخرى بالغَرْقِ، ومَرَّةً بِالرِّيحِ، وقَد قُصَّ عليكَ فِعلُهُ بالأُمَمِ المتقدِّمَةِ وما خَرَجتْ مِن كِنَانَةِ الرَّامِي إلا أَسْهُمٌ قليلةٌ، والإِنْسَانُ غَرَضٌ والمعاصِي سَبَبٌ، والرَّامِي بَاقٍ، وَالقُدْرَةُ مُفوِّقةٌ، والزَّمانُ قوسٌ، وَاحْذَرْ أَن يُصِيبَكَ مِنْهُ نَبْلَةٌ. وينشد:

وَالمَرْءُ مِثْلُ هِلَالٍ عند طَلعتِهِ ... يَبْدُو ضَئِيْلًا لطيفًا ثم يَتَّسِقُ
يَزْدادُ حَتَّى إذا ما تَمَّ أعْقَبَهُ ... كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نقصًا ثم يَنْمَحِقُ
كَانَ الشَّبَابُ لبَاسًا قَدْ بَهَجْت بِهِ ... فَقَد تَطايَرَ مِنْهُ للبِلَى خِرَقُ
وَبَانَ مُرتَحِلًا يَحْدُو المَشِيْبُ بِهِ ... كاللَّيْلِ يَنْهَضُ في أَعقابِهِ الفَلَقُ
دَارٌ تَفُرُّ بِهَا الآمَالُ مُهْلِكَةً ... وَذُو التَّجَارُبِ فيهَا خَائِفٌ فَرِقُ
يَا لِلرِّجالِ لِمَخْدوُعٍ بزُخْرِفِهَا ... بَعْدَ الْبَيَانِ ومَغْرُورٍ بِهَا يَثِقُ
أَمْسَتْ مَسَاكِنُهُم قَفْرًا مُعَطَّلَةً ... كَأَنَّهُم لَم يكونوا قَبْلَهَا خُلِقُوا
يَا أَهْل لَذَّاتِ الدُّنْيَا لا بَقَاءَ لها ... إنَّ اغْتِرارًا بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمُقُ

وعظ على الآية:

قل للمُقِيمِينَ على مَعَاصِيهِم وَجَهْلِهِمْ، النَّاسِين مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ أهلِهِم المُصِرِّينَ على قَبِيحِ فِعْلِهِم. كم لَعِبَ الدَّهْرُ بمثلِهِم، أَفَتَراهُم مَا تكفِيهم من تَوبِيخِهِمْ وعَذْلِهِم ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾، قُلْ للمُذنبينَ تَأَمَّلُوا في الأَيَّامِ العَوَاقِبِ والفَوائِتِ، والذُّنوبُ تُحْصَى ومَا يَغْفَلُ

الكاتبُ، والسَّهْمُ مُفَوَّقٌ، والرَّاميْ صَائِبٌ واللذات وإن قيلت فيعدها مصاب، فليَتَدَبَّرِ العاقل وَليَحْضُرِ الغائِبُ قَبْلَ أن يُؤْخَذَ الجُهَّالُ على جَهْلِهِم ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يُونس: الآية ١٠٢]، أيقظنا الله وإيَّاكُم مِنْ هذه الرَّقْدَةِ، وذَكَّرَنَا الموتَ وما سيأتيَ بَعدَهُ. وينشد:

كيفَ اسْتَقَرَّ قَرارُه لِمَا عَصَى ... أم كيفَ لا تَجري دَمًا عَيْنَاهُ

إنِّي أَظُنُّكَ مُبْتَلًا بِقَسَاوَةٍ ... يَا مَنْ يَقِلُّ دموعُه وَبُكَاهُ

يَا مُذنِبًا لَم تَجْرِ مِنْهُ دُموعهُ ... أَسَفًا عَلَى ما كان مِن بَلْوَاهُ

عَظمتْ مُصِيْبَةُ مَنْ عَصَى مَولاهُ ... وخَلَا بِذَاكَ الذَّنْبِ وهُوَ يَراهُ

يا معشَرِ المطرودِينَ عَن صُحبَةِ أهلِ الدِّينِ، تَعَالَوا نُقِمْ مَأْتمًا للفِراقِ، ونَنْدُبْ إخوانَنَا الظَّاعِنِيْنَا، هَلُمُّوا نُرِقْ دَمْعَ تَأَسُّفِنَا على قَبِيْحِ تَخَلُّفِنَا، يا عَاصِيًا، يا مخْدُوعًا قد فُتِن، يا مَغرورًا قد غُبِنْ، مَن لَكَ إذا سُوِّيَ عَلَيكَ اللَّبِنُ في بيتٍ قَطُّ ما سُكِنَ، سَلْبُ الرَّفيْقِ نَذِيرٌ، والعاقلُ فَطِنٌ، يا مَن يَعِظُه الدَّهْرُ فما يَقبلُ وَيُنْذِرَهُ القَهْرُ بِمَن يَرحَلُ، ويَضُمُّ الشَّيْبَ إلى الشَّيْبِ وبئسَ ما يَفْعَلُ، كُنْ كيفَ ما شئتَ فَإنَّما تُجازَى بما تَفْعَلُ، يَا جائِرًا كلَّما قيلَ له اقسِطْ قَسَطَ، يا نازِلاً لا فُسْطَاطَ الهَوى على شاطِئ شطط، يا مُمْهَلًا لا مُهْمَلًا ما عِندَ الموتِ غَلطٌ كَم نَقَلَ شريفًا ووَضِيْعًا، كَمْ جَمَعَ شيخًا ورَضِيعًا، تَالله ما يُبالِي حَمَامُ الحِمَامِ أَيَّ حَبٍّ لَقَطَ. شعر:

أَلَم تعلَم بِأَنَّ النَّفْسَ تَأْبَى ... وتُنكِرُ ما تُحاوِلُ مِن رَشادِكَ

وتَطلُبُ مِنْكَ أَن تَبقى سَقِيمًا ... فلِمَ مَكَّنْتَ نفسَكَ من فُؤادِكَ

فَإنْ قَتَلَتْكَ بالعِصيان فَاعلَمْ ... بِأَنَّ القَتْلَ مِنها مِن مُرادِكَ

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨]:

يا مُبارِزًا بالذُّنوبِ، خُذْ حِذْرَكَ، وتَعَرَّفْ عِقابَهُ بِاليَقِينِ فقد أَنْذَرَكَ، وخَلِّ الهوى، فإنَّه كما ترى قَدْ صَيَّرَكَ قبلَ أن تَضِيقَ الآلَةُ وَيَضِيْقَ حَبْسَهُ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

اجْتَهِدْ في تَقويةِ نَفسِكَ قبل خُسرانِ مَوازِينِكَ، وقُمْ على قَدَمِ تَضَرُّعِكَ وحَنِيْنِكَ قَبْلَ نَشْرِ دَوَاوِيْنِكَ، وَابْذُلْ قُوَاكَ في ضَعْفِكَ ولِيِنِطَ قَبْلَ أن يَدْنُو عَلَيْكَ العَذَابَ فَتَجِدَ مَسَّهُ. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨].

إخواني، التَّوْبَةَ التَّوْبَةَ قبل أن يَصِلَ إليكُمُ، التَّوْبَة من الإنَابَة، الإنابةَ قبلَ أن يُغلَقَ بابُ الإجابةِ، ويُرسِلَ الهَجْرُ حجابَهُ، يا غافِلًا عن مَصِيْرِهِ، ويا وَاقِفًا مع تقصِيره، سَبَقَكَ أهلُ العَزَائِم وأَنْتَ في اليقظةِ نائمٌ، قِفْ على الباب وقوفَ نادِمٍ، ونَكِّس رأْسَ الذُّلِّ في الظُّلمَةِ، وقُلْ: يا ظالِمُ، ونَادِ في الأَسْحارِ مُذنِبٌ ورَاحِمٌ، وتَشَبَّهْ بالقومِ وإن لَمْ تكُنْ منهُم فَزَاحِمْ، إن هَمَمْتَ فبادِر، واعْلَم أنَّه لا يُدرِكُ المفاخِرَ مَن رَضِيَ بالصَّفِّ الآخِرِ.

حكاية:

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: خُلِقَتْ لِي نَفْسٌ تَوَّاقةٌ فَلَمْ تَزَلْ تَتُوقُ إلى الإمارَةِ فلما نِلْتُهَا تاقَتْ إليَّ الخِلَافَةُ، فلما نِلتُهَا تَاقَتْ إليَّ الجَنَّةُ. وينشد:

بَدَوْتُ وأهلي حاضِرون لأنَّني ... أَرَى أنَّ دَارًا لستُ من أهلِهَا قَفْرُ
ومَا حَاجَتِي في المَالِ أَبْغِي وُفورَهُ ... إذا لم أَفِرْ عرضي فلا وفَرَ الوَفْرُ
سَيذكرني قومي إذا جَدَّ جدُّهم ... وفي ليلةِ الظُّلُمَاتِ يُفتَقَدُ البَدْرُ
ونحنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عِندَنا ... لَنا الصَّدْرُ دُونَ العالَمِينَ أَو القَبْرُ
تَهُونُ علينَا في المعالي نُفوسُنَا ... ومَن يَخْطُبِ الْحَسْنَاءَ لم يُغْلِهَا المَهْرُ

يَا عَاصِي أَمَا تَعْلَمُ أنَّ الموتَ يَسعَى في تَبْدِيدِ شَمْلِكَ؟ أما تخافُ أن تُؤْخَذَ على قَبِيحِ فِعْلِكَ، وا عجبًا لك من راحِلٍ تَتْرُكُ الزَّادَ في غَيرِ رَحلِكَ. أَيْنَ فِطْنَتَكَ ويَقْظَتَكَ وتَدْبِيرَ عقلِكَ؟ أما بارزتَ بالقبِيحِ فأَينَ الحزنُ؟ أما عَلِمْتَ أنَّ الحَقَّ يَعلَمُ السِّرَّ والعَلَنَ.

سَتَعْرِفُ خَبَرَكَ يوم تَرْتَحِلُ عنِ الوَطَنِ، وسَتَنْتَبِهُ من رُقادِكَ فيَزُولُ هَذا الوَسَنُ. أَوَّاهُ مَا لي أَرَى رِجَالاً، ولا أَرَى عُقولاً! ما لي أَسْمَعُ حسِيسًا وَلا أَرَى

أَنِيْسًا! دَخَلُوا ثم خَرجُوا، عَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا، حَرَّمُوا ثم اسْتَحَلُّوا، إِنَّما دِينُ أحدِهِم لَقْلَقَةٌ عَلى لِسَانِهِ.

إخواني، إنِ اجتمعتُمْ على الذِّكْرِ والبُكاءِ، وإلا فالفُرْقَةُ أصلَحُ، يا هَذا أَخْبِرْ أَخَاكَ بِعَيْبِكَ فالمُؤمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ المؤمنِ ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائدة: الآية ٢].

إخواني، لا أُنكِرُ حَنِينَكم إلى الرَّضاعِ، ولكن ذُوقوا طَعْمَ الرِّجَالِ وقد نسيتُم شُربَ اللَّبَنِ.

إخواني، جاءتِ السَّحرةُ تحارِبُ، وخِلَعُ الصُّلح قَد أُحْضِرتْ، وتيجانُ الرِّضا قَد رُصِّعَتْ، وشَرابُ الوِصالِ يُرَوَّقُ، مَدُّوا أيدِيَهُم إلى ما اعْتَصَرُوا من خَمْرِ الهَوى فَإذَا بِهِ قد استَحَالَ خلًّا فَافْطَرُوا عليهِ. وينشد:

أنْتَ وفَّقْتَ مَنْ إليكَ أنابَا ... أنتَ وفَّقْتَ مَن أصابَ الصَّوابَا
أنْتَ عَرَّفتَهُم كُنوزَ المعالِي ... فَغَدَوْا يَبْحَثُونَ عنها طِلَابَا
أنت أَحببتَ ما نُحِبُّ إليهم ... ثُمَّ أعطيتَهُمْ عَلَيهِ الثَّوَابَا

يا مَعَاشِرَ التَّائِبِينَ، مَن أقامَكم وَأَقْعَدَنَا، مَن قرَّبَكُم وأَبْعَدَنَا، ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: الآية ١١] كُلَّما رَأَيْتُ تَقَلْقُلَ التَّائِبِينَ تَقَلْقَلَ قَلْبِي، فإذا تَلَمَّحْتُ اصْفِرارَهُم تَبَلْبَلَ لُبِّي، فإذا شاهدتُ دُموعَهم زَاد كَرْبِي، فإذا سَمِعْتُ حَنِينَهُم تَبَدَّدَ دَمْعِي، لقد وَعَظتِ الدُّنيا فأَبْلَغَتْ فيما قَالَتْ، ولقد أخبرتْ برحِيلِها قبلَ أن يُقال زالَتْ، يا مَن زَمَانُه الذي يُحْصَى عَلَيْهِ، يا طويلَ الأَمَلِ وهو يَرَى الموتَ بِعَيْنَيْهِ، يا مَن ذُنُوبُهُ أوجَبَتْ أن لا يُلْتَفَتَ إليه، يا طِينَ تُرْبَتِهِ وهو يَطلُبُ في الدُّنيا رُتبَتَهُ، هذا مجلسُ فُلانِ ابنِ فلان، كانَ ما كانَ، وتَفَرَّقَتِ الخُلَّانُ، مَا أمَرَّ البُعْدَ بَعْدَ القُربِ، ما أَشَدَّ الهَجْرَ بعدَ الوِصالِ، يا مَطرودًا بعد التَّقْرِيبِ أَبْلَغُ الشَّافِعِينَ لكَ إلينا البُكَاءُ.

السَّجع:

أَسَفًا لأهل النَّارِ لقد هَلَكُوا وشَقُوا، ولا يقدِرُ الواصفُ أنْ يَصِفَ مَا لَقُوا،

كُلَّما عَطِشُوا جِيءَ بالحَمِيمِ والغَسَّاقِ فَسُقُوا، هَذَا جَزَاؤُهُم إذ خَرجُوا عن الطَّاعَةِ وفَسَقُوا قُطِّعُوا والله بالعذاب، ومُزِّقُوا وأُفْرِدَ كلٌّ منهم عن رَفيقِهِ وفُرِّقُوا، فلو رأيتَهُم قدْ كُبِّلُوا في السَّلاسِلِ وَأُبْقُوا، واشْتَدَّ زَفِيْرُهُمْ، وتَضَرَّعَ أَسِيْرُهُم وقَلِقُوا، وتَمَنَّوْا أن لم يَكُونوا ولم يُخْلَقُوا، ونَدِمُوا إذْ أَعْرَضُوا عن النُّصْحِ وقد صَدَّقُوا، فلا اعتذارُهُمْ يُسْمَعُ ولا بُكاؤُهُم يَنْفَعُ، ولا أُعتِقُوا.

اللَّهُمَّ ارزُقْنا توفيقَ الطَّاعَةِ وبُغْضَ المعصيةِ وصِدْقَ النِّيَّةِ، وَامْنُنِ اللَّهُمَّ عَلَيْنَا بالخشوعِ والإِنَابَةِ، وسَدِّدِ اللَّهمَّ أَلسِنَتَنَا بالصَّوابِ والحكمةِ برحمَتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ، وصلَّى الله على سيِّدِنا محمَّد وآلِهِ وسَلِّم تسليمًا كثيرًا.

المَجْلِسُ الخَامِسُ
في قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ على نَبِيِّهِم السَّلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سَيِّدِنا مُحَمَّد وآله وسلَّم تسليمًا كثيرًا

الحمدُ لله المُنَزَّهِ عن الأَشياءِ في الأَسْماءِ والأَوصافِ، المقدَّس عَنِ الجوارح والآلاتِ والأَطْرَافِ، خَضَعَتْ لهيبةِ عِزَّتِهِ الأكوانُ، وأَقَرَّتْ عن اعتِرافٍ وَانْقَادَتْ له القلوبُ وهي في انْقِيادِها تخافُ، أَنْزَلَ القطرَ فمنه الدُّرِّ وتَحْوِيهِ الأَصْدَافُ فَمِنْهُ قوتُ البُذُورِ تُرْبِي الضِّعافَ، كَشَفَ للمتَّقين اليقينَ فشَهِدُوا وأقامَهُم في الليل فَسَهِرُوا وسَهِدوا، وَأَرَاهُم عيبَ الدُّنْيا فَرَفَضُوا وزَهِدُوا وقَالُوا نَحْنُ أضيَافٌ، وقَضَى على المخالِفِيْنَ بالبِعَادِ، فَأَذَاقَهُمُ التَّوفيقَ والإِسْعَادَ فَكُلُّهُم هَامَ في الضَّلالِ وما عَاد.

قال الله العظيم: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، وأحمَدُهُ على سِرِّ الخَطايَا والاقْتِرافِ، وأُصَلِّي على رسولِهِ محمَّدٍ الَّذِي أُنْزِلَ عليه قافَ، وعلى صاحِبِهِ الَّذِي أمِنَ بِبَيْعَتِهِ الخِلاف، وعلى عُمَر صاحِبِ العَدْلِ وَالإِنْصافِ، وعلى عُثْمَانَ الصَّابِرِ على الشَّهَادَةِ صَبْر النِّضاف، وعلى عليٍّ محبُوبِ أهْلِ السُّنَّةِ الظِّرافِ، وعلى عَمِّهِ العباسِ مُقَدَّمِ أهلِ البيتِ الأَشرافِ.

قال الله العظيم: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١]، الأَخُ في القرآنِ على أربعةِ أوجُهٍ؛

أحدُها: الأَخُ مِنَ الأَبِ والأُمِّ، أو مِن أحدِهِمَا ومنه ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ [المَائدة: الآية ٣٠].

والثاني: الأَخُ من القبيلةِ ومنه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١].

والثَّالثُ: الأَخ في المتابَعَةِ ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٧].

والرَّابعُ: الصَّاحِبُ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [صَ: الآية ٢٣]. قالَ مُقاتلٌ: كانَ طولُ كلِّ رجلٍ منهم اثنتَي عشرةَ ذِرَاعًا. وقالَ مُجاهدٌ: كانَ الرَّجلُ منهم لا يَحْتَلِم حَتَّى يبلغَ مائَتَيْ سنةٍ، وهَؤلاءِ أَوْلَادُ عُوصٍ بْنِ آدَمَ بنِ سَامِ بْنِ نوح وهم من عاد الأولى بعث الله إليهم هو دين عبد الله بن رباح بْنِ جَلودٍ. ومنهُم مَن يقولُ: هُو عَادُ بْنُ عامِرِ بْنِ شالِخَ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامٍ، وكَانُوا يَعبدونَ الأصنامَ فدعاهُم إلى التَّوحيدِ.

ونصّه: لَمَّا تَجبَّرَ قومُ عادٍ في ظِلِّ ظُلَلِ ضَلالِهِم حِينَ أَمَلَ الآمِلُ طُولَ البَقاءِ ودَنَا ذِكْرُ زَوالِهِم، ومَرُّوا في مَشاوِعِ عذابِ الملَاهِي نَاسِيْنَ مُرَّ عَذابِهَا رَافِلِيْنَ في حُلَلِ الغَفلةِ بِالأُمْنِيَّةِ عَنِ المَنِيَّةِ وَإِذَا بِهَا أقبلَ هُودٌ يَهْدِيهِم ويُنَادِيهم في نَادِيهِمْ ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] فَبَرَزُوا في عُتُوٍّ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥] فَسَحَبَ سحابُ العَذَابِ ذَيْلَ الإدْبَارِ بِإِقْبَالِهِ إلى قِتالِهِم فَظَنُّوهُ لَمَّا اعْتَرَضَ عارِضُ مَطَرٍ فَتَهَادَوْا تَباشِيْرَ البِشَارَةِ بِتَهادِي إشارةِ ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤].

فَصَاحَ بُلْبُلُ البَلْبَالِ فَبلبَلَ ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤] فكانَ كُلَّما دَنَا وتَرامَى ترْدَى كَأَنَّ مَا كانَ قَطُّ لم يَكُن، فَحَنْظَلَت شَجَرَةُ مُشاجَرتِهِمْ هُوْدًا، فَجَنَى مَنْ جَنَى مِنْ جَنْيِ مَا جَنَى ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦] فراحَتْ ريحُ الدَّبُور لِكَي تَسِمَ الأَدْبَارَ، بَكَيّ الإدْبارِ فَعَجُّوا مِنهَا عَجِيْجَ الأَدْبَرِ فَلَم تَزَلْ تَكْوِي بِهِمْ بِمَسِيْمِ العَدَمِ، وَتلْوِيْ تَكْوِيْنَهُم إلى حِياضِ دَمِ النَّدَمِ، وتَكْفَأُ القلب عليهم الرِّمالَ فتكفِي تَكْفِيْنَهُمْ وتُبْرِزُهُم إلى البَرَازِ عَن صَوْنِ حُصُونِ كِنِّ يَقِينِهِمْ فإذا أصْبَحُوا أَخَذَتْ تَنْزِعُ في قَوسِ تَنْزِعُ النَّاسَ، فإذا أَمْسَتْ أوقَفَتْ عِرِّيْضَهُم في عَرْضٍ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، فَمَا بَرِحتْ بَارِحَتُهم عن بَراحِهِمْ حَتَّى بَرَّحَتْ بِهِمْ، وَلا أَقْلَعَتْ حتَّى اقْتلعَتْ قُلوعَ قِلاعِهِمْ فَدَامَتْ عليهم آفَةٌ وَدَاءٌ لا يُقْبَلُ مِنهُم فِدَاءٌ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: الآية ٧] ابتداءُ ذلكَ غَدْوَةَ الأَرْبِعَاءِ آخِرُ الأَربعاءِ من الشَّهرِ

فَاعْتَزَلَ هُوْدٌ وَمَن مَعَهُ مِنَ المؤمنين في حَظِيْرَةٍ ما يُصِيبُهُم منهَا إلا ما يُلَيِّنُ الجُلُوْدَ، وتَلْتَذُّ عليهِ النفوسُ فكانتِ الرِّيْحُ تَقلعُ الشَّجَرَ وتهدمُ البُيُوتَ وترفع الرِّجالَ والنِّسَاءَ بَيْن السَّماءِ والأرضِ فَتَدُقُّ رِقابَهُم فتُبِيْنُ الرَّأسَ من الجَسَدِ فذلك معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٧]، أي أَسافِلُ نَخْلٍ، ثم دُمِغُوا بِالحِجارَةِ فَحَسبِوا ما أَذَاقَهُم مِن سُوْءِ مَا حَاسُوْا، وسِيْقُوا مِنْ قَفْر إلاَّ بُعْدًا إلى يَمٍّ وأُتْبِعُوا، فلو عَبَرْتَ في مِعْبَرِ الاعْتِبَارِ لِتَرَى مَا آلَ إليه مَآلُهُم، وأَرَأَيْتَ وَالتَّوَيْ كيفَ التَّوَي عَلَيْهِمْ؟ وكَفَّ النَّوَيْ كيف نَوَّى الدُّنُوّ إلَيْهِمْ؟ فَانْظُرُوا إلى عَواقِبِ الخلافِ فإنَّه شافٍ كَافٍ.

إخواني، أيْنَ مَن لَعِبَ ولَهى؟ أيْنَ مَن غَفَلَ وسَهَى دَهَاهُ، والله أَفْظَعُ مَادَهَا وحَطَّ رُكْنَه فَوَهَا، ذَهَبتْ لذَّةُ ذُنُوبِهِ وحُبِسَ بِهَا، نَظَرَ في عَاجِلِهِ ونَسِيَ المُنتَهَى. وينشد:

نَادَى القُصُورَ التي أَقْوَتْ مَعَالِمُهَا — أَيْنَ الجسومُ التي طابت مَطَاعِمُهَا
أَيْنَ المُلوكُ وأَبْناءُ الملوكِ ومَنْ — أَلْهَاهُ نَاضِرُ دُنْيَاهُ وَنَاعِمُهَا
أَيْنَ العُيونُ الَّتِي نَامَتْ وما انْتَبَهَتْ — وَاهًا لَهَا نَومَةً ما هَبَّ نَائِمُهَا

قال ابن عباس: أَوَّلُ مَا عَرفوهُ أَنَّه عَذابٌ رَأَوْا مَا كانَ خارجًا مِنْ رِجَالِهِمْ ومَوَاشِيهِمْ يَطِيرُ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ مِثْلَ الرِّيْشِ، فدَخَلُوا بيوتَهُم، وأَغلَقُوا أبوابَهُم فجاءَتِ الرِّيحُ ففَتحتِ الأبوابَ، ومَالَتْ عليهِم بالرَّمْلِ، فكانُوا تحتَ الرَّمل لهم أَنِيْنٌ ثم مَضَتْ أَرْوَاحُهُمْ، وطَرَحَتهُمُ الرِّيحُ في البحرِ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]. وقالَ مُقاتِلٌ: بَعَثَ الله طيرًا أَسْوَدَ فَالْتَقَطَهُم حَتَّى أَلْقاهُم في البَحْرِ.

وعظ:

إخواني، اعتَبِرُوا بالَّذِينَ ظَلَموا وفَطَنُوا كَيْفَ ظَعَنُوا وحَزِنُوا، وانْظُرُوا إلى آثَارِهِمْ تَعلَّمُوا أَنَّهُم غُبِنُوا، لاَحَتْ لَهُم لَذَّاتُ الدُّنْيَا فَاغْتَرُّوا وفُتِنُوا، فَما انْقَشَعَ سَحَابُ المُنَى حَتَّى مَاتُوا ودُفِنُوا. وينشدوا:

السُّقمُ عَلَى الجِسْمِ لَه تَزْدادُ — والصَّبْرُ يَقِلُّ وَالهوى يَزدادُ

مَا أَبْعَدَ شُقَّتِيْ وَمَا لِيَ زَادُ ... مـا أَكْثَرَ بَهْرَجِيْ وَلِيْ نَقَّادُ

أينَ جَامِعُ الدُّنْيَا طَرَحَهَا وأُطْرِحَ، أَيْنَ اللَّاهِيْ بِهَا حَزِنَ بَعْدَ أنْ فَرِحَ؟

إخواني، كَمْ مَنْ حَرِيْصٍ يَجْمَعُ المالَ جَمْعَ الثُّرَيَّا نفسَهَا ثم تُفَرِّقُهُ الأَقْدَارُ تَفْرِيقَ بَناتِ النَّعْشِ، يَا ذَا اللُّبِّ حَدِيثِيْ مَعَكَ، وَيْحَكَ إنَّ سرورَها أقتلُ مِنَ السُّمِّ وإنَّ شُرُوْرَهَا أَكْثر مِنَ النَّحلِ، إنَّها في قلبِكَ أعَزُّ مِنَ النَّفْسِ وسَتَصِيْرُ عِنْدَ الموتِ أَهْونَ مِنَ الأَرْضِ، حِرصُكَ بَعدَ الشَّيْبِ أحَرُّ مِنَ الجَمْرِ. أبغِي عُمْرٌ يَا أبرَدَ مِنَ الثَّلْجِ، إلى مَتَى تَحرِصُ عَلَى الدُّنْيا وتَنْسَى القَدَرَ، من الَّذِي طَلَبَ ما لَم يُقَدَّرْ عليه فَقَدَرَ. وينشد:

أَلاَ كُلّ شيءٍ هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ ... وذُو نَسَبٍ في الهالكينَ غَرِيقُ
فَقُلْ لغريبِ الدَّارِ إنك رَاحِلٌ ... إلى مَنْزِلٍ نَائِي المَحَلِّ سَحِيقِ
فَلا تَحْسِبِ الدُّنْيا الَّتِي قد سَكَنْتَهَا ... قَرارًا فَما دُنياكَ غَيرُ طَرِيقِ
إذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَه عن عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ
عليكَ بدارٍ لا يَزُولُ نَعِيْمُهَا ... ولَستَ تُنادِي أَهْلَها بِمَضِيقِ

إخواني، العاصُونَ غَدًا عليهم أماراتُ الذُّلِّ والشَّقَا ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمٰن: الآية ٤١]، أَتَرَاهُم لا يَسْمَعُون وَعِيْدَ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدّخان: الآية ٤٠]، ويَكفِي من التعذيب ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٢]، وا شقاوةَ مَن كَان في ظَهْرِ أَبِيْه آدمَ في الجنَّةِ ويَدخُلُ ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، وا حَسْرَةَ مَنْ سَجَدَ لَهُ جِبْرائِيلُ ومِيكائِيلُ، وكيفَ تَتولاَّهُ ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: الآية ٦] غُلَّتِ الأَكُفُّ جَزَاءَ امْتِدادِها إلى الحَرامِ إذا اشْتَدَّ جُوعُهم: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٦]، إذا قوي عَطشُهم ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٥]، يا أَهْلَ الذُّنُوبِ والخَطَايَا أَلَكُمْ صَبْرٌ على العقوبةِ. وينشد:

يَا مَن بِالدَّارِ لَهَا وَصَبَا ... أَوْرَثْتَ القلبَ بِهَا وَصَبَا
فَذَرِ الدُّنيا فَلَكَمْ قَتَلَتْ ... مَكْرًا بِسِهامِ هَوًى وَصَبَا
بَرَزَتْ فَدَعَتْ فإذا اجْتَمَعَتْ ... خَدَعَتْ حَتَّى قَطَعَتْ إرَبَا

يـا عـاشـقـهـا كـم قـد نـصـبـت لـهـلاكـك فـاحـذرهـا سـبـبـا
أيـنَ الأتـرابُ أمَـا تَـرِبَـتْ خَـدَّاهُ أمَـا سـكـن الـتُّـرَبَـا
يـا مـن يـأمـنـهـا كـم قـد سـلـبـت ولـدًا بـرًّا أُمًّـا وأبًـا

يا عاصي لا في الشَّبابِ وَافَقْتَ، ولا في الكهول رَافَقْتَ، ولا في المَشِيبِ أفَقْتَ، ولا في العِتَابِ أشفَقْتَ، فَكَأَنَّكَ ما آمَنْتَ بِالمِيعَادِ ولا صَدَّقْتَ يَا مُقِيمًا علَى الهَوَى وليس بمُقِيْم، لَقَد خَوَّفَنَا الموتُ بمَنْ أَخَذَ مِنَّا ونَعلَمُ هُجُومَهُ علينَا وقَدْ أَمِنَّا، يا مَن يُشَيِّعُ بِبدنِهِ الميْتَ، أَمَّا قلبهُ فَفِي البَيْتِ وا عجبًا أما تعلَمُ ما أمامَكَ فَتَهَيَّأ لِلرَّحيلِ وَأصلِحْ خِيامَكَ واجتهِد أن يُنْشِرَ الإخْلَاصُ في المحلِّ الأَعلَى أعْلامَكَ، إيَّاكَ والفُتورَ فَإنِّي أَرَى دَاءَ دَوامِكَ والدي وأُمك اطْلُبْ مَا شِئْتَ بِالعَزْمِ وأَنا زعيمٌ لَكَ بِالظَّفرِ لَمَّا كان الغرابُ يَشتغِلُ بالنَّدْبِ عَلَى الفِراقِ ولَبِسَ السَّوادَ قبلَ النَّوْحِ فَلِذلِكَ لم يُوجَدْ إلاَّ في الخَراباتِ. وينشد:

سَألْتُ الدَّارَ تُخْبِرنِي عَنِ الأَحْبَابِ مَا فَعَلُوا
فَقالَتْ لِي أقامَ القَومُ أَيَّامًا وقَد رَحَلُوا
فَقُلْتُ أَيْنَ أَطْلُبُهُم وَأَيَّ مَنزِلٍ نَزَلُوا
فقالَتْ في القُبُورِ وقد لَقُوا والله ما عَمِلُوا
فَخَلِّ القلبَ يَبْكِي دَمًا وخَلِّ الدَّمْعَ يَنْهَمِلُ
على عُمْرٍ مَضَى أَرَاهُ وَقَدْ وَافَانِي الأَجَلُ

السَّجع:

الويلُ لأَهْلِ الظُّلْمِ مِن الأَوْزَار، ذِكْرُهُم بِالقَبَائِحِ وَقَدْ مَلأَ الأقطارَ، يَكفِيْهِمْ أَنَّهم قد وُسِمُوا بالأَشرارِ، ذَهَبَتْ لَذَّاتُهم بما ظَلَمُوا، وبَقِيَ العارُ، دَارُوْا إِلى دَارِ العِقابِ ومَلَكَ غيرهُمُ الدَّارَ، وخُلُّوا بالعَذَابِ في بُطون تلكَ الحجارِ، فلا مُغِيثَ ولا أَنِيسَ ولا رفيقَ ولا جارَ، ولا راحَةَ لهم ولا سُكُونَ ولا قَرارَ، سَالَت دُمُوعُ أَسَفِهِم على مَسْلَفِهِم كَالأَنْهارِ، شَيَّدُوا بُنْيَانَ الأَمَلِ فَإِذَا بِهِ قَدِ انْهارَ، أَمَا عَلِمُوا أَنَّ الله أَجارَ المَظلومَ مِمَّن جارَ، فَإذَا قَامُوا إلى القِيامَةِ زادَ البَلَاءُ عَلَى المِقدارِ، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠]، لاَ يَغُرَنَّكَ

صَفَاءَ العَيْشِ كُلُّ الأَخْيَرِ أَكْدَارٌ، اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِن تَلَاعُبِ جَوارِحِ آمالِنَا، بِبَضائِعِ أَعْمَالِنَا. اللَّهمَّ أَسَرَنَا الهَوَى فَخَلِّصْ أمْرَنَا، وَيَسِّرْ لنا أَوْبَتَنَا مِن بِلَادِ غُرْبَتِنَا، اللَّهُمَّ اغْفِر لمَن صارَ من والدِينَا إِلَيْكَ، وَبَارِكْ لَنا ولَهُمْ في القُدُوْمِ عليك، وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا محمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّمَ تَسلِيمًا كثيرًا.

المَجْلِسُ السَّادِسُ
فِي قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وهُود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي مَهَّدَ لِطَالِبِيْهِ سَبِيْلًا وَاضِحًا، وكَم ابْتَعَثَ نَبِيًّا مُرْشِدًا وناصِحًا، فَأَرْسَلَ آدَمَ غادِيًا على نَبِيِّهِ بِالتَّعْلِيْم ورَائِحًا فَخَلَّفَهُ شِيثَ ثُمَّ إِدْرِيْسَ، وجاءَ نُوحٌ نائِحًا وَأَمَرَ هُودًا بِهِدَايَتِهِم عادًا فَلَم يَزَلْ مُكادِحًا إلى ثَمُودَ أَخاهُم صَالِحًا.

أَحْمَدُهُ ما دام على ما بَدَأَ بَرقٌ لائِحًا، وأُصَلِّي على رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا دَامَ الفَلَكُ سَابِحًا، وعلى صَاحِبِهِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وقُلْ في الصِّدِّيْقِ مادِحًا، وعلى الفَارُوقِ الَّذِي لم يَزَلْ بِنُوْرِ الحَقِّ لاَمِحًا، وعلى عُثمانَ وَأَعْجِبْ بِمِثْلِ دَمِهِ صَائِحًا، وعلى عَلِيٍّ وَأَعْلِنْ بفَضَائِلِهِ صَائحًا، وعلى عَمِّهِ فما زالَ طِيْبُ عَرْقِهِ فَائِحًا.

قال الله العَظِيم في كِتَابِهِ الكريم: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: الآية ٧٣]، ثَمُودُ هُوَ جَابِرُ بنُ آدَمَ بنِ سَام بن نُوحٍ أُرْسِلَ إلى أولادِهِ صَالِحُ بنُ عُبَيدَ بْنِ أنيفٍ مِن أولاد ثمودَ أيضًا، والثمَدُ: المَاءُ القَلِيلُ الَّذِي لا مَادَّةَ لَهُ وإنَّما قالَ أَخَاهُم: لأنَّه مِن قبيلهم.

وقصتـه:

لما أَعْرَضَتْ ثمودُ عن كُلِّ فِعْلٍ صَالِحٍ بُعِثَ إليهم للإصْلاحِ صَالِحٌ. نَعتَتْ عليهِم نَاقةُ هَواهُمْ بِطلبِ نَاقةٍ، فخرجَتْ من صَخرةٍ صَمَّاءَ تُقَبقبُ، ثُمَّ فصل عنها

فصيلٌ يَرْغُو فَارْتَعَتْ حَوْلَ نَهْيِ نهيِهم عَنْها في حِمَى حِمَايَةِ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ [الأعرَاف: الآية ٧٣] فَاحْتاجَتْ إلى الماءِ وهُو قَلِيلٌ عندَهم، فقالَ حاكِمُ الوَحْيِ ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٥٥]، فكانَتْ يومَ وِرْدِهَا يَقْضِي دَيْنَ الماءِ بماءِ دَرِّهَا، فاجتمعُوا في حُلَّةِ الحِيْلَةِ على شاطِئ غَدِيْرِ الغَدْرِ، فَدارَ قُدَارُ بنُ سَالفٍ لِيحُوْلَ حولَ العَطَنِ، فَتَعاطَى فصَابَ عليهِم صَيِّبُ صَاب صاع صَاعِقَةِ العَذَابِ الْهُوْنِ، فحينئذٍ دَنَا ودَنْدَنَ دَمْغَهُمْ دِمَارُ فَدَمْدَمَ فَأَصْبَحَتِ المَنازِلُ لِهَوْلِ ذلكَ النَّازِلِ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يُونس: الآية ٢٤]، فَانْتَهَى وما هُو إلاَّ أنْ صَعِدَ مَظلُومُ فَصِيلِها بِذِرْوَةِ الجَبَلِ، فَرَغَى كَالمَظْلُومِ إذا دَعَا بالإنصافِ مِمَّن بَغَى علَيهِ، وَالمَدْعُو يَعلَم ما في طَيِّ رَفعِ الدُّعاءِ مِن معنى بَثِّ الشَّكْوَى، لأنَّه ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ [طه: الآية ٧]، و﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٢] فوَقَعَ لِفصيْلِها الرَّاعِي بِنَصْفِ المَظْلُوم مِنَ البَاغِي، فَبَادَرَ مُسَطَّرُ القَدْرِ مُمتثِلًا وبهذِه ناقةُ النَّفسِ مِن أعظمِ الآيَاتِ قَدِ انشقَّتْ عنهَا صَخرةُ الإِيْجادِ بِالعِنايَاتِ لِتَرتَعَ في أرضِ الشَّهوَاتِ، فَاحْذَرْ عليها مِن قُدارِ الهَوَى وتَوَقَّ مُخالَفَةَ صَالِحِ مَصالِحَ التَّقوى فكَمْ مِن ناقةٍ أَرْمَلَةٍ ظُلِمَتْ، وكَم مِنْ فَصِيلٍ يَتِيْمٍ قُهِرَتْ فَأَلِمَتْ وَالَّذِي أَهْلَكَ ثَمودَ وَيَجعَلُ البَاغِي البَاقِي لِيَجْزِيَهُم ثَمَدًا وإنْ أَمْهَلَكَ فما أَهْمَلَكَ، ولكنَّ الحاكِمَ جَعَلَ للأَحكامِ العليَّةِ الأَزلِيَّةِ أَمَدًا وَمُدًّا. وينشد:

كأَنَّكَ لَم تَسمَعْ بأخبارِ ما مَضَى ... ولـم تَرَ في الباقِينَ ما يَصنَعُ الدَّهْرُ
فَإنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيارُهُم ... مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيْح قَبْلَكَ وَالقَطْرُ
عَلَى ذَلِكَ مَرُّوا أجمَعُونَ فَهَكَذَا ... تَمُرُّوْنَ حَتَّى يَأْتِي الحَشْرُ والنَّشْرُ
فَحَتَّى متى لاَ تَصْحُوا وقَد قَرُبَ المُدَا ... وحَتَّى متى لا يَنْجَابُ مِنْ قبلكَ السُّكْرُ
بَلَى سَوْفَ تَدْرِيْ يَوْمَ يَنكشِفُ الغِطَا ... وتَذْكُر قَوْلِيْ حِيْنَ لا يَنْفَعُ الذِّكْرُ

إخواني، أَهْلُ الذُّنُوبِ بدُنْيَاهُم نَارٌ بلا جَنَّةٍ وَالقومُ منها في عذابٍ أَلِيمٍ المالِكُ الهَالِكُ، وَالمُوْسِرُ المُخسِرُ، وَالسَّالِمُ مثلُ السَّلِيْمِ.

وعظ:

فَاعْتَبِرُوا إخوانِي بِهَؤلاءِ الهالِكِيْنَ، وَانْظُرُوا سُوءَ تَدْبِيرِ الخَاسِرِيْنَ لا بِالنَّاقَةِ، واعْتَبِرُوا وَلا لتَعوِيْضِهِم اللَّبَنَ شَكَرُوا، عَتَوا عَنِ النِّعَمِ وَبَطَرُوْا وَعَمُوْا عَنِ

الكَرَمِ فَما نَظَرُوا وأُوعِدُوا بالعَذَابِ فما حَذَرُوا، وكُلَّما رَأَوا آيَةً من الآيات كَفَرُوا. الطَّبعُ الخَبِيثُ لا يَتَغَيَّرُ، وَالمُقَدَّرُ إضْلالُه لا يَزالُ يَتَحَيَّرُ، خَرَجَتْ لَهم نَاقَةٌ مِنْ أحْسَنِ النَّعِم، ودَرَّ لَبَنُهَا لَهم فَتَوفَّرتِ النِّعَمُ فَكَفروا وما شَكَروا فَأَقبلَتِ النِّعَمُ أَعَاذَنَا الله وإيَّاكُم مِن الكُفْرانِ، وَاحْفَظْنَا وإيَّاكُم مِن مُوجِبَاتِ الخُسْرانِ، إنَّه إذا لَطَفَ صَانَ. وينشد:

أَتَعْصِي الله بَعدَ الشَّيْبِ جَهلًا ... كَما قَد كُنْتَ تَعْصِيْهِ غُلَامًا
وتَقْطَعُ طُوْلَ عُمْرِكَ بِالتَّمَنِّي ... وَبالتَّسْويفِ عامًا بَعْدَ عَامًا
أَرَاكَ عَلَى البَطَالَةِ لا تُبَالِي ... حَلالاً كانَ كَسْبُكَ أَوْ حَرَامًا

يَا عَاصِي ابْكِ على ظَلامِ قَلْبِكَ يُضِيءُ إذا بَكَى السَّحابُ عَلَى الرُّبَا تَبَسَّمَتْ، اسْتَغِثْ يَا بَعِيدُ أُنْدبْ، يَا طَرِيْدُ تَأَسَّفْ، يَا مَهجورٌ تَقَلْقَلْ، يَا مَأْسُوْرٌ، يَا مَنْ يُحدِّثُ نَفْسَهُ بالتَّوْبَةِ، وَيَتَوَقَّفُ لِلتَّأْخِيْر آفَاتٌ. وينشد:

تَعَالَ قَد أَمْكَنَ المَكَانُ ... وَاحْسُرْ عَلَى الوَصْلِ يَا جَبَانُ
عَجِّلْ فَإنَّ الزَّمانَ غِرٌّ ... مِن قَبْلِ أن يَفْطُنَ الزَّمانُ
وَيحَكَ تَقُوْلُ أَنْتَ تائِبٌ ... وَمَا تَدْرِي مَا تحتَ هَذا الضَّمانِ

لاَ يُحكَمُ بصِحَّةِ إقرارِكم حتى تعلمُوا ما تَقُولُونَ إذا صَدق التَّائِبُ إنني أنا الله الملك ما كَتَبَ وَأوحي إلى الأرْضِ اكتُمِي عَلَى عبدِي. وينشد:

لاَ عُدْتُ أفعَلُ مَا كُنْتُ أفعَلُه ... عُمرِي فَخُذْ بيَدِي يَا خَيْرَ مَنْ رَحِمَا
هَذا مَقامُ ظلُوم خائِفٍ وَجِلٍ ... لم يَظلِمِ النَّاسَ لكِن نَفسَه ظَلَمَا
فاصْفَحْ بفضلِكَ عَمَّن جاءَ مُعتَذِرًا ... وَاغْفِرْ ذُنوبَ مُسِيءٍ طالَ مَا اجْتَرَحَا

يا بَعِيْدَ صَلاحِ الصُّلح ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: الآية ٤٠] يا مُطْلِقِي أنفسِهِم في الخَطَايا، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢﴾ [المزمل: الآية ١٢]، يا عاصِي احْذَرْ فِرْعَوْنَ الهَوى، فإنَّه يُصلِّبُ على جُذوعِ النَّخلِ قد قَسَتْ قلوبُكُم فصارَت كَالحَدِيْدِ فَقَرِّبُوهَا إِلَى نَارِ المَوَاعِظِ، وَدَعُونِي أَنْفُخُ كِيْرَ التَّخْوِيفِ وَإلاَّ ما يَنفَعُ الضَّرْبُ في حديدٍ بَارِدٍ، يا عَاصِي تعزمُ على قيامِ اللَّيلِ فَتَنَامُ فَتَقُولُ مَا السَّبَبُ؟ وتَحضُرُ المجلسَ ولا تَبكِي، وتقولُ: مَا الَّذِي قَسَى قلبِيْ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ

أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمران: الآية ١٦٥]، إذا عصيتَ بِالنَّهارِ نِمْتَ بِاللَّيلِ أَكَلْتَ الحَرَامَ فَأَظْلَمَ القَلْبُ فَلَمَّا فُتِحَ بابُ التَّوبةِ لِلمَقْبُولِيْنَ طُرِدْتَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: الآية ١٠].

اتَّقِ الله فإنَّ الدُّنْيَا حلالُها حِسابٌ، وحرامُها عِقابٌ، لكنَّكَ صَادَقْتَ أهل الهَوَى فَصَدَّقْتَهُ أهلُ الهوى أطفَالٌ في حُجُورِ العَاداتِ، وإنْ شَاخُوا كَم حَجَبَكَ عُجْبُكَ عَنْ أُعْجُوبَةٍ. وينشد:

سَقْيًا لِزَمَنٍ وَصْلِنَا مِنْ زَمَنِي فَمَا أسرَعَ مَا انْقَضى عَنِّي وفَنِي
كُنَّا وكَأَنَّما مَضى لم يَكُن وَا حُزْنِي عَلَى القَضَا وَا حُزْنِيْ

شعر:

يَا قَلبُ صُرُوفُ دَهْرِنَا أَلوانٌ يا قَلبُ مَتَى تَحوَّلَ السُّكَّانُ
نَادَيتُ وفي حَشَاشَتَيْ نِيْرَانٌ بَانُوا عَنْهَا فليتَهُم مَا بَانُوا
نَسْأَلُهَا عنهُم لِيَنْطِلِقَ الأَوْطَانُ فَاسأل مُذْ رَحلُوا أقامَتِ الأَحزانُ

إخواني، وَيحَ المُسْتَكْثِرِيْنَ مِنَ الخطايَا ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ [المطففين: الآية ٤] مَا كَفَاهُم نُزُولُ خِيَمِ المَعَاصِي حَتَّى ضَرَبُوا سُرادِقاتِ الإِصْرارِ كَم رَأَوْا مُذْنِبًا يَسْرَحُ في مَيْدَانِ بَيْدَاءِ غَفْلَتِهِ إِذَا كَفُّ الاخْتِلاسِ قَدْ جَذَبَتْهُ إلى حُفْرَتِهِ، فَسَلْ به في سَلْبِهِ كَيفَ حَالَهُ مَعَ ذَنْبِهِ. شعر:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

أَمْرِيْ وأَمْرُكُم عَجَبٌ عَجِيْبٌ قَلْبِيْ حَزِيْنٌ وَأَنْتُمْ لا تُبالُونَ، كَانَ الزّهْدُ خِرْقَةً فَصَارَ في ظَواهِرِ الثِّيَابِ، كَانَ الزُّهْدُ حُرْقَةً فصارَ اليومَ خِرْقَةً، وَيحَكَ صَوِّفْ قلبَكَ لاَ جِسْمَكَ، وَأَصْلِحْ نِيَّتَكَ لا مُرَقَّعَتَكَ. وَا فَضِيْحَتَا يَا مُبَارِزِيْنَ بِالخَطَايَا احْذَرُوْا سُرْعَةَ الأَجَلِ ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [صٓ: الآية ٥٥] إِنَّمَا يَنْفَعُ الوَعْظُ قَلْبًا لَهُ يَقْظَةٌ، وَإِنَّمَا يَنْتَبِهُ نَائِمٌ لا مَيِّتٌ. شعر:

لاَحَ المَشِيْبُ بِعَارِضَيْكَ فَأَعْلَنَا أن لا مَحِيْصَ لكَ الغداةَ مِنَ الفَنَا

فَدَعِ التَّشَاغُلَ بِالَّتِي تَشْقَى بِهَا ... وَانْهَضْ إلى جدٍّ وَدَعْ عنكَ الوَفَا

يَا عَاصِيْ تَفْعَلُ المَعَاصِيَ بِاللَّيْلِ وتَتَحَدَّثُ بهَا بِالنَّهَارِ فَتكشِفُ عَورَتَكَ بِيدِكَ يَا خَسِيْسَ النَّفسِ إِذَا لَم تَسْتَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ. شعر:

وَلِيْ فيكِ يَا حَسْرَتِيْ حَسْرَةٌ ... تُقَضِّيْ حَيَاتِيْ وَما تَنْقَضِيْ

يَا عَاصِيْ احْذَرْ مَنْ أَخْرَجَ أَبَاكَ، وَا عجبًا كيفَ تُسَلِّم مِفتاحَ قلبِكَ إِلَى من سلب قلب أبيك إذا عمي القلب سُلِّط عليه النفس إذا غفل العقل أُدِيْلَ عَلَيْهِ الطَّبْعُ إِذَا عَصَانِي مَن يَعْرِفُنِي سَلَّطتُ علَيه مَن لا يَعْرِفُنِي، يَا مَنْ قَلبُه أَقْسَى مِنَ الحَجَرِ، خُذْ بِيَدِكَ الفِكْرَ فَأَحْضِرْهُ عِنْدَ المُحتَضَرِيْنَ، وَانْظُر كَيْفَ مُنِعُوا التَّصَرُّفَ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: الآية ٥٤]، ثُمَّ اخْرُجْ إلى المقَابِرِ وقُل لِلقَوْمِ مَاذَا يَتَمَنَّوْنَ فَإِنَّهُم يَتَمَنَّوْنَ سَاعَةً مِن عُمْرِكَ قُمْ فَمُرْ بِهِ سَاعَةً في عَرْصَةِ القِيَامَةِ بَيْنَ المُفرِّطِيْنَ تَرَى الوَادِي قَدِ امْتَلَأَتْ بِدُمُوعِهِمْ، ثمَّ انْطَلِقْ بِهِ إلى جَهَنَّمَ تَسْمَعْ أَصْوَاتَ المَسجُونِيْنَ يَستغِيثُونَ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٢]، ثُمَّ أَنْصِتْ لِجَوابِ الكُلِّ قُضِيَ الأَمْرُ. وينشد:

إذا كانَ قَلبِي مُوثَّقًا فِي حِبَالِكُم ... وَجِسْمِي لَديْكُم كَيْفَ أفهَمُ عَنْكُمُ

فَإن شِئْتُمْ أَنْ تَعْدِلُوا فَوَاصِلُوا ... إلى أن يَعودَ القلبُ ثمَّ تَكَلَّمُوا

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لي ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلا مُتَقَدَّمُ

أَجِدُ المَلامَةَ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً ... حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وَا عجبًا لقُلوبِ القَومِ ما تَحملُ غَرْزَ إِبْرَةٍ مِنَ الأَلَم! فَكَيْفَ احْتَمَلَتْ أَلِيْمَ اللَّوْمِ العَظِيْمِ الكثير لا يَحمِلُ ثِيابَهُ ثُمَّ يَحْمِلُ العِصَابَةَ ضَرُورةً، يا مَن سُوْرُ تَقْوَاهُ كَثِيْرُ الثَّلْم، وَأعداؤُه قد أَحَاطُوا البَلَدَ، وَيحَكَ قَبْلَ الرَّمْيِ تُرَاشُ السِّهَامُ، لقد خَدَعَ قَلبَكَ الهَوَى فَاسْتَرَقَ وَاسْتَرَقَ أَضَرُّ مَا عليك سُوء تَدْبِيْرِكَ في حَقِّ نَفسِكَ، وا عجبًا لِمَن أُصِيبَ قَلبُه، وَقَلْبُهُ مَعَهُ. شعر:

ظَنَّ غَداةَ الحَيْفِ أن قد سَلِمَا ... لَمَّا رَمَى سَهْمًا وَمَا أَجرى دَمَا

فَعَادَ يَسْتَقْرِي حَشَاهُ فَإذا ... فُؤادَهُ مِن بَينِهَا قَدْ عَدِمَا

لَم يَدْرِ مِن أينَ أُصِيْبَ قَلبُه ... وَإِنَّما الرَّامِي دَرَى كَيفَ رَمَى

وَعظ:

يَا مَنْ يُدْعَى إلى نَجَاتِهِ وَلاَ يُجِيبُ، قَد رَضِيَ أن يَخْسِرَ وَيَخِيْبَ، إنَّ أَمْرَكَ ظَرِيفٌ وَحَالَكَ عَجِيْبٌ، أُذْكُره في زَمانَ رَاحَتِكَ سَاعَةَ الوَجِيْبِ. يَا مَنْ يَلهُو وَيَصْبُو بَعدَ المَشِيْبِ، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾.

ويحَكَ إنَّ الحقَّ حاضِرٌ ولا يَغِيْبُ، وهو يُحصِي عليكَ أعْمَالَ الطُّلوعِ وأَفْعَالَ المَغِيبِ، ضَاعتِ الرِّيَاضَةُ في غَيْرِ نَجِيْب، وسِيماكَ تَدُلُّ ومَا يُخْفِي المريْبُ، لاَ بُدَّ لِغِرْبَانِ الفِراقِ من نَعِيْبٍ، أَفَتُسَاكِنُ الغفلةَ وَتَغْتَرُّ يَا رَغِيْبُ، يَا مَن سِلْعَتُه كُلُّها مَعِيبٌ، أُذكر يومَ التَّوْبِيخِ وَالتَّأْنِيْبِ، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾.

تَذَكَّرْ مَن قَد أُصِيبَ كَيفَ نَزَلَ بِهِ يَوْمٌ عَصِيْبٌ، وَانْتَبِهْ لأَخْذِ الحَظِّ والنَّصِيْب، وَاحْتَرِزْ فَعَلَيْكَ شَهِيدٌ وَرَقِيبٌ، لاَ بُدَّ مِن فِراقِ العيشِ الرَّطِيْبِ، وَالْتِحَاقِ البَلاءِ مَكانَ الطِّيْبِ، وَا عجبًا، بَعدَ هذِهِ اللَّذَّاتِ كيفَ تَطِيْبُ، وَاختَبِرْ قَلْبَكَ بوَعْظِ الخطِيْبِ، إذَا حلَّ المَوْتُ حُلَّ التَّركِيْبُ، وصُقِلَ مُقَلُ القُلُوْبِ في قَالَبِ التَّقلِيْبِ، فَيُزعَجُ الرُّوحُ إزْعَاجَ الصُّرَيْمَةِ أَحَسَّتْ بِذَنْبٍ فَالْتَفِتْ يَا مُحِبَّ الهَوَى عَن هَذَا الحبِيْبِ، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [قَ: الآية ٤١].

كيف بِكَ إذَا أُحْضِرْتَ في مَكانٍ كَئِيْبٍ، وعَلَيْكَ ذُنُوْبٌ أَكْثَرُ مِنْ رَمْلٍ كَثِيْبٍ، والمُهَيْمِنُ الطالبُ وَالعظِيمُ الحسِيْبُ، فحينئذٍ يَبْعُدُ عنكَ الأهلُ والنَّسِيْبُ، والنَّوْحُ أَولى بِكَ يا مَغْرُورُ مِنَ النَّسِيْبِ، أَتُؤمِنُ بهذَا أَمْ عِندَكَ تَكْذِيْبٌ، يا مُطَالبًا بِأَعْمالِهِ، يا مَسؤُولاً عَنْ أفعالِهِ، يَا مُنَاقَشًا عَلى كُلِّ أَحوالِهِ، يَا ذَاهِلًا عَن تحقيقِ أقوالِهِ، نِسْيَانُكَ لهذَا أَمْرٌ عجيبٌ، أَتَسْكُنُ إلى العافيةِ وَتُسَاكِنُ العَافِيَةَ وتَظُنُّ آمالَ الغُرورِ وَافِيةً لا بُدَّ مِن سَهمٍ مُصِيبٍ، لَو أَحْبَبْتَ الخَلاصَ أَحسَنْتَ، ولَو آمَنْتَ بِالعَرْضِ لتجمَّلْتَ وتَزَيَّنْتَ، يا مَن قَدِ انْعَجَمَتْ عليه الأُمورُ ولَو سَأَلْتَ لَتَبَيَّنَتْ، ويحكَ أَحْضِر قلبَكَ إنَّما أنتَ في الدُّنيا غريبٌ، إلى متَى مَع أغْراضِكَ، ومَتَى يَنْقَضِيْ مِنْكَ زَمانُ إعْرَاضِكَ، مَتَى يَتَهَيَّأُ منكَ زمَانُ إنْهَاضِكَ، بِالله لَقَدْ كَارَعَ عَنْ

أمراضِكَ الحاذِقُ الطَّبِيْبُ، اللَّهُمَّ ارْفُقْ بِمَرِيضِ الهَوَى في مَارِسْتَانِ البِلَى، اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَيَّارةَ الأَفْكَارِ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيْقِ البِلَى، اللَّهُمَّ لا تُمِتْ حَيَّ العِلْمِ فِي حَيِّ بِلادِ الجَهْلِ، اللَّهُمَّ أَخْرِجْنَا إِلى نُورِ اليقينِ مِن هذَا الظَّلامِ ولا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ رَأَى الصُّبْحَ فَنَامَ، وَاغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا ولجميع المسلمينَ وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا.

مَجْلِس فِي بِدَايَةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ واجْتِمَاعِهِمَا بَعْدَ القبول وحَدِيثِهما:

لَمَّا سَرَتْ مِن بِحَارِ الحِكمَةِ جَدَاوِلُ المَوادِّ الربَّانِيَّةِ، وبَدَرَتْ مِن سُجُفِ لُحُفِ مَكْنُونِ الكَوْنِ بُدُوْرَ الخَلْقِ الرُّوْحَانِيَّةِ، وجَرتْ خيُولُ الإرادَةِ في فُسْحَةِ سَاحَةِ مَيْدَانِ القُدرَةِ الإلٰهِيَّةِ بِخِلْقَةِ دُرَّةٍ مَكنُونةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، أَبْدَعَ مِن لآلِئ شُعاعِ جَوْهَرِهَا جَوْهَرًا خَفِيْفًا نَيِّرًا يَفُوقُ الجَواهِرَ لاتِّصَالِهِ بِلَمْحَةِ نَظْرَةِ المَوَادِّ الكُلِّيَّةِ، صَيَّرَهُ عَقْلًا لإِقَامَةِ الحجَّةِ على ذَوِي الصُّوَرِ الرُّوحانِيَّةِ، ثُمَّ طَلَعَتْ كَواكِبُ الإِرَادَةِ في سَماءِ الحكمةِ البالغَةِ، وَجَرَتْ أنهارُ الاخْتِيارِ من عَناصِرِ القدرَةِ القاهرةِ الدَّامِغةِ، بخِلقةِ آدمَ وإبليسَ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٧]. وينشد:

ضِدَّانِ قَد نَظَرَت الشَّتَاتُ إلَيهِمَا — فَتَفَرَّقَا مِنْ عُنْصُرِ الإبْداءِ
هَذا لِقُرْبِ النَّارِ فَارَقَ طَبْعَهُ — فَسَمَا بِخِلْقَتِهِ علَى الجَوْزَاءِ
والضِّدُّ أَصْبَحَ مِن ترابٍ خَلْقُهُ — وَالتُّربُ مَادَّتُهُ مِن الظَّلْمَاءِ
لكنْ في طَبْعِ التُّرابِ بُرُودةٌ — نَبَعَتْ عَناصِرُهَا بِعَذْبِ المَاءِ
قُل كَيفَ اجْتَمَعَا مَعًا وعليهِمَا — مُغْرٍ يَقُودُهما إلى الإغْرَاءِ
ماءٌ ونَارٌ غَادِيَانِ كِلاهُما — بِعِنايَةٍ وإرادةٍ وقَضاءِ

أطلقَ إبليسُ في جَلْبَةِ الملائكةِ عِنَانَ القُرْبِ وجرَّرَ في بسَاطِ الانْبِسَاطِ ذَيْلَ العُجْبِ، سَمَتْ بِهِ الهِمَّةُ النَّارِيَّةُ بواسطةِ المعرفةِ الرَّبَّانِيَّةِ، ضُمِّرَتْ خُيولُ عبادَتِهِ مِنَ الكِبْرِ وكانَ مِن المقرَّبينَ. شعر:

وَصَلَتْ سُلَيْمَى وَالوِصالُ شِعَارُهَا — وفَشَتْ بِصِدْقِ وِدادِهَا أَسْرارُهَا

مَا كانَ أَحْسَنَها تَجُرُّ ذَيْلَها تِيْهًا ... وقَـد سَـتَـرَ الـنُّـصَـيْـفُ إزرَارُهَـا

ضَحِكَتْ غِمامُ غَيثِ القُدرةِ بِإظْهَارِ الوُجُودِ، أَشْرَقَتْ في سَماءِ الحكْمَةِ شَمسُ العَزِيْمَةِ وَالمقصُودِ، رُمِيَ عَنْ قَوسِ العَدَمِ سَهْمُ الإصابَةِ في ذَوِي الأجسامِ الشَّرِيفةِ، وَالأَرْواحِ اللَّطيفَةِ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، خَفَقَتْ أَجْنِحَةُ إبليسَ عَن مَتْنِ الهَوَى، غَلَبَ قَاضِي شَهْوَتِهِ الغَرِيْزِيَّةِ على خَصمِ الهُدَى، طَمَأَ بَحْرُ غَيِّهِ لَمَّا اجْتَمَعَتْ له الأَهواءُ هَوَى، سُبِكَ في بُوْطَةِ الإِيْدَاعِ ذَهَبَ مِرْآةِ أَجْرَامِ البَشَرِيَّةِ، نَادَى مُنادِي التِّبْيَانِ في عالَـمِ البَيَانِ في العَصْرِ الغَابِرِ الَّذِيْ تَقَادَمَ إِليَّ يَا مَعَاشِرَ الملائكةِ ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٤] قَدحَ زِنادُ عُجْبِ إبليس نارَ موجِ شَهْوتِهِ الغَرِيزِيَّةِ أَظْلَمَتْ كَواكِبُ قَبُولِهِ بِمَوادِّ العِلَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ، قالَ أَنَا فَوقَعَ في العَنَا. وينشد:

تُـطالِـعُـنِـي خِـبالاتٌ لِـسَـلْـمَـى ... كَـمَـا يَـتَـطَـلَّـعُ الـدَّيْـنَ الـغَـرِيْـمُ
وتَـلْـحَـظُـنِـيْ فَـأَعْـلَـمُ مَا تَـرُوْمُ ... أُلاحِـظُـهَـا فَـتَـعْـلَـمُ مَا بِـقَـلْـبِـي

يَا هذا كُنتَ تَرْعَى حُبَّنَا، وتُؤْثِرُ القُربَ مِنَّا، فَمَا هَذَا الصَّبْرُ الَّذِي عافَكَ عَنَّا؟ كُنْتَ تَسْتَطِيْبُ رِيَاحَ الأَسْحَارِ وما تَغَيَّرَ المَهَبُّ ولكِنْ دَخَلَ فَصلُ بَرْدِ الفُتُورِ وَلَمْ تَحْتَرِزْ فَأَصَابَكَ زُكَامُ الكَسَلِ، كُنْتَ في رَعِيْلِ الأَوَّلِ فَمَا الَّذِي رَدَّكَ إلى السَّاقَة، قِفِ الآنَ على جَادَّةِ التَّأَسُّفِ، وَالْزَمِ البُكَاءَ عَلَى التَّخَلُّفِ فَأَحَقُّ النَّاسِ بِالأَسَى مَنْ خُصَّ بِالتَّعْوِيقِ دُوْنَ الرُّفَقَاءِ، يا مَعَاشِرَ العُلَمَاءِ كَم قَد كَتَبْتُم ودَرَسْتُم، ثُمَّ إِنَّ طَلَبَكُمْ العِلمُ في بَيْتِ العَمَلِ فَلَستُم لَو نَاقَشَكُم الإخلاصُ لأَفْلَسْتُم شَجَرَةُ الإخلاصِ أَصلُها ثابتٌ لا يَغُرُّهَا زَعْزَعُ أينَ شُرَكائِي، وأَمَّا شجَرةُ الرِّيَاءِ فَاجْتُثَّتْ عِنْدَ نَسِيمِ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ [الصَّافات: الآية ٢٤] وَا أسَفًا مَا أَكْثَرَ الزُّوْرَ. شعر:

وَمَا كُلُّ مَا أَوْمَى إلى العِزِّ نَالَهُ ... ودُونَ العُلَى ضَرْبٌ يُدْمِي النَّوَاصِيَا
أَمَّـا الـخِـيـامُ فـإِنَّـهَـا كَـخِـيَـامِـهِـمْ ... وَإِذَا نِـسَـاءُ الـحَـيِّ غَـيْـرُ نِـسَـائِـهَـا

ليسَ كُلُّ مُستدِيرٍ هِلاَلاً يَا مَعاشِرَ العُلَماءِ، أَتَقْنَعُوْنَ مِنَ الصِّفاتِ بِالأَسْمَاءِ؟ أَتُؤْثِرُونَ الأَرْضَ عَلى الأَسْمَاءِ؟ أَفِي السُّكْرِ أَنْتُم أَمْ في الإِغْمَاءِ؟ أَتُغْمِضُونَ العُيُونَ مِنْ غَيْرِ كَرَى النوم تَنَامُوْن، فَمَنْ يَحملُ السُّرَى؟ أَتَحُلُّوْنَ عَقْدَ أَنَّ الله

اشْتَرَى؟ كَم حَوْلَ مَعْرُوفٍ مِنْ دَفِيْنٍ ذَهَبَ اسْمُهُ كَمَا ذَهَبَ رَسْمُهُ وَمَعْرُوْفٌ مَعْرُوْفٌ. وينشد:

لَعَلَّ اليَومَ إنْ أَجْرَيْتَ دَمْعًا عَلَى الوَجَنَاتِ مِن أَلَمِ الخَطَايَا
يَجُوْدُ عليكَ بِالغُفْرَانِ مَوْلَى كَثِيرُ العَفْوِ مُتَّسِعُ العَطَايَا

يَا نَازِلاً بِوَادِ الهَوَى اِنْزِلْ ساعَةً بِوَادِ الفِكْرِ يُخْبِرُكَ بِأَنَّ اللَّذَّةَ قَصِيْرَةٌ، وا عَجَبًا لِمَنْ يَشْتَرِي شَهْوَةَ سَاعَةٍ بِغَمِّ الأَبَدِ كَانتِ المَعْصِيَةُ لا كَانَتْ، فَكَم ذَلَّتْ بَعْدَهَا النَّفْسُ، وكَمْ تَصَاعَدَ لأَجلِهَا النَّفَسُ، وكَمْ جَرَى لِتِذْكَارِهَا دَمْعٌ.

وعظ:

لَقَدْ وَعَظَ القُرآنُ المَجِيدُ يَبْدَأُ التِّذْكَارَ عَليكُم ويُعِيدُ غَيرَ أَنَّ الفَهمَ بَعِيدٌ وَمَعَ هَذا قد سَبَقَ العَذابَ التَّهدِيدُ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: الآية ٤٥]، إنَّ في القرآن مَا يُلَيِّنُ الجَلَامِيدَ، وكَمْ أَخْبَرَكَ بإهلاكِ المُلُوكِ الصَّعِيْدِ وأَعْلَمَكَ بأنَّ الموتَ بِالبابِ وَالوَصِيْدِ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

إنَّ مَوَاعِظَ القُرآنِ تُذِيْبُ الحدِيْدَ، وَالمفهُومُ كلّ لَحْظَةٍ زَجْرٌ وتَهْدِيدٌ وتوبِيخٌ جَدِيدٌ وَلِلقلوبِ النَّيِّرَةِ كلَّ يومٍ بِهِ عِيْدٌ، غَيْرَ أَنَّ الغَافِلَ يَلهُوْ ولا يَسْتَفِيْدُ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أَمَا المَوْتُ لِلْخَلائِقِ مُبِيْدٌ؟ أَمَا تَراهُم قَد مَزَّقَهُمْ في البِيْدِ؟ أَمَا دَاسَهُمْ بِالهلاكِ دَوْسَ الحَصِيدِ؟ لا بِالبَسِيْطِ يَنْتَهُونَ، ولا بِالنَّشِيْدِ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أَيْنَ مَنْ كانَ لا يَنظُرُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ؟ أَيْنَ مَنْ أَبْصَرَ العِيْرَ وَلَم يَنْتَفِعْ بِعَيْنَيْهِ؟ أَينَ مَن بَارَزَ بالذُّنوبِ المطَّلِع عليهِ؟ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: الآية ١٦]. أَيْنَ مَنْ كَانَ يَتَحرَّكُ في أَعْراضِه ويَمِيدُ ويَغْرِسُ الجِنَانَ ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [قٓ: الآية ١٠]، ويُعْجِبُهُ هِتَافُ الوُرْقِ على الوَرْقِ بِتَغْرِيْدِ، كَانَ قرِيبًا فهُو اليومَ بَعِيدٌ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: الآية ٤٥].

أَحْضِرُوا قُلوبَكم فَإِلَى كَمْ تَفْنِيْد؟ يَا مَعْشَرَ الشُّيوخِ في عَقْلِ الوَرِيد، أَمَا مِنْكُم مَن يَذكُر أَنَّهُ في قَبْرِهِ وَحِيْدٌ؟ أَفِيْكُم مَن يَتَصَوَّرُ تَمْزِيقَهُ والتَّشْرِيْدُ؟ غَدًا يُبَاعُ أَثَاثُ البَيْتِ فَمَن يَزِيْدُ غدًا يَتَصرَّفُ الوارِثُ كما يُرِيْدُ. غَدًا يَسْتَوِي في بَطْنِ الأَرْضِ الفَقِيرُ وَالعَمِيدُ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قَ: الآية ٤٥].

يَا قَوْمِ سَتقُومُونَ لِلمُبْدِئ المُعِيْدِ، يَا قوم سَتُحَاسَبُونَ عَلَى القَرِيْبِ وَالبعِيدِ، يا قومِ المقصودُ كُلُّه بيتُ القَصِيْدِ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هُود: الآية ١٠٥].

فلَمَّا آنَ أَوَانُ إظهارِ آثارِ صَفاءِ صَدَفةِ آدَمَ مِن بَحْرِ العَدَمِ غَاصَ غَوَّاصُ القَدَرِ فَجَذَبَها بِيدِ الإرادَةِ جَعَلَها عَلَى سَاحَةِ سَاحِلِ صَرْحِ الوُجُودِ فَنَصَبَهَا قِبْلَةً لِلسُّجودِ.

غَيرَ أَنَّ اللَّعِينَ إِبْلِيسَ قيلَ له: مَا مَنَعَكَ مِنَ السُّجُودِ؟ أَخرَجَ فِرْزَانَ المُخالَفَةِ مِن زَاوِيَةِ الوُرُوْدِ، حَرَّكَ شَاةَ المَشِيَّةِ في بَيْتِ فَرَسِ فِرَاسَتِهِ، طُرِدَ مِن سَاعَتِهِ، قَال لِحَوَّاءَ بِلِسَانِ النَّصِيحَةِ يَرُومُ الفَضِيْحَةَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠]، كَانَ آدَمُ مشغولاً بِالمُرَاقبَةِ، وَحَوَّاء مَعَ إبليسَ في المُعَاتبَةِ جَاءَتْ لآدَم مِنْهَا بِحَبَّةٍ سُلِبَ عِندَ ذلكَ المَحَبَّةُ، نَادَتْهُ الأَشْجَارُ وَالأَوْرَاقُ؛ يا آدمُ خَسِرْتَ بِبُرَّةٍ بَرَّةَ الملعونُ إبليسُ، كُتِبَ على جَبِيْنِهِ بِقَلَمِ التَّدْلِيْسِ مَا لَكَ يا مَلْعُونُ يَوْمَ الأُنْسِ مِنَ الأَنِيْس عند اللعين إبليس بقوله: ما منعك للسجود من الأنيس؟ نَظَرَ إلى إشراقِ إِحْرَاقِ النَّارِ، قال: بهَذَا يُحْرَقُ الفُجَّارُ، وَلِي عليه بذلكَ سطوةُ الافْتِخارِ، فَإِنَّ هَذَا الَّذِي أَمَرْتَنِي بالسُّجُودِ لَهُ بَرَّزْتُ لَهُ في أَوَّلِ الدَّسْتِ ضَرَبْتُه شَاه مَاتَ أَخْرَجتُهُ مِنْ دارِ الكَرَامَاتِ. قيلَ له: يا ملعونُ سَوفَ تَبلُغُهُ النَّوبةُ وتَأْتِيْهِ دُخُّ التَّوبَةِ، وتَسمَعُ النِّدَاءَ بما يَكْتُبُ الأَعْدَاءَ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: الآية ١٢٢]، خَرَجَ له مِنْ وَتَرِ قَوْسِ القُدرَةِ سَهْمٌ أَشْعَلَهُ نِيْرَانًا وَشُهُبًا وَلَّى الملعونُ هَرَبًا تَعبًا. وينشد شعرًا:

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ يَا مَوْلايَ تَجْفُوْنِيْ ... ولا تُواصِلُ مَن أَضْحَى بِهَا دُوْنِي
أَلَسْتُ مِن نارِ نُورُ النَّارِ كُنت أَنَا ... سَوَّيْتَنِيْ وَهُوَ حَقًّا كانَ مِنْ طِيْن
لأَعَبْتُهُ مُوْثِقًا أَن لَيسَ تَغْلِبُنِي ... وكُنْتُ أَلْعَبُ مِنْهُ فِي الأَحَايِيْنِ
وقُلْ قَدْ مَاتَ شاهُ الخَصْمِ حِيْنَ بَدَا ... قِيْلَ الهَوَى وَهُوَ بِالفِرْزَانِ يُغْرِيْنِي

فعادَ شَاهِيْ لِشُومِيْ بَيْنَ رُخَّيْهِ   وقَدْ تَعَقَّدَ دَسْتِي بِالفَرَازِيْنِ
جَهِلْتُ مَا كُنْتُ فيهِ مِنْ مُواصَلَةٍ   وقد فَعَلْتُ بِنَفْسِيْ فِعْلَ مَغبُونِ
مَن كَانَ مِثْلِيْ فَلَا يَغْتَرُّ فَاعْتَبِرُوا   فقَدْ خَرَجْتُ بِلَا دُنْيَا وَلاَ دِيْنِ

أَيُّها النَّاسُ إنَّ الدَّهْرَ أَدَارَ رُحَى المَنُونِ علَى مَنْ سَلَفَ، وسَيُورِدُ مَوَارِدَهُم عَلَى مَن خَلَف، حَتَّى يُلْحِقَ بَعْضًا بِبَعْضٍ وإبْرَامًا بِنَقْضٍ، وَرَفْعًا بِخَفْضٍ، ويُخْلِيَ مِنْكُمْ جَدِيْدَ الأرضِ حَتْمًا مِن الله تعالَى سَابِقًا في أَقْضِيَتِهِ، وتَفَرُّدًا بِالبَقاءِ دُونَ بَرِيَّتِهِ، فَيَا رَجُلُ والخطابُ لِلجَمَاعَةِ وَاقِعٌ، يَدخُل فيه الواعظُ والسَّامِعُ، مَاذَا تَزَوَّدْتَّ مِن عُمْرِكَ الذَّاهِبِ المُضْمَحِلِّ؟ أَمْ مَاذَا أَعدَدْتَ لأَجَلِكَ المُطِلّ كَأَنَّكَ بِغِطَائِكَ قَدْ كُشِفَ، وبِرُوحِكَ قَدِ اخْتُطِفَ فَبَعُدتَّ وَإن حَلَلْتَ قَرِيبًا وجُفِيْتَ فَإن كُنْتَ حَبِيبًا مُسَلِّمًا لِطُوْلِ البَلَى، مُتَغَيِّرَةً مِنْكَ المحاسِنُ والحُلِيّ حَاضِرًا كَغائِبٍ، مُسَافِرًا غيرَ آيِبٍ هُنالِكَ تَكْشِفُ السَّاعَةُ قِنَاعَهَا وتَكْشِفُ الطَّاعَةُ أَتْبَاعَهَا، ويَحِقّ النَّدَمُ بِمَن أَضَاعَهَا وَلا يُجابُ إلى الإقَالَةِ مَن بَاعَهَا، فَشَمِّرُوا لِهَذَا اليَوْم العَظِيْم أَيُّهَا المُقَصِّرُونَ، وَاغْتَنِمُوا مِنْ أموالِكُم مَا تُقَدِّمُون، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢]، فَإنَّ الأَمْرَ وَالله أَعْظَمُ مِمَّا تَتَوَهَّمُونَ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٦٧]، عَمَّرَ الله قُلُوبَنَا وقُلوبَكُم بِذِكْرِ المَرَدِّ إليهِ، وَوَفَّقَنَا وَإيَّاكُمْ لِلعَمَلِ بِمَا يُزْلِفُ لَدَيْهِ وَجَعَلَنَا وَإيَّاكُم مِنَ المُتَوَكِّلِيْنَ عَلَيْهِ، الوَجِلِيْنَ مِنَ الوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَحَلَّنَا وَإيَّاكم دَارَ الكَرَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، إنَّ أَشْقَى الدَّوَاءِ لِدَاءِ الضَّمائِرِ، وَأَجْلَى الجَلَائِلِ لِصَدَإِ البَصَائِرِ، كَلَامُ العَالِم بَخَفِيِّ السَّرائِرِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٧]. وينشد:

نَزَلَ المَشِيبُ بِلَمَّتِي ومَفَارِقِيْ   هَذَا القرينُ أَرَاهُ غَيرَ مُفَارِقِي
رَحَلَ الشَّبابُ فَقُلْتُ قِفْ لِيْ   ساعةً حتَّى أُوَدِّعَ قَالَ إِنَّكَ لاَحِقِيْ

لَمَّا اصْطَفَقَ مَوْجُ بَحْرِ القَدَرِ عند هُبوطِ آدَمَ وإبْلِيسَ لِلأمْرِ المُقَدَّرِ فَجمَعَ بينهُما وَادٍ مُمرَّغ أَخضر، فقالَ آدمُ: يَا إبليسُ، أَما كُنْتَ مُقَدَّمَ أَشْخاصِ الملائِكَةِ

في جَوَامِعِ حَظَائِرِ القُدْسِ في الصَّفْحِ الأَعْلَى وشيخَ دُوَيْرَةِ العَارفينَ مِنْ أشخاصِ الضِّياءِ، وَإِمَامَ الملائِكَةِ في جَوامِعِ حَظائِرِ القُدْسِ الأَشْرَفِ، تَبْسُطَ سَجَّادَتَكَ بَيْنَ يَدَي قَوائِمِ العَرشِ، وتَنْظُرُ بِثَاقِبِ نَظَرِكَ إلى تُخُوْمِ العَرْشِ، السَّماءُ بَحْرٌ وَأَنتَ دُرَّتُهُ وَالفَلَكُ عِقْدٌ وأَنْتَ وَاسِطَتُهُ، أَزْمَانُكَ كُلُّها سَعِيْدُ الظِّلالِ، وقُرْبُكَ لاَ يُكَدِّرُهُ بِعَادٌ، فَما الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى إِغْوَائِيْ حتَّى ضَرَبْتَ ظَهْرَ مَعْصِيَتِيْ بِسَوْطِ ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠] حتَّى زَلَّتْ قَدَمِيْ وَسُلِبَتْ تَقَدُّمِيْ، وسَقَطَ تَاجُ شَرَفِيْ عَنْ مَفْرِقِيْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٣] فَانْحَلَّتْ مِنْطَقَةُ كَرامَتِي مِن وَسَطِ عُلَايَ بيد ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٢].

وَيحك يا إبليسُ، يَا كَثِير التَّدْليْسِ أكانَتْ بَيْنِي وبَيْنَكَ عَداوةٌ أَثَارَها الحِقْدُ مِنْكَ عَلَيَّ، أو فَوَارِطُ زَلَلٍ أَوْجَبَتْ أن تُسِيءُ بِهَا إِلَيَّ، مَا الإِسَاءَةُ بِغَيْرِ جُرْم إلاَّ مِن أَمَارَةِ الشُّؤْمِ. أَمَا عادَ شؤمُ فِعْلِكَ إليكَ؟ أَمَا اخْتَلَطْتَ مَعَنَا فِي سِلْكِ ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: الآية ١٢٣] وضُرِبَ على وَجْهِ دِينارِكَ بِسِكَّةِ ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٣٤] أُمِرْتَ بِسَجْدَةٍ واحدةٍ فَعَصَيْتَ وَخَرَجْتَ مِن خِطَّةِ العبُودِيَّةِ وتَعَدَّيْتَ، فَهَلَّا جَعَلْتَهَا قَطْرةً مِن قَطَراتِ عِبَادَتِكَ، أو نُقْطَةً مِن بِحَارِ طَاعَتِكَ، وسَالَمْتَ الحُدُودَ، وَدَخَلْتَ مَعَ المَلائكةِ في دَائِرَةِ السُّجُوْدِ، فقال إبليسُ: يا آدمُ أطَلْتَ المَقالَ، وَأَكْثَرْتَ الجِدالَ، الكلامُ في الفائِتِ شَمْعٌ في شَمْسٍ، وَطَلَبُ مُعارَضَةِ مَا لا يُمكِنُ خَوَرٌ في الطَّبِيعةِ، وَما لا بُدَّ مِنْهُ مُستَصْعَبُ الدَّوَاءِ، فإذا نَزَلَ الحَيْنُ عَمِيَتِ العَيْنُ، ومع نُزُولِ القضاءِ يَضِيقُ القَضَاءُ، وللمقادِيْرِ أَسْبَابٌ تَخْرِقُ المُعتَادَ، وللقضاءِ أُمورٌ يَتَحَيَّرُ فيهَا العِبادُ، فلو أَمْكَنَنِي أن أُجاوِبَ رَبِّيْ حينَ قالَ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٢] لَقُلْتُ: أَنْتَ يَومَ أوحَيْتَ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [صٓ: الآية ٧٥]. أنا جَوْهرِيُّ النَّارِ، وأنت عَنِ الحَمَإِ المَسْنُوْنِ جَوَاهِرُ وُجودِكَ نَشأَتْ بَعد وُجُودِي لَيسَ لك تَقَدُّمُ طَاعتِي ولاَ سَابِقُ عِبَادَتِي، أَنَا في مَحَلِّ الشَّرفِ لَم أزلْ وأنتَ بَعدَ الكَوْنِ لَم تكُنْ، ولما هَبَّ نَسِيْمُ وُجودِك من عَدَم ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [صٓ: الآية ٧١]. وخطبك بِذِكرِكَ خطيبُ القَدرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٣]، حَكَكْتُ ذَهَبَ حَالِكَ في مَحَكِّ عَقْلِي، وَجَعَلتهُ في نَارِ الاخْتِبَارِ في كِيْرِ فَضْلي فَتَبَهْرَجَ ذَهَبُ ذاتِكَ عِندِي،

وَرَأَيْتُكَ في صُورَةِ عَبْدِي فقلتُ: لا تَقْضِي الحكمةُ بِسجُودِ الأَعَزِّ لِلأَذَلِّ، ولم أَعلَمْ مَا سَتَر الغَيْبُ مِنْكَ وَمِنِّيْ، فَدَعْنِي مِنْ كَثرةِ الأَغَالِيْطِ قَضِيَّةُ قاضٍ أَوْجَبَتْ هِدَايَتَكَ وَإِضْلَالِي، فَمَا لَكَ ومَا لِيْ وَلِهَذَا المقَالِ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: الآية ١١]، ختم الله لنا ولكم بخواتِم الصَّالِحِينَ، وغَفَرَ لَنَا ولكُم ولوالِدِيْنَا ولجمِيعِ المُسلمينَ والمسلماتِ، وصلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ السَّابِعُ
في قِصَّةِ إبرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيمًا

الحَمْدُ لله القَوِيِّ المَتِيْنِ، القَاهِرِ الظَّاهِرِ المُبِيْنِ، لا يَعْزُبُ عَن سَمْعِهِ أَقَلُّ الأَنِيْنِ، ولا يَخْفَى عَلَى بَصَرِهِ حَركاتُ الجَنِيْنِ لِكِبْرِيَائِهِ، خَضَعَتْ جبابِرَةُ السَّلاطِيْنِ، وقَلَّ عِنْدَ دِفَاعِهِ كَيْدُ الشَّياطِينِ، قَضَى قَضاءَهُ كَما شاءَ عَلَى الخَاطِئينَ، وسَبَقَ اخْتِيَارُهُ لَمَّا اخْتَارَ الماءَ والطِّيْنَ، فَهَؤلاءِ أهلُ الشِّمالِ وهَؤُلاَءِ أَهْلُ اليَمِيْنِ، أَجْرَى القَدَرَ عَلَى عَمَلِ العَامِلِيْنَ ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء: الآية ٥١].

أحمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِيْنَ، وَأَسْأَلُهُ مَعُوْنَةَ الصَّابِرِيْنَ، وأُصَلِّي عَلَى رسُولِهِ المقدَّمِ عَلَى النَّبِيِّيْنَ، وعلى صَاحِبِهِ أَوَّلِ مُتابعٍ له عَلَى الدِّيْنِ، وعَلَى الفارُوقِ القَوِيِّ الأَمِيْنِ، وعَلَى عُثْمَانَ زَوْج ابْنَتَيْهِ وَنِعْمَ القَرِيْنُ، وعَلَى عَلِيٍّ الفَارِسِ الأَنْزَعِ البَطِيْنِ، وعَلَى عَمِّهِ ذِي الفَخْرِ القَوِيْمِ والنَّسَبِ الرَّصِيْنِ، قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾، وهُو إِبْراهيمُ بْنُ تَارِخَ بْنِ نَاخُوْرَ بْنِ سَارُوغَ بْنِ أَرغُوْ بن لوى بْنِ فَالِغٍ بْنِ غَابِرِ بْنِ شالِخَ بْنِ أَرْفَخْشَذَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوْحٍ، واسْمُ أُمِّهِ مُوْنَا بِنْتُ كَرِيْنَا بْنِ كُوثَي مِنْ بَنِي أَرْفَخْشَذَ، وكرِيْنَا هُوَ الَّذِي أَجْرَى نَهْرَ كُونَا، وكَانَ بَيْنَ الطُّوفان ومَوْلُودِ إِبْراهِيمَ ألفُ سَنَةٍ وَتِسْعٌ وسَبْعُونَ سَنَةً، وقيلَ: ألفُ سَنَةٍ ومَائتانِ وثلاثٌ وستُّون سنةً، وذَلِكَ بَعْدَ خَلْقِ آدمَ بثلاثةِ آلافٍ وثلثمائةٍ وسَبْعٍ وثلاثِين سَنَةً.

وكانَتِ الكَهَنَةُ قد حَذَّرَتِ النَّمْرُوْدَ وُجودَ مُخالِفٍ غالِبٍ فَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّجالِ والنِّساءِ فَحُمِلَ بِالخليلِ على رَغْمِ أنْفِ اجْتِهَادِهِ، ونَفَذَ مُرادُ الحاكِمِ الحكيمِ قَبْلَ مُرادِهِ، فلمَّا خاضَ المَخاضُ في خِضَمِّ أُمِّ إبراهِيْمَ، جَعَلَتْ بين خَوْفِ الأَمْنِ، وَحَيِّزِ التَّحَيُّرِ تَهِيْمُ فَوَضَعَتْهُ في نَهْرٍ قَدِ يَبِسَ، وَسَتَرَتْهُ بِالخَلَاءِ لِيَلْتَبِسَ، وَكانَتْ تخْتَلِفُ إليه لِرضَاعِهِ وقد سَبَقَهَا رَضاعُ ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٥١]، فتَجِدُه يَمَصُّ إِبْهَامَهُ، وجَعَلَ الله رِزْقَهُ فيها، فَسَأَلَهَا أَبُوهُ آزرُ عَن حَمْلِهَا فَأَخْبَرَتْهُ فأَتاهُ فحَفَرَ له سَرَبًا وسَدَّ عَلَيْهِ بصَخْرةٍ فكانَتْ تَختلِفُ إلى رَضاعِهِ، فلمَّا تَكَلَّم قالَ لأُمِّهِ: مَنْ رَبِّيْ؟ قالتْ: أنا. قالَ: فَمَنْ رَبُّكِ؟ قالتْ: أبُوكَ. قال: فَمَن رَبُّ أَبِيْ؟ قالَتْ: أُسْكُتْ، فسكَتَ. فرجعَتْ إلى زوجِهَا، وقالت: إنَّ الغلامَ الَّذِي كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ يُغَيِّرُ دِيْنَ أَهْلِ الأَرضِ هُو ابْنُكَ. فأَتَاهُ، فقالَ له مثلَ ذلكَ، ثمَّ دَنَا بِاللَّيْلِ إلى بَابِ السَّرَبِ فَرَأَى كوكبًا.

قال ابنُ عبَّاسٍ: هُو الزُّهْرةُ. وقالَ مُجاهِدٌ: هُوَ المُشْتَرِيْ. أَرادَ إبراهيمُ قبلَ اتِّصالِ المعرفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِقَلْبِهِ أن يَجعلَ كَوكبَ الشِّعْرَى مَقصَدًا لعبادةِ رَبِّهِ وقُرْبِهِ، هَيَّجَتْ أفكارُه إذا شَاهَدَ الصَّنْعَةَ الحكِيميَّةَ فِي بَحْرٍ زَاخِرٍ أَخْبَرَتْهُ نفسه أَن لا بُدَّ لَها من مُوجِدٍ قادرٍ شَرِبَ مِنْ خَمْرِ الخِبْرَةِ كَأْسًا دِهَاقًا. ضَرَبَ ضارِبُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهارِ مِنْ مُدْلَهِمِّ غَيْهَبِهِ رَوَاقًا بَدَتْ في مَجَرِّهَا الشِّعْرَى وَهِي تُضِيْءُ.

قالَ إبراهيمُ بِلِسانِ الامْتِحَانِ: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] سَلَّ عليهَا يَدُ الأُفولِ صَارِمَ الخُمُوْلِ فَقَطَعَ منها اليَمِيْنَ، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعَام: الآية ٧٦]، بَرَزَ في مَيدَانِ الكِفَاحِ وَزِيْرُ الكَواكِبِ لإِظْلَامِ شُعْلَةِ نارِ الحَرْبِ، أَبْرزَ بَدْرَ كَأنه في سَماءِ كَمَالِهِ مُلْتَحِفًا بِمُرُوْطِ السَّرَبِ، نَشَرَتْ أَشِعَّةُ وَصْلِهِ سَحَابَةَ الفِراقِ، تَغَيَّرَ وَجهُ قَبُولِهِ مِنَ الكَرْبِ، أَعْرَضَ للأُفُولِ فَأَسْرَعَ يَرْكُضُ في وَسَطِ المَجَرَّةِ ويَجِدُّ سَيْرَهُ إلى المَغْرِبِ، لاحَ المقصودُ بِالشَّاهِدِ المُبِيْنِ وخَرَّ عَلَى الجَبِيْنِ. قالَ إبراهيمُ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٧].

لاَحَتْ شَمْسُ النَّهارِ تَرْفُلُ مِنْ تَحتِ ظُلَّةِ الظَّلَامِ أَشْرَقَتْ بهَا الأرضُ ونُفوسُ الأَنامِ أَقْبَلَتْ في حُلَلِ شُعَاعِهَا مُسْفِرَةً عَنْ وَجْهِهَا تعْثُرُ فِي ذَيْلِ العُجْبِ وتبَسَّمَ أَيَّ ابْتِسَامٍ عَادَ غَيْهَبُ اللَّيْلِ بِنُوْرِهَا يَزْهَرُ.

قالَ إبراهِيمُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٨]، رَكَضَ جَوَادُ جِرْمِهَا في وَسَطِ فَلَكِهِ رَكْضًا أَعْرَضَ عَنْ مُصَاحَبَةِ نُوْرِهِ لِفَقْدِ مَأْلُوفِهِ عَرْضًا نَادَتْهُ غِرْبَانُ الأُفُوْلِ بِلُغَاتِ الشَّتَاتِ. قالَ إبراهيمُ: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩]. وينشد:

عُذِلْتُ ولَم أُصْغِ إلى عَذْلِ عَاذِلٍ	وحَسْبُكَ أَنَّ العَذْلَ عِنْدَ الهَوَى صَعْبُ
وقَد كُنْتُ قبلَ الحُبِّ أَعذِلُ أهلَهُ	فَهَا أَنا فيهِ اليومَ مُكْتَئِبٌ صَبُّ
تَقُولُ الَّتِي قادَتْ فُؤَادِي لِلهَوَى	بِعَيْنَيْكَ هل يَبْقَى إلى عاشِقٍ قَلبُ
فقلتُ لهَا كُفِّي فَدَيْتُكِ فِي الهَوَى	يَكُون له قَلْبٌ إذا وَسْوَسَ القَلْبُ
رَضِيتُ الهَوى دِيْنًا وَإن تَلِفَتْ بِهِ	حُشَاشَةُ نَفْسِي أو تَمَلَّكَهَا الحُبُّ

نُودِيَ يا إبراهيمُ اِصْرِفْ بَصَرَكَ عَن النُّجوم فَالحقُّ مَعْلُومٌ يا إبراهيمُ، مَا الشَّمسُ والقمرُ والكَواكبُ الزَّاهِرَةُ إلاَّ مَوَاكِبُ تَشْهَدُ بِكَمَالِ القُدْرَةِ القَاهِرَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ سَبْعَ سنينَ خَرَج فَرَأَى قَوْمَهُ في هَزْلٍ ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٢٣] فَجَدَّ لَهُمْ فَجادَلَهُمْ فَجَدَلَهُم وَأَبْرَزَ نُوْرَ شَمْسِ الهُدى في حُجَّةِ رَبِّي الَّذِيْ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ، فقابَلَهُ نَمروْدُ بِسُهَى السَّهْوِ في ظَلَامِ ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨]، فَأَلْقاهُ الخليلُ كَاللَّقَا عَلَى عَجَزِ العَجزِ بِآفَاتِ ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨]، وكانَ أَبُوهُ يَصْنَعُ الأَصْنَامَ ويَقُولُ لَهُ: بِعْهَا فَيَأْخُذُ الصَّنَمَ ويَخْرُجُ وَيَقُولُ: مَن يَشتَرِي ما يَضُرُّهُ وَلاَ يَنْفَعُه، فَشاعَ بَينَ النَّاسِ احْتِقارُهُ بالأَصْنامِ، وجَعَلَ يَقولُ لقومِهِ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٢]، أي: يُقِيمُونَ عَلَى عِبادَتِهَا، فَخَرَجُوا يَومًا إلى عِيْدِهِم، فَخَرَجَ مَعَهُم في الطَّرِيقِ وقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصَّافات: الآية ٨٩]، فلمَّا مَضَوْا، قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: الآية ٥٧]، وَالكَيْدُ احْتِيَالُ الكائِدِ في ضُرِّ المَكِيْدِ، وَأَرَادَ لأَكْسِرَنَّهَا، فَسَمِعَ الكَلِمَةَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَفْشَاهَا عليه.

ثُمَّ دَخَلَ دَارَ الفَراغِ، فَرَاغَ عَلَيْهِم، فَصُفَّتْ جُيوشُ الهُدَى وعَزَمَ فَهَزَمَ بِتَكْسِيرِ آلِهَتِهِم جُنودَ الهَوى، فكَانَت اثْنَيْنِ وسبعيْنَ صَنَمًا مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ ونُحاسٍ وحَدِيْدٍ وخَشَبٍ فكَسَرَهُم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: الآية ٥٨]، أي: فَتَاتًا، ثُمَّ جَعَلَ الفَأْسَ في عُنُقِ الصَّنَمِ الكبيرِ، ثُمَّ أَبْرَزَ الدَّلِيلَ على قُدْرَةِ الصَّانِعِ بِعَجْزِ كَبِيْرهِمْ فنَازَعُوا فِي رِداءِ الكِبْرِياءِ، ونَادَى مُنَادِ الإِرْشَادِ فِي نَادِي الفَسَادِ، فَصَمُّوا عَنِ النِّداءِ فَجَرَّدُوهُ مِنْ بُرْدِ بَرْدِ العَدْلِ إلى حَرِّ ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٨] فَبَنَوْا لِسَفْحِ دَمِهِ بُنْيَانًا إلى سَفْحِ جَبَلٍ فَاحْتَطَبُوْا له على عَجَلِ العَجَلِ، ثُمَّ وَضَعُوهُ في كِفَّةِ المَنْجَنِيْقِ وهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشرَةَ سَنَةً فَاعْتَرَضَهُ جِبْرِيلُ في عَرْضِ الطَّرِيْقِ، فَنَادَاهُ وهُو يَهْوِيْ في ذَلِكَ الفَلَا: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا. شعر:

وشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الحدِيْثِ سِوَى ... مَا كانَ مِنكُم وَحُبُّكُم شُغْلِي
وَأُمِيلُ نحوَ مُحَدِّثِيْ لأرَى ... أنْ قَدْ فَهِمْتُ وعندَكُم عَقْلِيْ

فَسَبَقَ بَرِيْدُ الوَحْيِ إلى النَّارِ بِلِسَانِ التَّفْهِيْمِ ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩]، فَصَارَ النَّارُ جَنَّةً، وأُلْبِسَ الخلِيْلُ مِنَ العِصْمَةِ جُنَّةً، وظَهَرَ الخَرْقُ لِلخَلْقِ جِنَّةً.

وَرَوَى أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنْزَلَ الله على إبراهيمَ عَشْرَ صَحائِفَ**»، فقلت: مَا كانَتْ صُحُفُ إبراهيْمَ؟ قال: «**كانَتْ امْتِثالاً كُلُّها أَيُّهَا المَلِكُ المُسلَّطُ المغرُوْرُ المُبْتَلَى إنِّي لَم أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعضَهَا إلى بَعْضٍ، وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّيْ دَعْوَةَ المظلُوم، فَإِنِّي لا أَرُدُّهَا وَإِنْ كانَت، مِنْ كَافِرٍ وكانَ فيهَا على العَاقِلِ مَا لَم يَكُن مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ سَاعَةٌ يُنَاجِي فيهَا رَبَّهُ، وسَاعَةٌ يُفكِّرُ في صُنْعِ الله، وسَاعَةٌ يُحاسِبُ فيهَا نَفسَهُ، وساعَةٌ يَخْلُقُ فيهَا بِنَفْسِهِ مِنَ الحَلالِ**».

وعَن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: لَمَّا اتَّخَذَ اللَّهُ إبراهيْمَ خَلِيلًا ونَبَّأَهُ ولَهُ يَومئذٍ ثَلاثُمائةِ عَبِيْدٍ فأَعتَقَهُم وأَسْلَمُوا، وكانُوا يُقاتِلُونَ مَعَهُ بِالعِصِيِّ فَابْتَلَاهُ الله بِالكَلماتِ فَأَتَمَّهُنَّ. قَالَ: ابْتَلَاهُ الله بالطَّهَارَةِ خَمْسٌ في الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ والمَضمَضَةُ وَالاِستِنْشاقُ، والسِّواكُ، وفَرقُ الرَّأْسِ. وخَمْسٌ في الجَسَدِ: تَقليمُ الأَظْفَارِ، وحَلْقُ العَانَةِ، والخِتَانُ، ونَتْفُ الإِبْطِ، وغَسْلُ أَثَرِ البَوْلِ، والغَائِطُ بالمَاءِ.

ورَوَى البُخَارِيُّ ومُسلِمٌ مِن حَدِيثِ أَبي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**اخْتَتَنَ إبْراهيمُ بِالقَدُوم**»، وَالقَدُوْمُ مَوضِعٌ. وكانَ له يومَ اخْتَتَنَ إبراهيم مِائَةٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، وقِيْلَ مائةٌ وعشرونَ سَنَةً، وهُوَ اخْتَتَنَ نَفْسَهُ.

فأَمَّا نمرودُ فإِنَّهُ بَقِيَ بَعْدَ إلْقاءِ الخليلِ في النَّارِ أَرْبَعُمائةِ عَامٍ لا يزدَادُ إلاَّ عُتُوًّا، فعِنْدَ موتِهِ فَتَحَ الله عليهِ بَابًا مِن البَعُوضِ فأَكَلَتْ لُحومَ قَوْمِهِ وشَرِبَ دِمَاءَهم، وبَعَثَ الله عليه بَعُوضَةً فَدَخَلَتْ فِي مِنْخَرِهِ، فَمَكَثَ يُضْرَبُ رَأْسُهُ بِالمَطَارِقِ فأَرْحَمُ النَّاسِ لَهُ مَنْ جَمَعَ يَدَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِمَا رَأسَهُ فعُذِّبَ بِذلِكَ إلى أن مَاتَ.

فَرَحِمَ الله مَنْ تَفَهَّمَ ودَرَى، ونَظَرَ أُمورَ الخَلِيْلِ وما عَلَيْه جَرَى، هَذِهِ مَدائِحُهُ كَمَا تَرَى، ومَن صَابَرَ الهَوَى رَبِحَ وَاسْتَفَادَ، ومَنْ غَفَلَ فَاتَهُ المُرادُ. وينشد:

فُنِيْتُ بِرُؤْيَاكُم عَنِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ ... فَأَوْجَبْتُمُوْلِيْ أَنْ أَغِيْبَ عَن حِسِّي
وأَرْقَى إلَى العُلْيَا أَرُوْمُ الْتِفَاتَةً ... فَخُوطِبْتُ مِن نَفْسِي إلى أينَ نَفْسِي
إلى الملأِ الأَعْلَى سَمَوْتُ بِهِمَّتِي ... فَأَفْنَى عَنِ الأَكْوَانِ وَالعَرْشِ والكُرْسِي

سُبْحانَ مَن أخْرَجَ هَذَا السَّيِّدَ مِن آزَرَ، ثُمَّ أَعَانَهُ الله بالتَّوفيق فَعَضَدَ وَآزَرَ، ثُمَّ بَعَثَ إليهِ الْمَتَابَ فأَعَانَ وَآزَرَ، فلمَّا رَأَيْنَاهُ قَدْ رَحَلَ عَنِ المنجَنِيْقِ وسَافَرَ ولَم يَتَزَوَّدْ إلا التَّسلِيمَ، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، عَبدٌ تَرَكَ نَفسَه لَنَا فَبَلَّغْنَاهُ المُنَى، وعَلَّمْنَاهُ المَنَاسِكَ عِنْدَ البيتِ ومِنَى، ولَمَّا رُمِيَ في النَّارِ لأَجْلِنَا، قُلنَا لها بِلِسَانِ التَّفهِيمِ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

قَدَّمَ مَالَهُ إلى الضِّيْفَانِ، وسَلَّمَ وَلَدَهُ إلَى القُرْبَانِ، واسْتَسْلَمَ للرَّمْيِ في النِّيْرَانِ، فَلَمَّا رَأَيْنَاه مُحِبًّا فِي بَيْدَاءِ الوَحْيِ يَهِيْمُ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.

ابْتَلَيْنَاهُ ﴿بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤]، وَأَرَيْنَاهُ قُدْرَتَنَا يَوْمَ ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠]، وَكَسَّرَ الأَصْنَامَ غِيرَةً لَنَا مِنْهُنَّ، فَلَمَّا أُجِّجَتِ النِّيرانُ ذَهَبَتْ بِلُطْفِنَا حَرَارَتُهُنَّ، وغَرَسْنَا شَجَرَةَ الجَنَّةِ في سَواءِ الجَحِيْمِ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩].

بَنَوْا لَهُ بُنْيَانًا فِي سَفْحِ الجَبَلِ، وَاحْتَطَبَ لأَجْلِهِ مَنْ شَرِبَ وَأَكَلَ، وَأَلْقَوْه فيهَا، وَقَالُوا: قَدِ اشْتَعَلَ، فَخَرَجَ نَمْرُوْدُ يَنْظرُ مَاذَا فَعَلَ، وَقَدْ خَرَجَ تَوقِيْعُ القِدَمِ مِنَ القَدِيْمِ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

قَابَلَ القَوْمُ نَبِيَّنَا بِأَقْبَحِ تَكْذِيْبٍ، وقَصَدُوا خلِيْلَنَا بأَشَدِّ تَعْذِيْبٍ، فَمَا شَكَّ ولا شَكَى إلى بَعِيْدٍ وَلا إلى قَرِيْبٍ، فلمَّا هَاجَ بِنَفْسِهِ وصَبَرَ عَلَى الهَوْلِ العظيمِ، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

أَمَا اعْتَرَضَهُ وَتَعَرَّضَ لِحَوائِجِهِ الملكُ حِيْنَ قَطَعَ بَيْدَاءَ الهَوَى وَسَلَكَ، فقالَ بلسانِ الحالِ: مَعِي مَن مَلَك، فَإِيَّاكَ والتَّعَرُّضَ لِمَا لَيْسَ لك، فَلَمَّا لم يَتَعَلَّقْ بِخَلْقٍ دُوْنِي إذ ضِيْمَ، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

تَعَرَّضَتْ بِهِ الأَمْلاكُ فَكَفَّهَا كَفًّا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ لاَ يَمُدُّ إلى غَيْرِنَا كَفًّا مَدَحْنَاهُ، وَيَكْفِي في مَدْحِنَا الَّذِي وَفَّا، وَاجْتَمَعَ الخَلاَئِقُ يَنْظُرُون مَنْ صَفَّا؟ فَلَمَّا أَتَانَا وَقْتَ القَلْبِ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

تَنَحَّ يَا جِبْرئِيلُ فَمَاذا مَوْضِعُ الرَّحْمَةِ، وَخَلِّنِي وخَلِيْلِيْ فَإِلَيْهِ الرَّحْمَةُ، وَهَلْ بَذَلْتُ لَهُ إلاَّ لَحْمةً تَبْلَى أَوْ شَحْمَةً، فَلَمَّا آنَ وَظَنَّ نَفْسَهُ عَلَى أن يَصِيْرَ فَحْمَةً وحُوشِيَ مِنْ ذَاكَ الكَرِيمُ. ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾، كانتِ الملائكةُ تَدَّعِي الغِنَى بِالطَّاعَةِ، فَخَرَجَ هَارُوتُ ومَارُوتُ، فَخَسِرَتِ البِضَاعَةُ، وَشَاهَدُوا يومَ الخَلِيلِ مَا لَيس لَهُمْ اسْتِطَاعةٌ رأَى مَا رَأَى ولا أَزْعَجَهُ وَلاَ رَاعَهُ، فَلَمَّا رَأَيناهُ لنَا سَاكِنًا وَالأَمْلاك في مَقْعَدٍ مُقيمٌ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بالخَلِيْلِ في مَنْزِلَتِهِ، وَالحَبِيْبِ في مَرتَبَتِهِ، وبِكُلِّ مُخْلِصٍ في طَاعَتِهِ أَنْ تَغْفِرَ لِكُلٍّ مِنَّا عَن زَلَّتِهِ، يا حَلِيمُ يَا كَرِيمُ برحمتكَ يا أرحم الرَّاحِمِين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليمًا، والحمد لله ربِّ العالمين.

المَجْلِسُ الثَّامِنُ

في بِناءِ الكَعْبَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيْمًا

الحَمْدُ لله المَلِكِ العَظِيْمِ الجَلِيْلِ، المُنَزَّهِ عَن النَّظِيْرِ، والعديلِ المُنْعِمِ بِقَبُولِ القَلِيلِ المُكَرِّمِ بِالطَّاعَةِ العَطاءِ الجزِيْلِ، تَقَدَّسَ عَمَّا يَقولُ أَهْلُ التَّعْطِيْلِ، وتعَظَّمَ عَمَّا يَعْتَقِدُ أهلُ التَّمْثِيْلِ، بَعَثَ لِلْعَقْلِ على وُجُودِهِ أَوْضَحَ دَلِيْلٍ، وهَدى إلى وُجُودِهِ أَبْيَنَ سَبِيْلٍ، وجَعَلَ لِلمَجْدِ حَظًّا إلى مِثْلِهِ يَمِيلُ، وَأَمَرَ بِبِنَاءِ بَيْتٍ وَجَلَّ عَنِ السُّكْنَى الجَلِيْلُ ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٧] لَمَّا قَصَدَهُ أصحابُ الفِيلِ ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤﴾ [الفيل: الآيتان ٣، ٤].

أَحْمَدُهُ كَمَا نُطِقَ بحمدِهِ وَقِيْل، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ النَّبِيِّ النَّبِيْلِ وعَلَى أبي بَكْرٍ الَّذِي يُبْغِضُهُ إلا كُلُّ ثَقِيْلٍ، وعَلَى عُمَرَ وفضلُه طويلٌ، وعلى عُثْمانَ وكَم له مِن فِعْلٍ جَمِيلٍ، وعلى عَلِيٍّ وجَحْدُ قَدْرِهِ تَغْفِيلٌ، وعَلَى عَمِّهِ العبَّاسِ المُسْتَسقَى بِشَيْبَتِهِ فَإِذَا السُّحُبُ تَسِيْلُ.

قال الله العَظِيم: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٧] لَمَّا عَلا كَعْبُ الكَعْبَةِ عَلَى سَائِرِ البِقَاعِ بِقَاعِ العَلَم أَبْرَزَتْهَا كَفُّ الإِيْجَادِ كَالكاعِبِ قَبْلَ وُجودِ الأَرْضِ، فَكانَ آدَمُ أَوَّلَ مَنْ سَاسَ الأَسَاسَ ثُمَّ بَيَّتَ للبَيْتِ البَيَّاتُ، فَلَمَّا آنَ طَوَافُ الطُّوفَانِ فَحَلَّ مَا حَلَّ بِحُلَّتِهِ أَزْرَارَ حُلَلِ الحُلَلِ، فَلَمَّا هَاجَر الخَلِيْلُ بِهاجَرَ وَابْنِهَا أَوْضَعَ بِهِمَا فَوَضَعَهُمَا هُنالِكَ وَوَلَّى رَاضِيًا بِمَن تَوَلَّاهُ

يَوْمَ ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٨]، فَقالَتْ هَاجَرُ: وَالله أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قالَ: نَعَمْ فَرَجَعَتْ مُتَوَلِّيَةً عَلَى مِنْسَأَةِ التَّوَكُّلِ عَلَى مَن لا يَنْسَى، فَوَدَّعَها الخليلُ وَوَدَّعَهَا، فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مَا مَعَهَا مِنَ المَاءِ وَتُرْضِعُ لَبَنَهَا ابْنَهَا، فَلَمَّا نَفَدَ جَعَلَ إسماعِيلُ يَتَلَوَّى عَلَى رَمْضاء رَمَضَان الصَّوْمِ، فَانْطَلَقَتْ لِتَبْذُلَ المَجْهُودَ في مَأمُوْرِ ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: الآية ١٥].

فصَعِدَت بأَقْدَامِ الصَّفَا عَلَى الصَّفَا، فَلَمَّا أَظَلَّتْ عَلَى الظُّلَلِ الظُّلَّةُ تَوَكَّفَتْ علَى رُوْحِ يَنْقَعُ الغُلَّةَ، ثُمَّ جَدَّتْ فَجَدَّتِ الجُدَدَ بالجِدِّ هَابِطَةً سَيْرِهَا، فَلَمَّا طَرَفَ طَرْفُ سَيِّدِهَا طَرَفَ طَرَفِ الوَادِي رَفَعَتْ طَرف دِرْعِهَا، ثُمَّ وَسَّعَتْ خُطَاهَا، وَسَعَتْ لِلْجَهْدِ ذَرْعُهَا، ثُمَّ أَتَتِ المَرأَةُ المَرْوَةَ وعَادَتْ إلى الصَّفَا سَبْعًا، فَكَذلِكَ أُمِرَ المُكَلَّفُ أَنْ يَسْعَى، لأَنَّهُ أَثَرُ قَدَمِ مِقْدَامٍ لِتُصِيْبَ الأَقْدَامُ نَصِيْبًا مِنْ مَوَاطِئَ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

فَسَمِعَتْ صَوْتًا مِن صَوْبِ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَنَزَلَ المَلَكُ لِيُزِيْلَ النَّازِلَةَ ويَتَدَارَكَ الصَّاعِدَةَ النَّازِلَةَ، فَفَتَحَ بِعَقِبَيْهِ، أَو قَالَ بِجَنَاحِهِ فَزَمْزَمَ مَاءُ زَمْزَمَ، فَخَضْخَضَ ظَهْرُ الماءِ في ضَحْضَحِ الحَصَا فَامْتَدَّتْ أَيْدِي الحِرْصِ فَلَفَقَّتْ كَالحَوْضِ فَقِيلَ لها: لَيْسَ هَذَا الماءُ مِنْ كَيْسِ كِيْسِ كَسْبِكَ، فَمَا هَذَا المُزْنُ مِنْ حِرْصِ فِعْلِكِ، وَلَو تَرَكَتْ زَمْزَمَ لَكَانَتْ عَيْنًا مَعِيْنًا. فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لا تَخَافِي الضَّيْعَةَ فإنَّ هاهُنا بَيْتًا لله تعالى يُنْشِئهُ هَذَا الغُلَامُ وأَبُوهُ، وَأَنَّ الله لا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وكانَ البَيْتُ مُرتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُوْلُ فَيَأْخُذُ عَن يَمِيْنِهِ وشِمالِهِ، فَمَرَّتْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهم جَرَّهُمْ سُؤَالُ ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧]، فَأَقَامُوا وعَلِقَتْ قُلُوبُهُمْ حُبَّ كَاعِبِ الكَعْبَةِ، وَاشْتَاقَ الخَلِيْلُ إلى ابْنِهِ فَاسْتَاقَ رَاحِلَةَ الرَّحِيلِ فَاشْتَرَطَ لِسَانُ غِيرَةِ سَارَة أَنْ لاَ يَنْزِلَ فَلَمْ يَنْزِلْ مِنْ مَكانه ليلًا ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: الآية ٣٧]، فَقَدَّمَتْ زَوْجَةُ إِسْمَاعِيلَ إِلَيْهِ المُقامَ فَقَامَ فَقَرَّتْ فِيهِ قَدَمُهُ وغَابَتْ رِجلُ الرَّجُلِ فحوَّلَهُ إلى سَارَة فهتَفَ فِيهِ البُشْرَى فَسرتْ بِهِ دَلِيلُ الإِرْشَادِ بِالْقَاصِدِيْنَ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥]، فَلَمَّا أُمِرَ بِبِنَاءِ الكَعْبَةِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: يا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ الله

أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ. قالَ: أَوَ تُعِينُنِي وَأُعِينُكَ؟ قَالَ: فإنَّ الله أَمَرَنِي أن أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وأَشَارَ إلى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى ما حَوْلَهَا. وحَارَ إذْ لَمْ يَعْلَمْ مُرَادَ الآمِرِ، فَإذَا سَحَابَةٌ تَسْحَبُ ذَيْلَ الدَّلِيْلِ قَدْ قَدَّرَهَا المُهَنْدِسُ القَدَرِيُّ عَلَى قَدْرِ البَيْتِ، فَوَقَفَتْ فَنَادَتْ؛ يا إبراهِيمُ عَلِّمْ عَلَى ظِلِّي، فَلَمَّا عَلَّمَ كَمَا عُلِّمَ هَبَّتْ فَذَهَبَتْ فَسُرَّ بِمَا فُسِّرَ لَهُ مِنْ مُشْكِلِ الشَّكْلِ. فَلِذَلِكَ سِرُّ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: الآية ٢٦].

قالَ: فعندَ ذلكَ رَفَعَ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البَيْتِ فَجَعَلَ إسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيْمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ جَاءَ بهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فقامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيْلُ يُنَاوِلُهُ الحجارَةَ.

فَجَعَلَ مَكَانَ اسْتِرَاحَةِ البنَاءِ المُغَنِيْ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٧].

فَلَمَّا فَرَغَا فَغَرَا فَمَ السُّؤالِ يَرْشُفَانِ ضَرْعَ الضَّرَاعَةِ ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٨] فَلَمَّا شَرُفَتِ الكعبَةُ بِإِضَافَةِ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٦] قَصَدَهَا فَوْجُ الفِيْلِ فَقَبِلَ مُرادُهُم لَمَّا بَاتُوا عَلَى مَا بَاتُوا بَيَّتُوا أَقْبَلَ ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: الآية ٣] رُمُوا كَالغَمام ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفِيل: الآية ٤]، فَكانَتْ قَطَرَاتُهُ لِلْحَصَادِ لا لِلبَذْرِ فَأَصْبَحَ لِزَرْعِ أَجْسَامِهِمْ كَالمِنْجَلِ الهَاشِمِ لِيَكونَ مُعجِزَةً لِظُهُوْرِ نُورِ ابْنِ هَاشِمٍ فَأَمْسَوا في بَيْدَرِ الدِّيَاسِ ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفِيل: الآية ٥]. وينشد:

مَا أَشْرَفَنِي إِلَى نَسِيْمِ الرَّفْدِ ... يَشْفِي سَقَمِيْ إِذَا أَتَى مِنْ نَجْدِ
والشَّيْخُ فَإِنَّهُ مُشِيْرُ الوَجْدِ ... شَوْقِي شَوْقِي لَكُم وَوَجْدِي وَجْدِيْ
سَلَّمتُ على النَّسِيْمِ إِذْ أَهَبَّ صَبَا ... فَارْتَاحَ إِلَيْهِ سِرُّ قَلْبِيْ وَصَبَا
أَنَجْدُ لَقَدْ زِدْت فُؤَادِي وَصَبًا ... هَلْ يرجِعُ فِيْكَ عَصْرُ وَصْلِي وَصَبَا
النَّاسُ بِطِيْبِ وَصْلِهِمْ قَدْ سَعِدُوا ... وَأَنَا المُضْنَى بِهَجْرِكُم مُنْفَرِدُ
هَا قَدْ وَجَدُوا وهَكذا مَا وَجَدُوْا ... مَا جَنَّ بِهِمْ مِثلَ جُنُونِي أَحَدُ

قال علماء السِّيَر: وُلِدَ لإسْمَاعِيلَ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا، وَاتَّخَذَهُ الله نَبِيًّا، وَأَرْسَلَهُ إِلى العَمَالِيق وجُرْهَم وَقَبَائِلِ اليَمَنِ فَنَهَاهُم عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثانِ. وتُوفِّيَتْ هَاجَرُ

وَهِيَ بِنْتُ تِسعِيْنَ سَنَةً، وإسْمَاعيل عِشْرُونَ سَنَةً فَدَفَنَهَا فِي الحِجْرِ، وعَاشَ مِائَةً وسبعًا وسِتِّينَ سنةً. وفي الحِجْرِ قَبْرُهُ ودَبَّر أَمْرَ الحَرَم بَعْدَهُ ابْنُهُ نَابِتٌ، ويُقالُ نَبتٌ، ثم غَلَبَتْ جُرْهَمُ عَلَى البَيْتِ فَانْهَدَمَ فَبَنَتْهُ العَمَالِقَةُ ثُمَّ بَنَتْهُ جُرْهَمُ. فسُبْحَانَ مَنْ خَصَّ مِنْ عِبَادِهِ الأَخْيَارَ، فَجَعَلَ مِنْهُمُ الأَنْبِيَاءَ والأَبْرَارَ، وَأَبْعَدَ العُصَاةَ وَالفُجَّارَ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: الآية ٦٨].

وَعظ:

يا مَنْ لاَ يَرْدَعَهُ مَا يَسْمَعُهُ، يَا مَنْ لا يَنْفَعُهُ مَا يَجْمَعُهُ، أَمَا القَبْرُ عَن قليلٍ مَوْضِعُهُ، أَمَا اللَّحْدُ عَن قَرِيبٍ مَضْجَعُهُ، أَمَا يَرجِعُ عَنْ مَنْ يُشَيِّعُهُ، وَيُؤخَذُ مَا يَجْمَعُهُ، كَمْ يَخْرِقُ خَرْقًا بِالخَطَايَا ثُمَّ لاَ يُرَقِّعُهُ، كَم يَحُطُّهُ القَبِيْحُ وَالنُّصْحُ لا يَرْفَعُهُ، كَم يَعلَم غُرورَ الهَوَى وهُوَ يَتْبَعُهُ، لا تَعْذِلَنَّهُ فإنَّ العَذْلَ يُوْلِعُهُ، كَمْ قُلتُ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ، وَا عَجَبًا لِمَن يَقْطَعُ المفاوِزَ لِيَرَى البَيْتَ فَيُشاهِدَ آثَارَ الأَنْبِيَاءِ، كيفَ لاَ يَبْدَأُ بِقَطْعِ نَفْسِهِ عَنْ هَوَاهُ فَيصِلُ إلى قَلْبِهِ فيَرَى آثَارَ وَيَسَعُنِيْ قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَا مُذْنِبِيْنَ مُصِيْبَتُنَا في التَّفْرِيطِ وَاحِدَةٌ وكل غريبٍ لِلْغَرِيْبِ نَسِيْبُ، فَوَاسُوْنِي في البُكَاءِ، كَذاكَ الحَزِيْنُ يُوَاسِي الحَزِيْنَا، يَا مُوَافِقِيْنَ في سَفَرِ الطَّرْدِ أَنْزِلُوا النِّيَاحَةَ في سَفَرِ سِيَاحَةِ السِّيَاحَةِ، أُنْدُبُوْا طِيْبَ أَوْطَانِ الوَصْلِ، وَاسْتَغِيْثُوا مِنْ هَجِيْرِ الهَجْرِ، لَعَلَّ الغَيْمَ يَنْقَلِبُ غَمَامَةً. وينشد:

يَا صَاحِبَيَّ أَطِيْلَا في مُؤَانَسَتِيْ ... وَنَاشِدَانِي بِخُلَّانٍ وَعُشَّاقِي
وحَدِّثَانِيْ حَدِيْثَ الخَيْفِ أنَّ لَهُ ... رَوْحًا لِقَلْبِيْ وَتَسْهِيْلًا لأَخْلَاقِي
مَا ضَرَّ رِيْحُ الصَّبَا لَو نَاسَمَتْ حَرْقِيْ ... وَاسْتَنْقَذَتْ مُهْجَتِي مِنْ أَسْرِ أَشْوَاقِي
دَاءٌ تَقَادَمَ عِنْدِيْ مَنْ يُعَالِجُهُ ... وَنَفْثَةٌ بَلَغتْ مِنِّيْ إِلَى الرَّاقِي
يَمْضِي الزَّمَانُ وَآمَالِي مُصَرَّمَةٌ ... مِمَّنْ أُحِبُّ عَلَى مَطْلٍ وَإِمْلَاقِي
وَا ضَيْعَةَ العُمرِ لاَ الماضِيَ انْتَفَعْتُ به ... ولا حَصَلْتُ عَلَى عِلْمٍ مِنَ البَاقِي

وعظ:

إخواني، كَمْ غُرَّ المَغرُوْرُ غُرًّا مُدَّ لَهُ أَطْنابُ الطَّمْعِ عَلَى أَوْتَادِ الهَوَى، وسَامَرَهُ في جِهَةِ المُنَيْ يُمْلَى عليهِ آمَالُ الأَمَانِي، وَمَا أَجالَ في مَا أَجالَهُ الآجَالُ

ثم وَجَّهَ وَجْهَهُ إلى وِجْهَةِ الجهل وَالغفلَةِ، فَسلَّمَا إليهِ مَنشُوْرَ التَّسْوِيفِ، فلمَّا ضُرِبَ بُوْقُ الرَّحِيْلِ وقُرْبَ نُوْقُ الرِّحْلَةِ سَلَّ مَا سَلَّمَا إليهِ فَأُلْقِيَ كَاللِّقَاء عَلَى بَابِ النَّدَمِ. وينشد:

إلامَ أُمَنِّي النَّفْسَ مَا لا تَنالُهُ ... وَأَذكُرُ عَيْشًا لَم يَعُدْ مُذْ تَصَرَّمَا

وقد قَالَتِ السُّنُوْنُ لِلَّهْوِ وَالهَوى ... دَعَا لِي أَسِيْرِي وَاذْهَبَا حَيْثُ شِئْتُمَا

السَّجع:

لو رَأَيْتَ أَربابَ القُلُوبِ والأَسْرَارِ وَقَدْ أَخَذُوْا أُهْبَةَ التَّعَبُّدِ فِي الأَسْحَارِ، وَقَامُوا في مَقامِ الخَوْفِ على قَدَمِ الانْكِسَارِ، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النُّور: الآية ٣٧]، عَقَدُوْا عَقْدَ الصِّيَامِ وما جَاءَ النَّهارُ وَسَجَنُوا الأَلْسِنَةَ فَهَل فِيْهَا مِهْذَارٌ، وغَضُّوْا أَبْصَارَهُم ولاَزَمُوا غَضَّ الأَبْصَارِ، أَحْزَانُهُمْ أَحْزَانُ ثَكْلَى مَا لَهَا اصْطِبَارٌ، ودُمُوعُهُم لَولاَ التَّحَرِّيْ لَجَرَتْ كَالأَنْهَار، وَوُجُوهُهم مِنَ الخَوْفِ قَدْ عَلَاهَا الاصْفِرارُ، وَالقَلَقُ قَدْ أَحاطَ بِالقَوْمِ وَدَارَ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

جَدُّوا في انْطِلاقِهِمْ إلى خلافِهِمْ، وأَرَاضُوا أَنْفُسَهُم بتَحْسِيْنِ أَخْلَاقِهِمْ، فإِذَا بِهِمْ قَدْ آذَى بِهِمْ كَرَبُ اشْتِيَاقِهِمْ، أَتَدْرِي مَا الَّذِي حَبَسَكَ عَنْ إِلْحَاقِهِمْ؟ حُبُّ الدِّرْهَمِ وَالدِّيْنَارِ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

أَيْقَظَنَا الله وإِيَّاكُمْ مِن هذِهِ السِّنَةِ وَرزَقَنا اتِّبَاعَ النُّفُوسِ المُحْسِنَةِ، وآتَانَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَوَقَانَا عَذَابَ النَّار. وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنا محمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تَسليمًا كَثِيرًا، والحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِين.

المَجْلِسُ التَّاسِعُ
في قِصَّةِ الذَّبيح عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْشَأَ وَبَرَأ وخَلَقَ المَاءَ والثَّرَى، وأَبْدَعَ كُلَّ شيء ذَرَأ، لا يَغِيْبُ عَنْ بَصَرِهِ دَبِيْبُ النَّمْلِ في الليل إِذَا سَرَى، وَلاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مَا عَنَّ وَمَا طَرَأ، اصْطَفَى آدَمَ ثُمَّ عَفَى عَمَّا جرَى، وَابْتَعَثَ نُوْحًا فَبَنَى الفُلْكَ ثُمَّ سَرَى، ونَجَّى الخَلِيْلَ مِنَ النَّارِ فَصَيَّرَ حَرَّهَا ثَرَى، ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ فَأَدْهَشَ صَبْرُهُ الوَرَى، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢].

أَحْمَدُهُ مَا قُطِعَ نَهَارٌ يَسِير ولَيْلٌ بِسُرَى، وأُصَلِّيْ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ المَبْعُوْثِ فِي أُمِّ القُرَى، وعَلَى صَاحِبِهِ في الدَّارِ والغَارِ بِلَا امْتِرَى، وعَلَى عُمَرَ المُحَدِّثُ في نَفْسِهِ فَهُوَ بِنُورِ الله يَرَى، وعَلَى عُثْمَانَ زَوْجِ ابْنَتَيْهِ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يُوسُف: الآية ١١١]، وعَلَى عَلِيٍّ أَسَدِ أَسْدِ الثَّرَى، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ الرَّفِيعِ القَدْرِ الشَّامِخِ في الذُّرَى.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢] المُرَادُ بالسَّعْي: مَشْيُهُ معه وَتَصَرُّفُهُ، وكَانَ حينئِذٍ ابْنُ ثَلَاثَ عَشرَةَ سَنَةً، وَهَذَا الزَّمَانُ أَحَبُّ مَا يَكُونُ الوَلَدُ إِلَى الوَالِدِ؛ لأَنَّهُ وَقتٌ يَسْتَغْنِي فيهِ عَن مَشَقَّةِ الحَضَانَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَلَمْ يَبْلُغْ وَقْتَ الأَذَى وَالعُقُوْقِ، فَكَانَتِ البَلْوَى أَشدَّ.

ولِلْعُلَمَاءِ في الذَّبِيْحِ قَولانِ؛ **أَحَدُهُما**: أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ قالَهُ ابْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ والحَسَنُ البَصْرِيُّ وسَعِيْدُ بْنُ المُسَيَّبِ والشَّعْبِيُّ ومُجاهِدٌ ويُوسُفُ بْنُ مِهْرَانَ وَالقُرَظِيُّ وآخَرُوْنَ.

والثاني: أنَّه إسحاق. فَرَوَى الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَنِ العبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**الذَّبِيحُ إسحَاق**». وهَذَا قَولُ عُمَر وَعَلَيٍّ والعبَّاسِ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبي مُوسَى وأَبِي هُرَيْرَةَ وأَنَسٍ وكَعْبٍ ووَهْبٍ ومَسرُوْقٍ في خَلْقٍ كَثِيرٍ وهُوَ الصَّحِيحُ.

ورَوَى الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَن العبَّاسِ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قالَ دَاوُدُ: إِلَـٰهِي أَسْمعُ النَّاسَ يَقُولُونَ إِلـٰهَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ فاجْعَلْنِي رَابِعًا**». وقالَ لَهُ: لست هُنَاكَ إنَّ إبراهيمَ لَم يَعْدِلْ بِي شَيْئًا إلاَّ اخْتَارَنِيْ عليهِ، فَإِنَّ إسحاقَ جَادَ لِي بنفسِهِ، وإنَّ يعقوبَ في طُولِ ما كانَ لم يَيْئَسْ مِنْ يُوسفَ. كَيفَ يَقُولُ رسولُ الله ﷺ: «**أَنا ابنُ الذَّبِيحَيْنِ**» وَلَمْ يُذبَحْ أَحَدٌ منهُما حَقِيقَةً. مَا قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ، فَأَمَّا سَبَبُ أَمْرِهِ بِذَبْحِهِ فَرَوَى العُدَيُّ عن أَشْياخِهِ أن جبرئيلَ عليه السلام: لَمَّا بَشَّرَ سارَةَ بإِسحَاقَ قَالَتْ مَا آيَةُ ذَٰلِكَ؟ فَأَخَذَ عُودًا يَابِسًا فِي يَدِهِ فَلَوَّاهُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَاهْتَزَّ أَخْضَرَ، فقالَ إبراهِيمُ: هُو إِذْنُ الله، فلمَّا كَبُر إسحاقُ أُرِيَ إبراهيمُ في المَنَامِ فقِيلَ له: أَوْفِ بنَذْرِكَ، فَاسْتَيقَظ إبْراهيمُ عليه السلام مِن نومِهِ وأقبلَ على ابنِهِ يُقَبِّلُه ويُعانِقُهُ بَعْدَ ليلَتِهِ تِلْكَ، فقالَتْ لَهُ امْرَأَتُه: يا سيِّدِي يَا إبراهيمُ، مَا لَكَ لا تَتْرُكُ ابْنِي وقُرَّةَ عَينِي يَنامُ اللَّيلةَ؟ فقالَ لها: لَقَدْ أدركَتْنِي اللَّيلة إليهِ مَحَبَّةٌ عَظِيْمَةٌ، لكِنْ إذَا أَصْبَحَ الله بالصَّباحِ مِنَ الغَدِ اعمِدِي إليهِ، فَطَهِّرِيْهِ وَاغْسِلِي رَأْسَهُ بماء الوَرْدِ وَالكَافُورِ غَسْلًا جَيِّدًا، وَأَلْبِسِيْهِ أَنْقَى ثِيابِهِ، فَإِنِّي أُرِيدُ أن يَسِيرَ مَعِيَ إلى الجَبَلِ لأَتَقرَّبَ فِيهِ قُرْبَانًا لله عَزَّ وجَلَّ غَدًا إن شاء الله.

قالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ الله بالصباح من الغد عَمِدَتْ إِلَيْهِ وَالِدَتُهُ فَجعَلَتْ تَغْسِلُ رَأْسَهُ بِمَاءِ الوَرْدِ وَالكَافُورِ، فقالَ لَهَا: يَا وَالِدَتِي مَا لِي أَرَاكِ تَغْسِلِيْنِي هَذَا الغُسْلَ وهُوَ جهازُ المَوْتَى مِن دَارِ الدُّنْيَا إلى دارِ الآخِرَةِ؟ فَقَالَتْ لَهُ: حَبِيْبِي يَا بُنَيَّ بِذَلِكَ

أَمَرَنِي أَبُوكَ ولاَ أَعْصِيْ له أَمْرًا. فَقَالَ: فَغَسَلَتْهُ غَسْلًا جَيِّدًا ثُمَّ أَلْبَسَتْهُ أَنْقَى ثِيَابِهِ وَبَخَّرَتْهُ وَطَيَّبَتْهُ.

قَالَ: وإِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلامُ عَمِدَ إلى بَيْتِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ حَبْلًا وَشُفْرَةً أَدْخَلَهُمَا في كُمِّهِ خِيْفَةً مِن امْرَأَتِهِ ومِنْ ابْنِهِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ معَهُ يُرِيْدَانِ الجَبَلَ، فَلَمَّا سَارَا في بعضِ الطَّرِيْقِ تَصَوَّرَ له إبليسُ اللَّعِينُ في صُورةِ شَيْخٍ أَبْيَضَ شَائِبِ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ وهُوَ يَقُولُ: يَا أَسَفي أَسَفًا عَلَيْكَ يَا غُلَامُ وَأَبُوكَ يُرِيدُ أن يَذْبَحَكَ. فقالَ له: يا شَيْخُ، وهل رَأَيْتَ قَطُّ وَالدًا يَذْبَحُ وَلَدَهُ؟ قالَ له الملعُونُ إبْلِيسُ: أبوكَ يَزْعَمُ أَنَّ الله أَمَرَهُ بِذَلِكَ، وما أَمَرَ الله بِهِ وإِنَّما هُوَ مِن فِعْلِ الشَّيْطانِ. قَالَ لَهُ: إنْ كانَ الله عَزَّ وجَلَّ أَمَرَ أَبِيْ بِذلِكَ فَحَقَّ لَهُ أَن يَفْعَلَ مَا أمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ وَلا يَعْصِيَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قال: فَرَجَعَ إِبْلِيْسُ خَائِبًا.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ إسحاقَ أَقْبَلَ إلى أبيهِ إبراهيْمَ وقالَ له: يَا أَبَتِ، أَمَا سَمِعْتَ مِنْ قَولِ هَذَا الشَّيْخِ؟ فَقَالَ لَه إبراهيمُ: يَا بُنَيَّ أَظُنُّهُ إِبْلِيس، فَلَا يَهُولَنَّكَ كَلَامه وَثِقْ بِالله عَزَّ وجَلَّ فَهُوَ رَبُّكَ يُرِيْكَ مِن آياتِهِ عَجَبًا.

قَالَ: وَانْطَلَقَا سَائِرَيْنَ إلى الجَبَلِ، فَإِذَا بإِبْليسَ اللَّعِيْنِ قَدْ تَصَوَّرَ لَهُ في صُورةِ الطَّيْرِ، فَرَفْرَفَ عَلَى رَأْسِهِ وهُوَ يَقُول: يَا إسحاقُ لَو عَلِمْتَ أَنَّكَ تَنْطَلِقُ إلى المَوْتِ، وأَنَّ الجَبَلَ الَّذِي تَسِيْر إِلَيْهِ تُضْجَعُ وتُذْبَحُ بِالسِّكِّيْنِ كما تُذْبَحُ البَهائِمُ. قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ إسحاقُ عَلَيْهِ السَّلامُ كلامَ الطَّيْرِ أَقْبَلَ إلى أَبِيْهِ فقالَ: يَا أَبَتِ إن كانَ الشَّيخُ كَاذِبًا فَإِنَّ الطَّيْرَ لا يَكْذِبُ، وَهُوَ يُخْبِرُنِي أَنَّكَ تُرِيْدُ أن تَذْبَحَنِي. فَقَالَ لَهُ إِبْراهِيمُ عليه السلام: يا بني اسْتَسْلِمْ لأَمْرِ الله فإِنَّهُ لا يُضِيْعُ مَن تَوَكَّلَ عَلَيْهِ. قالَ: فلما أَيِسَ منهما إبليسُ اللَّعِينُ سَارَ مَذْمُوْمًا مَدْحُوْرًا.

فَلَمَّا صَعِدَ الجَبَلَ، فإِذَا إبليسُ اللَّعِينُ يُنَادِي مِن رَأْسِ الجَبَلِ، وَيَقُولُ يا إسحاقُ: لَو عَلِمْتَ أَنَّكَ تُذْبَحُ عَلَيَّ، ويُهراقُ دَمُكَ عَلَى ظَهْرِي، وَيكُونُ قَبْرُكَ في جَوْفِي، فَإِذا كانَ يَومُ القِيَامَة افتَخَرْتُ بِكَ على سَائِرِ الجِبَالِ. قالَ: فلَمَّا سَمِعَ ذلكَ إسحاقُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَقْبَلَ على أَبِيْه، وقالَ له: يا أَبَتِ إن كان الشَّيخُ كَاذِبًا، والطَّيرُ كاذِبًا فإِنَّ الجَبَلَ لا يَكْذِبُ ومَا عَلَيْهِ حِسابٌ ولا عِقَابٌ، وهُو

يُخْبِرُني أَنَّكَ الآنَ تَذْبَحُنِيْ عَلَى ظَهْرِهِ.

قالَ: فَتَرَكَهُ إبراهِيمُ وأَقْبَلَ على عِبَادَةِ رَبِّهِ، فَلَمَّا رَآهُ إسحاقُ كَذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى البُكاءِ وَالدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ لله عَزَّ وجَلَّ، وبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى انْتَصَفَ النَّهارُ، ثُمَّ إنَّ إبْراهِيمَ عليه السَّلامُ أَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ فقال لَهُ إسحاقُ: يا أَبَتِ، أَيْنَ قُرْبَانُكَ؟ قالَ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢].

وعظ:

إخواني، احذرُوا الدنيا لَمَّا ابْتُلِيَ الخَلِيْلُ بنمرودَ فَسُلِّمَ بِالنَّارِ فَسَلِمَ، امْتَدَّ سَاعِدُ البَلَاءِ إلى الوَلَدِ المُسَاعِدِ، فَظَهَرَتْ عِنْدَ المحاوَرَةِ والمُشاوَرَةِ نَجابَة ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢]، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَعَانَقَا وَرَفَعَا أَصْوَاتَهُما بِالبُكَاءِ، وَأَنَّ الابْنَ وهو يُوصِي الأَبَ ويقول: يا أبتي أُشْدُدْ رِبَاطِيْ؛ لِيَمْتَنِعَ ظَاهِرِي مِنَ التَّزَلْزُلِ كَمَا سَكَنَ قَلْبِي مَسْكَنَ السُّكُوْنِ، وَاكفُفْ ثِيَابَكَ عَن دَمِيْ لِئَلَّا يُصِيْبَهَا عَنْ دَمِي فَتَحْزَنَ لِرُؤْيَتِهِ أُمِّيْ وَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلام مِنِّي. فَقَالَ: نِعْمَ العَوْنُ أَنْتَ يَا بُنَيَّ.

ثُمَّ رَفَعَ إبْرَاهِيْمُ عليه السلام بَوَاطِنَ كَفَّيْهِ نَحْوَ السَّماءِ، وقالَ: إلَـٰهِي ومَولاَيَ وسَيِّدِي، أَعْلَمُ أَنَّكَ كَرِيمٌ، وَأَنْتَ تَعلَمُ أَنَّ خَلِيْلَكَ غَيرُ مُخالِفٍ لَكَ لا يَرُدُّهُ عَنْكَ رَادّ، فَارحَمْ صَغِيْرِي وحَبِيْبِيْ وقُرَّةَ عَيْنِي ولا تُفَجِّعْ قَلْبِي فيه ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦].

ثُمَّ أَخْرَجَ الشَّفْرَةَ مِن كُمِّهِ، فَلَمَّا رَآهُ إسحاقُ عليه السلام خَنَقَتْهُ العَبْرَةُ وبَكَى. فقالَ له أَبُوهُ إبراهيمُ: يا بُنَيَّ اسْتَسْلِمْ لأَمْرِ الله الَّذِي نَزَلَ بِكَ، وشَمَّرَ إبراهيمُ عَنْ سَاعِدَيهِ، فقالَ لَهُ إسحاقُ: يَا أَبَتِ إنَّ للمَوْتِ حَرارةً شَديدةً، ولكن شُدَّ كِتَافِيْ بِالحَبْلِ، وَضَعْ يَدَكَ عَلَى عُنُقِي لِئَلَّا أَضطَّرِبَ فَيُصِيْبَكَ شَيْءٌ مِنْ دَمِي فلَا يكونُ لِي عِنْدَ الله خَلَاقٌ، وَانظُرْ إليَّ يا أبَتِ بِوَجْهِكَ أَتَزَوَّدُ مِنْكَ قَبْلَ فِراقِي مِنَ الدُّنْيَا. قالَ: فبَكَى إبراهيمُ عليه السَّلامُ وبَكَتِ المَلائِكَةُ، وقالُوا: يَنْبَغِي لِهَذَا العبدِ أنْ يَتَّخِذَهُ الله خَلِيْلًا.

ثمَّ أَخَذَ الحَبْلَ وشَدَّ بِهِ كِتَافَ ابْنِهِ وقالَ لَه: يَا بُنَيَّ إني لا أَسْتَطِيْعُ أن أَنْظُرَ

إِلَى أَوْدَاجِ حَلْقِكَ وَالشَّفرةُ يَقْطَعُها وأنتَ حَبِيْبِيْ وقُرَّةُ عَيْنِي. فقالَ: يَا أَبَتِ رُدَّ وَجْهَكَ إِلَى نَاحِيَةٍ كَيْ لا تَحْزَنَ عَلَيَّ فَلَا تَقْدِرَ على ذَبْحِي، وَإِذَا ذَبَحْتَنِي فَكَفِّنِّي في ثِيابِيْ هذِهِ، وَاحْمِلْنِي إِلَى وَالِدَتِي تَتَزَوَّدُ مِنِّي، وَأَقْرِأْهَا مِنِّي السَّلامَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ.

فبَكَى إبرَاهِيمُ عليه السَّلامُ ووَضَعَ الشَّفْرَةَ على عُنُقِهِ، ثُمَّ أَمَرَّ الشَّفْرَةَ عَلَى مَرِيْءِ المَرْءِ فَمَا مَرَّتْ، غَيْرَ أَنَّ حَسَرَاتِ الفِرَاقِ لِلعَيْشِ أَمَرَّتْ قَطَعَنَ بِهَا فِي الحَلْقِ فَنَبَتْ لَكِنْ حَبُّ حُبِّ الرِّضَا في حَبَّةِ القَلْبِ نَبَتتْ يَا إبراهيمُ أَنَّ مِنْ عَادَةِ السِّكِّيْنِ أن يَقْطَعَ، ومِن عَادَةِ الصَّبِيِّ أَنْ يَجْزَعَ، فَلَمَّا نَسَخَ الذَّبِيْحُ نُسْخَةَ الصَّبْرِ، ومَحَى مَسْطُورَ الجَزَعِ قَلَّبْنَا عَادَةَ الحَدِيْدِ فَما مَرَّ وَلا قَطَعَ، ولَيْسَ مُرادُنا مِنَ الابْتِلَاءِ أَنْ نُعَذِّبَ، ولكِنَّا نَبْتَلِي لِنُهَذِّبَ.

إخواني، أين المُعْتَبِرُوْنَ بِقِصَّتِهِمَا في غُصَّتِهِمَا، لَقَدْ حَصْحَصَ الحَقُّ في حِصَّتِهِمَا، لَقَدْ جَعَلَ الطَّاعَةَ إلى الرِّضَا سُلَّمًا، سَلْ مَا نُودِيَ فَسَلِّمَا، بَيْنَمَا هُمَا على تَلٍّ وَتَلَّهُ جاءَ بَشِيْرُ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٥] فَارْتَدَّ أَعْمَى الحُزْنِ بَصِيرًا بِقَمِيْصِ ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٧] يَا إبراهِيْمُ، أُتْرُكْ مَا أَمَامَكَ، وخُذْ مَا عَلَى يَمِينِكَ، فَرَدَّ إبراهِيمُ عليهِ السَّلامَ وَجْهَهُ عَنْ يَمِيْنِهِ، فإِذَا بِكَبْشٍ فَأَخَذَهُ وخَلَّى عَنْ ابْنِهِ.

فَلَمَّا ذَبَحَ الكبشَ حَلَّ وَلَدَهُ، وجَعَلَ يُقَبِّلُهُ وَيقولُ: يَا بُنَيَّ تَقَبَّلَ الله سَعْيَكَ وزَكَّى عَمَلَكَ وغَفَرَ لِيْ ولَكَ. يَا بُنَيَّ اليَوْمَ وُهِبْتَ لِيْ، وَرَجَعَا إِلَى مَنْزِلِهِمَا.

وفي خَبَرِ الوَالِدَةِ قَوْلانِ؛ **أحدُهُما**: قالَ شُعَيْبُ الحَيَّانِيُّ: لَمَّا عَلِمَتْ بِذَلِكَ مَاتَتْ في اليَومِ الثَّالِثِ. والقَوْلُ **الثَّانِي**: لَقِيَتْهُما في بعضِ الطَّرِيقِ، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى ابْنِهَا وأَثَرُ البُكَاءِ عَلَى وَجْهِهِ، قالَتْ لَهُ: يَا حَبِيْبِي مَا الَّذِي دَهَاكَ؟ فَقَصَّ لهَا جَمِيْعَ ما اتَّفَقَ لَهُ مع أَبِيْه فَترامَتْ عَلَيْهِ وضَمَّتْهُ إلى صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، ولَم تَزَلْ تَحْرسُهُ حَتَّى أَتَى أَمْرٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ العالَمينَ، وَبُشِّرَتْ في مَنَامِهَا أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ حَتَّى يَلِدَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ، فَعِنْدَ ذلِكَ اسْتَسْلَمَتْ لأَمْرِ الله عَزَّ وجَلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٣]، قالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: صَرَعَهُ عَلَى جَبِيْنِهِ فصارَ أَحَدُ جَبِيْنَيْهِ على الأرضِ وهُما جَبِينَانِ، وَالجَبْهَةُ بَيْنَهُما. ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٤]، قَالَ المُفَسِّرُونَ: نُودِيَ مِنَ الجبل ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصَّافات الآيتان: ١٠٤، ١٠٥]، فيه قولانِ:

أحدُهما: قد عَلِمْتَ ما أُمِرْتَ به، وذلك أنَّه قَصَدَ الذَّبْحَ بِمَا أَمْكَنَهُ وطَاوَعَهُ الابْنُ مِنَ التَّمْكِينِ مِنَ الذَّبْحِ، إلاَّ أنَّ الله صَرَفَ ذلكَ كما شَاءَ فَصَارَ كَأَنَّهُ ذَبَحَ وإنْ لَم يَفْعَلِ الذَّبْحَ.

والثَّانِي: أنَّهُ رَأى في المَنامِ مُعالَجَةَ الذَّبْحِ وَلَمْ يَرَ إرَاقَةَ الدَّم، فَلَمَّا فَعَلَ في اليَقْظَةِ مَا رَأى في المَنامِ قِيلَ له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٥].

إخواني، ليسَ العَجَبُ أمْرُ الخَلِيْلِ بذَبْحِ وَلدِهِ، وَإنَّمَا العَجَبُ مُبَاشرةُ الذَّبْحِ بيدِهِ، ولَوْلاَ اسْتِغْرَاقُ حُبِّ الآمِرِ لَمَا هانَ مِثْلُ هَذَا المَأْمُوْرِ.

كانَتْ زَليخَا مَشغُوْفَةً بيُوسُفَ، فَلَمَّا قَرَّتِ المحبَّةُ قَلْبَهَا فَرَاوَدَتْهُ فَأَدْبَرَ، قَدَّتِ القَمِيصَ من دُبُرٍ، فَلَمَّا ذَاقَتْ مَحَبَّةَ الحبِيبِ الأَعْلَى أعْرَضَتْ عَن يُوسُفَ بعدَ الإقْبالِ عليهِ، فنادَاهَا لسانُ العُجْبِ؛ وَأيْنَ حُبُّكِ المُتَقَدِّمُ يا زَليخَا؟ فقالَتْ: إنَّ لي عَنْكَ يا يوسُفُ شُغْلًا بِرَبِّكَ فَإنِّيْ رَأَيْتُ جمالَ ظاهِرِكَ يَتَغَيَّرُ وجَمَالُ البَاقِي البَاقي.

وعظ:

يَا مَن مَعاصِيهِ جَمَّةٌ مَشْهُورةٌ، ونَفسُهُ بِمَا يَجْنِي عَلَيْهَا مَسرورةٌ، أَفِي العَيْنِ عَمًى أو عَشًا؟ أَكَذَا الأَمْرُ يَجْرِي كما تَشَاءُ؟ أَعَلَى القَلْبِ حِجابٌ، أم غِشَاءٌ، يَا كَثِيْرَ المَعَاصِي قَعَدَ أَوْ مَشَى، عَظُمَتْ ذُنُوبُكَ، فَمَتَى تَغْضِيْ، يا مُقِيمًا وهُو في المعاصِي يَمْضِي، لاَ في الشَّبَابِ أصلَحْتَ ولا في الكُهُولِ.

أفْلَحْتَ آه لِلِسَانٍ نَطَقَ بِالإثْم، كَيْفَ غَفَلَ عَن قولِ: ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؟ آهٍ لِيَدٍ امْتَدَّتْ إلى الحَرَام كَيْفَ نَسِيَتْ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: الآية ٦٥]؟ آهٍ لِقَدَمٍ سَعَتْ في الأَجْرَام كَيْفَ لَم يَتَدَبَّرُوا ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾؟ آهٍ لِفَمٍ فَغَرَهُ لِتَفْرِيْغِ كَأْسِ الخَمْرِ لَمَا بَلَغَهُ زَجْرُ ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المَائدة: الآية ٩٠].

يَا مَنْ رَاحَ في المَعَاصِي وغَدَى ويَقُوْلُ: سَأَتُوْبُ اليَوْمَ أَوْ غَدًا. كَيْفَ تَجْمَعُ قَلْبًا قَدْ صَارَ في الهَوَى مُبَدَّدًا؟ كَيْفَ تُلِيْنُهُ وَقَدْ أَمْسَى بِالجَهْلِ جَلْمَدًا، لَقَدْ ضَاعَ قَلْبُكَ فَاطْلُبْ لَهُ مُنْشِدًا، تَفَكَّرْ بِأَيِّ وَجْهٍ تَلْقَى الرَّدَى، تَذَكَّرْ لَيْلَةً تَبِيْتُ فِي القَبْرِ مُنْفَرِدًا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: الآية ٣٦] بَيْنَ يَدَي مَن ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: الآية ٢٨]. وَا عَجَبًا أَيْنَ أَنْتَ وَالأَحْبابُ كَمْ بَيْنَ القُشُورِ وَاللُّبَابِ؟

يَا مُعْجبًا بِتعَبُّدِهِ تَأَمَّلْ فَضَائِلَ السَّابِقِينَ سَابِقَةُ القَدَرِ قَضَتْ لقوم بدليلِ ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠١]، وعلى قَوْمٍ بدليلِ ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٦] فَوَافَقَا ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٠] تَوْفِيقُ تَلْقِيح سَبَقَتْ، نَوَّرَ قُلُوبَ الجِنِّ، فَقالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: الآية ١]، وخِذْلاَنُ ﴿غَلَبَتْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩] أَعْمَى بَصِيْرَةَ قُلوبِ قُرِيشٍ فـ ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: الآية ٢٤].

يَا مُؤَخِّرًا تَوبَتَهُ بِمَطْلِ التَّسْوِيْفِ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ١٢]، كُنْتَ تَقولُ إذا شِبْتَ تُبْتَ، فهذِهِ شُهُورُ الصَّيْفِ قَدِ انْقَضَتْ، ويحكَ قد نَفِدَ السَّلِيْطُ فَاسْتَدْرِكْ ذُبالَةَ المِصْبَاحِ. وينشد:

لَقد ظَهَرَتْ فما تَخفَى عَلَى أَحَدٍ   إلاَّ عَلَى أَكْمَه لا يَعْرِفُ القَمَرَا
وقَد سَفَرتُمْ إلى مَن قَدْ فَنِيَ بِكُمْ   حَتَّى إِذَا مَا تَجَلَّيْتُمْ لَهُ ظَفَرَا
لَقَد فَنِيَ وَتَلَاشَى عِنْدَ رُؤْيَتِكُمْ   فَمَا تَرَكْتُمْ لَهُ عَيْنًا وَلا أَثَرًا

إخواني، عِبَاراتُ النَّسِيْمِ لا يَفْهَمُهَا إلاَّ المُشْتَاقُ. وحَدِيْثُ البُرُوْقِ لا يَرُوْقُ إلاَّ لِلمُشتَاقِ، خَلَوْا والله بِالحَبِيْبِ في دَارِ المُناجَاةِ، فَكَسَاهُم ثِيَابَ المُواصَلَةِ وضَمَّخَهُم بِطِيْبِ المُعامَلَةِ، وغَالِيَةُ السَّحَرِ غَالِيَةٌ يُصْبِحُوْنَ وَعَلَيْهِم سِيمَاءُ القُرْبِ تَفُوْحُ أَرْوَاحُ نَجْدٍ مِن ثِيَابِهِمْ، فَتَأَسَّفْ يَا جِيْفَةَ النَّومِ وابْكِ على تَخَلُّفِكَ يا عُرْيَانَ العَقلِ. أتدرِيْ كَيفَ مَرَّ عليهِم اللَّيْلُ؟ أَلَكَ عِلْمٌ بِما جَرَى لِلقومِ؟ أَيَعْلَمُ سَالٍ كيفَ بَاتَ مُتَيَّمٌ. شعر:

كَانَ رَقِيبًا سَدَّ مَسامِعِيْ   عَنِ العَذْلِ حتَّى لَيْسَ يَدْخُلُها العَذْلُ

كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقلَتِيْ فما بينهما في كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ

إخواني، رَحلَتْ رُفْقَةٌ تَتَجَافَى قَبْلَ السَّحَرِ، وَمَطْرُودُ النَّوْمِ في حَبْسِ الرُّقادِ فَما فَكَّ عنهُ السُّبحَان قَيْدَ الكَرَى حَتَّى اسْتَقَرَّ بالقومِ المَنْزِلُ.

وأنشد لسان الحال:

يا راحِلِيْنَ إلى الحَبِيْبِ تَرَفَّقُوا فَلِلْقَلْبُ بَيْنَ رِحَالِكُم خَلَّفْتُهُ
أبْكِي إذَا جَنَّ الظَّلامُ تَشَوُّقًا في طُولِ لَيْلٍ في هَواكَ سَهِرْتُهُ
وأنُوحُ إنْ فَاحَ الحَمَامُ ضُحًى عَلَى إلْفٍ فَقَدْتَ الصَّبْرَ حِينَ فَقَدْتُهُ
مَا لِي سِوَى قَلبِيْ وفِيْكَ أَذَبْتُهُ مَا لِي سِوَى دَمْعِي وفِيْكَ سَكَبْتُهُ
ما كُنْتُ أَعرِفُ مَا الغَرَامُ وَلا الأَسَى وَالشَّوقُ والتَّبْرِيْحُ حَتَّى ذُقْتُهُ

إشارة:

سُبْحَانَ المُفَاوِتِ بَيْنَ الخَلْقِ، يُقَالُ لِلْخَلِيْلِ: اذْبَحْ وَلَدَكَ، فَيَأْخُذُ المُدْيَةَ، ويُضْجِعُهُ لِلذَّبْحِ، وَيُقالُ لقومِ مُوسَى: ﴿أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة: الآية ٦٧]، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧١]، يَخْرُجُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ جَمِيْعِ مَالِهِ، ويَبْخَلُ ثَعْلَبَةُ بِالزَّكَاةِ، ويَجُوْدُ حَاتِمٌ بِقُوَّتِهِ، وَيَبْخَلُ بِضَوءِ نَارِهِ الحَبَاحِبُ.

وكَذَلِكَ فَاوَتَ بَيْنَ الفُهُوْمِ، فَسَحْبَانُ أَنْطَقُ مُتَكَلِّمٍ، وبَاقِلٌ أَقْبَحُ وَأَخْرَسُ، وفَاوَتَ بَينَ الأَمَاكِنِ فَزُرُوْدُ تَشكُو العَطَشَ، وَالبَطائِحُ تَصِيْحُ الغَرْقَ.

إخواني، اصْحَبُوا الصَّالِحِيْنَ وَإِنْ لَم تَكُونُوا مِنْهُم، فَإِنَّه إذَا أُحْيِيَ عُزَيْرٌ أُحْيِيَ حِمَارُهُ، ولَمَّا بُعِثَ أَهْلُ الكَهْفِ بُعِثَ كَلْبُهُمْ.

إخواني، كَمْ بَيْنَنَا وبَيْنَ الصَّالحينَ مِنْ مَفَازَةٍ مَا فيهَا، مَا مِنْ جِبَالٍ مَا فِيهَا جَادَّةٌ، يَا مَن أَبْعَدَتْ عَنْهُمُ الذُّنُوبُ وَطَرَدَتْهُ عن جُمْلَتِهِمْ العُيُوبُ، يا عَاصِي خَلَّيْتَ أَوْصَافَ القومِ وَمَا اشْتَقْتَ حُبُّ الدُّنيَا، غَلَبَ عَلَى قلبِكَ ضُرِبَتْ عُرُوقُ آمَالِكَ في ثَرَى الغَفْلَةِ، فما تُزَعْزِعُ تَخْلَةَ آمَالِكَ العَواصِفُ، مَا أظنُّ إلاَّ قَدْ فَاتَ أَمْرُكَ، وَمَا أَرَى لِلخَيْرِ أَمَارَةً وتَحْضُر مَجالِسَ الذِّكْرِ خَمْسِينَ سنةً، وأَنْتَ أَنْتَ عِلِقَ شَرَكُ الهَوَى بِجَنَاحِكنَّ فَكَسَرَهُ، فإِنْ تَحَرَّكَتْ فحَرَكَةُ المَقْعَدِ وَاخْتِلاجُ

المَذبُوْحِ، وَيحكَ إنَّ المُنْقَطِعَ في البَادِيَةِ أَكِيْلَةٌ لِلسِّبَاعِ. شعر:

كَأَنَّ القَلْبَ لَيْلَةَ قِيْلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى العَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاة غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُجَاذِبُهُ وقَدْ عُلِّقَ الجَنَاحُ
فَلَا بِاللَّيْلِ نَالَتْ مَا تَمَنَّتْ ... وَلاَ بِالصُّبْحِ صَحَّ لَهَا رَوَاحُ

قال علماء أَهْلِ السِّيَرِ: لم يَمُتْ إبراهيمُ حَتَّى نُبِّئَ بإسْحَاقَ، وبُعِثَ إلى أَرْضِ الشَّام، وكانَ إبراهيمُ قد زَوَّجَ إسحقَ أَرْوَقَةَ بِنْتَ بَثَاوِيْلَ، فَوَلَدَتْ لَهُ العِيْصَ ويَعْقُوْبَ وهُو ابنُ سِتِّينَ سَنَةً، فَأَمَّا العِيْصُ فَتزَوَّجَ بِنتَ عَمِّهِ إسماعيلَ، فَوَلَدَتْ لَهُ الرُّوْمَ وكُلُّ بَنِي الأَصْفَرَ مِنْ وَلَدِهِ وكَثُرَ أَوْلاَدُهُ حَتَّى غَلَبُوا الكَنعَانِيِّينَ بالشَّامِ، وسَارُوا إلى البَحْرِ والسَّوَاحِلِ فَصَارَ الملوكُ مِن وَلدِهِ وَهُمُ اليُوْنَانِيَّةُ.

وأَمَّا يَعقُوبُ فَتَزَوَّجَ لَيَّا فَوَلَدَتْ له أكثَرَ أَولادِهِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ أُخْتَهَا رَاحِيْلَ فَوَلَدَتْ له يُوسفَ وابنَ يَامِينَ، وعاشَ إسحاقُ نحو مِائةً وستِّينَ سَنَةً، وَتُوُفِّيَ بِفَلَسْطِيْنَ ودُفِنَ عندَ أَبِيْهِ إبراهيمَ عَلَيه السَّلام. وينشد:

زِيادةُ المَرْءِ في دُنْيَاهُ نُقْصَانٌ ... وَرِبْحُهُ دُوْنَ مَحْضِ الخَيْرِ خُسْرَانُ
يا عَامِرًا لِخَرابِ الدَّارِ مُجْتَهِدًا ... تَاللهِ هَلْ لِخَرابِ العُمْرِ عُمْرَانُ

السَّجْعُ:

يَا مُعْرِضًا عَنِ الهُدَى لاَ يَسْعَى في طَلَبِهِ، يَا مَشْغُولاً بِلَهْوِهِ مَفْتُونًا بِلِعْبِهِ، يَا مَنْ قَدْ صَاحَ بِهِ المَوْتُ عِنْدَ أَخْذِ صَاحِبِهِ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

جُزْ عَلَى قَبْرِ الصَّدِيْقِ وتَلَمَّحْ آثَارَ الرَّفِيْقِ، يُجْزِكَ عَنْ حُسْنِهِ الأَنِيْقِ إِنَّهُ اسْتُلِبَ بِكَفِّ التَّمزِيقِ، هَذا لَحْدُهُ وَأَنْتَ فِي عَذَابِهِ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

كَم نُهِي عَنِ الخَطَايَا فَمَا انْتَهَى، كَم زَجَرَتْهُ الدُّنْيا ثم سَعَى لها، هَذَا رُكْنهُ الوَثِيْقُ قَدْ وَهَا وَهَا أَنْتَ في سَلْبِهِ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

أَيْنَ مَن عَتَا وظَلَمَ، ولَقِيَ النَّاسَ منهُ الأَلَمُ، اقْتَطَعَهُ الرَّدَى اقْتِطَاعَ الحَلِمَ

فما نَفَعَهُ ما جَمَعَ وَلاَ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ عِزُّ مَنْصِبِهِ، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

باتَ في لَحْدِهِ أَسِيرًا لاَ يملِكُ مِن الدُّنْيا نَقِيْرًا، بَلْ عَادَ بِوزرِ ذَنْبِهِ عَقِيرًا وَأَصْبَحَ مِن مالِهِ فَقِيرًا، عَلَى عِزِّ نَسَبِهِ وكَثْرَةِ نَشَبِهِ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

الكِتابُ يَحْوِي حَتَّى النَّظْرَة، وَالحسابُ يَأْتِي على الذَّرةِ، وخَاتِمةُ كأسِ اللَّذَّاتِ مُرَّةٌ، والأَمْرُ جَلِيٌّ لِلْفُهُوْمِ مَا يَشْتَبِهُ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

يُجْمَعُ النَّاسُ كلُّهُمْ في صَعِيدٍ، وَيَنْقَسِمونَ إلى شَقِيٍّ وسَعِيْدٍ، فقومٌ قد حَلَّ بهِم الوَعِيدُ وقومٌ قِيامُهُمْ نُزْهَةٌ وعِيْدٌ، وَكلُّ عَامِلٍ يَغْرِفُ مِنْ مَشْرَبِهِ، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

وإنَّما يَقَعُ الجَزَاءُ عَلَى أَفْعالِكَ، وإنَّما تَلْقَى في غَدٍ غِبَّ أَعمالِكَ، وقَد نَصَحْنَاكَ به بِقَصْدِ إصْلَاحِ حالِكَ، فإنْ كنتَ مُستَيْقِظًا فَاعْمَلْ بِذَلِكَ، وإنْ كنتَ قَائمًا فَانْتَبِهْ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

اللَّهُمَّ أَخرِجْنَا إِلَى نُورِ اليَقِينِ مِن هَذَا الظَّلَامِ، ولا تَجْعَلْنَا مِمَّن رَأَى الصُّبحَ فنامَ. اللَّهُمَّ عَافِ عُيونَ الفَهْمِ مِن رَمَدِ البَلَادَةِ. اللَّهُمَّ لا تُعَذِّبْ نَفْسًا قَدْ عَذَّبَهَا الخَوْفُ مِنْكَ. اللَّهُمَّ كَمَا بَادَرْنَا ما بادَرْنَا إِنْ تَنْهَنَا فَانْتَهَيْنَا ولا تُخْرِسْ لسانًا كَلَّ عن كُلِّ ما يُروَى عنكَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِمَنْ وَلَدَنَا ولمَن غَابَ عَنَّا، وصلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا محمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا كثيرًا، والحمد لله ربِّ العالمين.

المَجْلِسُ العَاشِرُ
فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطْ عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

الحمدُ لله الَّذِي أَحْكَمَ الأَشْيَاءَ كُلَّهَا صُنْعًا، وتَصَرَّفَ كَما شَاءَ إعْطاءً ومَنْعًا، أَنْشَأَ الآدَمِيَّ مِنْ قَطْرَةٍ فإِذَا هُوَ حَيٌّ يَسْعَى، وخَلَقَ لَهُ عَيْنَيْنِ لِيُبْصِرَ المَسْعَى، وَوَالَى لَدَيْهِ النِّعَمَ وِتْرًا وشَفْعًا، وضَمَّ إليهِ زَوْجَتُهُ تُدَبِّرُ أَمْرَ البَيْتِ وَتَرْعَى، وَأَبَاحَه مَحَلَّ الحَرْثِ وقد فَهِمَ مَقصودَ المَرْعَى، فَتَعَدَّى قَوْمٌ إلى الفَاحِشَةِ الشَّنْعَى، وعَدُّوا سِتًّا وسَبْعًا ورُجِمُوا بِالحِجَارَةِ، فَلَو رَأَيْتَهُمْ صَرْعَى، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هُود: الآية ٧٧].

أحمدُهُ على ما أرسَلَ سَحابًا وأَنْبَتَ به زرعًا، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلِ نَبِيٍّ عَلَّمَ أُمَّتهُ شَرْعًا، وعلى صاحِبِهِ أَبِي بَكْرِ الصِّدِّيقِ الَّذِي كانَت نَفَقَتُهُ لِلإِسْلَامِ نَفْعًا، وعلى عُمَرَ الَّذي ضَيَّقَ الإِسْلامَ بدَعْوةِ الرَّسُولِ المُستَدْعَى، وعَلَى عُثمانَ ذِي النُّورَيْنِ الَّذِي ارْتَكَبَ منه الفُجَّارُ بِدْعًا، وعلى عَلِيٍّ الذي يُحِبُّهُ أَهْلُ السُّنَّةِ طَبْعًا، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاس الَّذي ثبتَ دُعاؤُهُ في الاسْتِسْقَاءِ قَطْعًا.

قال الله العظيم: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: الآية ٧٧]، كَانَ لُوطٌ عليه السَّلامُ ابْنُ هارانَ بنِ تارَحِ وهُو ابْنُ أَخِي إبراهيْمَ، وكان قَد آمَنَ بِهِ وَهَاجَرَ مَعَهُ إلى الشَّامِ بَعْدَ نَجاتِهِ مِنَ النَّارِ، واخْتُتِنَ لُوطٌ مَعَ إبراهيمَ وهو ابْنُ ثَلاثٍ وخمسين سنةً، فنزل إبراهيم فِلَسْطِيْنَ ونَزَلَ لُوطٌ الأُرْدُنَّ فأَرْسَلَ الله تعالى لُوطًا إلى أهلِ سَدُوْمَ.

وقصته: لمَّا تَهاوَى قَومُ لُوْطٍ هُوَّةَ أَهْوَائِهِم ونادَوا في جهاتِ جَهْلِهِم ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النَّمل: الآية ٥٦] بعثت الأملاك لانتزَاعِ أمْلاكِ الحَيَاةِ من أيديهم، فنزلوا في مَنْزِلِ لوطٍ مَنْزِلَ النَّزِيْلِ، فهُم في أَفْسَحِ بَيتٍ منَ الكَرَمِ، غيرَ أنَّ حارِسَ حَذَرِهِ يُنَادِي ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ خافَ من قومِهِ أَذَاهُمْ، فإذا هُم يُهرَعُونَ، فَأَخَذَ يُدافِعُ تارةً بمَشْوَرَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾، وتارةً بتُقَاةٍ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وتارةً بسُؤالٍ ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾، وَتَارَةً بتوبيخِ ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: الآية ٧٨] فلما كَلَّ كُلُّ سِلَاحِهِ وَأَعْيَتْ جِهَاتُ جِهَادِهِ بِرَمْزِ ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هُود: الآية ٨٠] فحجَبَهُم جبريلُ بِحِجَابِ فِطرَتِنَا وانْتَأشَهُ مِن أَسْرِ الغمِّ بلَفظِ ﴿فَأَسْرِ﴾ فَلمَّا عَلِمَ أنَّ الملائكةَ تَشُوقُ إلى تعجيلِ التَّعذِيبِ فنادَتْ عَواطِفُ الحِلْمِ ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هُود: الآية ٨١].

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: الآية ٢٩] على أعجَازِ نجائِبِ النَّجاةِ إلاَّ عجُوزَ العَجْزِ عَن عِرْفانِ المُعْجِزَةِ، فإنَّها لَحِقَتْ بالعَجزَةِ، فلما لاحَ مصبَاحُ الصَّبَاح احتملَ جِبْرِيلُ قُرَى مَن جَنا على قَرَى جَنَاحِهِ، وكانَتْ خَمس قُرًى أعظَمُها سَدُومُ فما يَنكَسِرُ في وَقْتِ رَفْعِهِم إناء ولم يُرَقْ في صُعودِهِم مَا فَلَمَّا سمِعَ أهلُ السَّماء نُبَاحَ كِلَابِهِمْ، أسرعَتْ كَف انقِلَابِهِمْ في انْقِلَابِهِمْ. فتَفَكَّرْ كيفَ جُوزُوْا بالقلبِ على قَلْبِ الحِكمةِ، وكيف عُوقِبُوا على قَطْعِ السَّبِيْلِ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ، فَلتَحْذَرْ مَظَنَّةَ الخَطَايَا وَالذُّنوبِ، فإنَّها بصَاحِبِهَا إلى العَطَبِ ثاوُبُ، ودَارَ هَاتِفُ العِبْرَةِ على دَرْبِ دَارِهِم ينادِي.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ﴾ [العنكبوت: الآية ٣٥]، فَلْيَحْذَرِ العَازِمُوْنَ عَلى طَرْقِ طَرِيْقِهِم مِنْ وَعِيْدِ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٣]. قِيْلَ غُصَصِ الجَرَضِ وأَلَم الحَرَضِ عند حُلُولِ المَرَضِ حينَ يَعتَقِلُ اللِّسَان، ويَتَحَيَّرُ الإنْسانُ، وتَسِيلُ الأجْفَانُ ويَزولُ العِرْفَانُ وتُنْشَرُ الأكفَانُ، فيا عجبًا كيفَ لقِيَ لِذَّةَ العيشِ الفَانِي وقد مَرَّ فَأَمَرَّ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٦]. وينشد:

الدَّهْر خَطِيبٌ كافٍ الفكر طبيبٌ شَافٍ

كم قُطِعَ الزَّرعُ قَبْلَ التَّمامِ، يُوسفُ العقِيل يَنتظرُ في العَواقب، وزَلِيخَا الهَوَى تَتَلَمَّحُ العاجِلَ، ينبغي لمَن أُلْبِسَ ثوبَ العَافِيةِ أن لا يُدَنِّسَه بوسَخِ الزَّلَلِ،

يا مَن قد غلبتْه نفسُهُ وبَطَشَ بعقلِهِ حِسُّهُ استدرِكْ صِيَانَةَ اليَقَظَةِ، وَأَصِخْ بسمعِ قلبِكَ لِلمَوعِظَةِ. وينشد:

يَا نَفْسُ تُوبِيْ فإنَّ الموتَ قَدْ حَانا ... وَاعْصِي الهَوى فالهوى ما زَالَ فَتَّانَا
أما تَرَيْنَ المَنَايَا كيفَ تَلقَطُنَا ... لَقْطًا وتُلْحِقَ أُخْرَانَا بأُوْلاَنَا
في كلِّ يَوْمٍ لنا مَيِّتٌ نُشَيِّعُهُ ... نَرَى بِمَصْرَعِنَا آثَارَ مَوْتَانَا
يا نَفْسُ مَالِي وللأَمْوالِ أتْرُكُهَا ... خَلفِيْ وَأَخْرُجُ مِن دُنْيَايَ عُريَانَا
أَبَعْدَ خمسِيْنَ قد قضَيتُها لِعْبًا ... قد آنَ تَقصِيرِيْ قَدْ آنَ قَدْ آنَا
مَا بَالُنَا نَتَعَامَى عن بَصائِرِنا ... نَنْسَى بِغَفْلَتِنَا مَن لَيْسَ يَنْسَانَا
نَزدادُ حِرْصًا وهذَا الدَّهْرُ يَزْجُرْنَا ... كَأَنَّ زَاجرَنَا بالحرصِ أَغْرَانَا
أينَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ومَن ... كانتْ تَخِرُّ له الأذقَانُ إِذْعَانَا
صَاحَتْ بهم حَادِثاتُ الدَّهْرِ فَانْقَلَبُوا ... مُسْتَبْدِلينَ مِنَ الأَوْطَانِ أوْطَانَا
خَلُّوْا مَنَازِلَ كَانَ العِزُّ مَفْرَشَهَا ... وَاستَفْرَشُوا حُفَرًا غُبْرًا وَقِيعَانَا
يا راكضًا في ميَادِينِ الهَوَى مَرَحًا ... ورَافِلًا في ثِيابِ الغَيِّ نَشْوَانَا
مَضَى الزَّمانُ وحَلَّ العمرُ في لعِبٍ ... يَكْفِيْكَ ما قَد مَضى قد كانَ مَا كَانَا

أيْنَ الزَّادُ يا مُسَافِرًا لقد أَنْشَب الموتُ فيكَ الأَظافِرَ، كيفَ تَصنعُ إن غَضِبَ الغافِرُ، يا مُبارِزًا بالقبائِحِ؟ أَمُؤمِنٌ أَنْتَ أم كَافِرٌ؟ يَا نَائِمًا عن صَلاحِهِ مَا هَذَا الهُجوعُ، يا دَائِمَ الحضورِ عندَنا هَل عُمْرُكَ إلا أُسبوعُ، تَتَلَمَّقُ للدُّنْيا بقَلْبِكَ وتعتَذِرُ بلفظٍ مصنوعٍ إصْرارُكَ كالصَّحِيْحَيْنِ، وإقلاعُكَ حديثٌ مَوضوعٌ مَزِّقْ أَمَلَكَ فالعُمرُ قَصِيْرٌ حَقِّقْ عَمَلَكَ فَالنَّاقِدُ بَصير.

كانَ يحيىٰ بن زكريَّا يَبْكِي حتَّى رَقَّ خدُّهُ وبَدَتْ أضراسُه هذا، وقد كانَ على الجادَّةِ فكيف بِمَن ضَلَّ؟ وَا عجبًا من بُكائِهِ ومَا ثَمَّ مَأْثَمٌ فكيفَ بِمَنْ مَا انقضَى يَومٌ إلاَّ وَثَمَّ مَأْثَمٌ؟ يا هَذا إن كانَ قد أصَابَكَ دَاءَ دَاوُودَ فَنُحْ نَوْحَ نُوحٍ تَحْيَا حَياةَ يَحْيَىٰ. وينشد:

لا تَحْسَبَنَّ ماءَ العيونِ فإنَّه لك ... يا لديغَ هَواهُمْ دِرْيَاقُ
شَنُّوا الإغارةَ في القلُوب ... بأَسهُمٍ لا تُرْتَجَى مِن أسْرِهَا إطلاقُ

واستَعْذَبُوا مَاءَ الجُفُوْنِ فَعُذِّبُوا ... أَسَرَ الغَرَامَ فَدَرَّتِ الآمَاقُ

إخواني، الدُّنيا سُمومٌ قَاتِلَةٌ، والنفوسُ عن مكائدِها غَافِلة، كم لَذَّةٍ تَجْلُو في العاجلةِ ومَرارَتها لا تُطاقُ في الآجِلَةِ، يا ابن آدم قلبُك قلبٌ ضعيفٌ، ورَأْيُكَ في إطْلاقِ الطَّرْفِ رَأيٌ سَخِيْفٌ، عَينُكَ مُطلَقَةٌ في الحرام، ولسانك مُطلقٌ في الآثامِ، وجَسَدُكَ مُتعَبٌ في كتب الحُطَامِ، كَم نَظْرةٍ مُحْتَقَرَةٍ زَلَّتْ بِهَا الأقْدَامُ. وينشد:

وَأنا الَّذِي اجتَلَبَ المَنِيَّةُ طَرفَهُ ... فمَنِ المُطالِبُ والقَتيلُ القَاتِلُ

وَا عجَبًا أُطَارِحُكُم حَدِيثَ العُذَيْبِ وَأنْتُم مِن وراءِ النَّهْر، يَا منقَطِعِيْنَ عَنِ الصَّالِحينَ، تَعالَوا نَمْشِي رُفقةً تَجْمَعُنَا مَأْتَمُ الأَسَى مَوعِدُنا مقابِرُ الأَسفِ، يا هذا عَاتِبْ نفسَكَ على تَفْرِيطِهَا ثم حَاسِبْهَا علَى تَخْلِيْطِها، حَدِّثْهَا مَا بين يَدَيْهَا، حَذِّرْهَا الدُّنْيَا، فَإِنَّها أسحَر مِن هَارُوتَ ومَارُوتَ، ذَانِكَ يُفَرِّقَانِ بين المَرءِ وزَوْجِهِ، وهذِهِ تُفَرِّقُ بينَ العبدِ وربِّه، وكيفَ لا وهِيَ الَّتي سَحَرَتْ سَحَرةَ بَابِلْ إن أقْبَلتْ شغَّلَتْ، وإن أدْبَرَتْ قَتَلَتْ.

تجديد:

إِيَّاكَ والدُّنيا الدَّنِيَّةَ ... إِنَّهَا دارٌ مَتَى سَالَمْتَها لم تَسْلَمِ
كم أهلَكَتْ مِن وَاثِقٍ قَدْ رَامَهَا ... ومُسَالِمٍ تَسْقِيهِ سُمَّ الأَرْقَمِ
وعليك التَّقوى فإنَّك مَيِّتٌ ... وَاجعَلْه واقيَةً لِحَرِّ جَهَنَّمَ
وتَجنَّب الظُّلمَ الَّذِي هَلَكَتْ بِهِ ... أُمَمٌ تَوَدُّ لَوْ أنَّها لَم تَظْلِمِ
وَاحْذَرْ لِسَانَكَ لا يَقُوْدُكَ لِلرَّدَى ... فَلَرُبَّمَا قادَ اللِّسَانُ إلى الدَّمِ

إخواني، احذَرُوا الدُّنْيَا، فإنَّها إذا صَفَتْ حَلَالُهَا كَدَّرَتِ الدِّيْنَ، فكيفَ إذا أُخِذَتْ من حَرَام. إنَّ لَحمَ الذَّبِيحَةِ ثقيلٌ على المَعَاصي، فكيفَ إذا كَانَ مَن مَسَّه الظَّلَمَةُ في الظُّلْمة يَمْشُون وعلى فراش الآثامِ يُمْسُوْنَ، وفي جَمْعِ الحُطَامِ يُصْبِحُوْنَ ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦].

مَن نَبَتَ جِسْمُهُ عَلَى الحَرامِ، فمَكاسِبُهُ كِبرِيْتٌ يُوقَدُ الحجرُ المغصُوبُ في

البناءِ أساسُ الخرابِ، أَتَراهُم نَسُوْا طَيَّ اللَّيالِي سَالِفَ الجبَّارِيْنَ ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [سبأ: الآية ٤٥] فما هذا الاِغْترارُ ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرّعد: الآية ٦]، مَن لهم إذا طَلَبُوا العَوْدَ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سَبَأ: الآية ٥٤]، كَم بَكَتْ في تَنَعُّمِ الظَّلَامِ عَيْنُ أَرْمَلَةٍ وَاحْتَرَقَ قَلبُ يَتِيْم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [صَ: الآية ٨٨]، مَا ابْيَضَّ وَجهُ الرَّغِيْفِ حتى اسْوَدَّ وَجهُ الضَّعِيفِ، لاَ تَحقِرُوا دُعاءَ المظلومِ، فشَرَرُ قَلبِهِ مَحمُول بِعَجِيْجِ صَوتِهِ إلى سَقْفِ بَيتِكَ، نَبَّالُهُ مُصِيْبٌ، ونَبْلُه قَرِيْبٌ، وقَوسُه حَرَقُه، ووَتَرُه قَلَقُهُ، ومَرمَاتُه في هَدَفِ ثَغْرَتِكَ، وسَهْمُ سَهْمِ الإِصَابَةُ وقد رَأيتُ وفي الأَيَّامِ تَجْرِيْبٌ. شعر:

لا تَظْلِمَنَّ إذَا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا فالظُّلْمُ يَرجِعُ عُقْبَاهُ إلى النَّدَمِ
نَامَتْ جُفونُكَ وَالمظلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدعُو عَلَيْكَ وعَيْنُ الله لم تَنَمِ

إخواني، كَمْ مِنْ دارٍ دَارَتْ عَليهَا دَوائِرُ النِّقَمِ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يُونس: الآية ٢٤]. كَانَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ يَخافُ مَعَ العَدْلِ، يَا مَنْ يَأْمَنُ مَعَ العُدُولِ، أي: بعد مَوْتِهِ بِاثْنَتَي عَشرةَ سنةً، فقال: الآنَ تَخَلَّصْتُ مِن حِسَابِي، وا عجبًا أُقِيْم أَكْثَرَ مِنْ سِنِي الوِلاَيَةِ أَفَيَنْتَبِهُ بهذَا رَاقِدُ الهَوَى الظُّلْمُ أَم ظُلْمَة في نَهارِ الوِلاَيَةِ وجَدْبٌ يَرعَى لُحومَ الرَّعِيَّةِ، وَالعدلُ صُوْرَةٌ في صُوْرِ الحَيَاةِ يُبعَثُ بِهِ مَوْتُ الجورِ أَحْسَنُ الشَّرائِعِ شَرائِعُ العَدْلِ. وينشد:

تَشَاغَلَ بالدُّنيا أُناسٌ فَأَصْبَحُوا عَنِ البابِ مَحجُوبِينَ قد مُنِعُوا القُرْبَا
وأَهْلُ التُّقَى لله تَسرِي قُلُوبُهُم إلى غَايَةٍ نَالُوا بِهَا المَشْرَبَ العَذْبَا
فَجَالُوا بنورِ العلمِ في رَوْضَةِ التُّقَى بِهَا أَنفُسُ الأَبرارِ قد مُلِئَتْ حُبًّا
هُم قَطعُوا الدُّنيا بخَوْفِ وعيدِهم فَذِكرُهُم للموتِ أَوْرَثَهُم كَرْبَا

السَّجع:

يَا عجبًا لِلمشغُولينَ بأَوْطَارِهم عَن ذِكرِ أَخْطارِهِم، لو تَفَكَّروا في حالِ صَفائِهِمْ وأكدارِهِمْ لمَّا سَلَكُوا طرِيقَ اغْتِرارِهِم، أَمَا يَكفِي في وَعْظِهِم وَازْدِجارِهِم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠]، الدُّنيا دَارُ الآفاتِ وَالفِتَنِ، كَم غَرَّتْ غِرًّا ومَا فَطِنَ، أَرَتْهُ ظَاهِرَهَا والظَّاهِرُ حَسَن، فلما فتح

عَينَ الفِكْرِ مِن رُقادِ الوَسَنِ قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٩] ولَئِنْ، ذُبِحَ المغرُورُونَ بِسَيْفِ اغْتِرارِهِمْ والشَّرعُ يَنهَاهُم عن أَوْزَارِهِم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

أينَ أربابُ الهَوى وَالشَّهواتِ؟ ذَهبَتْ والله اللَّذَّاتُ دُونَ التَّبِعَاتِ، ونَدِمُوا إذَا قَدِمُوا على ما قَدْ فَاتَ، وتَمَنَّوْا بَعْدَ يُبْسِ العُوْدِ، وهَيهَات فتَلمَّحْ في الآثَارِ سُوءَ أَذْكَارِهِم ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

نَازَلَهم الموتُ علَى الذُّنوبِ، فَأُوثِقُوا في قَيْدِ الجهلِ والعُيُوبِ، ورَحَلَتْ لَذَّاتٌ حَلَّتْ عَلَى الأَفْواهِ والقلوبِ، وحَزِنُوا علَى الغَائِبِ ولا حُزْنَ يَعقُوبَ حينَ أُخرِجُوا من دِيارِهم في ثِيابِ إدبَارِهِمْ، وعِصِيُّ التَّوبِيخِ في أَدْبَارِهِم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، قل للنَّاظِرِينَ إلى المُشْتَهَى في دِيارِهِم هذا أُنْمُوذَجٌ من دَارِ قَرارِهم، فإنِ استَعجَلَ أطفالُ الهَوَى فَدَارِهِم، وَعِدْهُم قُرْبَ الرَّحيلِ إلى دَارِهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

احْذَرُوا نَظْرةً تُفْسِدُ القلوبَ، وتُخفِي عليكُم الذَّمَّ والعُيُوبَ، وتُسْخِطُ مَولاكُم عَلَّامَ الغُيوبِ، ولقد وَصَفَ الطَّبِيْبُ حَمِيَّةَ المَطْلُوبِ، فَلَوِ اسْتَعْمَلُوا الحَمِيَّةَ لم تَتَعَرَّضِ الحُمَّى بأَبْشَارِهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

وفَّقَنَا الله وإيَّاكُم للهُدَى وعَصَمَنَا وإيَّاكُم من أسْبَابِ الجَهْلِ والرَّدَى، وسَلَّمَنَا من شَرِّ النُّفوسِ فإنَّها شَرُّ العِدَى، وجَعَلَنا مِن المُنتَفِعِيْنَ بِوَعْظِ أَخْيارِهِمْ، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] وصلَّى الله على مُحَمَّدٍ وآله.

المَجْلِسُ الحَادِي عَشَرَ
في قِصَّةِ ذِي القرنين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدنا مُحَمَّد وآله وسلَّم

الحمدُ لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية ١] لُطْفَه وفَكَّ الأَسْرَى، وَأَجْرَى بِإِنْعَامِهِ لِلْعَالَمِيْنَ أَجْرًا، ودَبَّرَ أَحْوَالَهُم غِنًى وفَقْرًا، وَأَسْبَلَ بِكَرَمِهِ على العَاصِيْنَ سِتْرًا، وَقَسَمَ بَنِي آدَمَ عَبْدًا وَحُرًّا، كما رَتَّبَ البَسِيْطَةَ عَامِرًا وفَقْرًا، وَقَوَّى بَعْضَ عِبَادِهِ فَقَطَعَهَا شِبْرًا شِبْرًا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَكُونُ لِيْ عِندَهُ ذِكْرًا، وَأُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ مُقَدَّمِ الأَنْبِيَاءِ في الدُّنْيَا والأُخْرَى، وعلَى أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِيْ أَنْفَقَ المالَ على الإِسْلام حَتَّى آلَ الكَفُّ صِفْرًا، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي هَيْبَتُهُ كَسَرَتْ كِسْرَى، وعَلَى عُثْمانَ المَقْتُولِ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ صَبْرًا، وعلى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ لِلنَّبِيِّ صِهْرًا، وعلى عَمِّهِ العَبَّاسِ أعْلَاهُم في النَّسَبِ قَدْرًا.

قال الله العظيم: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: الآية ٨٣]، الَّذِيْنَ سَأَلُوا الرَّسُولَ ﷺ هُمُ اليهودُ، وفي اسْمِ ذِي القَرْنَيْنِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: عَبْد الله، قَالَهُ عَلِيٌّ.

والثَّانِي: الإِسْكَنْدَرُ، قَالَهُ وَهْبُ.

والثَّالِثُ: عَبَّاسٌ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ.

والرَّابِعُ: الصَّعْبُ بْنُ جَابِرٍ، قَالَهُ ابْنُ أبي خَيْثَمَةَ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ كَانَ نَبِيًّا أم لا عَلَى قولَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّه كَانَ نَبِيًّا، قَالَهُ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَالضَّحَّاكُ.

والثَّانِي: أنَّه كانَ عَبدًا صَالِحًا ولَم يَكُن نَبِيًّا ولا مَلِكًا، قَالَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ الله عنه. وقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه: كانَ مَلِكًا ولم يُوْحَ إليه، وفي زمانِ كَوْنِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أحدُهَا: أَنَّهُ كَانَ مِنَ القَرْنِ الأَوَّلِ مِنْ وَلَدِ يَافَثِ بْن نُوحٍ، قَالَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه.

والثَّانِي: أنَّهُ كَانَ بَعْدَ نَمرودٍ قَالَهُ الحُسَيْنُ.

وَالثَّالِثُ: أنَّه كَانَ في الفَتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى ومُحَمَّدٍ عَلَيْهِما السَّلامُ، قَالَه وَهْب وَفِيْهِ بُعْدٌ.

قوله تعالى: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: الآية ٨٦]. قَالَ الحَسَنُ: وَجَدَهَا تَغربُ في مَاءٍ يَغْلي كَغَلَيَانِ القُدُورِ، وَيَفِيْضُ المَاءُ مِنْ تِلكَ العَينِ الحَارَّةِ حَتَّى يَفِيضَ حَولَهَا مَسِيرَةَ ثَلَاثةِ أيَّام وَلاَ يَأْتِي عَلى شَيْءٍ إلاَّ احْتَرَقَ ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: الآية ٨٦] لِبَاسُهُم جُلُودُ السِّبَاعِ وَلَيْسَ لَهُم طَعَام إلاَّ مَا أَحْرَقَتِ الشَّمْسُ مِنَ الدَّوَابِ إِذَا غَرَبَتْ نَحوَهَا وَمَا لَفَظَتِ العَيْنُ مِنَ الحِيتَانِ، ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٨٦]، مَن قَالَ: هُوَ نَبِيٌّ، قَالَ: هَذَا وَحْيٌ. ومَن قَالَ: لَيسَ بِنَبِيٍّ. قَالَ: هَذَا إلْهَامٌ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: الآية ٨٩]، أي: طَرِيقًا آخَرَ يُوصِلُهُ إلى المَشْرِقِ، فَلَمَّا أَفْرَغَ عن غَرْبِ الغَربِ عَلَى غَارِبِ الغُربَةِ مَشَى نحوَ المَشَارِقِ، فَلَم يَزَل يَحُوزَ الكُنُوزَ إلى أن طَلَعَتْ طَلَائِعَة الطَّلْعَةِ عَلَى مَطلِعِ الشَّمسِ، فَأَبْرَزَ إبريزُ عَدلِهِ المُشرِقِ في المَشْرِقِ، فَوَجَدَ أقْوامًا عُراةً في أَسْرَابٍ لَيْسَ لَهُم طَعامٌ إلاَّ مَا أَحْرَقَتِ الشَّمْسُ إذَا طَلَعَتْ، فَإِذَا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ خَرَجُوا مِن أَسْرَابِهِم في طَلَبِ مَعَايِشِهِمْ مِمَّا أَحْرَقَتْهُ، وَبَلَغَنَا أَنَّهُم كَانُوا في مكانٍ لاَ يَثْبُتُ فيه بُنْيَانٌ. قال

الحسن: كَانوا إذا غَرَبَتِ الشَّمْسُ خَرَجُوا يَرْعَونَ كَمَا تُرْعَى الوُحُوشُ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: الآية ٨٩]، طَرِيْقًا ثَالِثًا بين المشرق والمغربِ، ثم رَأَى بَاقِي عَرْضِهِ فِي مَقْدرَةِ ذِمَّتِهِ كَالدَّينِ، فسلكَ بينَ السَّدَّيْنِ، قَالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: وهُما جَبَلَانِ مُنِيْفَانِ في السَّماءِ ومِن ورائهما البَحْرُ، فَأَمَّا يأجُوجُ ومأْجُوجُ فهما رَجُلَانِ مِن أَولادِ يَافَث بن نوح.

قال عَلِيٌّ رضي الله عَنه: منهم مَن طولُه شِبْرٌ، ومنهم مَن طُولُه مِفْرَطٌ ولهم شَعْرٌ يُوَارِيْهِم مِنَ الحَرِّ والبردِ، وكان فسادُهم قتلَ النَّاس.

قال علماء أهل السِّيَرِ: لَمَّا وَصَلَ إلى مُدُنٍ مُعَطَّلَةٍ قد بَقِيَ فيها بَقَايَا سأَلُوه أن يَسُدَّ مَا بينهُم وبينَ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، فأَمَرَ الصُّنَّاعَ فضرَبُوا لَبِنَ الحَدِيدِ طولُ كل لَبِنَة ذراعٌ ونصفٌ وسَمْكُها شِبْرٌ، فلمَّا حَشَّا الجَبَلَيْن بِالزُّبَرِ قَالَ سَلامٌ التُّرجَمانُ: رَأَيتُ جَبَلًا أَمْلَس وفِيهِ السَّدُّ، وهُنَاكَ بَابٌ من حديدٍ وله مِصْرَاعَانِ مُغْلَقَان عرضُ كلِّ مِصْرَاعٍ خَمسُونَ ذِراعًا في ارْتِفاعِ خمسينَ في ثُخنِ خَمسةِ أَذْرُعٍ، وَقائِمَتَاهُما في دَرَّارَةٍ على الباب، وعلى البابِ قُفْلٌ طُولُهُ سَبعَةُ أَذرُعٍ في غِلَظِ ذِرَاعٍ، وَارتفَاعُ القُفلِ من الأرضِ خمسٌ وَعِشْرونَ ذِراعًا، وفوقَ القُفْلِ بِقدرِ خَمْسِ أَذْرُعٍ، غَلَقٌ طُولُه أكثَرُ من طُولِ القُفْلِ، وعَلَى الغَلَقِ مِفتاحٌ مُعَلَّقٌ في سِلْسلةٍ طُولُها ثَمانِية أَذْرُعٍ في اسْتدارَةِ أَربعَةِ أَشْبَارٍ، وعَتَبَةُ البابِ عَشرةُ أَذْرُعٍ.

وَرَأسُ تِلك الحُصُونِ يَركَبُ في كُلِّ جُمعةٍ في عَشرَةِ فَوارِسَ، مع كلِّ فَارِسٍ مِرْزَبَةٌ مِن حَدِيْدٍ فَيَضرِبُ القُفْلَ بتلكَ المِرْزَبَاتِ مَرَّاتٍ؛ لِيَسْمعُوا الصَّوتَ فيعلَمُوا أَنَّ هُناكَ حَفَظَةً.

وقَدْ رُوِيَ أَنَّ يَأجوجَ ومَأجُوجَ يَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، فرُوِيَ عن أَبِي هُريرةَ رضي الله عنه عَن رَسُولِ الله ﷺ، قال: «**إنَّ يَأجوجَ ومَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يومٍ حَتَّى إذَا كادُوْا يَرَوْنَ شُعاعَ الشَّمْسِ، قالَ الَّذِيْنَ عليهم ارْجِعُوا فَتَحْفِرُونَه غدًا فيَعُودُونَ إليهِ فيَرَوْنَهُ كَأَشَدِّ مَا كانَ حَتَّى إذَا بَلغَتْ مُدَّتهُم، وَأرادَ الله أن يَبْعثَهُم عَلَى النَّاسِ حَفَرُوْا إذ كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قالَ الَّذِينَ عليهِم ارْجِعُوا**

فتَحْفِرونَهُ غَدًا إن شاءَ الله، فَيَعُودُونَ إليهِ وهو عَلَى هَيْئَتِهِ حِيْنَ تَرَكُوهُ فيَحفِرُونَهُ ويَخْرُجُونَ على النَّاسِ».

ثُمَّ إنَّ ذَا القَرنَيْنِ لمَّا عادَ بَلغَ بَابِلَ فنَزَلَ به الموتُ فكتَبَ إلى أُمِّهِ يُعَزِّيْهَا في نفسه، وكان في كتابِهِ: اصْنَعِي طَعامًا واجْمَعِي مَن قَدَرْتِ عليهِ من نِساءِ الملوكِ ولاَ يَأكُلُ طَعامَكِ مع مَنْ أُصِيْبَ بِمُصِيبَةٍ ففعَلَتْ فلم يَأْكُلْ أحدٌ فعلِمَتْ ما أرادَ، فَلَمَّا وَصَلَ تَابُوتُه إليهَا تَلَقَتْهُ أُمُّه بعُلماءِ أَهْلِ المَمْلَكَةِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: يَا ذَا الَّذِي بَلَغَتِ السَّماءَ حِكْمَتُهُ وجَازَ الأقطارَ، مُلكهُ مَا لَكَ اليومَ يَا نَائِمًا لا يَستيقِظُ، وسَاكِتًا لا تَتكلَّمُ، مَن يُبَلِّغَكَ عَنِّي أَنَّكَ وَعَظْتَنِيْ، فَاتَّعَظْتُ وعَزَّيْتَنِي فتَعَزَّيْتُ فعليكَ السَّلامُ حَيًّا وميِّتًا. ومَا يَنْفَعُ الآدَابُ والعَقلُ والحِجَى وصَاحِبُه عندَ الكَمالِ يَمُوتُ.

وعظ:

إخواني، عَجبًا كَم مَشَى بِهِ في مَحَجةِ المَشْرِقِ مُحجَّلٌ، وَطَرقَ به طريْقَ المَغْرِبِ مَغرَبٌ، وكم تَقدَّم في مُقدَّمَتِهِ في مَقْنَعِ مُقَنَّعٌ وَشَاكٍ في السِّلَاحِ كَافِرٌ غَيْرُ شَاكٍ في الصَّلاح، ولا كَافِرٌ مِمَّا رَدَّ عنه وَرْدٌ ولا كُمَيْتٌ، ولا فَرَّ بِهِ مِنْ مَنِيَّةٍ سَابِقٌ ولا سَكَّيت، فَكأَنَّه إذا مَاتَ مَا تَحرَّكَ عَلَى حَارِكِ فَرَسٍ، ولا شَاكَ شَاكِلَتِهِ بِشَوْكَتِهِ بِشَوْكٍ عَقِبٌ، بَلْ مَرَّ كأنَّه لَم يَكُنْ وذَلَّ لِلموتِ وَقَبْلَها لَم يَهُنْ، فتَلَمَّحَ آخِرَ الدُّنيا إن كُنتَ تَدرِي، وَانْظُرْ في أَيِّ بَحْرِ الهَلاكِ تَجْرِي، وَأَصِخْ لِخِطَابِ الخُطُوبِ وَافْهَمْ مَا يَجْرِيْ، كُنْ عَلى نَصِيْحَةٍ فَهَذِي الرَّكائِبُ تَجْرِي أَوَمَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدَّهْرِ أَفَلَا تُسِيْءُ الظَّنَّ بِالعُمْرِ؟ شعر:

القِشْرُ نَصِيْبِيْ وَلغَيْرِي اللُّبُّ ... فَالعَيْنُ دَمًا لأَجْلِ ذَا تَنْصَبُّ
مَا أَصْنَعُ قد زُجِرْتُ وأَمْرِيْ صَعْبُ ... العُمُر مَضَى وضَاعَ مِنِّي القَلْبُ

وعظ:

يا ابْنَ آدَمَ ويحكَ أمر الآخرة عراض، وأَمْرُ الدُّنيَا عَرَضٌ، وأَنتُم لأَسْهُمِهَا غَرَض، يا مَن بَنَى كُلَّمَا بَنَى نَقَضَ، يا مَن كُلَّمَا رَفَع انْخَفَضَ، يا عَجِيْبَ الدَّواءِ

وَالمَرَضِ، كَم شاهَدت مَسْلُوبًا، وكم عَايَنْتَ مغلُوبًا، وكم مَخفُوضٍ بَعْدَ الرَّفْعِ، وكَمْ مَضرُوْرٍ بَعْدَ النَّفْعِ، كَم مَدْفُوعٍ عَن أَغْرَاضِهِ أَقْبحَ الدَّفْع بَينَا هُو في ثِيَابِ أَوْجَاعِهِ ومُنَى السَّلَامَةِ تَخطُرُ في أطمَاعِهِ، أَسْرَعَ المَوْتُ وَدَنَا لاِنْتِزَاعِهِ فَعَجزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَعَن دِفَاعِهِ، فحَارَتْ مِنْ حَالِهِ قُلُوبُ أتبَاعِهِ وَاشْتَغَلَ بِضَيَاعِ أَمْرِه عَن ضِيَاعِهِ، وأَقْبَلَتْ قَبَائِلُه عَلَى قِبَلِ وِدَاعِهِ، وبَكَى لِمَيْلِهِ إِلى الهَوَى عِندَ رَوْعِهِ وَنَزَاعِهِ، وهَذَا مَصِيْرُكَ فَانْتَبِهْ لَهُ ورَاعِهِ.

إخواني، مَا بَالُ النّفُوسِ تَعرِفُ حقَائِقَ المَصِيْرِ، ولا تَصْرِفُ عَوائِقَ التَّقْصِيْرِ، وقد رَضِيَتْ بِالزَّادِ اليَسِيْرِ، وقد عَلِمَتْ طُولَ المَسِيْرِ، أم كَيْفَ أَقْبَلَتْ عَلَى النَّذِيْرِ، وقد حُذِّرَتْ غَايَةَ التَّحْذِيْرِ، أَمَا تخافُ زَلَل التَّعْثِيْرِ؟ أَمَا حُوْسِبَتْ عَلَى القَتِيْلِ وَالنَّقِيْرِ. وينشد:

أَخْلَقَ الذَّنْبُ وَالخَطِيْئَةُ وَجْهِي ... وَلَقَدْ كُنْتُ في البقاءِ نَبِيْلًا
أَسَرَتْنِي الذُّنوبُ فَاسْتَوْهَبَتْنِي ... طَوَّقَتْنِي الذُّنوبُ طَوْقًا ثَقِيْلًا
طَرَدَتْنِيَ الذُّنُوبُ عَن بَابِ رَبِّيْ ... أَوْرَثَتْنِيَ الذُّنُوبُ حُزْنًا طَوِيْلًا
مَا أَرَى لِي بَيْنَ العُصَاةِ نَظِيْرًا ... لاَ وَلاَ لِيْ في المُذْنِبِيْنَ عَدِيْلًا
نَكَّسَتْ رَأْسِيَ الخَطِيْئَةُ حَتَّى ... صِرْتُ فِي النَّاسِ بِالذُّنُوبِ ذَلِيْلًا

إخواني، حِبَالُ الدُّنْيَا رَثَاثٌ، وسَاحِرُ الهَوَى نَفَّاثٌ، والأَمَانِيُّ عَلَى الحقيقةِ أَضْغَاثٌ، وَالمالُ المُدَّخر لِلْوُرَّاثِ، عَجَبًا لأَجْسَامِ ذُكُورٍ وعُقُولٍ وإِنَاثٍ، إلى مَتَى الرَّوَاحُ في الهَوَى والتَّغْلِيْسُ، وإِلى مَتَى البَقَاءُ في صُحْبَةِ إبلِيْسَ؟ وكَمْ بَهْرَجَةٍ في العَمَلِ، وكَمْ تَدْلِيْسٍ؟ أَيْنَ الأَقْرَانُ؟ هَلْ لهم من حَسِيْسٍ؟ كَم يُرمَى هَدَفُ سَمْعِكَ يرشق بِكَلَامٍ غير مُصِيْبٍ؟ لا تَنْفَعُ الرِّيَاضَةُ إلاَّ في النَّجِيْبِ. شعر:

ومِنَ البَلِيَّةِ عَذلُ مَنْ لاَ يَرْعَوِي ... عَنْ غَيِّه وخِطَابُ مَنْ لا يَفْهَمِ

يَا بُعَيْدَ الصَّلاحِ لَو سُقِي الحَنْظَلُ مَاءَ السُّكَّرِ لَم يَخْرُجْ حُلْوًا سَحابُ الهُدَى قد طَبَّقَ بَيْدَاءَ الأَكْوانِ، وأَظُنُّ أَرضَ قَلبِكَ سَبْخَةً إنَّما يَغلِبُ هَذَا على ظَنِّي لبُعْدِ

فَهْمِكَ، وإلاَّ قَدْ تَستحِيْلُ الخَمْرُ خَلًّا كَم تَحضُرَ المجلِسَ وما عُلِقتَ منه بشيءٍ وَيْحكَ هَذا التَنْفِيخُ يُطرَحُ في السِّمْسِمِ فيَعْبَقُ منه طولَ السَّنَةِ وكَذلِكَ الوَرْدُ في الأَسْنَانِ. وينشد:

مَا لي جُفِيْتُ وكنتُ لا أُجْفَى ... ودَلائِلُ الهِجْرانِ لا تَخْفَى
وأَرَاكَ تَشْرَبُنِي وتَمْزُجُنِيْ ... ولَقَدْ عَهِدْتُكَ شَارِبِيْ صِرفًا

إخواني، مَثِّلُوا أنْفُسَكُم وقد وُقِفْتُم علَى النَّارِ وقُلْتُمْ: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] فَلَمَّا لم تُجَابُوا صِحْتُم. يا حَسْرَتَنَا عَلى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا، يا مذنِبِيْنَ صَرَفْتُم هِمَّتكُم في طلبِ الدُّنْيا، وَأَعْرَضْتُم بِالكُلِّيَّةِ عن أُخْرَاكُم فكيفَ بِكُم إن أَخَذَ الله سَمْعَكُم وَأبصارَكُم وخَتم علَى قُلوبِكُم تَحضُرونَ المجلِسَ فُرجَةً وتجعَلُونَ رَجاءَ النَّفْعِ حُجَّةً، ولا تَسْلُكُوْنَ إلى العَملِ مَحَجَّةً ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: الآية ٥٣]، رَبِّي يَا هَذَا تَهيأْ لِسَمَاعِ المَواعِظِ بِحُضُورِ قلبِكَ يَنْفَعْكَ ما تَسْمَعُ مَتَى حَضَرَ البَدَنُ وغابَ القَلْبُ ضاعَ الحَدِيْثُ إذا فَاضَ النَّهْرُ ولَم تَحْفِرْ سَاقِيَةً إلى زَرْعِكَ لم يَصِلِ الماءُ إلى البُستَانِ.

شعر:

أَيُّها النَّاكِب عَن نَهْجِ الهُدَى ... وهُو بَادٍ وَاضِحٌ لِلسَّالِكيْنَا
إِلْهَ عَنْ ذِكْرِ التَّصَابِيْ ... إِنَّه سَرَق عِندَ بُلُوغِ الأَرْبَعِيْنَا

يا غَافِلًا في بَطَالَتِهِ، يَا مَنْ لا يُفِيقُ عَن سَكْرَتِهِ أَين نَدَمُكَ عَلَى ذُنُوبِكَ؟ أين حُزْنُكَ على عُيُوبِكَ؟ إلى متَى تُؤذِي بِالذَّنْبِ نَفْسَكَ، وتُضَيِّعُ يَوْمَكَ وأَمسِكَ، ولا مَعَ الصَّادِقِينَ لَكَ قَدَمٌ، ولا مَعَ النَّادِمِيْنَ لكَ نَدَمٌ، هَلَّا بَسطتَّ في الدُّجى لكَ يَدًا سَائِلَةً؟ وَأجرَيْتَ في السُّجودِ دُموعَكَ سَائِلَةً؟

إخواني، انْتَبِهُوا لِخَلاصِكُمْ، وَأَنِيْبُوا إلى رَبِّكُم أنتُم على الإِزْعَاجِ فَما هَذَا التَّواطُنُ، يا مَن مَالَ به حُبُّ المالِ، حتَّى مَالَ إلى أقْبَحِ مَآلٍ لو صَحَّ فَهْمُكَ لَعلِمْتَ أَنَّه ليسَ لكَ عَقْدُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ [التوبة: الآية ١١١] وَبَيانُ حُكمِ البَيْعِ ظَاهِرٌ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: الآية ٧]، فإنْ قَصُرَت هِمَّتُكَ فَعامِلْنا مُعامَلَةَ التَّاجِرِ بِخِطَابِ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥]،

فإن نَزَلْتَ عَن هَذَا المَقَام فَاحْذَرْ مِنْ توبِيْخ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ [التّوبَة: الآية ٧٦]، أوْ وَعِيْدِ ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٠]، أو عُقوبَةِ ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التّوبَة: الآية ٣٥]. شعر:

يَجْنِي الغِنَا لِلِيَامِ النَّاسِ لَو عَلِمُوا ... مَا ليسَ يَجْنِيْ عليهِم العَدَمُ
هُم لأَمْوالِهِمْ ولَسْنَ لَهُم ... وَالعارُ يَبْقَى والجُرُوحُ يَلْتَئِمُ

إخواني، كانَتِ الدُّنيا إذَا قَدِمَتْ عَلى الصَّالِحِيْنَ قَدَّمُوهَا إلى الآخِرَةِ، أَيْنَ نَحْنُ مِنَ القَوْمِ؟ كم بَيْنَ اليَقْظَةِ والنَّومِ لَمَّا جَلَّا رَسُولُ الله ﷺ عَرُوْسَ الإسْلَامِ لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ نِثَارٍ، فَأَخْرَجَ عُمرُ رضي الله عنه نِصْفَ مَالِهِ، فَنَثَرَ أَبُو بَكر رضي الله عنه الكُلَّ، فَقَامَ عُثْمَان رضي الله عنه في تَجْهِيْزِ جَيْشِ العُسْرَةِ بوَليمَةِ العُرْسِ، فقامَ عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ بِحَالِ الغِيرَةِ فَبَتَّ طلاقَ الدُّنْيَا ثلاثًا، ثم رَأَى بعضَ جهازِهَا في بَيْتِهِ وَهُوَ الخاتَمُ فَرَمَى بِهِ في الصَّلاةِ وَلم يَقْطَعْ.

وا عَجَبًا لَهُ سَلِمَ ومَا سَالَمَ فكانَ القَومُ يَبِيْعُونَ الفَانِيَ بِالبَاقِيْ، وأَنْتُمْ قد عَكَسْتُم كَيفَ تُطلَبُ الشَّجَاعَةُ مِن جَبَانٍ، يَا مَطرُودِيْنَ أَمَا تَشْعُرُوْنَ بالطَّرْدِ إنَّما يَجِدُ وَقْعَ السِّيَاطِ مَن لَه حِسٌّ. تَالله لَقَدْ أَقْلَقَكَ الهَجْرُ مَا سَكَنْتَ غَيْرَ دَارِ الرَّاحَةِ؟ يا هَذَا لَيتَ صَوْتَ هَذَا الهاتِفِ وَصَلَ إلى سَمْعِ قَلْبِكَ، يَا لَهُ مِن عِتَابٍ لو كانَ لِلمُعاتَبِ قلبٌ.

إخواني، السُّنُونَ مَراحِلُ، والشُّهورُ فَرَاسِخُ، والأَيَّامُ أَمْيَالٌ، وَالأَنْفَاسُ خَطَواتٌ، والطَّاعَاتُ رُؤوسُ الأَموالِ، والمَعَاصِي قُطَّاعُ الطَّرِيقِ، وَالرِّبحُ الجَنَّةُ، والخُسْرَانُ النَّارُ.

وَلهَذَا الخَطْبِ شَمَّر الصَّالِحُونَ عن سَاقِ الجِدِّ في سُوْقِ المُعامَلَةِ، وَوَدَّعُوا بالكُلِّيَّةِ بِلادَ النُّفوسِ، كُلَّمَا رَأَوْا مَركَبَ الحياةِ يَخْتَطِفُ في بَحرِ العُمرِ شُغْلُهُم هُو مَا هُم فِيهِ عَنِ النُّزهَةِ في عَجائِبِ البَحْرِ فَمَا كانَ إلاَّ عَن قليلٍ حَتَّى قَدِمُوا منَ السَّفَرِ، وَأَعْقَبَهُم الرَّاحَةُ في طَرِيْقِ التَّلَقِّي، فَدَخَلُوا بَلَدَ الوَصْلِ وقَدْ حَازُوْا رِبْحَ الدَّهْرِ.

يَا جَبانَ الغَرْمِ لو فَتَحتَ عَيْنَ البَصِيْرَةِ فَرَأَيْتَ بِإنسانِ الفِكْرِ مَا نَالُوا لَصَاحَ لِسانُ التَّلَهُّفِ، يَا لَيْتَنِيْ كُنْتُ مَعهُم وَأَيْنَ الأرضُ مِنَ السَّماءِ لا أَنْتُم مِنهُمْ ولا

تَدْرِي مَن هُم، يَا حَسْرةَ مَن فَاتُوهُ، يَا قُوَّامَ اللَّيلِ اشْفَعُوا فِي الرَّاقِدِ، يَا أَحْيَاءَ القُلُوبِ تَرَحَّمُوا عَلَى المَيِّتِ. شعر:

رَأَى البَرْقُ نَجْدِيًّا فَحَنَّ إلى النَّجْدِ وباتَ أسِيْرُ الشَّوقِ في قَبْضَةِ الوَجْدِ
يُعَالِجُ قَلْبًا قَلَّبَتْهُ يَدُ الهَوَى عَلَى جَمْرَةِ التَّوديْعِ في لَهَبِ الوَقْدِ
ولا مُسْعِدٌ إلاَّ زَفِيرٌ وَأَنَّهُ تَقِدُّ شِغَافَ القَلْبِ مِنْهُ ولا تُجْدِ
وما أَنْطَقَتْهُ البَارِقَاتُ تَشَوُّقًا لِنَجْدٍ ولكِنْ لِلْمُقِيمِيْنَ في نَجْدِ

إخواني، مصابيحُ القلوبِ الظَّاهِرة في أصْلِ الفِطْرَةِ مُنِيْرَةٌ قبلَ الشَّرائِعِ، ولَمَّا أضاءَتْ أنوارُ النُّبُوَّةِ رَأَتْهَا عَيْنُ بِلَالٍ الحَبْشِيِّ، وعَمِيَتْ عنهَا عَيْنُ أبي لَهَبٍ القُرَشِيِّ.

إخواني، احْذَرُوا نِبَالَ القُدْرَةِ كانَ إبليسُ كَالبَلْدةِ العَاهِرَةِ بِالعِبَادَةِ فَوقَعَتْ فيها صَاعِقَةُ الشَّقَاءِ، فَهَلَكَ أَهْلُهَا ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النَّمل: الآية ٥٢]. شعر:

مَن لم يَكُنْ لِلْوِصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ قَبِيْحُ

أُخِذَ كِسَاءُ تَرَهُّبِهِ فجُعِلَ جُلًّا لِكَلْبِ أَهْلِ الكَهْفِ، فَأَخَذَ المسكِيْنُ في عَدَاوةِ الآدميِّ، فكَم بَالَغَ وَاجْتَهَدَ وما وَقعَ في البِئْرِ إلاَّ مَنْ حَفَرَ إنَّما هَلَكَ إبليسُ بكِبْرِيَاءِ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٢] وسَلِمَ آدمُ بِذُلِّ ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٣].

لَقِيَ إبليسُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ فصارَعَهُ عُمَرُ فَصَرَعَهُ فضَرَبَهُ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ، فقال بلِسَانِ الحَالِ: يا عُمر أَنَا المقتولُ بسَيْفِ الخِذْلاَنِ فَإِيَّاكَ عَنِّي لا يَكُنْ بِكَ مَا بِي. يَا عُمَرُ، أَنْتَ كُنتَ في زَمانِ الخَطَّابِ لا تَعْرِفُ طريقَ البَابِ وَأَنا الَّذِي كنتُ في سُدَّةِ السِّيادَةِ وَأَتْباعِي الملائِكَةُ، فوصَلَ مَنْشور ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٣] فَعَزَلَنِي وَوَلاَّكَ فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ تَحْوِيْلِ الحالِ، فإنَّه الحُسَامَ الَّذِي قُتِلْتُ بِهِ في يَدِ القَاتِلِ. فَلَمَّا لَعِبَتْ أَيْدِي القَلَقِ بعُمَرَ بَادَرَ يَطْرُقَ بَابَ البَرِيْدِ بِالعَزْلِ وَالوِلاَيَةِ: يَا حُذَيْفَةَ هَلْ أَنَا مِنْهُمْ.

إخواني، أَسفًا لِمَن إذَا ربحَ العَامِلُونَ خَسِرَ، وَإِذَا أُطلِقَ المُتَّقُونَ أُسِرَ مَن لَهُ

إِذَا خُوصِمَ ولَم يَنْتَصِرْ وَنُسِيَ يومَ الرَّحمةِ فَما ذُكِرَ، فالحَذَرَ الحَذَرَ أيُّها الغافِلُ، فأَيَّامُ العمرِ كُلُّها قَلائِلُ.

السَّجع:

لو رَأَيْتَ العُصاةَ والكَربُ يَغْشَاهُم، والنَّدَمُ قد أَحاط بِهِمْ وكَفَاهُمْ، وَالأَسَفُ عَلَى مَا قَدْ فَاتَهُم قَد أَضْنَاهمْ، يَتَمَنَّوْنَ العَافِيَةَ وهَيْهَات مُنَاهُم، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، نَزَلَ بِهِم المَرَضُ، فَأَلْقاهُم كَالحَرَضِ، فَإِنْ كَفَّ أَمَلَهُم وَانْقَبَضَ، وَانْعَكَسَ عَلَيهِم الغَرَضُ، وَرَحِمَهُم في مَرَضِهِمْ مَنْ عَادَاهُمْ، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، يَتَمَنَّوْنَ عِند الموتِ رَاحةً، يناقشون على الخطايا ولا سماحة ويشتهون من الكرب استراحة، فهُم كَطَائِرٍ قَصَّ الصَّائِدُ جَنَاحَهُ، في حَبْسِ النَّزْعِ وَالكُرَبُ يَغْشَاهُمْ، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٨].

أَلَمْ أَسَقِهِمْ أَشَدُّ مَا في العِلَّةِ، وتَحَسُّرُهُمْ عَلَى كل مَا مَضَى مِنْ زَلَّةٍ، وجَبَلُ نَدَمِهِمْ قدْ نُتِقَ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، فَلَوْ رَأَيْتَهُم بَعْدَ الكِبْرِ قَد عَادُوْا أَذِلَّةً وتَمَلَّكَ أَموالَهُم هُمْ سِوَاهُمْ، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٨]، مَا نَفَعَهُم مَا تَعِبُوا لِتَحْصِيلِهِ وجَالُوا، ولا رَدَّ عنهُم مَا جَمَعُوا واحْتَالُوْا، جَاءَ المَرَضُ فَأَذَلَّهُمْ بعْدَ أَنْ صَالُوا فإذا قالَ العَائِدُ لأَهْلِهِمْ كيف بَاتُوْا؟ قالُوا: إِنَّ السَّقَمَ قَدْ وَهَاهُمْ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ١٨]، انْزِلُوا في بُطُونِ القَلَاقَلا يَقبَلُ عُذرَهُمْ وَلا ذُو وُدٍّ يَنْفَعُهُمْ بَلَى قَد أضنَاهُم بَلاءُ البِلَى، فَلَو رَأَيْتَهُمْ في البِلَا هُمْ وَهُمْ بِلَاهُمْ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ١٨]، فَالبِدارَ البِدَارَ قَبْلَ الفَوَاتِ، وَالحِذَارَ الحِذَارَ مِنْ نَوْمِ الغَفَلاتِ، يَومَ يَقُوْلُ المُذْنِبُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: الآيتان ٩٩، ١٠٠]، ويُقَالُ فَاتَ، وَيْحَ الغَافِلِيْنَ عَنْ هُدَاهُم مَا أَعْمَاهُم، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ١٨] نَبَّهَنَا الله وإِيَّاكُمْ مِنْ هَذِهِ السِّنَةِ والرَّقْدَةِ، وذَكَّرنَا الموتَ ومَا سَيَأتِي بَعْدَهُ. اللَّهُمَّ اعصمهم أيضًا من فِعْل الخطايا.

اللَّهُمَّ انْزِعْ عَن قلوبِنَا مَكْنُونَ الرِّيَاءِ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا ولأبنائنا ولجَمِيعِ المسلمينَ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسلَّمَ تسليمًا.

المَجْلِسُ الثَّاني عَشَرَ
في قِصَّةِ يُوسُف عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله أحْسَنِ الخَالِقِيْنَ، وَأَكْرَمِ الرَّازِقِيْنَ، وَمُكْرِمِ المُوَافِقِيْنَ، ومُعَظِّمِ الصَّادِقِيْنَ، ومُجِلِّ المُتَّقِينَ، ومُذِلِّ المُنَافِقِيْنَ، حَفِظَ يُوسُفَ لِعِلْمِهِ بعِلْم اليَقِيْنِ، فَأَلْبَسَهُ عندَ الهَمِّ دُرُوْعَ اليَقِينِ، ومَلَّكَهُ إذ مَلَكَ عِنَانَ الهَوَى مَيْدَانَ السَّابِقِيْنَ فَذَلَّ لَهُ إخْوَتُهُ يَوْمَ ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٣]، ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٩١].

أَحْمدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِيْنَ وأُصَلِّي على رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرَفَ الذَّاكِرِيْنَ، وعَلَى أَبِي بَكْرٍ سَابِقِ المُبَكِّرِيْنَ، وعلى عُمَرَ سَيِّدِ المتَّقين الآمِرِيْنَ بِالمعرُوْفِ والمُذَكِّرِيْنَ، وعلى عُثْمَانَ الشَّهِيْدِ بِأَيْدِي النَّاكِثِيْنَ والمَاكِرِيْنَ، وعلى عَلِيٍّ إمَامِ العُبَّادِ المُتَفَكِّرِينَ، وعلى عَمِّهِ العبَّاسِ المُقَدَّمِ على البَاقِيْنَ رَضِيَ الله عنهُم أَجْمَعِينَ.

قال الله العظيم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣].

قال بَعْضُهُم: إنَّمَا كانَتْ هذِهِ القِصَّةُ أَحْسَنَ القَصَصِ، لأنَّ مَآلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ ذُكِرَ فِيهَا كانَ إلى الخَيْرِ، ولم يَكُنْ مَآلُهُم إلى شَرٍّ كَمَا كانَ مآلُ قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ. أَلا تَرَى مَا كَانَ لإبْلِيسَ في قصَّةِ آدَمَ مِنْ طَرْدٍ ولَعْنٍ.

وذَكَرَ الله قصَّةَ نُوحٍ، وكان مآلُ قومِهِ إلى الطُّوْفَانِ وَالغَرْقِ. وذَكَرَ قِصَّةَ هُوْدٍ وكان مَآلُ قَومِهِ إلى الرِّيْحِ العَقِيْمِ والعَذَابِ الألِيْمِ.

وَذَكَرَ قِصَّةَ صَالحٍ وكان مَآلُ قومِهِ إلى الصَّيْحةِ وَالدَّمْدَمَةِ.

وذكَرَ قِصَّةَ لُوطٍ وكانَ مآلُ قومهِ أنْ جَعَلَ الله أَمَاكِنَهُم ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحِجر: الآية ٧٤].

وذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى فَكانَ مَآلُ فِرْعَونَ إلى الغَرْقِ وَالهَلاكِ. وكذَلِكَ جَمِيعُ القَصَصِ. وكانَ مآلُ جمِيْعِ مَنْ ذُكِرَ في هَذهِ القِصَّةِ إلى الخَيْرِ والسَّعادَةِ. ألا تَرَى أنَّ يَعْقُوبَ عليه السَّلام كَيْفَ رُدَّ عليهِ بَصَرُهُ، وجُمِعَ لَه شَمْلُه، وتَابَ عَلَى إِخْوَةِ يُوْسُفَ، وَأَوْجَبَ على عِبَادِهِ الإِيْمَانَ بِهِمْ حيثُ يَقُولُ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٦]، وهُمُ الأَسْبَاطُ، وزَلِيخَا آمَنَتْ بالله ونَالَتْ ما أرادَتْ من يوسُفَ حَلالاً، ونالَ يُوسُفُ مِن المَمْلَكَةِ والمُلْكِ مَالم يَكُنْ لأَحَدٍ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ فَلِذلك كانَتْ أحْسَنَ القَصَصِ.

وكانَ يَعقُوبُ قَدْ وُلِدَ ونُبِّئ في زَمَانِ إبراهِيْمَ، وكانَ هُوَ والعِيْصُ تَوأَمَيْنِ وَاخْتَصَمَا في بَطْنِ أُمِّهِمَا على الخُروجِ، فقالَ أحدُهما للآخر: طَرِّقْ ليْ وألاَّ أتحَرَّكُ حَرَكَةً تَهْلِكُ منهَا الوَالِدَةُ والأُمُّ تَسْمَعُ فَطَرَّقَ له يَعْقُوبُ، فَخَرَجَ عِيْصٌ فَسُمِّيَ عِيْصًا؛ لأَنَّهُ عَصَى في بَطْنِ أُمِّهِ وَخَرَجَ الآخَرُ على عَقِبِهِ فَسُمِّيَ يَعقُوبَ فَدَعَا إسحَاقُ وهُو أَعْمَى لِعِيْصٍ فقَالَ لهُ: يا بُنَيَّ وَعَدَنِي رَبِّيْ بِاسْتِجَابَةِ دَعْوَةٍ أُحِبُّ أن تَكُونَ فِيكَ وقَدِ اشْتَهَيْتُ لَحْمَ الصَّيْدِ فَأْتِنِي بِهِ فإذَا أَخَذْتُ مِنْه شَهْوَتِي دَعَوتُ لكَ، فَخَرَجَ لطَلَبِ الصَّيْدِ فَقَالَتِ الوَالِدَةُ ليَعْقُوبَ: عَجِّلا لِيَ سَخْلَةٍ مِن غَنَمِكَ فَاذْبَحْهَا واشْوِهَا وَقَدِّمْهَا إلى أَبِيْكَ ففعَلَ، فقالتِ الوَالِدَةُ: هذَا عِيْصٌ قد جَاءَكَ بلَحْمِ الصَّيْدِ فَكُلْ، فَأَكَلَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وقال: اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمِيْعَ أنبيائِكَ مِنْ نَسْلِ وَلَدِيْ هذَا سِوَى النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذي هُوَ مِن نَسْلِ أَخِي إسْمَاعِيلَ، ثُمَّ جَاءَ عِيْصٌ بِلَحْمِ الصَّيْدِ وقَالَ له: كُلْ يَا أَبَتِ وَادْعُ لِي. فقَالَ: أَلَيْسَ جِئْتَنِي آنِفًا؟ فقالَ: لا. فقالَ له: قَدْ فَازَ بِهَا أَخُوكَ. فقالَ له عِيْصٌ: لأَقْتُلَنَّكَ. فقالَتِ الوَالِدَةُ لِيعقُوبَ:

يا بُنَيَّ أَخْشَى عَلَيْكَ مَكائِدَ أَخِيْكَ وَلَكَ بِحَرَّانَ أَخوالُكَ أصْحَابُ نِعَم كثيرةٍ ومَوَاشٍ فَاقْصِدْهُم حَتَّى يَقْضِيَ الله فِيكُمَا مَا شَاءَ، فَخَرَجَ يَعقوبُ هارِبًا إليهِمْ يَمشِي باللَّيلِ ويَكْمُنُ بِالنَّهارِ حَذَرًا مِن أخِيْهِ أن يَلْحَقَهُ، فلِذلكَ سُمِّيَ إسْرَائِيلَ.

فلَمَّا قَدِمَ عليهِمْ أَضَافُوهُ وأَكْرَمُوهُ. وكان لبعضِ أَخْوالِهِ بنتَانِ فَاطَّلَعَ يَعقوبُ عَلَى إحْدَاهُما فمالَ قَلبُه إليهَا فَخَطَبَهَا مِن أبِيْهَا فزَوَّجَهُ خَالُه بِنْتَهُ ليَّا الكُبْرَى، فَلَمَّا زُفَّتْ إليه ولم يَجِد الَّتي مالَ قَلْبُهُ إليهَا فقالَ لِخَالِهِ: إنِّي أَرَدْتُ أن تُزَوِّجَنِي الصُّغْرَى فَزَوَّجْتَنِي الكُبْرَى.

فَقَالَ خَالُه: مِن عَادَتِنَا أنْ تُزَوِّجَ أوَّلاً الكُبْرَى قَبْلَ الصُّغْرَى، والله لأَجْمَعَنَّ لكَ بَيْنَهُمَا إكرامًا لكَ فَزَوَّجَهُ الصُّغْرَى أيضًا وهُو قولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ [النِّساء: الآية ٢٣]، أَخْبَرَ الله عَزَّ وجلَّ أَنَّه أحَلَّ الجَمْعَ لَهُ بَيْنَهُمَا حَيثُ حَرَّمَهُ عَلَيْنا فكانَ لِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا جاريتين فجمع بين أُختين فولدن كل واحدة منهما أولادًا.

وكَانَ يُوسُفُ وَأخُوهُ ابْنُ يَامِيْنَ مِنَ الابْنَةِ الصُّغْرَى الَّتِي تُسَمَّى رَاحِيْلَ، فَلَمَّا كانَتِ الوَالدَةُ أَحَبَّ إليهِ مِن سائرِهِنَّ كانَ ابْناهَا أحَبَّ إليهِ مِن سَائِرِ البَنِيْنَ، وكَانُوا اثْنَيْ عَشْرَ وهُم الأَسْباطُ. ومَعْنَى ابن يَامِيْنَ: ابْنُ الوَجَعِ؛ لأَنَّهَا مَاتَتْ في نِفَاسِهِ وَبَنُوهُم ونَسْلُهم الَّذِيْنَ أخْبَرَ الله تعالى عن شِرْبِهِمْ حَيثُ يَقولُ: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٠]، لِكُلِّ سِبْطٍ منهم عَيْنٌ. وقوله: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ [المَائدة: الآية ١٢] مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيْبٌ.

فَلَمَّا طَالَتْ عَلَى يَعْقُوبَ المُدَّةُ أَحَبَّ أَنْ يَرْجِعَ إلى وَطَنِهِ وزِيَارَةِ وَالِدَتِهِ، فَجَمَعَ أَولادَهُ وَجَمَعَ مَا اجْتَمَعَ لَهُ واسْتَأْذَنَ أَخْوَالَهُ في الخُرُوجِ فَأَذِنُوْا لَهُ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ كَنْعَانَ تَأَخَّرَ وقال لِبَنِيْهِ: إنِ اسْتَقْبَلَكُمْ رَجُلٌ أَشْقَرَ طَوِيْلٌ ذُو سِلَاحٍ وقُوَّةٍ وبَأسٍ فَقَالَ لَكُم: مَنْ أَنْتُم؟ فَقُولُوا: نَحْنُ بَنُو يَعقُوبَ الَّذِي هُوَ عَبْدُ عِيْصٍ غابَ عَن مَولاهُ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ اشْتَاقَ إلى لِقَاءِ سَيِّدِهِ فَقَصَدَهُ بِبَنِيْهِ ورَقِيْقِهِ ومَواشِيْهِ.

فَلَمَّا التَقَى بِهِمْ عِيْصٌ سَأَلَهُم فأَجَابُوْهُ بِالَّذِي أَوْصَاهُم أَبُوهُم، فقالَ في نَفسِهِ: أخِيْ وَابْنُ أُمِّيْ وَأَبِيْ لا يَنْتَسِبُ إلى إِخْوَتِي، بَلْ يَنْتَسِبُ إلى عُبُوْدِيَّتِيْ فَمَنْ أَوْلَى مِنِّي بِتَرْكِ الحِقْدِ علَيْهِ وَإظهارِ الأُخُوَّةِ؟ فَرَمَى قَوْسَهُ وسَيْفَهُ وجَعَلَ يَبْكِيْ ويَسْتَقْبِلُ أَخَاهُ، فلَمَّا أَدْركَهُ رَقَّ لَهُ وعَانَقَهُ.

قالَ نَبِيُّنَا علَيْهِ السَّلامُ: «**ما دَخَلَ الرِّقُ في شَيْءٍ إلا زَانَهُ ولا دَخَلَ الخَرْقُ في شيءٍ إلاَّ شَانَهُ**».

فَلَمَّا طَلَعَتْ دُرَّةُ العِبْرَانِي علَى ساحِلِ المَعَانِي كَتَبَ يَدُ القَدَرِ سَطْرَ ذَلِكَ البَيَانِ، ظَهَرَ شَرْحُ جمالِ يُوسُفَ وبَانَ، وكان أَحبُّ الخلقِ إلى يعقوبَ لكونِهِ أَمْيَلَ إلى أُمِّهِ، فبَينَا يُوسُفُ يَجُرُّ ذَيْلَ النَّخْوَةِ، إذ وَثَبَ عليه أسَدُ حَسَدِ الإخْوَةِ فَرأَى المظلومُ مَآلَ الظَّالِمِ في مِرْآةِ ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤]. وكان يوسُفُ حينئذٍ ابنَ سَبْعِ سِنِيْنَ فَحَذَّرَهُ أَبُوْهُ بَعد تعبِيْرِ رُؤْيَاهُ ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: الآية ٥]. وذلك لَمَّا عَلِمَ أنَّ الحَسَدَ يَغْلِبُهُم. ثُمَّ أحالَ الحالَ على الشَّيطانِ لِشَفَقَتِهِ على بَنِيْهِ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥]، فَامْتَلأَ قَلْبُ يُوسُفَ فَرحًا وسُرُورًا وَأنسَاهُ الشَّيطانُ وَصِيَّةَ أَبِيْهِ حتَّى قَصَّ على كلِّ واحِدٍ منهُم كَانَ أَبَاهُ أَمَرهُ بِذلكَ فلمَّا سَمِعُوا بِذَلكَ ازْدَادَ حَسَدُهم.

إخواني، اعلَمُوا أنَّ الذُّنوبَ تُعَجَّلُ وربَّما تُؤخَّرُ إلا العُقُوقَ فإنَّه يُعَجَّلُ كما عُجِّلَتْ عُقوبَةُ يُوسُفَ حينَ رَكِبَ نَهْيَ أَبِيْهِ، حَيثُ نهاهُ أَنْ يَقُصَّ رُؤْيَاهُ على إخوتِهِ فَبِهَذا القَدْرِ مِنَ العُقوقِ نَالَ مَا نالَ مِنَ المِحَنِ.

وقيلَ: مَكتُوبٌ في الزَّبُورِ على بَابِ نَيْرُوْزَ بِخَطِّ سُليمانَ عليهِ السَّلامُ: إفْشَاءُ الأَسْرارِ يُورِثُ البَوَارَ، وَالإعْرَاضُ عَنِ النَّصِيحَةِ يُورِثُ الفَضِيْحَةَ، وخَيْرُ الموجُودِ بَذْلُ المَجْهُودِ، وأَفْضلُ المَوْرُوْدِ بَابُ الملكِ الوَدُوْدِ.

رَجَعْنَا إلى القصَّة؛ فَتَلَطَّفُوا بِخِدَاعِ ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: الآية ١١]، وشَوَّقُوْا يُوسُفَ إلى رِيَاضٍ نَرْتَعْ ونَلْعَبْ، وقالُوا له: سَلْ أَبَاكَ أَنْ يُرْسِلَكَ مَعَنَا فَاسْتَأْذَنَهُ فَأَذِنَ لَهُ بَعْدَ أَن قَالَ لَهُم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٣]، وذلكَ لأَجْلِ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا؛ رَأَيْتُ كَأَنِّيْ على ذِرْوَةِ جَبَلٍ، ويُوسفُ في بَطْنِ الوَادِيْ وأَنَا أَنْظُر إليهِ إِذَا قَدِ احْتَوشَتْهُ عَشْرةٌ مِنَ الذِّئَابِ يُرِيْدُونَ قَتْلَهُ، فَأَرَدْتُ النُّهوضَ إِلَيْهِ وَإِنْقَاذَهُ فلَم أَجِدْ إِلَى ذَلِكَ الوَادِيْ سَبِيْلًا، ثمَّ حَمَاهُ أَحدُهم وَانْشَقَّتْ لَهُ الأَرْضُ فَتَوَارَى فيهَا ثلاثَ لَيالٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ في تَعْبيرِ هذِهِ الرُّؤْيَا: إنَّ عَشْرَةَ الذِّئَابِ إخوَتُه، والَّذِي حَماه أَخُوْهُ الأَكْبَرُ يَهُوذَا، وَشَقُّ الأَرْضِ هُوَ الجُبُّ الَّذِي أُلْقِي فيهِ وَاللَّبْثُ فيهِ ثَلَاثُ لَيَالٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أُخرِجَ مِنَ الجُبِّ بَعْدَ ثَلَاثٍ، وكَان يُوسفُ لَمَّا شَوَّفُوْهُ جَعَلَ يُقَبِّلُ يَدَ أَبِيْهِ ويَتَضَرَّعُ إليهِ، فقَالَ أَبُوهُ: قرة عيني بَعْدَما طَالَبْتَنِيْ أَنْتَ وأَرَدْتَ ذَلِكَ لاَ أُخَالِفُكَ، فَبَاتَ الإِخْوَةُ فَرِحِيْنَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ كَأَنَّهُم أَصَابُوا الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا، وَبَاتَ يُوسُفُ فَرِحًا مَسْرُوْرًا يقولُ كُلّ سَاعَةٍ: يَا أَبَتَاهُ، ما أَطْوَل هَذِهِ اللَّيلة، ويقول أبوه: ما أَقْصَرها مِن لَيْلَةٍ إذا أَرَدْتَ مُفَارَقَتِي فيها. وينشد:

الحُبُّ فِيْه حَلَاوَةٌ ومَرَارَةٌ ... والحُبُّ فِيْهِ شَدَائِدٌ ونَعِيْمُ
والحُبُّ أَهْوَنه شَدِيْدٌ فَادِحٌ ... والحُبُّ أَصْغَره يَكُونُ عَظِيْمُ
والحُبُّ دَافِئٌ تَضُمُّهُ الحَشَا ... بَيْنَ الجَوَانِحِ والبَرادُ مُقِيمُ

فلمَّا أصْبَحَ قَمَصَهُ بقميصه، وعَمَّمَهُ بِعَمَامَتِهِ، وأَقْبَلَ يُوْصِي بَنِيْهِ عَلَيْهِ فَحَمَلُوهُ على أَعْنَاقِهِم، فَلَمَّا أَبْعَدُوا أَظْهَرُوا المَقْتَ لَهُ ورَمُوا مَقْتَلَه فنسخ نَهَارُ رِفقهم به لَيْلٌ بقليل انتِهَارِهم له، قَالُوا: عَجِّلُوهُ ولا تُؤَجِّلُوهُ واكْشِفُوا حملاً به.

وإِيَّاكُم والإقالة بعد أن كان على أَكْتَافِهِم حِيْنَ أَخرَجُوهُ جَرْجَرُوه مَا كَانَ لَهُم علم أن الذي صَالُوا عَلَيْهِ سَيَتَذَلَّلُونَ إليه ظنوا أنهم قدروا، وما توهَّموا أنهم قُهِرُوا فَجَعَلَ يُوسُفُ كُلَّما التَجأَ إلى وَاحِدٍ مِنْهُم ضَرَبَهُ وآذَاهُ، فَلَمَّا فَطِنَ لِمَا عَزَمُوا عليه، جَعَلَ يُقَبِّلُ يد كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم، ويَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ مَا أَسْرَعَ مَا نَسُوا عَهْدَكَ وضَيَّعُوا وَصِيَّتَكَ، فَأَخَذَهُ رَوْبيل وضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ، وبَرَكَ وخَتَمَ عَلَى صَدْرِهِ لِيَقْتُلَهُ، وقالَ: يَا ابْنَ رَاحِيلَ قُل لِرُؤْيَاكَ تُخَلِّصْكَ. فَصَاحَ لِيَهُوذَا خَلِّ بَيْنِي وبَيْنَ مَن يُرِيْدُ قَتْلِي. فَصَاحَ يَهُوذَا في بَقَايَا شَفق الشفقة، إذ هُوَ يبين القوم

استيقظوا من سنة النَّوم أخرجتموهُ من جوارِ الجبِّ ألقوه في غيابات الجب، فإذا يُوسُف يا إخوتاه يا محل نجواه مَا هكذا نخوة المروءة أبوكم جنا عليكم فما ذَنْبِي أنا إليكم فارحمُوا ضَعْفِي وصِغَرِي، فَنَزَعُوا قَمِيْصَهُ لإِلْقَائِهِ في الجُبِّ، فَقَالَ رُدُّوه عَلَيَّ أَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتِي وَيَكُونُ كَفَنًا في مَمَاتِي، وجَعَلَ يَبْكِي ويُنادِي إخْوَتَهُ ويقولُ: إنَّ لِكُلِّ مَيِّتٍ وَصِيَّةً، وَوَصِيَّتِي إيَّاكم إِذَا اجتمعتُم مَعَ وَالِدِي فَاذْكُرُوا وِحْدَتِي، فإذا آنستم بجمعكم فاذْكُرُوا وحشتي، وإذا رأيتم شبابًا فاذكروا شبابي. غَيَّبُوه وما رَحِمُوا لَهُ حَالاً. فَلَمَّا ظَنُّوا أنه هلك جَاءَهُ من عند من ملك ملك أخرج له حجرًا مرتفعًا من الماء فاستقرَّت عَلَيْها قَدَمَاهُ، وقال له: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٥]. وينشد:

في الحال عد بسلم على أناسٍ أنا من بُعدهم سقيمُ
واشرح لهم حال مُسْتَهام أنْتَ بأحْوَالِهِ عَلِيمُ
وقل غريب ثوى بأرضٍ في عمرها قلبه مقيم
يجاهِد الشوق حين يمسي وتعتر في قلبه الشومُ
لم يجر ذكر الصداق إلا حن كما حنة المرّ ومرُ

فَذَبَحُوا جَدْيًا، وعَفروا القميص بدمه، وعادوا عندما عادوا بالعشاء عِشَاءً يَبْكُوْنَ. وفي حَدِيْثِ أَبِيْ سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّهُ لَمَّا تَأَخَّرَ إِتْيَانَ بَنِيْ يَعْقُوْبَ عَنِ الوَقْتِ المعلُومِ لَهُمْ أَحسَّ قَلْبُهُ بِالشَّرِّ، فَدَعَا بِجَارِيَةٍ فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا إِلَى شَفِيْرِ الوَادِيْ، فَلَمَّا أَشْرَفُوْا جَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَخَانَا يا يُوسُفُ، فَلَمَّا سَمِعَ يَعقُوبُ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَلَمَّا انْتَبَهُوا إِلَيْهِ سَلَّمُوا عَلَيْهِ سَلَامًا ضَعِيْفًا، فَقَالَ يَا بُنَيَّ: مَا لِي أَسْمَعُ عَوِيْلَكُم شَدِيْدًا وسَلَامَكُمْ ضَعِيْفًا من بعيد؟: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٧]، فَلَمَّا نَشَرُوا القَمِيْصَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِسْرَائِيلُ إِلَيْهِ نَادَى لجَارِي القَدَرِ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: الآية ١٨] ولما ذكر الفوائد في هَذَا القَدْرِ مِنَ القِصَّةِ إِلَى مَا انْتَهَى إليه فكَثِير.

أحدها: أنْ تَعْلَمَ أنْ ليس من التَّعْزِيزِ والتَّذليل بيد المخلوقات من شيء،

أَلا تَرَى أَنَّ مَن طَلَبَ مُرادَهُ بمَعْصِية الله فإنَّه يَزْدَادُ عَن مَقصُودِه بُعْدًا، كَما أَنَّ إخْوةَ يُوسُفَ طَلَبُوا ازْدِيَادَ قُرْبِهِمْ عِنْدَ أَبِيْهِمْ بالعُقُوقِ وقَطْعِ الرَّحِمِ فَلَم يَزْدَادُوا إلاَّ بُعْدًا.

الثانية: أن تَعْلَمَ أَنْ لَيسَ مِن التَّعْزِيْرِ والتَّذْلِيْلِ بِيَدِ المَخْلُوقاتِ مِنْ شَيْءٍ أَلا تَرَى أَنَّ إخوةَ يُوسُفَ أَرادُوْا إذْلالَ يُوسُفَ فَأَذَلَّهُم الله وَأَعزَّهُ حَتَّى قَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وقالُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٨].

الثالثة: أن تَعْلَمَ أَنَّ المَحَبَّةَ، وَإن قَلَّتْ فَإنَّهَا تَمْنَعُ المُحِبَّ عَن إهْلاكِ المَحْبُوبِ وَاسْتِئْصَالِهِ كَمَحَبَّةِ يَهُوْذَا، وَإنْ قَلَّتْ فإنَّها مَنعَتْ مِنْ قَتْلِهِ حَيْثُ قالَ: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠] رَجَاءَ خَلاصِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠]. وَكَذَلِكَ المُؤْمِنُ وإن عُوقِبَ لَمْ يَخْلُدْ في النَّارِ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِن بَعْضٍ.

الرابعة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَن وَثِقَ بِمَخْلُوقٍ وتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ضَيَّعَهُ الله عِنْدَ احْتِيَاجِهِ إِلَيْهِ، أَلا تَرَى أَنَّ يعقُوبَ لَمَّا وَثِقَ بِمَقَالَةِ بَنِيْهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٢] كَيْفَ ضَيَّعُوهُ، فَعَلى العَبْدِ أن يَتَوَكَّلَ في جميعِ حالاتِهِ عَلَى رَبِّهِ، قالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: الآية ٣].

الخامسة: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الإنْسَانَ وَإن كانَ نَبِيًّا فإنَّهُ يُخْلَقُ على طبعِ البَشَرِيَّةِ، أَلا تَرى أَنَّهُمْ شَوَّقُوهُ إلى اللَّعْبِ بِقَولِهِمْ: نرتع ونلعب وَطَمَّعُوْهُ في اللَّعِب حَتَّى صارَ أَمْرُهُ إلى مَا صَارَ.

فَلِذَلِكَ سمَّى الله تعالى الدُّنْيَا لَعِبًا ولَهْوًا، والشَّيْطَانُ يَغُرُّ بِالدُّنْيَا الَّتِي هِيَ لَعِبٌ ولَهْوٌ. فيوسفُ لمَّا اغْتَرَّ بذلك اللَّعِبْ صَارَ إلى سِجْنِ العُبُوْدِيَّةِ، وَالسِّجْنُ والعَبْدُ إِذَا اغْتَرَّ بِلِعْبِ الدُّنْيَا صَارَ إلى سِجْنِ الآخِرَةِ.

السادسة: أن تَعْلَمَ بِأَنَّ العبدَ يَجِبُ عليه أن يَجْتَنِبَ الشَّهَوَاتِ. فقد قِيلَ: فَلَرُبَّ شَهْوَة سَاعةٍ قد أَورَثَتْ حُزْنًا طَوِيْلًا. كَمَا أَنَّ يُوسُفَ اتَّبَعَ شَهْوةَ سَاعَةٍ فَأَوْرَثَتْهُ حُزْنًا طَوِيلًا.

السابعة: أنْ تَعلَمَ أنَّ الخَوْفَ من المخلُوقِيْنَ يُوْرِثُ البَلَاءَ، والخوفُ مِن الله تَعالى يُورِثُ العَطَاءَ. كَما أنَّ يَعقُوبَ قالَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يُوسُف: الآية ١٣]، فَأَوْرَثَهُ ذَلِكَ الخَوْف البَلَاءَ. قالَ الله تَعالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٤٦].

الثامنة: أن تَعْلَمَ أَنَّ المَقْدُورَ لا بُدَّ كَائِنٌ، وَأَنَّ الحَذَرَ لا يَنْفَعُ مِن القَدَرِ، وإِذَا جَاءَ القَدَرُ عَمِيَ البَصَرُ، وإذا حَانَ القَضَاءُ ضَاقَ القَضَاءُ، أَلا تَرى أَنَّ يَعقُوبَ كَانَ يَقُولُ: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآية ١٠]، وكان يقول: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٥]، ثُمَّ ائْتَمَنَهُم عَلَيْهِ، وأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّه عَلِمَ تَعْبِيْرَ رُؤْيَا الوِلاَيَة ولم يَعلَمْ تَعْبِيْرَ رُؤْيَا المِحْنَةِ، وعَلِمَ أَنَّ أَحدَ عَشَرَ كَوْكَبًا إخوَتُهُ يَصِيْرُونَ إلى أنْ يَتَوَاضَعُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ولَم يَعْلَمْ تَعبِيْرَ رُؤْيَاهُ وَالذِّئَابِ الَّتِي احْتَوَشَتْهُ لِتُمَزِّقَهُ. كَمَا قِيلَ للهُدْهُدِ: كيفَ تَرَى المَاءَ تَحْتَ الأَرضِ ولا تَرى الشَّبَكَةَ تَحْتَ التُّرابِ؟ قالَ: نَعَمْ إذا جَاءَ القَدَرُ عَمِيَ البَصَرُ.

التاسعة: أن تَعْلَمَ أنَّ بَنِيْ يَعقوبَ كَانُوا يُكَرِّرُوْنَ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٨] حَتَّى أَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ ما أَوْرَثَهُم. كَما قِيلَ: إنَّ هذِهِ الأَرْبَعَ كَلِمات أَوْرَثَتْ كُلَّ وَاحدةٍ مِنْهُنَّ بَلاءً وَهِيَ: أَنَا، ونَحْنُ، وَلِيْ، وَعِنْدِي. قالَ إبْلِيسْ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٢]، طُرِدَ ولُعِنَ. وقالتِ الملائِكَةُ: نحن محنوا. وقالَ فِرعَونُ: أليس لي غرف؟ وقارُونُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القَصَص: الآية ٧٨] فخُسِفَ بِهِ. فَعَلَى المُؤْمِنِ أنْ يَحْذَرَ العُجْبَ. وَكانَ الأُسْتَاذُ أَبُو جَعْفَر الواعِظُ يَقولُ: إذَا قَرَعَ القارِعُ البَابَ، فيقالُ: مَنْ؟ فَيَقُولُ: أَنَا. فَأَوَّلُ خَذْلَةٍ تَلْحَقُه أن يُقالَ له: مَنْ أَنْتَ؟

العاشرة: أَنَّهم قَالُوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٤]، جَعَلُوا الخُسرَانَ لأَنْفُسِهِمْ في أَكْلِهِ الذِّئْبُ، وَإِنَّما كانَ الخُسْرَانُ لأَنْفُسِهِمْ حِيْنَ لَمْ يَأْكُلْهُ الذِّئْبُ، فَرُبَّ خَاسِرٍ يَظُنُّ أَنَّهُ رَابِحٌ، ورُبَّ رَابِحٍ يَظُنُّ أَنَّهُ خاسِرٌ. أَلا تَرَى أنَّ كَثِيْرًا مِن أَبْنَاءِ الدُّنْيَا يَرْبَحُونَ في مُعامَلَاتِهِم وذَلِكَ الرِّبْحُ

حَقِيقَةُ الخُسْرَانُ، قالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٥]، رجعنا إلى القصة.

ثُمَّ إنَّ يَعْقُوبَ أَخَذَ القَمِيصَ يُقَبِّلُهُ فَلَم يَرَ فِيْهِ تَمْزِيْقًا، وجَعَلَ يَشُمُّهُ ويَقُولُ: مَا أَشُمُّ في هَذَا القَمِيصِ رَائِحَةَ لَحْمِهِ ولا دَمِهِ، سُبْحانَ الله مَا أَعْطَفَ هذَا الذِّئْبَ وَمَا أَرْفَقَهُ حيثُ افْتَرسَ وَلَدِيْ وأكَلَهُ ولَم يُمَزِّقْ ثِيابَهُ.

وظَهَرَ لهُ مِن حَالِهِمْ أنَّ الذِّئْبَ لم يَفْتَرِسْ يُوسُفَ وإِنَّمَا أَمْسَى مَظْلُومًا، فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَنُوحُ ويَقولُ: وَلَدِي وَقُرَّةُ عَيْنِي، لَيتَ شِعْرِيْ لأَيِّ سَبْعٍ عَرَّضُوْكَ، لَيْتَ شِعْرِي في أيِّ بِئْرٍ طَرَحُوكَ؟ وَلَدِيْ وقُرَّةَ عَينِي، لَيْتَ شِعْرِيْ في أَيِّ نَهْرٍ غَرَّقُوكَ؟ قُرَّةَ عَيْنِي، كيفَ أَنْتَ الَّذِي أَرْجُوكَ؟ لَيْتَ شِعْرِي أَقَتِيْلٌ أَنْتَ، أَم ذَبِيْحٌ، أم طَرِيْدٌ، أم طَرِيْحٌ؟ مَعْشَرَ وَلَدِيْ دُلُّوْنِي على وَلَدِي فإن كانَ حَيًّا رَدَدْتُهُ، وإنْ كانَ مَيِّتًا دَفَنْتُه وزُرْتُ قَبرَهُ. وينشد:

لَئِنْ غِبْتَ عَنْ عَيْنَيَّ وشَطَّ بَكَ النَّوَى ... فَأَنْتَ بِقَلْبِي حَاضِرٌ وقَرِيْبُ
أَرَاكَ بِعَيْنَيِّ الوَهْمِ في مُضْمَرِ الحَشَا ... وليسَ عَلَى عَيْنِ الضَّمِيْرِ رَقِيْبُ
خيالُكَ فِي وَهْمِي وذكرُكَ في فَمِيْ ... وَمثواكَ فِي قَلْبِي فأَيْنَ تَغِيْبُ

قِيلَ: مَكُثَ يُوسُف في الجُبِّ ثلاثة أَيَّام وإخوَتُهُ يَرْعَوْنَ حولَهُ عادَ الجُبُّ صَدَفَةً، يُوسفُ دُرَّتُهَا وَالوَجْدُ خَيْمةٌ يَعقوبُ قَائِمَتُهَا يُنادِي: يَا مُقَدِّرَ الأَيْنِ أَجِرْنِي مِنَ البَيْنِ رَسْنُ الخِنَاقِ، أَهْوَنُ مِن الفِراقِ، أَنْتَ أَوْجَدتَّ يُوسفَ سَيِّدِي، أَنْتَ أَطلَعْتَ قَمَرَ هِلَالِه في سَماءِ فِكْرِيْ، آه أنت أَطلَعْتَ قَمَرَهُ بَعْدَ العُرْجُونِ هِلالاً فَبِأَيِّ سَبَبٍ هُو المطلُوب يَعقُوبُ. وينشد:

هَـذا كَبِدِي تَذُوْبُ مِنْ ذِكْرَاهُ ... المَوْتُ وَلا فِراقَ مَنْ أَهْوَاهُ
مَا مَقْصُودِي مِنَ المُنَى إلاَّ هُوْ ... وَا شَوْقِيْ مَا أَشْوَقَنِي مَتى تُرى أَلْقَاهُ

فلَمَّا آنَ أَوَانُ البشَارَةِ جاء رَكْبُ السَّيَّارَةِ أَدْلَى الوَارِدُ دَلْوَهُ بِلُطْفِ المَلِكِ العَلَّامِ ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يوسف: الآية ١٩]، وكَانَ الَّذِيْ جَاءَ إلى الجُبِّ رَجُلانِ؛ أَحدُهُما يقالُ: بِشَارَةٌ، والآخَرُ: بُشْرَى، فَأَخْرَجَاهُ وَأَتَيا بِهِ إلى سَيِّدِهِمَا فَتَعَجَّبَ مِن حُسْنِهِ وجَعَلُوا يُكَلِّمُونَ بالعَرَبِيَّةِ فيُجِيْبُهُم بالعِبْرَانِيَّةِ.

إخواني، مَن قَيَّضَ السَّيَّارَةَ لِيُوسُفَ وهُوَ في قَاعِ الجُبِّ؟ مَنْ دَلَّهُم عَليهِ؟ مَن أَوْصَلَهُم إليه؟ مَن نَادَاهُم فَسَمِعُوهُ، وَاسْتَغَاثَ بِهِمْ فَأَغاثُوهُ، أو عُرِّفوا له مَكانًا فَقَصَدُوْهُ، أو كانَ على وَجْهِ الأَرْضِ فسَارَ إليهِمْ فَرَحِمُوْهُ؟ إنَّما لَطَفَ بِهِ وأَنْقَذَهُ مِنَ المِحْنَةِ وَالبَلْوَى، ودَفَعَ أَسْقِيَتَهُمْ وعَطَّشَ أَكْبَادَهُم، وَأَتَى بهم إليهِ وَقادَهُم مَن لَه آيَاتٌ ظَاهِرَةٌ وَمُعْجِزةٌ بَاهِرةٌ، ودَلالةٌ تَدُلُّ على أَنَّه قَيُّومُ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ جَلَّ مِن حَكِيمٍ قَادِرٍ، وعَزَّ مِن عَظِيمٍ قاهِرٍ. قالَ: وإخوتُه يَرْعَونَ حَوْلَهُ ويَتَحَسَّسُونَ مِن خَبَرِهِ، فلما أبصَرُوْهُ قَد أُخْرِجَ أَقْبَلُوا يُسَارِعُوْنَ إليْهِ ويَقُولُونَ: هَذَا مَمْلوكٌ لَنا أَبَقَ مُنْذُ ثلاثةِ أيَّامٍ وتَوَارَى في هذا الجُبِّ. فَقالُوا لَهُ بِالعِبرانِيَّةِ: إنْ أنت أقرَرْتَ لَنَا بالعُبُودِيَّةِ نَجَوْتَ وَإلاَّ انْتَزَعْنَاكَ مِنهُم ونَقْتُلَكَ أخبَثَ قَتْلَةٍ، فَتَوَقَّفَ في هذا الجوابِ. وينشد:

غَدَرْتُم ولَم أَغْدِرْ وَخُنْتُمْ وَلَمْ أَخُنْ وحُلْتُم عَنِ العَهْدِ القَدِيْمِ ومَا حُلْنَا
سَأَلْتُ الَّذِي تَجْرِي الأُمُور بِعِلْمِهِ لَيَجْمَعَنَّا بَعْدَ الفِرَاقِ كَمَا كُنَّا

فَتَقَدَّمَ إليه يَهُوْذَا وَقالَ لَهُ: إنَّهُم أَخبَرُوا أَبَاكَ بِأَنَّ الذِّئبَ أَكَلَكَ وَقَدْ صَدَّقَهُم، فإنْ أَنْكَرْتَ مَا أَرادُوْا مِنْكَ قَتَلُوكَ، وَإنْ أقْرَرْتَ منهم بِالعُبوديَّةِ بَاعُوكَ ونَجَوْتَ مِنَ القَتْلِ وَلَعَلَّ الله يَأْتِيْكَ بالفَرَجِ.

فقالَ لَهُم رَئِيْسُ القَافِلَةِ: مَا هذِهِ سِمَةُ العُبُودِيَّةِ، بَلْ هَذِهِ سِمَةُ الأَحْرارِ الكِرامِ. فقَالُوا: إنَّ أبَانَا اشْتَرَى جَارِيَةً تُسَمَّى رَاحِيلَ، وهَذَا لهَا طِفْلٌ صَغِيْرٌ فَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِنَا وَتَوَسَّمَ بِسِمَتِنَا.

فقال لَهُمْ مَالِكٌ وهُو رَئِيْسُ القَافِلَةِ: مَا تَقولُ يا غُلَامُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ سَاوَمُوهُ البَيْعَ. فقالَ لَهُم: مَا مَعَنَا دَراهِمُ إلاَّ عِشْرُوْنَ دِرْهَمًا. فقَالُوا: عَلَى شَرْطِ أَنْ تُقَيِّدَهُ وتُكَبِّلَهُ إلى مِصْرَ وَتُوكِّلَ بِهِ مَنْ يَحفظُهُ، وهَذَا منهُم مَخافَةَ أَنْ يَفْلِتَ ويَرْجِعَ إلى أَبِيْهِ.

فقالَ لهم مالِكٌ: لَكُم ذَلِكَ، ولكِنْ اكْتُبُوا لِي كِتَابًا، فَكَتَبَ رُوبِيْلُ بِاسْمِ إلٰهِ إبراهيمَ وإسحَاقَ ويَعْقُوبَ؛ هَذا مَا اشْتَرَى مَالِكُ بْنُ زَعَرَ الخُزَاعِيُّ مِنْ بَنِي

يَعقُوبَ وهُم فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ العَشَرَةُ مَمْلُوكَهُمْ يُوسُف بِعِشْرِيْنَ دِرْهَمًا سِكَّةً.

فَأَصابَ كُلُّ واحدٍ منهُم دِرْهَمَانِ بَاعَهُ الإِخْوَةُ بَبَخْسِ الأَثْمَانِ. فكانَ لَهُ شَأْنٌ مِنَ الشَّأنِ. فقالَ يُوسُفُ لِيهُوذا: لا تَأْخُذْ مِن ثَمَنِيْ؟ فقالَ: واللهِ لاَ أَخَذْتُه. وَا عَجَبًا لِقَمَرٍ قُوِّمَ بِهِ بَاعُوا الصَّدقَةَ وَلم يَتَلَمَّحُوا الدُّرَّةَ. لو دَامَ يوسُفُ في صَدَقَةِ كَنعانَ ما ظَهَرَ سِرُّ حَالِهِ ولاَ بَانَ.

ذكر الفوائد في هذا القَدْرِ من القصَّة:

إحداها: أن تَعْلَمَ أَنَّ الأَمْرَ إِذَا اشْتَدَّ يَكُونُ إلى الفَرَجِ أَقْربَ. كما قِيلَ كُنْ لما لا نرجُوا أرْجَى مِنك لِمَا تَرْجُو. قال الله تعالى العظيم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشّورى: الآية ٢٨].

الثانية: أن تَعْلَمَ أَنَّ المُؤمِنَ إذا اشْتَدَّ عَلَيهِ الأَمْرُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنيَا قَدِمَ عَلَى الرُّوحِ والرَّيْحَانِ وَالمَغفِرَةِ والرِّضْوَانِ. قال الله العظيم: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٠].

الثالثة: أنَّ السَّيَّارَةَ طَلَبُوا شَيْئًا حَقِيْرًا فَوَجَدُوْا شَيئًا خَطِيْرًا، وَذَلِكَ أَنَّهُم جَاؤُوا يَسْقُوْنَ المَاءَ فَوَجَدُوْا أَكْرَمَ النَّاسِ. ومُوسَى طَلَبَ النَّارَ فَوَجَدَ النُّوْرَ. وَوَجْهُ مَا يُرْوَى في الخَبَرِ المَرْوِيّ عَن رَسُوْلِ الله ﷺ أَنَّ قَومًا اجْتَمَعُوا يَذْكُرُوْنَ الله فَاجْتَازَ بِهِم مُجْتَازٌ غَيْر قَاصِدٍ إلى مقصودهم، فجلس إليهم، فلما نزلت إليهم الرحمة قالت الملائكة: إن فلانًا بينهم وهو غير قاصد لِمَا قَصَدُوْا، فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**».

رجعنا إلى القصة، وذَلِكَ أَنَّ المُشْتَرِي دَعَا بِقَيْدٍ مِن حَدِيْدٍ وَغُلٍّ فَغَلَّ بِهِ عُنُقَهُ. فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: لا تَغُلَّ عُنُقِي فَإِنِّي إذَا نَظَرتُ لَهُ تَذَكَّرْتُ أَغْلاَلَ أَهْلِ النَّارِ فَلَا يَهْنَأُ لِي العَيْشُ. فَقَالَ التَّاجِرُ: لَقَد قَطَعْتَ بِكَلَامِكَ نِيَاطَ قَلْبِيْ، وَلَكِنِّي

أَعْطَيْتُ مَوَالِيَكَ عَهْدًا أَنْ أُقَيِّدَكَ إلى مِصْرَ. فَلَمَّا رَأَى يُوْسُفُ الرِّحَالَ يُشَدُّ عَلَى الجِمَالَ لِلسَّيْرِ بَكَى بُكَاءً شَدِيْدًا، وأنشد:

أَجَابَ رَحِيْلِيْ دَاعِيَ البَيْنِ إِذْ دَعَا وَنَادَى غُرَابُ البَيْنِ جَهْرًا فَاسْمَعَا
وَفَارَقَنِي بِالأَمْسِ مَن كان مُؤْنِسِيْ وَبَدَّدَ شَمْلًا بَعدَ مَا قَدْ تَجَمَّعَا
وَأَصْعَبُ مَا يَلْقَى الفَتَى فِي زَمَانِهِ فِرَاقُ بِلادٍ كَانَ فِيهَا تَرَعْرَعَا
أَلاَ قَاتَلَ الله الفِرَاقَ لأَنَّهُ كَوَى بِعَلِيْلِ الشَّوْقِ قَلْبِيْ فَأَوْجَعَا
كَأَنَّا خُلِقْنَا لِلنَّوَى وَكَأَنَّمَا حَرَامٌ عَلَى الأَيَّامِ أنْ يَتَجَمَّعَا

فقال التَّاجِرُ: مَنِ البَاكِي عِنْدَ رَحِيْلِنَا؟ فقالَ له يُوسُفُ: إن لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قالَ: وما هِيَ؟ قال: أَنْ تَأْذَنَ لي حَتَّى آتِيَ الَّذِينَ بَاعُوني مِنْكَ فَأُوَدِّعَهُم. فَدَعَا التَّاجِرُ بِأَسْودَ لهُ قد وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ، فَقَالَ له: اذهَبْ بِهِ لِيُوَدِّعَ مَواليَهُ، فَمَا رَأَيْتُ قَومًا أَجْفَى بِعَبْدٍ مِنهُمْ لَكَ بَاعُوْكَ بِأَبْخَسِ ثَمَنٍ، وَزَعَمُوا أَنَّك لِصٌّ آبِق، وما رَأَيْتُ عَبْدًا أَبَرَّ بمواليْهِ منك بهم.

فَتَقَدَّمَ يُوسُفُ يَجُرُّ سِلْسِلَتَهُ، وكَانُوا في اللَّيالي يَحْرسُونَ السِّباعَ عَنِ الغَنَم فكانَتْ تلكَ اللَّيلةُ لَيْلَةَ يَهُوْذَا، فَلَمَّا سَمِعَ صَلْصَلَةَ الحَدِيْدِ تَقَدَّمَ إليهِ، فإذَا هُوَ يُوسُف يَقُودُه الأسْوَدُ في السِّلْسِلَةِ، فَانْكَبَّ عليهِ يَبْكِي ويقولُ: عَزَّ عَلَيَّ يعقُوبَ مَسِيْرُكَ، فَلِمَاذَا قَدِمْتَ؟ قالَ: جِئْتُ لأُوَدِّعَكُم، فَصَاحَ يَهُوذَا بِهِمْ قُومُوا إِلَى مَن أَتَاكُم مُقَيَّدًا مُغَلْغَلًا مُسَلْسَلًا مُكَبَّلًا يُرِيدُ أن يودعكم ويُسَلِّم عليكُم سلامَ مَن لا يَرْجُو لِقاكُم أَبَدًا.

فَجَعَلَ يوسفُ يَنكَبُّ على كُلِّ وَاحِدٍ منهُم ويُعانِقُه بصَدْرِهِ ويَقُولُ: حَفِظَكُم الله، وَإِنْ ضَيَّعْتُمُونِي لاَ أَخْذَلَكُم الله، وإن لم تَرحَمُونِي شَرْبَةَ حُبٍّ شَرِبْتُ في صِغَرِي فَسُكْري اليومَ مِن بَقَايَاهَا، قَالَ: فَأَلْقَتْ حَوامِلُ الأَغْنَام ما في بُطُونِهَا دَمًا عَبِيْطًا لِشِدَّةِ هذَا التَّودِيعِ، ثم حَمَلَهُ الأَسْوَدُ عَلَى قَتْبِ بَعِيْرٍ فَسَارَ بِهِ حَتَّى أَلْحَقَهُ بِالقَافِلَةِ. شعر:

ولَمَّا تَدَانَوْا لِلرَّحِيلِ وَقُرِّبَتْ كِرَامُ المَطَايَا وَالرِّكَابُ تَسِيْرُ
وَضَعْتُ على قلبي يَدَيَّ مُبَادِرًا فقالُوا مُحِبٌّ لِلْعِنَاقِ يُشِيْرُ

فقلتُ: وما يُغنِي العِناقُ وإنَّما تَداركْتُ قَلبِي حينَ كادَ يَطِيْرُ

قال: فلمَّا وَصلتِ القَافِلةُ مَقْبَرَةَ أَهْلِ كَنْعانَ، وأَشْرَفَ يُوسُفُ من البعير عَلَى قَبْرِ أُمِّهِ حَنَّ إليهَا. شعر:

عَرِّجُوا بِالرِّفَاقِ نحوَ الرَّكْبِ وَقِفُوا ساعةً لأَنْشِدَ قَلْبِي

فلم يَتَمالَكْ أن رَمَى بنَفْسِهِ وجَعَل يَحْبُو إلى القَبْرِ فَجَعَلَ يَعْتَنِقُهُ ويَضْطَرِبُ ويَقُولُ: يَا أُمَّاهُ ارفَعِي رَأْسَكِ مِنَ الثَّرَى تَرَيْ وَلَدَكِ مُكَبَّلًا مَغْلُولاً مُسَلسَلًا، يَا أُمَّاهُ: إِخْوَتِيْ لَمْ يَرْحَمُونِي، وفي الجُبِّ طَرَحُونِي، وَبَيْعِ العَبِيْدِ بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ بَاعُونِي، فَلَوْ رَأَيْتنِي بِمَا أَنَا فيهِ لَرَحِمْتنِي، فَرَّقُوا بَينِي وبَين وَالدِي في حَيَاتِي قَبْلَ مَمَاتِيْ. فَلَمَّا فَقَدَهُ الأَسْودُ عَنِ البعِيرِ جعَلَ يَقْفُو أَثَرَهُ فَإِذَا هُو بِهِ. فقالَ لَهُ: صَدَقَ مَوَالِيْكَ بأَنَّكَ لِصٌّ آبِقٌ، ثُمَّ لَطَمَهُ لَطْمَةً خرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، وجَعَلَ يَرْكُضُه بِرِجْلِهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ رَفَعَ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ مَمْلُوءَتَيْنِ دَمْعًا. فقال: اللَّهُمَّ إن كانَ لي خَطِيْئَةٌ أَخْلَقَتْ وَجْهِي عِندَكَ وَأَنْزَلْتَنِي هذِهِ المَنزِلَةَ فَأَسْأَلُكَ بحَقِّ آبَائِيَ البَرَرَةِ إبراهِيْمَ وإسحٰقَ ويعقوبَ أن تَعْفُوَ عَنِّي.

قال الله عَزَّ وجَلَّ: يا جَبرئيلُ أَدْرِكْ عَبْدِي فنادَى جَبرئيلُ مِنَ الهَواءِ السَّلامُ عليكَ يَا يُوسُفُ. فقالَ: وعَلَيْكَ السَّلامُ يَا جَبرئيلُ. فَقَالَ: غُضَّ صَوْتَكَ فَقَد أَبْكَيْتَ مَلائِكَةَ السَّماءِ، أَتُحِبُّ أن أَقْلِبَ الأرضَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا؟ فَقَالَ يُوسُفُ: تَثَبَّتْ يَا جَبرئيلُ فَإِنَّ رَبِّي حَلِيمٌ لا يَعْجَلُ. فَضَرَبَ جَبرئيلُ بِجَناحِهِ الأَرْضَ فجَعَلَ يَضْرِبُ بَعْضَها بَعْضًا فَهَبَّتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ فَأَظْلَمَتِ الأَرضُ، فقال رَئِيسُ القَافِلَةِ: مَن أَتَى مِنكُم بذنبٍ عظيمٍ فَلْيَتُبْ إلى الله عَزَّ وجَلَّ، فما رَأَيْتُ بهذا الطَّريق كَاليَومِ.

فَتَقَدَّمَ إليه الأَسْودُ فقالَ: إنَّ غلامَكَ العِبْرانِيَّ أَبَقَ فَلَطَمْتُه، فَرَفَعَ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ وقال بِلِسَانِهِ شيئًا لَم أَفْهَمْهُ، ولا شَكَّ إلاَّ أَنَّه دَعَا عَلَيْنَا. فَدَعَا بِهِ التَّاجِرُ فقال لَهُ: إنْ أَرَدْتَ أن تَقْتَصَّ فَنَحْنُ بين يَدَيْكَ فَاقْتَصَّ مِمَّنْ شِئْتَ. فقالَ يوسفُ: مَا أنا مِن أَهْل بَيْتٍ يَقْتَصُّونَ، قَد عَفَوْتُ عَنكُم رَجَاءَ أَنْ يَعفُوَ الله تعالَى عَنِّي.

فَسَكَنَتِ الرِّيحُ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ، فلمَّا سَارُوا جَعَلَ يُوسُفُ يَزُورُ التَّاجِرَ في كلِّ يومٍ بالغدَاةِ والعَشِيِّ يُسَلِّم عليه إلى أن تَأَخَّرَ عنهُ ثلاثَةَ أَيَّامٍ فَدَعَا بالأَسْوَدِ

وقال: مَا بَالُ العِبْرَانِيِّ تَأَخَّرَ عَن زِيارَتِنَا؟ فقالَ: إِنَّهُ عَلِيلٌ.

فَتَقَدَّمَ التاجِرُ وقَالَ: مَا أَبْطَأَكَ عَنَّا؟ فقالَ: جَرَحَ القَيْدُ سَاقِيْ، وَالغُلُّ ثَقُلَ في عُنُقِي. فَقَالَ له: صُبْحَةَ غَدٍ تَنْتَهِي إلى مِصْرَ فَنَحُلُّ عَنْكَ وَثاقَكَ، ونَخْرُجُ من العَهْدِ الَّذِي بَيْنِي وبينَ مَوَالِيْكَ.

فَلَمَّا بَلَغُوا مِصْرَ ضَرَبَ التَّاجِرُ فُسْطاطَه عَلَى ساحِلِ النِّيْلِ وحَلَّ عنهُ قُيودَهُ، وقالَ له: أُدْخُلِ النِّيْلَ واغْتَسِلْ فإِنِّي مُزَيِّنُكَ بِزِيْنَةِ العَبِيدِ. ثُمَّ أَلْبَسَهُ الحَريرَ وَالدِّيْبَاجَ، وشاعَ خبرُ نورِهِ وَجَمَالِهِ في البَلَدِ، فَلَم يَبْقَ صَغِيرٌ ولا كَبِيْرٌ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى حَتَّى المُخَدَّرَاتِ، وَامْتَلأَتِ الطُّرُقُ وأَعَالِي الحِيْطَانِ ونُودِيَ لا حِجابَ اليومَ عَلَى المُخَدَّراتِ، ورَكِبَتْ امرأةُ العزيزِ حَتَّى وَصَلَتْ إلى مَوضِعٍ تَنْظُرُ فِيهِ يُوسُفَ، وأُجْلِسَ يوسُفُ على كُرسِيٍّ ونادَى عليه المُنادِيْ: هَذَا العَبْدُ العاقِلُ اللَّبِيْبُ الجليلُ، فبَلَغَ وَزْنُهُ وَرِقًا ووَزْنُهُ ذَهَبًا، وزادَ حتَّى بَلَغَ وَزْنُه مِسْكًا وعَنْبَرًا، وَزَادَ حتَّى بلغَ وزنُه لآلِئ وَجَوَاهِرَ. وينشد:

كَمْ أَحْمِلُ في هَوَاكَ ذُلاًّ وعَنَا … كَمْ أَصْبِرُ فِيكَ تَحتَ سَقَمٍ وَضَنا
لاَ تَطْرُدَنِي فليسَ لي عنكَ غِنَا … هذا رُوحي إذا رَضِيْتَ الثَّمَنَا

قال: فاشْتَراهُ العَزِيْزُ قِطْفيْرُ، وكانَ قَهْرَمَان المَلِكِ رَيَّان بن الوَلِيْدِ، فَذَهَبَ بِهِ العَزِيْزُ إلى مَنزِلِهِ فَرِحًا مسْرُورًا، وقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾. قِيلَ: العَجَبُ مِمَّنْ يَجْمَعُ بينَ القُطْنِ وَالنَّارِ يَتَوَقَّعُ مِن جَمْعِهِمَا انتفاعًا كَالعزيزِ جَمَعَ بَيْنَ رَجُلٍ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا وبَيْنَ امْرَأَةٍ كَذلك. ثمَّ قالَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾. ومَا مِن رَجُلٍ خَلَا بِامْرَأَةٍ إلاَّ كان الشيطان ثالثهما وتَوَلَّدَتْ بَيْنَهُما آفَةٌ ولو بِنَظْرَةٍ. ثُمَّ تَذْكُرُ بَعْضَ الفَوائِدِ في قولِهِ: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٢١]، فإِنَّ كُلَّ مَا لا يُمكِنُ فطلبُه مُحالٌ كَمَن يَطْلُبُ الحَصَادَ مِن غَيرِ زَرْعٍ تَقَدَّمَ فَذَلِكَ الطلبُ مُحالٌ. كذَلِكَ العَزِيزُ طَلَبُه الوَلَدَ مُحالٌ مِنْ غيرِ مُباشَرَةٍ وقَد صَدقَ مَنْ قالَ: مَن لا تَشْتَرِيْهِ لا يكُون لكَ عَبْدًا،

ومَن لَمْ تَلِدْهُ لا يكونُ لَكَ وَلدًا، ووَجهُ الإشارَةِ مَنْ طلبَ الجنَّةَ من غيرِ مُباشَرةِ الأَمْرِ ومُجَانَبَةِ الهَوَى مُحالٌ. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٢].

رجعنا إلى القصة، قال وَهَبٌ: مَكَثَ يُوسُفُ في دَارِ العَزِيْزِ ثلاث سِنِيْنَ وبَلَغَ الحُلمَ، فلما فَاحَ مِن عَرَقِ نَسِيْمِه لزُلَيْخَا ما فَاحَ، أَعْلَنَ بُلْبُلُ بَلْبَالِ وَجْدِهَا بِالافْتِضَاحِ بَرَّحَتْ بالوَجْدِ، إذْ لَم تَجِدْ منهُ الخَلَاصَ من أوثقَ طائِرِ سِرِّي في هذِه الأَقْفاصِ، مَن نَصَبَ هَذا الشَّرَكَ لاِقْتِنَاصِ قَلْبي مَن فَوَّقَ هَذَا السَّهْمَ لاِخْتِلاسِ لُبِّيْ قُلْ لِي فُدِيْتُكَ مَن طَرَّزَ حُلَّةَ جَمالِكَ مَن رَسَمَ نُونَ حَاجِبَيْكَ، مَن كَحَّلَ حَدَقَتَيْكَ بِإِثْمِ بَابِلَ، مَن أَوْجَدَ هذِهِ النِّهَايَةَ العِبْرانِيَّةَ إِلى كَم يَا عِبْرَانِي تَصُدُّ وَأُعَانِي طول العتاب أعياني، وما غيرك عنائي. شعر:

صُنْ ذَا الجَمالِ فَما القُلوبُ جَمَادٌ ... وَعِدِ الجَمِيْلَ فَلِلأَنَام مَعَادُ
وَاحْجبْ جَمالَكَ إنَّ وَجْهَكَ سَافِرٌ ... شَرَكٌ بِهِ حبُّ القُلُوبِ تُصَادُ
أَمُجَرَّدٌ الغَضْبَ الصَّقِيلَ بلَحْظةٍ ... مهلًا فكُلُّ جِوارِحِي أَغْمَادُ
ولقد حَلَلْتَ مِنَ الجمالِ بِمَنْزِلٍ ... لَو رَامَهُ قَمرٌ لَكَادَ يَكَادُ
وحَويْتَ ما لم تَحْوِ بَعْضَ جَمالِهِ ... هِنْدٌ ولا سَعِدَتْ بِذَاكَ سُعادُ
حَتَّى تُشَاهِدَ بالجمالِ لَكَ الوَرَى ... وَالفَضْلِ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَشْهَادُ
كَمْ سَافَرَتْ عَيْنِي إليْكَ فَعَاقَهَا ... ظَمَأٌ عَلَى أَنَّ المدامِعَ زَادُ

فلمَّا شَغَفَ حُبُّهُ قَلْبَ سَيِّدَتِهِ وقَرأَ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٢٣] فَامْتَنَعَ، قالَت لَه: يَا حَبِيْبِي يَا يُوسف، هَذَا رَيَّانُ بْنُ الوَلِيدِ ابْنُ عَمِّي لم يَتِمَّ لَهُ مُلْكُ مِصْرَ حَيثُ لم أَكُنْ عِندَهُ وأَنْتَ تَفِرُّ مِنِّي. فَلَمَّا رَأى يُوسُفُ غَرَامَها بَكَى بُكَاءً شَدِيْدًا، فَجَلَسَتْ إلى جَانِبِهِ وقالَتْ: يَا حبِيْبِي يَا يُوسُفُ، إنَّ الحبِيبَ إذا نَظَرَ إلى حَبِيبِهِ رَحِمَهُ، مَا أَقْسَى قَلبَكَ وَأَرَقَّ قَلْبِي عَلَيْكَ، وأَقْبَلَتْ تَمْسَحُ دُموعَهُ بِكُمِّهَا وتقولُ: آهٍ آهٍ حَتَّى مَتَى وإلى مَتَى أُكَابِدُ الْبَيْنَ يَا غُرَّةَ جَمالِ الثَّقلَيْنِ؟ قُل يَا حَبِيْبِي لِشَقَايَ كَمُلَ هِلالُكَ أَمْ لِعَنايَ هَيْتَ لك. شعر:

شَرِبْتُ الحُبَّ كَأْسًا بعد كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلا دَوِيْتُ

قالَ عَزَّ مِن قَائِلٍ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٣]، نَادَى الصِّدِّيْقُ، يَا زَلِيخَا كُفِّي عَنْ مَجارِي السَّحبِ والبُحْر والاخْتِلَاقِ تِلْكَ فِطْرَةُ الملِكِ الخَلَّاقِ، ولَو أَبْصرتِ مُنِيْرَةَ الحَدَقَتَيْنِ في التُّرابِ بَعدَ يَوْمَيْنِ لَبَادَرْتِ إلى الفِرارِ ولَم تَستَطِيْعِي القَرارَ، اتْرُكِي طَلَبَ المواصَلةِ والعِنَاقِ في دارٍ رَسْمُها الفِرَاقُ ولسَانُ حالِهَا يُنْشِدُ:

مِنْ قَبْلكَ مَا رأيتُ مَنْ يُعْجِبُنِي ... في الخَلْقِ ولا سَمِعْتُ مَنْ يُطْرِبُنِي
يَا مَن بجمَالٍ وَجْهِهِ يَقْتُلُنِي ... مَا أَشْوَقَنِي إليكَ مَا أَشْوَقَنِيْ

قَالَ: لَم تَزَلْ تُدِيْرُ عليهِ دَوَائِرَ الافْتِنَانِ حتَّى سارَ على أقْدامِ الطَّبْعِ لا على أقدامِ الطَّمَعِ في فَلَاتِ غَفَلَاتِ ﴿هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

ذكر المهم والبرهان، فأَهْلُ المعانِي في هذِهِ الكلمةِ عَلَى طَبقَتَيْنِ؛ طَبَقَةٌ ذهَبَتْ إلى تَنْزِيْهِ يوسفَ عَنِ الهِمَّةِ، وطَبقَةٌ جَرَتْ على وجودِ الهِمَّةِ. وأَمَّا ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فقَدْ أَثْبَتَ الهِمَّةَ، وكذَلِكَ الكَلْبِيُّ فحينئذٍ تَبَدَّى لَه في قِراءَةِ عَيْنِ العَيَانِ صُوْرَةُ يعقوبَ عَاضًّا على البَنَانِ قائلًا: يُوسُفُ أَيْنَ مَلَابِسُ الأَبْرَارِ، بُنَيَّ أُشْدُدْ مِئْزَرَ الإِيمَانِ، إِيَّاكَ وَالعِصْيَانَ فَأَنْفَدَ قُوَى القَرَارِ ومَا اسْتَبْقَا فَاسْتَبَقَا فَانْبَسطتْ يَدُ العُدوانِ وَامتَدَّتْ فقدت. شعر:

سَقَانِي شَرْبَةً أَحْيَا فُؤادِيْ ... فَلا أَسْلُو إلَى يَوْمِ التَّنَادِ

وكان قَدُّ القميصِ لاِسْتِبَانَةِ التَّخْصِيْصِ جَدَّتْ في السَّيْرِ على مَحَجَّةِ الارْتِيَابِ ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾، نطقَتْ بمقالٍ غَيْرِ سَليم ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: الآية ٢٥]. وقَعَتِ المعارَضةُ لاحَتِ المناقَضَةُ، نَطَقَ دُرَّةُ المَهْدِ بالإعْلامِ بِبَراءِ الصِّدِّيقِ من الآثَام، قصدَ نِسوَةٌ مِنَ المدينَةِ عَرِيْنَ مِنَ الوَقارِ والسَّكِيْنَةِ ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ [يوسف: الآية ٣١] صِرْنَ شبْه السَّكَارَى أو الحَيَارَى، جَرَى حُبُّهُ مَجْرَى دَمِي في مَفاصِلِ فأَصْبَحَ لي عَن كُلِّ شُغْلٍ بِهِ شُغْلٌ، فلما نَظَرَتْ زَليخا إلى تَحَيُّرِهِنَّ قالت لَهُنَّ: بِحَقِّي عَلَيْكُنَّ إلاَّ أَعْطَيْتُنَّهُ بِمَا في أيدِيكُنَّ كرامَةً لهُ، فَجعَلْنَ يُقَطِّعْنَ أَيدِيَهُنَّ قَطْعًا وهُنَّ يَحْسَبْنَ أَنَّهُنَّ يُقَطِّعْنَ مَا في أَيْدِيهِنَّ حَتَّى امْتَلأَتْ حُجورُهُنَّ دَمًا.

ومَا رَوَى ابنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُنَّ حِضْنَ لَمَّا رَأَيْنَ يُوسُفَ من الدَّهْشِ وَالتَّحَيُّرِ وغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ حَتَّى لَم يَجِدْنَ مَسَّ السَّكَاكِيْنِ. ويُوسُفُ يَقولُ لهُنَّ: وَيحَكُنَّ مَاذَا تَصْنَعْنَ بِأَيْدِيْكُنَّ؟ أنا عَبْدٌ مِنْ عَبِيْدِ رَبِّيْ، وجَعَلَتْ زَليخَا تَضْحَكُ وتَعْجَبُ مِمَّا نَزَلَ بهِنَّ من ذَهابِ عُقُولِهِنَّ، فلَمَّا غابَ عَن أَعْيُنِهِنَّ قالتْ لَهُنَّ: أَنْتُنَّ في لَحْظَةٍ واحِدةٍ بَلَغَ مِن أَنْفُسِكُنَّ إلى مَا أَرى فَلِمَ تَلُمْنَنِيْ وأنا مَعَه منذُ سبعِ سِنِينَ؟

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٣١]، ثُمَّ جَدَّدْنَ في مُرَاوَدَته يَبسِطْنَ بِساطَ مُوَافَقَتِهِ وقُلْنَ لزليخَا: نَحْنُ نُوبِّخُهُ ونَحُثُّهُ على طاعَتِكِ. ثم قُلنَ جميعًا: يَا يوسفُ، مَا مَنَعَكَ أن تُطِيْعَ سَيِّدَتَكَ؟ وجَعَلَتْ كُل وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَخْلُو بِهِ تَرَى أَنَّهَا تُوَبِّخُهُ فَإِذَا خَلَتْ بِهِ دَعَتْهُ إِلى نفسِهَا. فقال يوسفُ: يا رَبِّ كَانَتْ وَاحدةً فَصِرْنَ جَماعَةً، يَا مُقَدِّرَ الأَيْنِ أَجِرْنِي مِنَ الحَيْنِ. وينشد:

قَلْبِيْ وَلَهَ وَجَفْنُ عَيْنِي دَامِيْ ... قَدْ حِرْتُ فَمَا أَبْصُرُ مَا قُدَّامِي
يا عاذِلُ كَمْ هَمَمْتَ بِالإِقْدَامي ... إنْ أَهْجُركَمْ فلا مَشَتْ أَقْدَامِيْ

ثم أَخذَتْ زَليخَا تَرْمِيْ يَمِيْنٌ مُضَمَراتِ الإِصْرَارِ يَمِيْنِ يَمِيْنْ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف: الآية ٣٢]، فَاخْتَارَ دُرَّةُ فَهْمِهِ صَدَفَةَ الحَبْسِ لِجَهْلِ النَّاقِدِ ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: الآية ٣٣]. قَالَ: أُدْخِلَ يُوْسُفُ السِّجْنَ يومَ الخَمِيْسِ فَبَكَى حتَّى قَال له مَن في السِّجْنِ: حَرَّمْتَنَا النَّومَ. فقالَ لَهُ السَّجَّانُ: افْعَلْ مَا شِئْتَ فَإِنِّي أُحِبُّكَ.

فَقَال له يُوسُفُ: لا تُحِبَّنِيْ فَإِنِّيْ اسْتُطْرِدْتُ بِحُبِّ بَنِي آدَمَ. أَحَبَّنِيْ أَبِيْ يعقوبُ فَلَقِيْتُ مِن إِخْوَتِيْ ما لَقِيْت، وَأَحَبَّتْنِي زَلِيخَا فصِرْتُ إِلى السِّجْنِ، فَإِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَنِي فأَخافُ أن أَلْقَى مِن حُبِّكَ بَلَاءً. قالَ: ولمَّا غَابَ عَنْ عَيْنِ زَليخَا اشْتَدَّ وَجْدُهَا وعَظُمَ حُزْنُهَا. شعر:

إذا كُنتَ قُوْتَ النَّفْسِ ثُمَّ هَجَرْتَهَا ... فَلَمْ تَلْبَثِ النَّفْسُ الَّتِيْ أَنْتَ قُوْتُهَا

قَال: كانَتْ إِذَا جَنَّ اللَّيلُ تَصْعَدُ على قَصْرِهَا وَتَطَّلِعُ عَلَى السِّجْنِ فَتَبْكِي

وتَقُولُ: يَا حَبِيْبِي يا يوسَفُ، أَنائِمٌ أَنْتَ أَمْ يَقْظَانُ؟ أَجَائِعٌ أَنْتَ أَم شَبْعَانُ، لَيْتَنِي لَم أَكُنْ أَمَرْتُ المَلِكَ بِحَبْسِكَ، وَتَبْكِي لَيْلَتَهَا حتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ، ثُمَّ تَعُوْدُ إلى مَكانِهَا، دَامَتْ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ سِنِيْنَ. شعر:

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ حِذْرِي ... وَأَقْنَعُ مِنْكَ بِالنَّظَرِيْ
وكَانَ هَوَاكَ لِي قَدَرًا ... فَأَيْنَ أَفِرُّ مِنْ قَدَرِيْ
وصَادَقَنِي الهَوَى طِفْلًا ... فَشَيَّبَنِيْ عَلَى صِغَرِيْ

ورُوِيَ أنَّهُ مَاتَ مِنْ تِلْكَ النِّسْوَةِ اللَّاتِيْ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ سَبْعُ نِسْوَةٍ وَجْدًا بِهِ وكَمَدًا، فَطَرَّقَتْ بِهِ طَوَارِقُ الأَحْلَامِ عَيْنَ المَنَام، فلمَّا ضَاقَ قَفَصُ الحَصْرِ عَلَى بُلْبُلِ الطَّمْعِ تَرَنَّمَ بصَوْتِ ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢]، عُوقِبَ بِنِسْيَانِ رَبِّهِ ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢].

رُوِيَ عن جَماعةٍ مِن أَهْلِ التَّفسيرِ وَالسِّيَرِ أنَّه بَقِيَ في السِّجْنِ على عَدَدِ حُرُوْفِ ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢]، لكُلِّ حَرْفٍ عَقُوبَةُ سَنَةٍ، فَلَمَّا آنَ أَوَانُ الفَرَجِ جَرَتْ أَقْلَامُ المَشِيْئَةِ بِذِكْرِ تِلْكَ القَضِيَّةِ، دَعَاهُ رَبُّهُ العَزِيْزُ، دُعَاءَ بِرٍّ وتَعْزِيْزٍ، وقَال: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٠]؟ قَالَ: سَلْهُنَّ.

فقالَ بمقالٍ سَلِيْمٍ: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٠].

أَظْهَرَتْ زَلِيخَا مَكْتُومَ السَّرَائِرِ، بَاحَتْ بِخَفِيَّاتِ الضَّمَائِرِ، قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: الآية ٥١].

اعْلَمْ أنَّ البَرِيءَ نَاجٍ والمُجْرِمُ مُفْتَضِحٌ، نَجا يُوسُفُ بِالشَّاهِدِ وَافْتَضَحَتْ زَلِيخَا، وَإِن كانَتِ المُجْرِمَةُ نَجَتْ في الوَقْتِ، وصَارَ البَرِيءُ مَأْخُوذًا فِي السِّجْنِ فَبَعْدَ المِحْنَةِ ظَهرَ شَرَفُ البَرِيْءِ وَبَرَاءَتُهُ، وَافْتَضَحَتِ المُجْرِمَةُ حَتَّى قالَتْ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٥١]. وكَذَلِكَ الكافِرُ، وَكُلُّ صَاحِبِ بَاطِلٍ نَاجٍ في نِعْمَةٍ، وَالمُؤْمِنُ في شِدَّةٍ، وَعِنْدَ خُرُوجِهِمَا من الدُّنْيَا يَظْهَر شَرَفُ المُؤمِنِ وَذُلُّ الكَافِرِ.

رجعنا إلى القصة، بَادَرَ يُوسُفُ إلى رِكَابِ الرَّيَّانِ وقالَ: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: الآية ٥٢] ـ يَعْنِيْ قِطْفِيْرَ ـ وَهُو العزِيْزُ، ثُمَّ قالَ: أَيُّهَا الملِكُ إِنَّكَ اتَّخَذْتَنِيْ وَلدًا، فكيفَ يَنْبَغِي لِلوَلَدِ أن يَتَقَدَّمَ عَلَى أَبِيْهِ؟ فقالَ له جبرئيلُ: يَا يُوسُفُ تخافُ المُشرِكِيْنَ وَأَنَا أَمِيْنُ رَبِّ العَالمين؟ أَمَا حَلَلْتَ الهِمْيَانَ؟ أَمَا أَرَدْتَ البُهْتَانَ؟ لَوْلا مَا رَأَيْتَ البُرْهَانَ وَوَلَّيْتَ غَضْبَانَ، فَاتَّبَعَهُ يُوسُفُ وهُوَ يَقُولُ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف: الآية ٥٣]. ظَهَرَتْ أعْلَامُ وِلاَيَتِهِ مِلْكَ الرِّقَابِ، اسْتَوْلَى عَلَى مَنْ حَضَرَ لِمِصْرَ وَغَابَ، هَذَا ويَعْقُوبُ مُفْتَرِشٌ فِرَاشَ الأَسَى عَلَى حَزَنِ الحُزْنِ لا يَلَذُّ نَوْمًا ولاَ سِنَةً حَتَّى نَحِلَ البَدَنُ وذَهَبَ البَصَرُ. وينشد:

لَـم يَبْقَ لِي بَعْدَكُـمْ رَسْـمٌ وَلا طَلَـلٌ ... إلاَّ وَلِـلـشَّـوْقِ فـي أَرْجـائِـهِ عَـمَـلُ
إذَا شَـمَـمْـتُ نَـسِـيْـمًـا مِـن دِيَـارِكُـم ... فَـقَـدْتُّ عَـقْـلِـي كَـأَنِّـيْ شَـارِبٌ ثَـمِـلُ
وَكَـمْ تَـعَـرَّضَ لِـيْ لِـلـوَصْـلِ غَـيْـرُكُـمُ ... يَـسْـتَـأْذِنُـوْنَ عَـلَـى قَـلْـبِـي فَـمَـا دَخَـلُـوا

قَالَ: فَلَمَّا غَمَّ غَمُّ القَحطِ أَهْلَ كَنْعَانَ خَرجَ إخْوَةُ يُوسُفَ لِطَلَبِ المِيْرَةِ، فَدَخَلُوا عليهِ في ظَلامِ ظُلْمِهِمْ فَرَآهُمُ المَظْلُومُ بِعَيْنِ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ [يُوسُف: الآية ١٥]، وَحَقَّتْ عليهِم نِقْمَةُ ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩]، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ سَائِلًا وَأَسْبَلَ الدَّمْعُ من عَيْنَيْهِ سَائِلًا، وتَقَلْقَلَ تَقَلْقُلَ الوَاجِدِ، لِيَسْمَعَ خَبَرَ الوَالِدِ. وينشد:

أَفِـي كُـلِّ يَـوْمٍ لِـيْ فِـرَاقٌ وَغُـرْبَـةٌ ... أَمَـرُّ مِـنَ الـصَّـبْـرِ الـمُـذَابِ بِـعَـلْـقَـمِ
أَلاَ يَا نَسِيْمَ الرِّيحِ إن كُنْتَ مُحْسِنًا ... إلَـيَّ فَـعَـرِّجْ بِـالـحَـبِـيْـبِ وَسَـلِّـمِ
ظَـفَـرْتُـمْ بِـنَـفْـسٍ لاَ تَـزَالُ حَـزِيْـنَـةً ... عَـلَـيْـكُـم وَقَـلْـبٍ صِـدْتُـمُـوهُ بِـأَسْـهُـمِ
جَمَعْتُم عَلَى قَلْبِيْ فِرَاقًا وَغُرْبَةً ... يَـقِـلُّ عَـلَـى هَـذَا بَـقَـاءُ الـمُـتَـيَّـمِ

قالَ: ثُمَّ سَأَلَهُم فقَالُوا: جِئْنَا مِنْ أَرْضِ كَنْعانَ وَلَنَا شَيْخٌ يقالُ لَهُ يعقُوبُ، وَهُوَ يُقرِئ عليكَ السَّلام. وينشد:

نَاشَدْتُكَ اللهَ إنْ جِئْتَ العَقِيْقَ ضُحًى ... فَاقْرَإِ السَّلَامَ عَلَيهِم غَيْرَ مُحْتَشِمِ
وَقَـد تُـرِكْـتَ صَـرِيْـعًـا فـي مَـحَـبَّـتِـكُـم ... حَيًّا كَمَيِّتٍ بِغَيْرِ السُّقْمِ لِلسَّقَمِ

فمِنْ فُؤَادِي لَهِيْبٌ نَابَ عَنْ قَبَسٍ ... وَمِنْ جُفُوْنِيْ دُمُوعٌ فَاضَ كَالدِّيَمِ
آهًا لأَيَّامِنَا بِالخَيْفِ لَو بَقِيَتْ عَشْرًا ... وَوَاهًا علَيهَا حينَ لَم تَدمِ
وَلائِمٌ لاَمَنِيْ فِي حُبِّكُمْ سَفَهًا ... كُفَّ المَلامَةَ لَوْ أَحْبَبْتَ لَم تَلُمِ

قَالَ: فلمَّا سَمِعَ يُوسُفُ رِسالَةَ أَبِيْه إليهِ انْتَفَضَ طَائِرُ الوَجْدِ لِذِكْرِ الحَبِيْبِ فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الفُؤادِ وَمَا يَدْرِي، فَرَدَّ السَّلامَ قَلْبُهُ قَبْلَ لِسَانِهِ، وشَغَلَهُ كَفُّ شَأْنِهِ عَن شَأنِهِ، فَقَالَ مَقُوْلَ إبدائِهِ بِعِبَارَةِ صُعَدَائِهِ. وينشد:

إن كُنتَ ذَلَلْتَ بَعْدَ عِزٍّ فاخِرٍ ... وَاسْتَغْرقَكَ الهَوَى بِبَحْرٍ زَاخِرٍ
فَاصْبِرْ فَالصَّبْرُ نِعْمَ ذُخْرُ الذَّاخِرِ ... لا بُدَّ لِكُلٍّ أَوَّلٍ مِنْ آخِرِ

ثُمَّ قَالَ لَهُم: فـ ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ [يوسف: الآية ٥٩]، فَاحْتَالُوا بِحُجَّةِ ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٣]، فقالَ يعْقُوبُ: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٤]، ثُمَّ حَمَلَه احتيَاجُه إلى الطَّعامِ على شَرْطِ أَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ، فلمَّا دَخلُوا على يُوسفَ قَدَّمُوْا ابْنَ يَامِيْنَ لِيعلَمَ المَلِكُ أنَّهم قَد جاؤُوْا بِالأخِ وَهُم علَى إثْرِهِ. فقالَ لَهُم: هَلْ آتَيتُمُونِي بأخٍ لكُم مِن أَبِيْكُم؟ فقالوا: يَا أَيُّهَا العَزِيزُ قَد أَطعْنَاكَ وَاجْتَهَدْنَا وَجِئْنَاك بِهِ، ومَعَنَا كِتَابٌ مِن أَبِيْنَا في شَأْنِهِ، فلمَّا قَرَأَهُ فَاضَتْ عَينَاهُ بِالبُكَاءِ لَمَّا سَمِعَ في الكتابِ مِنْ حَالِ أَبِيْهِ.

وكانَ يَعقُوبُ قَد قالَ لابْنِهِ رُوبِيلَ: اكْتُبْ كِتَابًا إلى مَلِكِ مِصْرَ، وكَتَبَ مِن يَعقُوْبَ إسرائيل الله ابْنِ إسحَاقَ ذَبِيْحِ الله ابنِ إبراهيمَ خَلِيْلِ الله.

أمَّا بَعْدُ، فإنَّكَ سَأَلْتَنِي عَلَى لِسَانِ أَولادِي عَنْ حُزْنِي وشَيْبِي ووَهْنِ عَظْمِيْ وانْحِنَاء ظَهْرِي وعَمْيِ بَصرِي، فاعْلَم أَنِّي أطولُ النَّاسِ حُزْنًا وأَحقُّهُمْ وَأَخْوَفُهُم مِنْ رَبِّهِ وَأَذْكَرُهُم لمَعَادِهِ.

وأَمَّا كِبَرِيْ مات قَبْلَ أَوَانِهِ فمِنْ ذِكْرِ يَوْم القِيَامَةِ. وأَمَّا شَيْبَتِي قبلَ أَوانِ المَشِيْبِ فمِنْ ذِكْرِ النَّارِ وَشِدَّةِ عَذَابِهَا. وَأَمَّا انْحِنَاءُ ظَهْرِيْ وَوَهْنُ عَظْمِي فمِنَ الحُزْنِ عَلَى قُرَّةِ عَيْنِي يُوسُفَ.

وَأَمَّا عَمْيُ بَصَرِي فمِنْ كَثْرَةِ بُكَائِيْ عَلَيْهِ، وَكانَ قُرَّةَ عَيْنِي وثَمرَةَ فُؤَادِيْ

ونُورَ بَصَرِيْ، ولا أَدْرِي أَفِي البَرِّ هُوَ أَمْ في البَحْرِ، وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مُوَكَّلٌ بِنَا البَلاءُ وشَرَفُنَا بِذلِكَ، ولاَ تَصْفُو لنَا الدُّنْيَا ولا نَزالُ فيهَا مُمْتَحَنِينَ. وقد بَلَغَنِي اهْتِمَامُكَ بِأَمْرِي حَتَّى سَأَلْتَ عَنِّيْ وعَنْ حَالِي جَزَاكَ الله خَيْرًا، وكَفَى بِالله جَازِيًا.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لا تُكْرِمُنِي بِكَرَامةٍ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ تَعْجِيلِ سَرَاحِ أَوْلاَدِي فَتَصِلُ بهم وَحْدَتِيْ وتُؤْنِسُ بِهِمْ وَحْشَتِيْ والله المُسْتَعَانُ. وهذَا الابْنُ الَّذِي سَأَلْتَنِيْ فيهِ كان يُسَكِّنُ وَحْشَتِيْ وَأَتَسَلَّى بِهِ فَسَلَّمْتُه لكَ بالأَمَانَةِ حَتَّى تَرُدَّهُ سَالِمًا، وَالسَّلامُ عليكَ ورَحْمَةُ الله وبَرَكَاتُه.

يَقُولُونَ لِي صَبْرًا وَقَدْ نَفِدَ الصَّبْرُ ... وَبَيْنَ الحَشَا جَمْرٌ يَذُوْبُ لَهُ الجَمْرُ
أُفَارِقُ نَفْسِي بَعْدَ إِلْفِي وَمُونِسِيْ ... ومَن كَانَ يَحْوِيهِ الأَضَالِعُ وَالصَّدْرُ
فليسَ أُبَالي بَعْدَهُ أَيَّ مَوْتَةٍ أَمُوتُ ... ومَا لِي في البَقَاءِ بَعْدَهُ عُذْرُ
سَعَى بَيْنَنَا دَهْرٌ فَفَرَّقَ شَمْلَنَا ... وَأَيُّ نَعِيمٍ لاَ يُكَدِّرُهُ الدَّهْرُ

قال: ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ أَمر بضِيَافَةٍ حَسَنَةٍ، وَأَمَرَهُم أَنْ يَأْكُلُوا تَوْأَمَيْنِ كُلُّ اثْنَيْنِ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ عَلَى مَائدَةٍ، فبَقِيَ ابْنُ يَامِيْنَ وَحِيْدًا فَبَكَى، وقال: لو كانَ أَخِي حَيًّا لأَجْلَسَنِي مَعَهُ.

فقالَ له يُوسُفُ: مَا لَكَ تَأَخَّرْتَ عَنِ الطَّعامِ كَالحَزِيْنِ تَبْكِي؟ قالَ لَهُ: كَيْفَ لا أَبْكِي وقَد تَذَكَّرتُ أَخًا لِيْ لا نَدْرِيْ أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟ ثُمَّ صُعِقَ وَخَرَّ مَغْشِيًّا عليه، ووقعَتِ الصَّيْحَةُ في مَنْزِلِ يُوسُفَ، أَن قَدْ مَاتَ مِن العِبْرَانِيِّينَ رَجُلٌ، فَنَزَلَ يُوسُفُ مِن سَرِيرِهِ وَضَمَّه إليه وقالَ له: هَل تُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا أَخُوكَ؟ قالَ: أَيُّها المَلِكُ، ومَن يَجِدُ أَخًا مِثْلَكَ، ولَكِنْ لَم يَلِدْكَ يَعْقُوبُ ولا رَاحِيلُ، فَبَكَى يُوسُفُ وجَعَلَ يُؤاكِلُه وَإِخْوَتُه يقُولُون: أَمَا تَرَوْنَ ما بَلَغَ ابنُ يَامِينَ؟ فإِنَّه إِذَا رَجَعَ إِلى كَنْعَانَ يَفْتَخِرُ علينَا. ثُمَّ قالَ يُوسُفُ: يَا فَتَى أَلَكَ زَوْجَةٌ؟ قالَ: نعم. قالَ: أَلَكَ وَلَدٌ؟ قال: ثلاثَةٌ. قَالَ: فَمَا سَمَّيْتَ الأَكْبَرَ؟ قالَ: سَمَّيْتُهُ ذِئْبًا. قال: ولِمَ سَمَّيْتَهُ ذِئْبًا؟ قالَ: لأَنَّ إِخْوَتِيْ زَعَمُوا أَنَّ أَخِي يُوسُفَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَأَنَا أُحِبُّ أَن أَذْكُرَ ذلِكَ. قالَ: فَمَا سَمَّيْتَ الثانِي؟ قالَ: سَمَّيْتُهُ دَمًا. قَالَ: ولِمَ سَمَّيْتَ دَمًا؟ قالَ: لأَنَّ إِخْوَتِي

جَاؤوْا على قَمِيصِ أَخِيْ يُوسُفَ بِدَمٍ كَذِبٍ، فَأَنَا أُحِبُّ أن أذكُر الدَّمَ الَّذِي على قَمِيصِ أَخِي يوسفَ. قال: فما سَمَّيْتَ الثَّالِثَ؟ قالَ: سَمَّيتُهُ يُوسُفَ لِئَلَّا يَخْرُجَ مِنَّا اسْمُه ويَنْدَرِسَ. قال: فتَحَرَّكَ دَمُ يُوسُفَ وَاهْتَزَّ قَلْبُه حَتَّى كَادَ يَصِيْحُ ويُفْشِي السِّرَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا فَتَى تَخْلُو معِي في البيتِ؟ فَتَخَلَّى بِهِ وأَرْخَى السِّتْرَ وَكَشَفَ القِنَاعَ وبَكَى.

فلما اعْتَنَقَا ضَجَّتِ الملائِكَةُ بِالبُكَاءِ في السَّماءِ، وخَرَّ ابْنُ يَامِيْنَ مَغْشِيًّا عليهِ مِنَ الفَرَحِ. وقالَ يُوسُفُ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٩]. ثُمَّ احْتَالَ عَلَيْهِ بِحِيْلَةٍ جَعَلَ السِّقَايَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ وقتُ التُّهْمَةِ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٠]، فعَادُوا إلى أَبِيْهِمْ بِشَجَنٍ عَلَى شَجَنٍ وَقَرْحٍ على جُرْحٍ، فتَقَوَّسَ قوامُ عَسَى على بابِ عَشَيْ ثم بَعَثَهُ لُطْفُ ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣] عَلَى أَنْ بَعَثَهُم برسَالةِ ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧].

فلَمَّا رَجَعُوا دَخَلُوا في قَفْرِ الفَقْرِ، فاسْتَلْقَوا في ساحةِ الضُّرِّ يُنادُونَ على غَلِيْلِ عَلِيْلِ الذُّلِّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: الآية ٨٨]، يا لهَا ساعةٌ لا يُشبِهُهَا سَاعَةٌ يَنْدَمُ فيها أَهْلُ التُّقَى. فَكَيْفَ أَهْلُ الإِضَاعةِ ﴿تَٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٣] لَقَدْ جُوزِيَتْ أَيْدٍ مَدَّهَا تَعَسُّرُ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٠] أَنْ مُدَّتْ في طرِيْقِ ذُلٍّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٨].

فلَمَّا عَرَفُوا اعْتَرَفُوا فَمَحَى مَا اقْتَرَفُوا بِكَفِّ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢] ورَفَعَ مِنْ مَوَائِدِ تلكَ الفَوائِدِ نَصِيْبَ الوَالِدِ ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ [يُوسُف: الآية ٩٣]، فَهَبَّ نَسِيْمُ الفَرَحِ، فَخَرَّ ركام الزكام، فتَوَغَّلَ في خَيَاشِيْمِ مَرِيضٍ كَالفَرْخِ مِنْ رَوْحِ الفَرْحِ، فَخَرَّ رُكَامُ الزُّكَامِ عَلَى مِنْخَرِ الضُّرِّ، وانْقَشَعَ غَيْمُ الغَمِّ عَنْ جَوِّ القَلْبِ، فنادَى مُذْنِفُ الوَجْدِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٤].

حَمَلَ النَّسِيمُ مِنَ الحَبِيْبِ رَوَائِحًا ... أَحْيَتْ فُؤَادَ الهَائِمِ المُشْتَاقِ
جَاءَتْ بتَوْقِيعِ الأَمَانِ لِقَلْبِهِ ... أن لاَ يَرَى مُتَفَجِّعًا بِفِرَاقِ

إخواني، مَا صَلُحَ لبَصَرِ يعقُوبَ أَنْ يَقَعَ إلاَّ عَلَى يُوسُفَ، فلما فَقَدَ التَّطَوُّرُ

ذَهَبَ النَّاظِرُ عليهِ فلَمَّا عادَ عَادَ. ينشد:

قَسَمًا بِسَابِقَةِ الوِصَالِ فإِنَّهُ قَسَمٌ ... يَحِقُّ لِطِيْبِهِ أنْ يُذْكَرَا
إنَّ الغَرَامَ كَمَا عَهِدْتَ وَإنَّمَا ... كَانَ الغَرامُ عَلَى التَّباعُدِ أَكْثَرَا
مَا زِلْتُ أَحْفَظُ عَهْدَكُمْ حَتَّى ... وَهَى عَظْمِيْ وصَيَّرَنِيَ الغَرامُ كَما تَرَى

فلمَّا كشفَ يَعْقُوبُ فِدَامَ الوَجْدِ بِكَفِّ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يوسف: الآية ٩٤] أَحْدَقَتْ بِهِ يد عَواذِلُ ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآية ٨٥] تَاللهِ، وَلَوْ وَجَدُوا مَا وَجَدَ مَا أَنْكَرُوْا مَا عَرَفَ. وينشد:

تَحَمَّلَ أَصْحَابِيْ وَلَم يَجِدُوْا وَجْدِي ... وَلِلنَّاسِ أَشْجَانٌ وَلِي شَجَنٌ وَحْدِي
أُحِبُّكُم مَا دُمْتُ حَيًّا فَإِنْ أَمُتْ ... فَوَاكَبِدِيْ مَن ذَا يُحِبُّكُم بَعْدِي

إخواني، رِيْحُ الحَبِيْبِ لاَ يَسْتَنْشِقُهَا مَزْكُومُ غفْلَةٍ حَمَلَتْ الصَّبَا رِيْحَ قَمِيصِ يُوسُفَ، ولَم يَفْضُضْ خِتَامَهَا إلاَّ يُوسُفُ مَا وَجَدَهَا أَهْلُ مِصْرَ ولاَ غَيْرُهُم، ومَن عِنْدَهُمْ خَرَجَ، وَلاَ يَهُوذَا وَهُوَ الحَامِلُ، ولا أَهْلُ كَنْعَانَ وَإِلَيْهِمْ وَصَلَ، وَإِنَّمَا قَالَ صَاحِبُ الوَجْدِ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٤]، رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

قِيلَ: ارْتَحَلَ يَعقُوبُ في أَربعمائةٍ مِنْ أولادِهِ وأولاد أولاده، قَالَ وَهَبٌ: كَانوا تِسْعِيْنَ ذَكَرًا، وَالآخَرُونَ إنَاثًا، قال: فَلَمَّا اعْتَنَقَ يَعْقُوبُ يُوسُفَ خَرَّ مَغْشِيًّا عليهِ، فلَمَّا أَفَاقَ جَعَلَ يَلْحَسُهُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَلْحَسُ البَقَرَةُ عِجْلَها، وجَعَلَ يقولُ: أَخْبِرْنِيْ مَا فَعَل إخْوتُكَ مَعَكَ؟ قال: يَا أبَتِ نَحْمَدُ الله تَعَالَى وَنَشْكُرُهُ وَلا نَذْكُرُ مَا مَضَى. قِيلَ: وذلِكَ بَعْدَ أنْ تَلِفَ مَالُ زليخَا ومَاتَ العَزِيزُ وذَهَبَ بَصَرُهَا.

مَنْ لِي بِوَجْهِكَ كَي يَجْلُو قَذَى بَصَرِيْ ... فَإِنَّ أَوْجُهَ قَوْمٍ يُورِثُ الرَّمَدَا

فقِيلَ لَهَا: إنَّكِ لَو تَعَرَّضْتِ لِلمَلِكِ لَعَلَّهُ يَرْحَمُكِ بِشَيْءٍ. ثُمَّ قِيلَ: لاَ تَفْعَلِي؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا يَتَذَكَّرُ بِمَا كَانَتْ مِنْكِ إليهِ مِنَ المُراوَدَةِ وَالسِّجْنِ فَيُسِيءُ إِلَيْكِ.

فقالَتْ: أَنا أَعْرَفُ بِخُلْقِ حَبِيْبِيْ وَقُرَّةُ عَيْنِي وَكَرَمِهِ وَحِلْمِهِ مِنْكُمْ. فكانَتْ تَجْلِسُ عَلَى الطَّرِيْقِ وتُنَادِيْه فَلَا يَسْمَعُ، فَنَادَتْهُ يَوْمًا: يَا أَيُّهَا العَزِيْزُ، سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ العَبِيدَ بِالطَّاعَةِ مُلُوكًا، وَجَعَلَ المُلُوكَ بِالمَعْصِيَةِ عَبِيْدًا.

فَسَمِعَهَا يُوسُفُ وَبَكَى، وقالَ لِفَتَاهُ: انْطَلِقْ بِهَذِهِ العَجُوزِ إِلَى الدَّارِ وَاقْضِ لَهَا كُلَّ حَاجَةٍ. قالَ لَهَا الغُلَامُ: مَا حَاجَتُكِ يَا عَجُوزُ؟ قَالَتْ: إِنَّ حَاجَتِي مُحَرَّمَةٌ أنْ يَقْضِيَهَا غَيْرَ يُوسُفَ. فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ قالَ لَهَا: مَنْ أَنْتِ يَا عَجُوزُ؟ قَالَتْ: أَنَا زليخَا. قَالَ: مَا فَعَلَ حُسْنُكِ وجَمَالُكِ؟ قالَتْ: ذَهَبَ بِهِ الَّذِي أَذْهَبَ ذُلَّكَ ومَسْكَنَتَكَ.

فقالَ لَهَا: لَكِ عِنْدِي قَضاءُ ثَلَاثِ حَوائِجَ فَاسْأَلِي، فَوَحَقِّ شَيْبَةِ إِبْرَاهِيْمَ لأَقْضِيَنَّهَا لَكِ. فقالَتْ: حَاجَتِي الأُوْلَى: أَن تَدْعُوَ الله لي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصَرِيْ وشَبَابِيْ. فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ عَلَيهَا بَصَرَهَا وشَبَابَهَا. ثُمَّ قَالَت: أُدْعُ الله أن يَرُدَّ حُسْنِيْ كَمَا كَانَ. فَدَعَا الله فَرَدَّ عَلَيْهَا حُسْنَهَا وَزِيْدَ فِيْهِ، فصارَتْ كَأَنَّهَا بِنْتُ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، وكانَ لَهَا مائةٌ وعشرون سَنَةً. فقالت: حَاجَتِي الثالثة أن تَتَزَوَّجَني، فَتَزَوَّجَ بِهَا فَأَصَابَها بِكْرًا وأَوْلَدَهَا اثني عشر ولدًا.

قَالَ ابنُ الجُوزِيّ رَحِمَهُ الله: ذَكَرَهُ أَبُو الحَسَنِ المُنَادِي عَن وَهَبِ بنِ المُنَبِّهِ وَغَيْرِهْ. وأَقَامَ يَعقُوبُ عِنْدَ يوسُفَ أَرْبعًا وعشرِيْنَ سَنَةً في أَهْنَإِ عَيْشٍ، فلما حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ أَوْصَى إلى يُوسُفَ أَنْ يَحْمِلَهُ إلى الشَّامِ حَتَّى يَدْفِنَهُ عِنْدَ أَبِيْهِ إسحاقَ فَفَعَلَ. ثُمَّ إنَّ يُوسُفَ رَأَى أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ تَمَّ فقالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يُوسُف: الآية ١٠١]، فَأَوْصَى إِلَى يَهُوْذَا.

إخواني، تَلَمَّحُوا عُلُوَّ قَدْرِ يَعقُوبَ بِبلَائِهِ وَعِزَّ يُوسُفَ في صَبْرِهِ، وَلكِنْ حَظُّكُمْ مِن هَذِهِ القِصَّةِ تَفكُّرُ العَاصِيْ في لَذَّاتٍ فَنِيَتْ وتَبِعَاتٍ بَقِيَتْ، وَلْيَتَدَبَّرِ الصَّابِرُ لَذَّةً مُرِيْحَةً ثَبَتَتْ، ومَرَارَةً مصابِرَةً رَحلَتْ، وَللعَواقِبِ يَعْمَلُ المُتَيَقِّظُ. رَزَقَنَا الله وَإِيَّاكُم صَبْرًا يُزَيِّنُنَا، أو عِصْمَةً مِن هَوًى تُشِيْنُنَا، فإِنَّهُ إنْ فَعَلَ سَلِمَ دُنيانَا وَدِيْنُنَا إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيْبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٣] وَهُوَ البِرُّ وَالإِكْرامُ. ﴿إِمَّا

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، أي: لا تقل لهما كَلَامًا تَتَبَرَّمُ فيهِ بِهِمَا إِذَا كَبُرَا.

قالَ أبُو مَنْصُورٍ اللُّغَوِيُّ: أَصْلُ أُفٍّ نَفْخُكَ لِلشَّيْءِ فَيَسْقُطَ عَلَيْكَ مِن تُرابٍ أَوْ نَحْوِهِ وَلِلْمَكانِ تُرِيْدُ إِمَاطَةَ الأَذَى عنهُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي: لا تُكَلِّمْهُمَا ضَجِرًا وصَائِحًا في وُجُوهِهِمَا. قالَ عَطاءُ بْنُ أَبِيْ رَبَاحٍ: لاَ تَنْفُضْ يَدَيْكَ عَلَيْهِما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، أي: لَيِّنًا لَطِيفًا أَحْسَنَ مَا تَجِدْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، أي: أَلِنْ لَهُمَا جَانِبَكَ مُتَذَلِّلًا لَهُمَا.

رَوَى البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ مِن حديثِ أَنَسٍ رَضِيَ الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي الكَبَائِرِ العُقوقَ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، أي: مِثْلَ رَحْمَتِهِمَا إِيايَ في صِغَرِيْ حينَ رَبَّيَانِيْ.

السَّجع:

الوَيْلُ كُلُّ الوَيْلِ لِعَاقٍّ لِوَالِدَيْهِ، وَالخِزْيُ كُلُّ الخِزْيِ لِمَنْ مَاتَا غَضْبَانَيْنِ عليهِ أُفٍّ لَهُ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإحْسَانُ، اتَّبِعِ الآنَ تَفْرِيْطَكَ في حَقِّهِما أَنِيْنًا وزَفِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

كَمْ آثَرَاكَ بِالشَّهَوَاتِ عَلَى النَّفْسِ، ولَو غِبْتَ سَاعَةً صَارَا في حَبْسٍ، حَيَاتُهُما عِنْدَكَ بَقَايَا شَمْسٍ قَدْ رَاعَيَا لَكَ طَوْيلًا فَرَاعِهِمَا قَصِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

كَمْ لَيْلَةٍ سَهِرَا معَكَ إلى الفَجْرِ يُدَارِيَانِكَ مُدَارَاةَ العَاشِقِ في الهَجْرِ، فإِنْ مَرِضْتَ أَجْرَيَا دَمْعًا لَم يُجرْ بِالله لَم يَرْضَيَا لِتَرْبِيَتِكَ غَيْرَ الكَفِّ وَالحِجْرِ سَرِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٤].

يُعَالِجَانِ أَنْجاسَكَ وَيَخْتَارَانِ بَقَاءَكَ، وَلَوْ لَقِيْتَ مِنهُما أَذًى شَكَوْتَ شَقَاءَكَ مَا تَشْتَاقُهُمَا إِذَا غَابَا عَنْكَ وَيَشْتَاقَانِ لِقَاءَكَ. كَم جَرَّعَاكَ حُلْوًا وجَرَّعْتَهُما مُرًّا

مَرِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

أَتُحْسِنُ الإِسَاءَةَ في مُقابَلَةِ الإِحْسَانِ، أَمَا تَأْنَفُ الإِنْسَانِيَّةُ لِلإِنْسَانِ كَيْفَ تُعارِضُ حُسْنَ فَضْلِهِمَا بِقَبِيْحِ العِصْيَانِ؟ ثُمَّ تَرْفَعُ عَلَيْهِمَا صَوْتًا جَهِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

تُحِبُّ وَلَدَكَ طَبْعًا، فَأَحِبَّ وَالِدَيْكَ شَرْعًا، وَارْعَ أَصْلًا أَثْمَرَ لَكَ فَرْعًا، وَاذْكُرْ لُطفَهُمَا بِكَ وَطِيْبَ المَرْعَى أَوَّلاً وَأَخِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

تَصَدَّقْ عَنْهُمَا إن كَانَا مَيِّتَيْنِ، وَصَلِّ عَلَيْهِمَا، وَاقْضِ عَنْهُمَا الدَّيْنَ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمَا وَاسْتَدِمْ هَاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ وَمَا تُكَلَّفُ إلاَّ أَمْرًا يَسِيْرًا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٤].

اللَّهُمَّ أَيْقِظنَا مِنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ، وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأَشْرَارِ وَوَسْوَاسَ الأَفْكَارِ. اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنا مِن الدُّنيَا مَا تَعصِمُنَا بِهِ مِن فِتْنَتِهَا، وَمَا تُغْنِيْنَا بِهِ عَنْ أَهْلِهَا وَاغْفِرْ لَنا ولِوَالِدِيْنَا ولجمِيعِ المُسلمِينَ، وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا محمَّدٍ خاتِمِ النَّبِيِّينَ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا.

المَجْلِسُ الثَّالِثَ عَشَرَ
في قِصَّةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآله وسلَّم تَسْلِيمًا

الحمدُ لله الَّذِي ابْتَعَثَ بِلُطْفِهِ السَّحابَ، فَرَوَى الأَوْدِيَةَ وَالشِّعَابَ، وأَنْبتَ الخَلَائِقَ وأَخْرَجَ الأَعْنَابَ، وَأَلْبَسَ الأَرْضَ أَثْوَابًا أَحْسَنَ مِنْ أَثْوَابِ العُنَّابِ، يَبْتَلِي لِيُدْعَى، فإذَا دُعِيَ أَجَابَ.

قَضَى على آدم بِالذَّنْبِ، ثُمَّ قَضَى أَنْ تَابَ. وكانت السَّفينةُ من العُجاب. أَكْرمَ ورَفَعَ إدرِيسَ بلُطفِهِ أَكْرَمَ جَنَابٍ. وَأَرْسَلَ الطُّوفانَ وكانَتِ السَّفِينَةُ مِنَ العُجَاب. ونَجَّى الخلِيلَ مِنْ نَارٍ شَدِيْدَةِ الالْتِهَابِ. وكانَتْ سَلَامَةُ إسحاقَ عِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَابِ. وشَدَّدَ الابْتِلَاءَ عَلَى أَيُّوبَ ففَارَقَهُ الأَهْلُ وَالأَصْحَابُ. وَمَضَغَهُ البَلَاءُ إلى أنْ أَكَلَ الظُّفْرَ وَالنَّابَ، فَنَادَى مُسْتَغِيْثًا بِالمَوْلَى فجَاءَ الجَوابُ، ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [صٓ: الآية ٤٢].

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَن أَخْلَصَ وَأَنابَ، وأُصَلِّي علَى مُحَمَّدٍ أكرم نَبِيٍّ نَزَلَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الكِتَاب، وعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ مُقدَّمِ الأَصحابِ، وعَلَى الفَارُوقِ عُمَر بْنِ الخَطَّابِ، وعَلَى عُثمانَ شَهِيْدِ الدَّارِ وَقَتِيْلِ المِحْرَابِ، وعَلَى عَلِيٍّ المَهِيْبِ وَمَا سَلَّ سَيْفٌ بَعْدُ مِنْ قِرَابٍ، وعَلَى عمِّهِ العَبَّاسِ المقدَّمِ نَسَبُه عَلَى الأَنْسَابِ.

قال الله العظيم: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [صٓ: الآية ٤١]. أَيُّوبُ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ وهُوَ أَيُّوبُ بْنُ مُوْصِ بْنِ

رَازِح بْنِ العِيْصِ بْنِ إسحاقَ بْنِ إبراهيمَ، وَأَبُوْهُ مِمَّنْ آمَنَ بِالخَليلِ يَوْمَ أُحْرِقَ، وأُمُّ أَيُّوبَ بِنْتُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ.

وكانَ أَيُّوبُ في زَمَانِ يَعقُوبَ مُتَزَوِّجًا بِابْنَةِ يَعقُوبَ، وقد جُمِعَ له عَلَيْهِ السَّلامُ بَيْنَ كَثْرَةِ المالِ وحُسْنِ الأَعْمَالِ، فَمَلأَ مَدْحُه بِالوِفَاقِ الآفَاق، فَأَثَارَتْ تِلكَ الآثَارُ حَسَدًا مِنْ إبليسَ، فَقَدْ تَقادَمَ مُنْذُ آدَمَ فقالَ: يَا رَبِّ لو سَلَّطْتَنِيْ عليه أَلْقَيْتُه فِي فِتْنَةِ المَفتُونِيْنَ، فقيلَ لَهُ: قَدْ سَلَّطْنَاكَ عَلَى مالِهِ ووَلَدِهِ، فمالَ إلى جَمِيْعِ عفَارِيْتِهِ فَفَرَّقَهُمْ في تَمْزِيْقِ مَالِهِ وتَفرَّدَ إبليسُ لِبَنِيْهِ، فَجَمَعَ أَرْكانَ البَيْتِ فَهَدَمَه علَيهِم، ثم أتى في صُوْرَةِ مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُه فَرَأَى ذلكَ لاَ يُؤْلِمُه، وَأَنْصَتَ العَدُوُّ لِيَسْمَعَ عَرْبَدَة السُّكْرِ، فَإِذَا أَيُّوبُ يَتْلُو آيَةَ الشُّكْرِ، فصَاحَ لِسَانُ حَسَدِهِ سَلِّطْنِيْ عَلَى جَسَدِهِ، فَسُلِّطَ وَقَدْ سَبَقَهُ الصَّبْرُ فَتَقَطَّعَ الجسمُ وَدَادَ وَمَا تَقَطَّع رَسْمُ الوِدَادِ.

قَالَ وَهْبٌ: كَانَ يَخرُجُ عليهِ مثلُ ثَدْيِ النِّسَاءِ ثُمَّ يَتَفَقَّأُ، فَأَخرجَهُ أَهْلُ قَريَتِهِ وجَعَلُوا له عَرِيْشًا على كناسَةٍ، ورَفَضَهُ الخَلْقُ سِوَى زَوْجَتِهِ رُحمَةَ بنتِ أَفْرَاثِيْمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعقوبَ. وكانَتْ تَخْتَلِفُ إليهِ بِمَا يُصْلِحُه فلَم يَزَلْ مَا نَزَلَ بِهِ حَتَّى بَدَا حِجَابُ بَطْنِهِ فكانَ يُبْصَرُ عِظامُه ويُرَى مِعَاؤُه. وينشد:

قَالُوا تَوَقَّ رِجَالَ الحَيِّ إنَّ لَهُم ... عَيْنًا عليكَ إذَا نِمْتَ لم تَنَمِ
فَقُلْتُ إنَّ دَمِي أَقْصَى مُرَادِهِم ... وما خَلَتْ نَظْرَةٌ مِنهُم بسَفْكِ دَمِ

فدامَ عليهِ هَذَا البَلاءُ سِنِيْنَ وفِدَامُ الصَّمْتِ عَنِ الشَّكوَى على فيه يَبِيْنُ ولم يَبْقَ غَيْرُ اللِّسانِ لِلذِّكْرِ وَالقلبِ للشُّكْرِ. وينشد شعرًا:

قَد ذَابَ حتَّى لا يَراهُ حِمَامُهُ ... فالموتُ يَطْلُبُه وَلَيْسَ يَراهُ

فلما كَعَّ إبْليسُ لَقِيَ زَوْجَته في صُورةِ مُتَطَيِّبٍ، فقالَ: عندِي دَوَاؤُهُ بِشرطِ أَنْ يقولَ بِشَفَتَيْهِ شَفَيْتَنِيْ، وقَد جَاءَتْ وقَدْ أَنْسَاهَا طُولُ البَلاءِ تَدَبُّرَ المَعْنَى فَأَخْبَرَتْ مِنْ خَبَرِ غَدْرِ العَدُوِّ فغَضِبَ المُؤَدِّبُ عَلَى تِلميْذٍ مَا يَقُومُ بِطُولِ الصُّحبَةِ فَحَلَفَ لَئِنْ شُفِيَ لَيَجلِدَهَا مَائَةَ جَلدةٍ.

فَبَيْنَا المَرْءُ يُكابِدُ المُرَّ مَرَّ بِهِ صدِيْقَانِ له فقالاَ: لَو عَلِمَ الله مِنْ هَذَا خَيْرًا مَا بَلَغَ بِهِ هَذَا الأَمْرُ. فما شَدَّ على سَمْعِهِ أَمْرًا أَشَدَّ مِن ذلكَ الأَمْرِ فَخَرَّ على عَتَبَةِ فَلَا تُشْمِتْ وَاستغَاثَ بِلَفْظِ ﴿مَسَّنِيَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] فجاءَ جَبريلُ بِرسالةِ ﴿ٱرْكُضْ﴾ ولَيسَ العجبُ لو رَكَضَ جَبرئيلُ، إِنَّما العَجَبُ أن يَركُضَ العَلِيْلُ.

يَا أَيُّوبُ قَدْ تَجَلَّدْتَ في هَوَانَا وصَبَرْتَ عَلَى بَلَانَا فَسَوْفَ نُبَلِّغُ آمَالَكَ ونَرُدُّ عَلَيْكَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ، وَنُسَبِّبُ لكَ جَمِيْعَ الأَسْبابِ، ونُحْضِرُكَ في حَضِيْرَةِ الأَحْبَابِ ونَكْتُبَ لَكَ في أُمِّ الكِتابِ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فَتَنسَّى بنَسِيمِ العَافيةِ مَا أَلَمَّ مِنْ أَلَمٍ ورَدَّتْ يَدُ المِنَّةِ كُلَّ مَا مَرَّ مِنهُ وذَهَبَ، فكانَ تَيَّارُ الرِّضَا زائد على وَادِيْهِ بَعْدَ أنْ جَرى أداء صَبْرها فَأَقْبَلَ لِسَانُ الوَحْيِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَقْبَلَتْ زَوْجتُه رحمة وعليْهِ يَمِينُ ضَرْبِهَا ومَا كانَ يَحْسُنُ في مُقابلةِ صَبْرِهَا، فَأَقْبَلَ لسانُ الوَحْيِ يَتْلُو فَتْوَى الرَّحْمَةِ، وَرَاعَى مَا سَبَقَ مِنْ مُراعاةِ رَحْمَته ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، تَالله مَا ضَرَّهُ مَا أَكَلَ مِنْ جِسْمِهِ الدُّودُ لَمَّا اخْتَالَ في ثَوْبٍ مَوْدُودٍ، وَأَصْبَحَ مُضطَجِعًا شَرَابَ السُّرُورِ مِنْ جَوْدِ الجُوْدِ، فَرَنَّتْ قِنَانُ الفَرَحِ إِذَا غَنَّتْ أَلْسِنَةُ المَدْحِ لا تَعُودُ وفَاحَ عَنْبَرُ الثَّنَاءِ فَزَادَ نَشْرُهُ عَلَى كُلِّ عُودٍ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية ٤٤]. وينشد:

يَا مَن رَأَى وَحْشَتِيْ فَآنَسَنِيْ ... بِالقُرْبِ مِنْ قُربِهِ وَأَنْعَشَنِيْ
يَا سَكَنِيْ لاَ خَلَوْتُ مِنْ سَكَنِيْ ... دَهْرِي ويَا عُدَّتِي عَلَى الزَّمَنِيْ
هَرَبْتُ مِنْ مَسْكَنِي إِلَى سَكَنِيْ ... نَعَم ومِنْ مَوْطِنِيْ إِلَى وَطَنِيْ
وَعُدْتُ أَيْضًا وعَادَ مُتَعَطِّفًا ... كَذَاكَ مُذ كَانَ مِنهُ عَوَّدَنِيْ

أَيُّها النَّاسُ، مَن كانَ الموتُ يُطالِبُه فَكَيْفَ يَلَذُّ قَرَارًا، ومَنْ كانَ الدَّهْرُ يُحارِبُه فكيفَ يُطِيقُ انْتِظَارًا، ومَن كانَ الأَمَلُ مَطِيَّتَهُ زَادَ عِثارًا، ومَن كانَ رَاحِلًا إلى الآخِرَةِ كيفَ يَتَّخِذُ الدُّنيَا دَارًا، إن هيَ إلاَّ غَفْلَةٌ شَامِلَةٌ ومَنِيَّةٌ عَاجلَةٌ، جَرَى بِها القَلَمُ ومَضَى عليهَا الأُمَمُ، لَقَد صَدَّقَكُم صَرْفُ الزَّمانِ فما كَذَبَ ووَعَظَكُم الدَّهْرُ بِمَنْ ذَهَبَ، وَأَرَاكُم مِن تَقَلُّبِهِ بكُم العَجَبَ، فَبادِرُوا رَحِمَكُمُ الله وَالسَّبِيْلُ

لَكُم هَدَفُ الإمكَانِ قَبلَ ضِيْقِ المَكَانِ، وتَقَلُّصِ اللِّسَانِ، واصْفِرارِ البَنَانِ، واجتماعِ الإخوانِ، وعَوِيْلِ النِّسْوَانِ، وحُضورِ الجِيْرانِ، وتَسْوِيْدِ الحِيْطانِ، لِنُزولِ الحَدَثَانِ، فَما ظَنُّكُمْ عِبادَ الله بِيوم بَضائِعُه الأَعْمالُ، وشُهودُه الأَوْصالُ، وَسِجْنُهُ النَّارُ، وحاكِمُهُ الجَبَّارُ، جَعَلَنِي الله وَإِيَّاكُم مِمَّنْ شَمِلَتْهُ مِنَ الله المِنَّةُ، ووَجَبَتْ لَه مِنْ رَحمتِهِ الجنَّةُ، إنَّ أَبْلَغَ الوَعْظِ وأَجْمَعَهُ وأَوْضَحَ القَولِ وأَنْفَعَهُ، كَلامُ مَن خَلقَ الخَلْقَ فَأَبْدَعَهُ، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: الآيات ٤٨ - ٥٢]. شعر:

دَعْ ذُنُوبِي فَحُقَّ لي أَنْ أَنُوحَا ... لَم تَدَعْ لِي الذُّنُوْبُ قَلْبًا صَحِيْحًا
أَخْلَقَتْ مُهْجَتِيْ أَكُفَّ المعَاصِيْ ... ونَعَانِي المَشِيْبُ نَعْيًا فَصِيْحًا
كلَّما قُلتُ قَدْ بَرَأَ جُرْحُ قَلْبِي ... عَادَ قَلْبِي مِنَ الذُّنوبِ جَرِيْحًا
إنَّمَا الفَوزُ وَالنَّعِيمُ لِعَبْدٍ ... جَاءَ في الحَشْرِ آمِنًا مُسْتَرِيْحًا

إخواني، بَادِرُوْا قبلَ العَوَائِقِ، وَاسْتَدْرِكُوْا فَمَا كُلُّ طالِبٍ لاَحِقٌ، وَاشْكُرُوْا نِعْمَةَ مَن سَتَرَكُم عَلَى الذُّنوبِ، وَاعْرِفُوا قَدْرَ فَضْلِهِ فَقد أعْطَاكُمْ كُلَّ مَطْلُوبٍ.

مَا ضَرَّ أَيُّوبَ مَا جَرَى، كَأَنَّهُ سِنَةُ كَرَى، ثم شَاعَتْ مَدَائِحُه بَيْنَ الوَرَى، وَإِنَّمَا يَصْبِرُ مَن فَهِمَ العواقِبَ ودَرَى، أولئِكَ الَّذِيْنَ رَفَضُوا الدُّنيَا فَسَلِمُوا، وَطَلَبُوا الآخِرَةَ فَمَا نَدِمُوا، فَيَا بُشْرَاهُم إِذَا قَدِمُوْا، وَقَد رَبِحُوْا وَغَنِمُوا، وكُلُّهُمْ بِلسانِ حَالِهِ ويُنْشِدُ:

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَّاتِ حِينَ تَوَلَّتْ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِيَ الصَّبرَ حَتَّى اسْتَمَرَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إلاَّ حَيْثُ يَجعلُها الفَتَى ... فَإِنْ أُطْمِعَتْ تَاقَتْ وإلاَّ تَسَلَّتْ

إخواني، اعرِفُوا قَدْرَ الفَضْلِ بِالتَّوفِيقِ لِلإِنَابَةِ، ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]، فَإِن تَحرَّكَتِ الطِّباعُ لِمَا أَلْفَتْهُ فَذَكِّرُوهَا خَسَاسَةَ المطْلُوبِ وَعِزَّةَ مَا لَقِيْتْ، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١].

وينشد:

مَن يعْشقُ العِزَّ لاَ يَرْنُوا لِغَانِيَةٍ   في رَوْنَقِ الصَّبْرِ مَا تُغْنَى عَنِ الكَدَرِ

يا عازِمًا علَى سَفَرِ التَّوبَةِ خُذْ لِلتَّغَرُّبِ أُهْبَةً، لَيْسَ كُلُّ مَن خَرَجَ إلى البَرِيَّةِ مُسَافِرًا النُّقْطَةُ قَبْلَ الدَّائِرَةِ ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٩]، انْدَمْ علَى ما مَضَى مِنَ المَأْتَمِ، وَارِدُدْ عَلَى الغارِمِيْنَ المَظَالِمَ، وَشَمِّرْ عَن سَاقِ الجِدِّ تَقْوَى عَلَى طلب التَّقْوَى، فلا تُطِعْ أَصْدِقاءَكَ عَلى المَعاصِيْ ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمَان: الآية ١٥].

إخواني، الشَّيطانُ يُراصِدُ في جميع المَراصِدِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٧١] لا تَزْدَرُوْا حُلَلَ الفَقْرِ فإنَّ عَلَيْها أَنْوارَ المهابَةِ، يَا تَائِبًا إذَا قال لك رُفَقَاؤُكَ: امشِ مَعَنا، فقُلْ: أَقْعَدَنِيَ الخَوْفُ، فإنْ قَالُوا: مَا الخَبرُ فَقُلْ: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: الآية ٩٨]. فإن قالُوا: كانَ فُلانٌ جَبَلًا في المَعَاصِي، فقُلْ: خَوفُ الوعيدِ جَعَلَهُ دكًّا حَضَرْتُ مَجْلِسَ الذِّكْرِ فَذَكَّرَنِي عَهْدَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٢]؟ وأَخْبَرَنِي قُرْبَ الحِسَابِ علَى بِضاعةِ العُمْرِ فَنَظَرْتُ في دَسْتُورِيْ فإذَا بِيْ قَدْ مَزَّقْتُ رَأْسَ المالِ بَكَفِّ اللَّعِبِ، فَبَكَيْتُ أَسَفًا وَصِحْتُ لَهْفًا. وينشد:

أَسْبَابُ هَوَاكَ أَوْهَنَتْ أَسْبَابِي   مِنْ بَعدِ جَفاكَ فَالضَّنَا أَوْلَى بِيْ
ضَاقَتْ حِيَلِيْ وأنتَ تَدْرِي مَا بِي   ارْحَمْ فَالعَبْدُ واقِفٌ بِالبابِ

يَا عَاصِيَ إِحْم حَدِيْدَةَ الغَرْمِ في نَارِ التَّخْوِيْفِ، فَاكْوِ بِهَا حُبَّ الدُّنْيَا في بَاطِنِ الطَّبْعِ تَجِدْ طَعْمَ العافِيَةِ، أُمْدُدْ يَدَ المُعَاهَدَةِ علَى الوَفاءِ فَمَزِّقْ بهَا ثَوبَ الغَدْرِ اجْلِ بَصَرَ الفِكْرِ فيمَا جَنَيْتَ أَيَّامَ الجَفَا تَسِيْلُ الدُّمُوعُ سَيْلًا. شعر:

بَكَيْتُ عَلَى شَبَابٍ قَدْ تَوَلَّى   فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ لَنَا يَعُودُ
فَلَو أَنَّ الشَّبَابَ يُبَاعُ بَيْعًا   لأَعْطَيْتُ المُبَايِعَ مَا يُرِيْدُ
ولَكِنَّ الشَّبَابَ إذَا تَوَلَّى   عَلَى شَرفٍ فَمَطْلَعُهُ بَعِيْدُ

أَمَّا بَعْدُ، يَا مَنْ يُبارِزُ مَولاهُ بِالعَظَائِمِ، يَا حَلِيْفَ الآثام وَالجَرائِمِ، حَتَّى مَتى لا تَذْكُر الرَّحِيْلَ ولاَ تَعْلَمُ عَلَى مَا أَنْتَ قَادِمٌ، أَيَقْظَانٌ أَنْتَ اليومَ أم أنْتَ

نَائِمٌ، كَأَنِّي بِكَ قَد جَاءَكَ المَرَضُ، وَفَاتَكَ مِن لَذَّاتِكَ الغَرَضُ، وَضَيَّقَ عَلَيْكَ الطُّوْلَ وَالعَرْضَ مَا عَرَضَ.

فيا عَجَبًا لِطَرْفِكَ مَعَ هَذَا كَيفَ اغْتَمَضَ، وتَطْلُبُ الفَانِي وتَتْرُكُ الدَّائِمَ، أَيَقْظَانٌ أنتَ اليَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ؟ ثُمَّ يَأْتِيكَ مَلَكُ الموتِ بِجُنُودِهِ لِلفِرَاقِ فَبَلَغَ الرُّوحُ التَّرَاقِ، وَانْهَمَلَتِ الدُّموعُ مِن الآمَاقِ، ولم يَنْقَطِع طِبُّ الطَّبِيْبِ وَلا رُقَى رَاقٍ، فيَا مَن سَيَبْلُغَ هَذَا وَيُلاق، أتطلُبُ الفَانِيَ وتَترُكُ الدَّائِمَ؟ أيقظانٌ أنْتَ اليومَ أَمْ أَنْتَ نائِمٌ؟ فيَا لَهَا مِن سَاعةِ حَسْرَةٍ، لاَ يَنْفَعُ فيهَا أَسَفٌ ولا عِبْرَةٌ، وتَرَى في نفسِكَ كُلَّ مَا تَكْرَهُ، وَتَأَهَّبُ فَما تَدرِيْ أَعَشِيًّا تَرحَلُ أَوْ بُكرةً، وتَطلُبُ الفانِيَ وتَترُكُ الدَّائِمَ؟ أَيقظانٌ أنتَ اليومَ أم أنتَ نائمٌ؟ وبَعْدُ مَا كانَ إلاَّ ساعةٌ، وتُشاوِرُ في أَمْرِكَ الجَمَاعَةُ، وأَنْزَلُوكَ في جَوْفِ قَاعَةٍ، وقَسَمُوا المالَ وَبَضَعُوا البِضَاعَةَ، وَقَالُوا لِوَصِيِّكَ: لا سَمْعَ لَكَ ولاَ طَاعَةَ، وتطلبُ الفاني وتَتركُ الدَّائِمَ، أيقظانٌ أنْتَ اليومَ أم أنت نَائِمٌ؟ وينشد:

يَا قَلْبُ مَا لَكَ لا تَرِقُّ لِمُهْجَتِي ... خَالَفْتَ أَمْرِي في الهَوَى وَعَصَيْتَنِيْ
لو كنتَ لي قَلبًا ودُمْتَ عَلَى الوَفَا ... مَا كُنتَ عَلَى العُهُوْدِ غَدَرْتَنِيْ
مَا أَنْتَ لي قلبٌ ولا لَكَ مُهْجَةٌ ... لَو كُنْتَ لَكَ جَوانِحِي لَرَحِمْتَنِيْ

يَا قَلِيْلَ الصَّبْرِ إنَّمَا هِيَ مَراحِلُ، فَصَابِرْ لُجَّةَ البَلَاءِ فَالمَدْحُ سَاحِلُ. قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾، لله دَرُّ أَقْوَام امْتَثَلُوا مَا أُمِرُوا، وزُجِرُوا عَنِ الزَّلَلِ فَازْدَجَرُوْا، فَإِذَا لاَحَتِ الدُّنْيَا غَابُوا، وَإِذًا حَضَرتِ الأُخْرَى حَضَرُوْا، فَلَوْ رَأَيتَهُمْ في القِيَامَةِ إذَا حُشِرُوا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾، جَنَّ عليهم اللَّيْلُ فَسهِرُوْا، وطَالَعُوا في الصُّحفِ الذُّنُوبَ فَانكَسَرُوْا، وطَرَقُوْا بابَ المَحْبُوبِ فَاعْتَذَرُوْا، وَبَالَغُوا في المطلوبِ ثم حَذرُوْا، فَانْظُرْ بِماذَا وُعِدُوْا في الذِّكْرِ وذُكِرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

اتَّجَرُوا والله ومَا خَسَرُوْا وعَاهَدُوا في الزُّهْدِ فمَا غَدَرُوْا، واحْتالُوا على نُفوسِهم فمَلَكُوْا وَأَسرُوْا، وتَفَقَّدُوا نِعَمَ المَوْلَى فَاعْتَرَفُوْا وشَكَرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: الآية ١١١].

بُيُوتُهُمْ في خُلُوِّهَا كَالصَّوامِعِ، وَعُيُونُهُم بِالتُّقَى تَنْظُرُ مِنْ طَرْفٍ خَاشِعٍ، والأَحزانُ قَد سَحَّتْ سُحُبَ المَدامِعِ، تُسْقَى بَذْرَ الفِكْرِ الَّذِي بَذَرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

وَاسْتَوْحَشُوْا مِن كُلِّ جَلِيْسٍ، شُغْلًا بِالمَعْنَى النَّفِيْسِ، وَزَمُّوا مَطَايَا الجِدِّ فَسَارَتِ العِيْسُ، وبَادَرُوا الفُرْصَةَ فَأَتُوا إِبْلِيسَ، لا وَقَّفُوا ولا فَتَرُوْا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

قلوبٌ في الخِدْمَةِ حَضَرَتْ، أَسْرَارٌ بِالصِّدْقِ عُمِّرَتْ، كَمْ شَهْوَةٍ في صُدُورِهِمْ انْكَسَرَت، أَخْبَارُهُم تُحْيِي القلوبَ إذا نُشِرَت، ويقالُ عَنْ قوم إِذَا نَشِزُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾. جَدُّوْا فليسَ فيهمْ مَن يَلْعَبُ، ورَفَضُوا الدُّنْيَا فَتَرَكُوهَا تَخربُ، وَأَذَابُوْا أَبْدَانَهُمْ بِقِلَّةِ المَطْعَم والمَشْرَبِ، فَغَدًا يُقالُ لَهُمْ: كُلْ يَا مَنْ لَم يَأْكُلْ وَاشْرَبْ يَا مَن لَم تَشْرَبْ. أَذْكَارُهُم في الحياةِ وَإِن كَانُوا قَدْ قُبِرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

عِلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَأَنَّ مَن وَافَقَ مُرَادَهَا فَارَقَ دِيْنَهُ، فَحَذَرُوْا مِن غُرُوْرٍ تُجْدِي غَبِيْنَهُ، فَرَكِبُوْا مِنَ التُّقَى في سَفِيْنَةٍ شَحَنُوْهَا بِالزَّادِ وعَبَرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

طُوْبَى لَهُم وَالأَمْلاكُ تَتَلَقَّاهُمْ، لاَحَتْ أهوالُ القِيَامَةِ فَوَقَاهُمْ، وَأَقْبَلُوا إليه ظَمْأً فَسَقَاهُمْ، فَكَشَفَ الحِجابَ لعيُونِهِمْ فَأَرَاهُمْ، هَذَا مَا أَقْصَى آمَالِهِم وَقَدْ ظَفِرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

بَلَّغَنَا الله وإِيَّاكُمْ ذَلِكَ المَبْلَغَ، وَأَسْمَعَنَا زَجْرَ النَّصَائِحِ فَقَدْ أَبْلَغَ، وسَتَرَنَا مِنَ العِقَابِ، فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا أَسْبَغَ ولَوْلا عونُه مَا قَدَرُوْا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: الآية ١١١].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا إِيْمَانًا يَصْحَبُهُ هُدَاكَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلوالِدِيْنَا ولجميع المسلمينَ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا محمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّم تَسليمًا دائمًا كثيرًا بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ.

المَجْلِسُ الرَّابِعَ عَشَرَ
في قِصَّةِ شُعَيْب عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنا محمَّد وآله وسَلَّم

الحمدُ لله القَدِيمِ فَلا يُقالُ مَتَى كَانَ، العظِيْمِ فَلَا يَحْوِيْهِ المكانُ، أَنْشَأَ آدَمَ وأَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ بِنعْمَانَ، ورَفَعَ إدْرِيْسَ إلى أعْلَى الجنانِ، ونَجَّى نُوحًا وَأَهْلَكَ كَنْعَانَ، وسَلَّمَ الخَلِيْلَ بلُطْفِهِ يَوْمَ النِّيرانِ، ويُوسُفَ مِنَ الفَاحِشَةِ يَوْمَ البُرْهَانِ، وبَعَثَ شُعَيْبًا إلى مَدْيَنَ يَنْهَى عَنِ البَخْسِ والعُدْوَانِ، ويُنَادِيْهِمْ في نَادِيْهِمْ، ولكنْ صَمَّتِ الآذَانُ ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَمْلأُ المِيزانَ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي فَاقَ دِيْنُه كُلَّ الأَدْيَانِ، وعَلَى صاحِبِهِ أَبِيْ بَكْرٍ أَوَّلَ مَنْ جَمَعَ القُرآنَ، وعَلَى عُمَرَ الفَارُوقِ الَّذِي كَانَ يَفِرُّ مِنْ ظِلِّهِ الشَّيْطَانُ، وعلى زَوْجِ الابْنَتَيْنِ عُثمانَ بْنِ عَفَّانَ، وعَلَى عَلِيٍّ بَحْرِ العُلُومِ وَسَيِّدِ الشُّجْعَانِ، وعَلَى عَمِّهِ المُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ فَأَقْبل السَّحُّ التَّهْتَان.

قال الله العظيم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]، قالَ قَتادَةُ: مَدْيَنُ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُ شُعَيبٍ. وقَالَ مُقاتِلٌ: مَدْيَنُ هُوَ ابنُ إبراهيمَ الخَلِيْلِ مِن صُلْبِهِ.

وقال أبو سُليمانَ الدِّمَشْقِيُّ: هُوَ مَدْيَنُ بْنُ مَديانَ بْنِ إبراهِيمَ، والمعنَى أَرْسَلْنَا إلى ولَدِ مَدْيَنَ. فَعَلَى هَذا هُوَ اسمُ قبِيلةٍ، وَشُعَيْبٌ هُوَ ابْنُ عَيْفَانَ بْنِ نُويب بْنِ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيمَ، أُرْسِلَ إلى وَلَدِ مَدْيَنَ وهُوَ ابْنُ عِشْرِيْنَ سنةً، فكَانُوا

مَعَ كُفْرِهِمْ يَبْخَسُونَ المكايِلَ والمَوَازِيْنَ، فَدَعَاهُم إلى التَّوْحِيْدِ ونَهَاهُم عَنِ التَّطْفِيْفِ، وكانَ يُقالُ لَهُ خَطِيْبُ الأَنْبِياءِ لِحُسْنِ مُرَاجَعَتِهِ قَوْمه.

وقصَّته:

لَمَّا رَأى شُعَيْبٌ شُعَبَ شِعَابِ قَوْمِهِ قَدِ امْتَلأَتْ بالبَخْسِ وَالجَوْرِ صَعِدَ مِنْبَرَ التَّذْكِيْرِ بِالإنْعَامِ، وَلَكِنْ بِعَيْنِ الأَنْعَام فَخَوَّفَهُمْ مِن فَحْم مَحْلِ القَحْطِ في إشَارةٍ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هُود: الآية ٨٤]، فَتَلَقَّوْهُ بِاسْتِهْزَاءِ ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: الآية ٨٧]، ومَدُّوْا بَاعَ النَّخْوَةِ ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨]، وتَعَلَّقُوا بِحُجَّةِ ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ [هُود: الآية ٩١]، وَانْتَهَوْا إلى عُتُوِّ ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٧]، فَكَانَ آخِرَ أَمْرِهِ أنْ قَالَ: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود: الآية ٩٣]. قالَ ابْنُ عبَّاسٍ: ارْتَقِبُوا العَذَابَ، فَإِنِّي مُرْتَقِبُ الثَّوابِ.

قالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: عُذِّبَ أَهْلُ مَدْيَنَ بِثَلاثَةِ أَصْنَافٍ، فَلَمَّا اسْتَمَرَّ ظَلامُ ظُلْمِهِمْ اسْتَحْلَكَ لَيْلُ إِدْبارِهِمْ، واسْتَلْطَخَ نَهَارُ هَلاكِهِم فَحَقَّقَ إِلَيْهِمْ مَا حَقَّ عَلَيْهِمْ مِنْ مُحقِّهِمْ، فَأَظَلَّ عليهِمْ ظُلَلُ ظلالِهِمْ عَذَابَ الظُّلَّةِ فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾[الأعراف: الآيتان ٩١، ٩٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: الآية ١٨٩]، فَارْتَجَّتْ أَرْجَاءُ بُيوتِهِمْ بِرَجِّ الرَّجْفَةِ وَشَدَّ عَلَيْهِمْ شِدَّةَ الحَرِّ، فَهَرَبُوا إلى البَرِّ لا إلى البِرِّ، فَإِذَا سَحَابَةٌ تَسْحَبُ بُرْدَ البَرْدِ فَتَنَادَوْا هَلُمُّوْا إلى رَاحَةِ الرَّوْحِ.

فَلَمَّا تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ في قَصْرِ الحَصْرِ، فَظَنُّوْا أَنَّهَا مِنْ حَرِّ وَقْتِهِمْ نَزَلَت نَارٌ مِنْهَا فَأَحْرَقَتْهُمْ، فسارُوْا إلى جَهَنَّمَ في أَسْرِ إِدْبَارِهِمْ، وسَارَ بَعْدَ بُعْدِهِمْ في إِدْبَارِهِمْ نَذِيْرُ التَّحْذِيْرِ مِنْ تَدْبِيْرِهِمْ، وَدَعَا بِهِمْ مِنْ عِقَابِ عِقَابِهِمْ ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ [هُود: الآية ٩٥].

فَلْيَحْذَرِ العُصاةُ مِنْ مِثْلِ أَفْعَالِهِمْ، وَلْيَتَّقِ الله أَعْمَى أَبْصَارِهِم البَصِيْرَةِ شِبْهَ أَعْمَالِهِمْ، وَلْيَخَفِ المُطَفِّفُوْنَ مِنْ أَخْذِ التَّطْفِيْفِ في مِكيَالِهِمْ، وَلْيَسْمَعُوْا نَذِيْرَ العِبْرَةِ فَقَدْ أَوْحَى لَهُمْ شَرْحَ أَحْوالِهِم.

ثُمَّ إِنَّ شُعَيبًا زَوَّجَ ابْنَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إلى مَكَّةَ فماتَ بِهَا، وكان عُمرُه مائة سَنَةٍ وأَرْبَعِينَ سَنةً، ودُفِنَ في المَسْجِدِ الحرامِ حِيَالَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ. وينشد:

يَا مُقْلَتِي سُحِّيْ هُدِيْتِ دُمُوعًا   شَوْقًا إلى قَبْرِ النَّبِيِّ سَرِيْعًا
حُبًّا إلى خَيْرِ الأَنَامِ مُحَمَّدٍ   فمن التَّذَكُّرِ لاَ أُطِيقُ هُجُوعًا
يَا رَايِحِيْنَ إِلَى العَقِيقِ أوِ الصَّفَا   أَكْرِمْ بِهَاتِيكَ الدِّيارِ رُبُوعًا
شَوْقِي يَزِيْدُ إلى النَّبِيِّ وصَحْبِهِ   فمتَى أَرَى تِلْكَ القُبُوْرَ جَمِيعًا

إخواني، وَا كَثَافَةَ الغَفْلَةِ عَلَى قُلوبِ الغَافِلِينَ هِمَمُهُمْ مَقْصُورَةٌ على تَحصيْلِ المَطعَمِ وَالمَشْرَبِ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤]، سُبْحَانَ مَنْ أَعْمَى بَصَائِرَهُم مَعَ نُفُوذِ أَبْصَارِهِمْ، وَوَيْلٌ للهَالِكِيْنَ في مَعَاصِيْهِمْ إذَا أُخِذُوْا بِنَوَاصِيْهم، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القَمَر: الآية ٤٨] وَاعَجَبًا لكُم الحدِيثُ لما تَسْمَعُونَ كُلّ الأَسْمَاعِ، لا يتفَاوَتُ في وُصُوْلِ الكَلامِ إليها، إنَّمَا يَتَفَاوَتُ في فَهْمِ المقْصُودِ القَطر عَامُّ الوَقعِ غيرَ أن حُكْمَ الشَّيخِ غَيْرُ حُكم الجُرُزِ ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرّعد: الآية ٤]، الحَذَر الحَذَر قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: الآية ٥٦]. وينشد:

لَمَّا رَأيتُ المَشِيْبَ قد نَزَلا   وبَانَ مِنِّي الشَّبَابُ وَارْتَحَلا
أَيْقَنْتُ بِالمَوتِ وَاعْتَبَرتُ بِهِ   وَكُلُّ حَيٍّ يُوافِقُ الأَجَلَا
لَو خَلَّدَ الله فَاعْلَمُوا أَحَدًا   لَخَلَّدَ الأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَا

رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ يَبِيْعُ طَعَامًا، فَسَأَلَهُ: «**كَيفَ تَبِيْعُ**»؟ فأَوْحَى الله إليهِ أنْ أدخِلِ يَدَكَ فِيْهِ، فَأَدْخَلَهَا فيهِ فإذَا هُو مَبْلُولٌ. قال رسولُ الله ﷺ: «**لَيسَ مِنَّا مَن غَشَّ**».

وقد رُوِيْنَا عَن مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ أنَّه رُئِيَ يَعْرِضُ حِمَارًا لَه على البَيْعِ، فقالَ له رَجُلٌ: أَتَرْضَاهُ لِيْ؟ فقالَ: لَوْ رَضِيْتُه لَمْ أَبِعْهُ.

وفي أَفْرادِ البُخَارِي من حديثِ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**». وفي أَفْرادِهِ مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**لَيَأْتِيَنَّ على النَّاسِ زَمَانٌ لا يُبَالِي المَرْءُ مِمَّا أَخَذَ**

المَالَ أَمِنْ حَلالٍ أَوْ مِن حَرامٍ». وينشد:

إذا نُوْدِيْتَ قُمْ لِلعَرْضِ فَاقْرَأْ فَضَائِحَ وَالفَضَائِحُ في الكِتَابِ
وأَهْلُ الأَرْضِ قَدْ وَقَفُوْا حَيَارَى وَرَبُّ العَرْشِ يَغْضَبُ بِالعَذَابِ
فَكَم مِن شَابٌّ يُنَادِي وَا شَبَابِي وكَم شَيْخٍ يَنُوحُ عَلَى المُصَابِ
وكَم مَحْجُوبَةٍ مِنْ بَعْدِ سَتْرٍ ثَقِيلٌ غلُّهَا بَعْدَ الخِطَابِ

أَيُّها الظَّالِم تَذَكَّرْ عِنْدَ جَوْرِكَ عَدْلَ حَاكِمٍ، تَفَكَّرْ حِينَ تَصَرُّفِكَ في صَرْفِكَ عجبًا لكَ تَدَّعِي الظَّرْفَ وتَأْخُذُ المَظْرُوْفَ وَالظَّرْفَ، كَلَّا فَفِي الظَّرافَةِ رَأْفَةٌ وَسَتَعْلَمُ أَيُّهَا الغَرِيمُ قَدْرَ غَرَامِكَ. شعر:

إذ يَتَلَقَّى كلُّ ذِيْ دَيْنٍ وَمَاطِلُهُ مِنَّا وَيَجْتَمِعُ المَشْكُوُّ وَالشَّاكِيْ

يَا أَرْبَابَ الذُّلِّ لا تُعَرْبِدُوا فِي سُكْرِ القُدْرَةِ فَصَاحِبُ الشَّرطَةِ بِالمِرْصَادِ، فَلَو هَبَّ سَمُومُ الجَزاءِ مِنْ مَهبٍّ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٦] قَلَعَتْ سُكارَى ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٨]، فَإِذَا طُوفَانُ التَّلَفِ يُنادِي فِيهِمْ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هُود: الآية ٤٣]. وأَنْتَ أَيُّها المظلُومُ تَذَكَّر مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ، فَإِنَّكَ لا تَلْقَى الكَدِرَ إلاَّ مِن طَرِيْقِ الجِنَايَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرّعد: الآية ١١].

كانَ لَبَّانٌ يُخَلِّطُ اللَّبَنَ بِالمَاءِ فجاءَ السَّيْلُ فَذَهَبَ بِالغَنَمِ، فجعلَ يَبْكِي ويقُولُ: اجْتَمَعَتْ تِلكَ القَطَراتُ فصَارَت سَيْلًا، ولِسَانُ الجزاءِ يُنَادِيْه يَدَاكَ أَوْكِتَا وَفَوْكَ نُفِخَ، أُذْكُرْ غَفْلَتَكَ عَن الأَمْنِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَقْتَ الكَسْبِ، ولاَ تَنْسَى اطِّراحَ التَّقوى عندَ مُعاملةِ الخَلْقِ، فَإِذَا انْقَضَّ عَاصِفٌ فَسمِعْتَ صَوْتَ سَوْطِهِ يَضْربُ عَقْدَ الكَسْبِ جَزاءً لِجِنَايَةِ العُقُوْدِ فَلا تَسْتَطْرِفْ ذَلِكَ، فَأَنْتَ الجَانِيْ أَوَّلاً وَالبَادِيْ أَظْلَمُ، يَا مَن عُمرهُ يَذُوْبُ وَلا يتُوْبُ، يَا مَشغُولاً بِأَمَلِهِ عَن ذِكْرِ أَجَلِهِ إِنَّمَا يَتِيْهُ المُسافِرُ في سَفَرِهِ يَوْمًا أو يَوْمَيْنِ، ثم يَقُومُ عَلَى الجَادَّةِ.

وا عجبًا مَن تَيَّهَ خَمْسِيْنَ سنةً، يَا وَاقِفًا مَعَ الصُّوَرِ خَالِطْ عَالِمَ المَعْنَى، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ تَغْرِيْدَ الحَمامِ نِياحَةٌ، أَنْتَ تَظُنُّ البُلْبُلَ يُغَنِّي إِنَّمَا

يَبْكِي على أَحْبَابِهِ. وينشد:

كَـيـفَ لا أبْـكِـي دُمُـوعًـا ودَمًـا ... تَـبْـصِـرُ الـحَـقَّ وَنَـزْدَادُ عَـمًـا
تَـسْـمَـعُ الـوَعْـظَ وتَـأْبَـى عِـظَـةً ... ثُـمَّ أَزْدَادُ لِـحَـيْـنِـي صَـمـمًـا
كَـيفَ أرْجُو نُـقْـلَتِـي مِـنْ غَـفْـلَـتِـي ... وَبِـهَـا صَـارَ وُجُـودِي عَـدَمَـا
لَـيْـسَ لِـيْ حُـكْـمٌ ولا لـي قُـدْرَةٌ ... إذْ بِـحُـكْـمِـيْ لَـمْ أُبَـدِّل قَـدَمًـا
لاَ وَلاَ أدْفَـعُ عَـنِّـي ضَـررًا ... لا وَلاَ أَصْـرِفُ عَـنِّـيْ سَـقَـمًـا
لاَ وَلاَ أَنْـفَـعُ نَـفْـسِـيْ كَـيْـفَ لِـيْ ... لاَ وَلاَ أَصْـرِفُ عَـنِّـيْ أَلَـمًـا

يا مُسْتَفْتِحًا بَابَ المَعَاشِ بِغَيْرِ مِفْتَاحِ التَّقْوَى، كيفَ تُوَسِّعُ طَرِيْقَ الخَطَايَا وَتَشْكُو ضِيْقَ الرِّزْقِ؟ لَوِ اتَّقَيْتَ ما عَسُرَ عَلَيْكَ مَطلُوبٌ لاَ تَزَالُ بِحَارُ النِّعَمِ عَلَى الخَلْقِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

يَا هَذَا الَّذِيْ أَعْجَبَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، هُوَ الَّذِيْ أَتْعَبَكَ وَأَفْنَاكَ، فَكَيْفَ بِكَ إِذْ نَادَاكَ مَوْلاكَ، يَا عَبْدِي مِنْكَ الخَطَأُ ومِنِّي العَطَاءُ؟ مِنْكَ الجَفَاءُ وَمِنِّي الوَفَاءُ، مِنْكَ التَّوْبَةُ وَمِنِّي القَبُولُ.

عَبْدِي كَم تَعْصِيْنِيْ وكَم أَسْتُرُكَ؟ وتَتَمَادَى في الذُّنُوبِ وَأُمْهِلُكَ. أَمَا تَخْشَى مِن عِقَابِيْ؟ أَمَا تَسْتَحْيِي مِنْ عِتَابِيْ؟ لَئِنْ لَم تَنْتَهِ لأَصُبَّنَّ عَلَيْكَ سَخَطِيْ، ولأُحْرِقَنَّكَ بِنَارِ غَضَبِيْ، فَرَحِمَ الله مَنْ غَسَلَ أَثْوَابَ شَيْبَتِهِ مِنْ أَدْنَاسِ ذُنُوْبِهِ وعَدَلَ بِبَيَاضِ اللِّمَّةِ مِنْ سَوَادِ التُّهْمَةِ، مَا أَقْبَحَ بِذِي الشَّيْبَةِ الظَّاهِرَةِ أَنْ يَمِيْلَ إِلى الدُّنْيَا بَدَلاً مِن الآخِرَةِ، تَيَقَّظْ يَا مِسْكِيْنُ ذَهبَ عُمْرُكَ وأنْتَ في غَفْلَتِكَ، فَأَيْنَ الدَّلِيْلُ علَى سَلامَتِكَ. شعر:

عَلَيْكَ بِالقَصْدِ لا تَطْلُبْ مُكَاثَرَةً ... فـالقَصْـدُ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْتَ طَالِبُهُ
فَاقْنَعْ بِحالِكَ لاَ تَحْسُدْ أَخَا نَسَبٍ ... فَـعَـنْ قَـلـيـلٍ يَـرُدُّ الـمَـالَ وَاهِـبُـهُ
فَـالـمَـرْءُ يَـفْـرَحُ بِـالـدُّنْـيَـا وَبَـهْـجَـتِـهـا ... ولاَ يُـفَـكِّـرُ مَـا كـانَـتْ عَـواقِـبُـهُ
حَـتَّـى إذا ذَهَـبَـتْ عَـنْـهُ وَفَـارَقَـهَـا ... يَـبِـيْـنُ الـغَـبْـنُ فَـاشْـتَـدَّتْ مَـصَـائِـبُـهُ
فَـصَـارَ يَـهْـوِي بِـأَن لَـو كـانَ ذَا عَـدَمٍ ... وَلـم تَـكُـنْ عَـظُـمَـتْ فـيـهَـا مَـكَـاسِـبُـهُ

يَا مَشْغُولاً قَلْبُهُ بِلُبْنَى وَسُعْدَى، يَا مُسْتَأْنِسًا بِالرُّقَادِ، وَهَذِهِ الرَّكَائِبُ تُحْدَى، يَا عَظِيْمَ المَعَاصِي، يَا عَطِبًا جِدًّا، يَا ظَالِمًا طَالَمَا عَتَا وَتَعَدَّى، كَمْ جَاوَزْتَ حَدًّا تَأْتِي ذَنْبًا عَمْدًا، يَا أَسِيْرَ الهَوَى قَدْ أَصْبَحَ لَهُ عَبْدًا، يَا نَاظِمًا خَرَزَاتِ الأَمَلِ في سِلْك المُنَى عِقْدًا، يا مُعْرِضًا عَنَّا قَدْ حَلَّ عَقْدًا، كَمْ عَاهَدَ مَرَّةً وقد نَقَضَ عَهْدًا؟ مَنْ لَكَ إِذَا سُقِيْتَ كَأْسًا لا تَجِدُ مِنْ شُرْبِهَا بُدًّا؟ مَزَجْتَ أَوصَابًا وَصَبابًا صَارَ الصَّابُّ عِندَنَا شَهْدًا، مَن لَكَ إِذَا لَحِقْتَ أَبًا وَأُمًّا وعَمًّا وَجَدًّا، وَتَوَسَّدْتَ بَعْدَ اللِّيْنِ حَجَرًا صَلْبًا صَلْدًا، وَسَافَرْتَ سَفَرًا يَا لَهُ مِنْ سَفَرٍ بُعْدًا، وَاسْتَوْحَشَكَ عَمَلُكَ هَزْلاً كَانَ أَوْ جِدًّا، ولَقِيْتَ مُنْكَرًا ونكِيْرًا. فَهَلْ لَقِيتَ أَسدًا؟ فَبَادِرْ قبلَ المَوْتِ فما تَستطِيعُ لَه رَدًّا. وينشد:

نَـهـاكَ عَـنِ الـبَـطَـالَـةِ وَالـتَّـصَـابِـي نُحُوْلُ الـجِسْـمِ وَالـرَّأْسُ الـخَضِـيْـبُ
إِذَا مَـا مَـاتَ بَـعْـضُـكَ فَـابْـكِ بعضًـا فـبَـعْـضُ الـشَّـيْءِ مِـن بَـعْـضٍ قَـرِيْـبُ

إخواني، ما هذِهِ الغَفْلَةُ عَن الاتِّعَاظِ؟ وَمَا هذِهِ القَسْوَةُ والإِعْرَاضُ؟ وَمَا هَذِهِ الرِّقْدَةُ وَأَنْتُم أَيْقَاظٌ؟ والله مَا قَسَى قَلْبُكَ حَتَّى عَظُمَ ذَنْبُكَ، وَحيائِي مَا جَمِدَتْ عَيْنُكَ حَتَّى تَحكَّمَ حَيْنُكَ، أَوَّاه طَرَدُوْكَ فَمَا تَأَمَّلْتَ مِنْ طَرْدِهِم، وَأَبْعَدُوكَ فما بَكَيْتَ مِن بُعْدِهِم، لاَ جَرَمَ غَلَبَتْ عليكَ الغَفْلَةُ، وَمَلَكَتْ قَلْبَكَ القَسْوَةُ، وأَمْرَاضُ الخطايَا والذُّنُوب، أَقْفَالٌ عَلَى المَسامِعِ وَالقُلُوبِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَبْلُغَ مِن سَمْعِ الوَعْظِ مُرادَكَ، فَطَهِّرْ بِالتَّوبَةِ قلبَكَ وفُؤادَكَ، وقِفْ مُتَذَلِّلًا بِالبَابِ، وَأَدِّبْ نفسَكَ بِحُسْنِ الآدَابِ، فَسُوْءُ الأَدَبِ يَمْنَع مِن عُلُوِّ الرُّتَبِ. شعر:

تَـزَوَّجَ دُنْـيَـاكَ الـغَـنِـيُّ بِـجَـهْـلِـهِ وقَدْ نَشَزَتْ مِن بَعْدِ مَا قُبِضَ المَهْرُ
تَـطَـهَّـرْ بِـبُـعْـدٍ مِـنْ أَذَاهَـا وَكَـيْـدِهَـا فَـتِـلْـكَ بَـغْـيٌ لا يَـصِـحُّ لَـهَـا طُـهْـرُ
ونَحْنُ كَرَكْبِ المَوْجِ مَا بَيْنَ بَعْضِهِم وَبَـيْـنَ الـرَّدَى إلا الـذِّراعُ أَوِ الـقَـبْـرُ

السَّجع:

يَا كَثِيْرَ الخِلَافِ، يَا عَظِيْمَ الشِّقَاقِ، يَا سَيِّءَ الآدَابِ، يَا قَبِيْحَ الأَخْلاقِ، يَا قَلِيْلَ الصَّوابِ، يَا عَدِيْمَ الوِفَاقِ، يَا مَنْ سَيَبْكِي كَثِيْرًا إِذَا انْتَبَهَ وَأَفَاقَ، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٩].

أَيْنَ مَنْ أَنِسَ بِالدُّنْيَا ونَسِيَ الزَّوَالَ؟ أَيْنَ مَن عَمَّر القُصُوْرَ وَجَمَعَ المَالَ؟ تَقَلَّبَتْ بِالقَوْمِ أحوالُ الأَهْوَالِ، كَمْ أَرَاكَ مَولاَكَ عِبْرَةً وقَدْ قَالَ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣].

أيْنَ مَنْ صَدَّقَكَ بِصَدِيقِكَ المُؤانِسِ؟ أَيْنَ رَفِيْقُكَ في الآفَاقِ المُجَالِسِ؟ أَيْنَ مَن أَشْرَقَتْ بِنُورِهِ المَجَالِسُ؟ امْتَدَّتْ إلى الكُلِّ كَفُّ المَجَالِسِ، ونَزَلُوا تحتَ الأَطْبَاقِ وَكَأَنَّكَ قد رَحلْتَ كَما رَحلُوْا، وَنَزَلْتَ وَشِيْكًا حِيْنَ نَزَلُوا، وحُمِلْتَ إلى القُبُورِ كَمَا حُمِلُوا، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٣٠].

مَنْ لَكَ إذَا أَلَمَّ بِكَ الأَلَمُ؟ وَسَكَنَ الصَّوْتُ وتَمَكَّنَ النَّدَمُ، ووَقَعَ الفَوْتُ وأَقْبَلَ لأَخْذِ الرُّوح مَلَكُ المَوْتِ، وجاءَتْ جُنُودُهُ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة: الآية ٢٧]، ونَزَلْتَ مَنْزِلاً ليسَ بِمَسْكُونٍ، وَتَعَوَّضْتَ بَعْدَ الحَرَكَةِ والسُّكُونَ، فَوَا أَسَفًا كَيفَ تكُونُ، وَأَهْوالُ القَبْرِ لا تُطَاقُ، وَفُرِّقَ مَالُكَ وسُكِّنَتِ الدَّارُ، وَدَارَ البَلاءُ فما دَارَ إذْ دَارَ، وَشَغَلَكَ الوِزْرُ عَمَّنْ هَجَرَ أَوْ زَارَ، ولَمْ يَنْفَعْكَ نَدَمُ الرِّفَاقِ.

أَمَا أَكْثَرُ عُمْرِكَ قد مَضَى؟ أَمَا مُعْظَمُ زَمَانِكَ قَدِ انْقَضَى؟ أَفِي أَفْعالِكَ مَا يَصْلُحُ لِلرِّضَا؟ إذَا الْتَقَيْنَا يَوْمَ التَّلَاقِ، يَا سَاعِيًا في هَوَاهُ تَصَوَّرْ دَمْسَكَ، يَا مُوَسِّعًا إلى خَطِئِهِ خُطَاهُ، تَذَكَّرْ حَبْسَكَ، يَا مَأْسُوْرًا في سِجْنِ الشَّهواتِ، خَلِّصْ نَفسَكَ قَبْلَ أَنْ تَعِزَّ السَّلامَةُ ويَعتَاقَ الإِعْتَاقُ، ويُنْصَبَ الصِّرَاطُ ويُوْضَعَ المِيزَانُ، وَيُنْشَرَ الكِتابُ يَحْوِي مَا قد كانَ، وَيَشْهَدَ الجِلْدُ وَالمَلَكُ والمَكَانُ، وَالنَّارُ والحَبْسُ وَالحاكِمُ الخَلَّاقُ، فَحِيْنَئِذٍ يَشِيْبُ المَولُوْدُ، وَتَخرَسُ الأَلْسِنَةُ وتَنْطِقُ الجُلُوْدُ، وتَظْهَرُ الوُجُوهُ مِن بِيْضٍ وَسُوْدٍ، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القَلَم: الآية ٤٢].

فَبَادِرْ قبلَ أن لا يُمْكِنَ، وَحَاذِرْ قبلَ أن يَفُوتَ المُمْكِنُ، وأَحْسِنْ قَبلَ أن لاَ تُحْسَن، وَاليَوْمَ الرِّهَانُ وَغدًا السِّبَاقُ، فَانْتَهِزْ عُمْرًا يَفْنَى بِالمَسَاءِ والصَّباحِ، وعَامِلْ مَولًى يُجْزِلُ العَطَايَا وَالأَرْبَاح، ولا تَبْخَلْ فَقَدْ حَثَّ على السَّمَاحِ، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: الآية ٩٦].

اللَّهُمَّ جَمِّلْ جَوارِحَنَا بمحاسِنِ الفَقْرِ إلَيْكَ، وَزَيِّنْهَا بِلِبَاسِ التَّقْوَى عِنْدَ الوقوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ، وانْصُرنا في مَقامِنَا هَذَا بحُسْنِ التَّوكُّلِ عليك، واجْعَلْ مَجلِسَنَا هَذَا رَوْضَةً مِن رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وصَلَّى الله على خَيْرِ خَلْقِكَ وفِطْرَتِكَ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ الطَّيِّبين الطاهرين وسلمَ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ الخَامِسَ عَشَرَ
في قِصَّةِ بِدَايَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدنا محمَّد وآلِهِ وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي لاَ نِدَّ لَهُ فَيُبَارَى، ولا ضِدَّ لَهُ فَيُجَارَى، ولا مُعْتَرِضَ فَيُمارَى، ولا شَرِيْكَ له فَيُدارَى، بَسَطَ الأَرْضَ قَرارًا، وَأَجْرَى فِيهَا أَنْهارًا، وَأَخْرَجَ زَرْعًا وثِمارًا، وأَنْشَأَ لَيْلًا ونهارًا، وَخَلَقَ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الجَنَّةَ دَارًا، فَغَفِلَ عَنِ النَّهْي وَما دَارَى، أَمَرَ أَنْ يَأْخُذَ يَمِينًا فَاخْتارَ يَسَارًا، فَأُهْبِطَ فَقِيرًا قَد عَدِمَ يَسَارًا، غَيْرَ أَنَّهُ جَبَرَ منهُ بقبُولِ توبَتِهِ انكِسَارًا، وأَقامَهُ خَلِيفةً ويَكْفِيْهِ افْتِخارًا، ثُمَّ بَعَثَ الأَنبياءَ مِن ذُرِّيَّتِهِ ونَصَبَ لَهُم مِن أَدِلَّتِهِ مَنارًا، وجَعَلَ إدْرِيْسَ ونُوح﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: الآيتان ٩، ١٠].

أحمدُهُ سِرًّا وجِهَارًا، وأُصَلِّي على رَسُولِهِ مُحمَّدٍ الَّذِي أَصْبَحَ وَادِي النُّبُوَّةِ بِرِسَالَتِهِ مِعْطَارًا، وعلَى صاحِبِهِ أبي بَكْرٍ المُنْفِقِ سِرًّا وجِهَارًا، وعلى عُمَرَ الَّذِي لاَثَ عَنْ وَجْهِ الإِسلام خِمارًا، وعلى عُثمانَ الَّذِي صَرَفَ عن جيشِ العُسْرَةِ بِإِنْفَاقِهِ إعْسَارًا، وعلى عَلِيٍّ أَخِيْهِ وابنِ عَمِّهِ لا يُتَمَارَا، وعلى عَمِّهِ العَبَّاسِ أَعْظِمْ بعُمومتِهِ افْتِخَارًا.

قال الله العظيم: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ [طه: الآيتان ٩، ١٠]، (هَلْ) بمعنَى قَدْ، كَقولِ رسولِ الله ﷺ: «**اللَّهمَّ هل بَلَغْتُ**»؟ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ بْنِ قَاهِبِ بْنِ لاَوَى بْنِ يَعقُوبَ، وَاسْمُ أُمِّهِ يُوخَابِدُ وَبَيْنَ مُوسَى وَإبراهيمَ

ألفُ سنةٍ، وكانَتِ الكَهَنَةُ قَدْ أَخبَرَتْ فِرعونَ بوُجودِ مُوسَى، فَانْطَلَقَ المُوسَى في ذَبْحِ الأَطْفَالِ، ثُمَّ شَكَتِ القِبْطُ إلى فرعونَ فقالُوا: إنْ دُمْتَ على الذَّبْحِ لم يَبْقَ لَنا مِنْ بَنِي إسرائيلَ مَنْ يَخْدِمُنَا، فصارَ يَذْبَحُ سنةً ويَترِكُ سَنَةً، فَذَبَحَ سبعينَ أَلْفَ مولودٍ، فوُلِدَ هارونُ في السَّنَةِ الَّتِي لا ذَبْحَ فيهَا، ووُلِدَ مُوسَى في السَّنَةِ الَّتِي يُذبَحُ فيهَا، فَلَمَّا اتُّهِمَتْ أُمُّه بالوَضْعِ أَوْضَعَ الحِرَسَ إلى بَيْتِهَا لِلطَّلَب، فَأَدْرَكَها عِنْدَ العِلمِ الدَّهْشُ فَأَلْقَتْهُ في التَّنُّورِ إلْقَاءَ الحَطبِ، فلما عادَتْ فرأَتْهُ قَدْ سَلِمَ شاهَدَتْ في ضِمْنِ مَا قد صَنَعَتْ أَثَرَ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: الآية ٤١].

فكانَتْ سَلامَتُهُ مِن النَّارِ بَعْدَ الأَجَلِ وعْدَ النَّجاةِ يَوْمَ الْيَمِّ. فَلما سَعَتْ بتَابُوتِهِ إلى البَحْرِ ارْتَعَشَتْ يَدُ التَّسْلِيم فصَاحَ فَصِيْحُ الشَّجَاعةِ بِمِلءِ فِيْهِ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ [طه: الآية ٣٩]، فَصَدَرَتْ بَعْدَ إلْقَائِهِ بِصَدْرٍ قَدْ أَلْوَى بِهِ لَواعِجُ الاشْتِيَاقِ ولا يَعلَمُ قَدْ رَمَى بِهِ إلاَّ مَن قَدْ رَمَى بِهِ فَتَلَقَّاهُ بِالبِشْرِ بَشِيْرُ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القَصَص: الآية ٧]، فَلَمْ تَزَلْ أَمْواجُ اليَمِّ تَتَيَمَّمُ بِهِ مَسالِكَ القَدْرِ إلى أن جِيْئَتْ جَيْبُ النِّيْلِ فَشَرَعَتْ في تَناوُلِهِ مَشْرَعَةُ دَارِ فِرْعَوْنَ فَأَلْقَتْهُ في بَرِيَّةٍ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القَصَص: الآية ٨].

فَلَمَّا فَتَحُوهُ أَسْفَرَ عَنْ مُسَافِرٍ عَلَى نَجِيْبِ النَّجَابَةِ قَدْ رَكِبَ في سَفِيْنَةِ السَّكِينَةِ، وجَعَلَ زَادَهُ في مِزْوَدِ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾، وَوَشَّح قِلَادةَ الحُبِّ قَد رُصِّعَتْ بِدُرِّ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: الآية ٣٩].

فقامَ فرعونُ على أَقْدامِ الإِقْدامِ على قَتْلِهِ فَخَرَجَتْ آسِيَةُ مِن كَمِيْنِ أَتْبَاعِهِ تَنْطِقُ على لِسَانِهِ ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠١]، وتُنَادِي في مِخْدَعِ خَدِيْعَةِ الحَرْبِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القَصَص: الآية ٩]، وتَجْمَعُ في كَلَامِهَا مَا هُوَ فَرْدٌ في لُغَةِ القَدَرِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [القَصَص: الآية ٩]، فلم يَزَلْ فِرعونُ في إعْبَاسِ غُرُوْرِ ﴿يُذَبِّحُ﴾ [القَصَص: الآية ٤] حتَّى طَلَعَ عَزْمُ صُبْحِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القَصَص: الآية ٥]، فلمَّا قَصَّ شَوقُ أُمِّهِ جَنَاحَ صَبْرِهَا ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم ﴿قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ﴾ [القصص: الآية ١١] في حَرِيْم ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القَصَص: الآية ١٢] فَدامَ عليه الفِدَامُ لا يَقْبَلُ ثَدْيَ امْرَأَةٍ لأنَّ الرَّضاعَ

يُغَيِّرُ الطِّبَاعَ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مَا يُفْسِدُهُ فَدَنَتْ فَدَنْدَنَتْ حَوْلَ الحِيْلَةِ بِحَوْلِ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [القَصَص: الآية ١٢]؟

فلمَّا حَفِظَتْ بابَ المَكْرِ بِحَارِسِ: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ١٢] دَخَلَ طُفَيْلِيُّ الوَجْدِ مِنْ بَابِ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص: الآية ١٢] فجاءَتْ بِأُمِّهَا يَؤُمُّهَا دَلِيْلُ الطَّرَبِ فكادت إذَا حَضَرَتْ تَحْضُرُ فِي مَيْدَانِ ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ فكَبَحَهَا بِلِجَام ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القَصَص: الآية ١٠]، فَخافَتْ لِسَانَ جَهْرِهَا لمَّا خَافَتْ فَسُلَّ مِن أَيْدِيْهِم إلى سُلَّمِ تَسَلُّمِهَا فَقَرَّ في ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القَصَص: الآية ١٣].

وتَرَنَّمَت بَلابِلُ الوِصَالِ فأَخْرَسَتْ بَلابِلَ الفِراقِ، فَلَمَّا تَمَّ رَضَاعُهُ رَدَّتْهُ إلى فِرعَونَ، فَأَخَذَهُ يَومًا في حِجْرِهِ فَجَبَذَ لِحْيَتَهُ فَقَالَ: عَلَيَّ بِالذَّابِحِ. فقالَتْ آسِيَةُ: إنَّمَا هُوَ صَبِيٌّ لاَ يَعْقِلُ، وَأَخذَتْ لَهُ يَاقُوتًا أَحْمَرَ وَجَمْرًا، فَأَخَذَ جَمْرَةً فَطَرَحَهَا في فِيْهِ فَأَحْرَقَتْ لِسَانَهُ فَذَلِكَ قولُه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ [طه: الآية ٢٧].

فَرُبِّيَ مُوسَى في رُبَا فِرعَوْنَ ونَمَا بَيْنَ نَمَارِقِهِ، وَالحَقُّ إذَا رَبَّا شَخْصًا رَبَّاهُ في حجرةِ أعدائِهِ بَيْنَ أَعْدَائِهِ إلى أن آنَ أَوانُ مُهَاجرتِهِ بَعدَ ثَمانِيَ عَشرَةَ سَنَةً، فَجَرَى القَدَرُ بِقَتْلِ القِبْطِيّ الكَافِرِ النَّافِرِ؛ لِيَكُونَ سَبَبًا في سِرِّ سَيْرِ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ فَسَعَى على أَرْجاءِ رَجَاءِ ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى﴾ [القَصَص: الآية ٢٢] فيَرِدَ مَوْرِدَ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٣] فَسَقَى لِبِنْتَيْ شُعَيْبٍ وَاسْمُهُمَا صَفُوْرَا وَلَيَّا، فَاجْتَمَعَ شَمْلُ الصِّهْرِ بِوَاسِطَةِ ﴿إِنَّ أَبِى﴾ [القَصَص: الآية ٢٥] فَزَوَّجَهُ شُعَيْبٌ صَفُوْرَا فَبَقِيَ ضَمَانُ الوَفَاءِ إلى مَائَةِ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: الآية ٢٩] أَخَذَ زَوْجَتَهُ.

وَا عَجَبًا لِفِرْعَونَ أَرادَ أَنْ يَقْطَعَ مَوصُولَ الحَقِّ بِزَعْمِهِ، وَالقَضَاءُ يُمْضِيْهِ بزَعْمِهِ، والحَقُّ يَغارُ علَى أَوْلِيَائِهِ ويُرِيْهِم آثَارَ الاخْتِصَاصِ حَتَّى في بَلَائِهِ.

خَلَّصَ الخَلِيْلَ مِنَ النَّارِ فَجَعَلَهَا ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٩]، وآنَسَ يُونُسَ بِنُوْرِ التَّسبِيْحِ في الظُّلُماتِ فَلم يُبْقِ له ظَلَامًا، وَلَطَفَ بيُوسُفَ الصِّدِّيْقَ وَهُوَ مَمْلُوكٌ ثُمَّ نَشَرَ لَهُ في المُلْكِ أَعْلَامًا، وحَمَلَ الكَلِيمَ في التَّابُوتِ إشْعارًا بِاللُّطْفِ وَإِعْلَامًا، لَمَّا أَدْبَرَ فِرعونُ وعَصَى، ووَجَدَ في كُتُبِهِ أَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ مَوْلُودٌ يُهْلِكُهُ

بِعَصَا، قَصَدَ العَدُوُّ حَسْمَ العِلَّةِ طَمْعًا في الحياةِ، فَفَتَحَ بابَ ذَبْحِ الأَطْفالِ لِيَظْفَرَ بِصاحِبِ الآيَاتِ، ولِسَانُ الطَّرْدِ يَهْتِفُ بِهِ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٦]، يَاقُوْتُ الاخْتِصَاصِ لا تَعْمَلُ فيهِ نَارُ البَلَاءِ، وسَمَنْدَلُ المحبَّةِ لا يُحْرِقُهُ لَهِيبُ الاخْتِبارِ وَالابتِلاءِ، نُوْدِيَ يَا صَائِدَ البَغْيِ صُقُورُ العِنَايَةِ لا تَقَعُ في حَبْلِكَ، يَا رَامِي الغَيِّ مَن لَبسَ دِرْعَ العِصْمَةِ كيفَ يُصادُ بِنَبْلِكَ، يَا مُدَّعِيًا في المُلْكِ سَتعرِفُ غَدًا مَن مَلَكَ ومَا يَملِكُهُ.

إذْ يُلْتَقى كُلُّ ذِي دَيْنٍ ومَاطِلُه، وَمِنَّا يَجْتَمِعُ المَشكُوُّ وَالشَّاكِي، لَيْسَ العَجبُ أنْ تَطْلُبَه فَلا تَجِدُهُ وَهُوَ في مِصْرِكَ لَكنِ العَجَبُ أَنْ يَسُوْقَهُ في التَّابُوتِ إلى قَصْرِكَ لِتَعْلَمَ أَنِّيْ مَعَهُ ولا شَيْءَ مَعَكَ، وَأَنَّ الحَقَّ لِلمُرتَهِنِ لاَ لِلمُدَّعِي، يَا مَنْ فَخَرَ بِالمَاءِ كما فَخَرَ إبْلِيسُ بِالنَّارِ، قَبِلَ قَاضِي عَقْلِهِ رِشْوةَ الهَوَى فجَارَ، شَغَلَكَ جَرْيُ الأَنْهارِ عَمَّا يَجْرِي بِهِ اللَّيلُ وَالنَّهارُ، فَخَرْتَ بالماءِ وَهُو سَبَبُ حَتْفِكَ، يَا بْنَ مُصْعَبٍ مَنْ أقام غُصْنَ قَامَتِكَ حَتَّى اسْتَوَى مِنْ غَرْسِهِ في دَوْحَةِ المُلْكِ، فَمَالَ رِيْح الهَوَى مَنْ مَدَّ أَرْضَ جَسَدِكَ مِنْ مَهِيْنِ النُّطفَةِ، وَدَحاهَا مَنْ زَمَّهَا بِالعَظَمَةِ بِحِبَالِ العِظَامِ، وأَرْسَاهَا مَنْ نَظَمَ جَوَاهِرَ وُجُودِكَ بَعْدَ افْتِراقِهَا في سِلْكِ الإِيْجَادِ، مَنْ قَرَنَ مَعْدِنَ جَسَدِكَ بِإِكْسِيْرِ سِرِّ الرُّوحِ فَدَرَجَتْ إلى دَرَجَةِ الحَيْرَانِ بَعْدَ الجَمَادِ، لَقَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ بَصِيْرَتِكَ، لَقَدْ عُقِرَتْ نَاقَةُ عَقلِكَ وَمُسِخَتْ صُوْرَةُ سَرِيْرَتِكَ.

إخواني، سُكَارَى الجَهْلِ يَفْرَحُوْنَ بِالمهالِكِ فَرَحَ البَقِّ بِلَهِيْبِ النَّارِ هَلِ العَيْشُ في الدُّنْيَا إلاَّ كَأْسٌ مُشُوْبَةٌ بِالأَكْدارِ، ثُمَّ رَسُولُها الموتُ مَنْ لَم يَزمَّ جَوارِحَهُ عَنِ العَيْبِ لَعِبَتْ بِهِ العُقُوبَةُ، فَالزَّمُ الْزَمِ الغَفْلَةَ عن سَهْمِ المَنُونِ الصَّائِبُ مَصَائِبُ. وينشد:

يَا رَاقِدَ اللَّيلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِهِ ... إنَّ الحَوادِثَ قَدْ يَطْرقن أسحارا
لاَ تَفْرَحَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُهُ ... فَرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أَجَّجَ النَّارَا
أَفنَى القُرونَ الَّتِي كانَتْ مُنَعَّمَةً ... كَرُّ الجدِيدَيْنِ إِقْبالاً وَإِدْبَارًا

إخواني، وَيْحَكُم أَعْمَارُكُمْ تُنهَبُ، وَأَيَّامُكُم تَذْهَبُ، وَآثَامُكم تُكْتَبُ، أَصَمَمٌ عَنِ النَّصائِحِ أَمْ عَمًى وَالأَمْرُ وَاضِحٌ؟ ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النِّساء: الآية ٧٨].

أَرْبَابُ القلوبِ القاسِيَةِ يَخْرُجُونَ مِن المَجلِسِ كَمَا دَخلُوا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦]، رَانَتِ الذُّنُوبُ على القُلوبِ. فَالْمَوَاعِظُ تَحُومُ عَلَى المَنَافِذِ فلا تَجِدُ طَرِيْقًا ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧].

إخواني، ومع هَذَا فلا بَأْسَ، فإنَّ الخَمْرَ يَنقَلِبُ خَلًّا في ليلَةٍ وَاحِدةٍ. خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَهُوَ أقْسَى قَلْبًا أوجبت سكته مِنَ الصَّفَا فَلَانَ عِنْدَ الصَّفَا. وينشد:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ الله أَنَّه لَهُ كُلَّ يَومٍ في خَلِيقَتِهِ أَمْرًا

مَا دَامَ قَلْبُكَ عِندَ التَّوْبِيْخِ يَنْكَسِرُ، وعَينُكَ عِنْدَ العِتَابِ تَدْمَعُ فَفِيْكَ حَياةٌ وَإِنَّما المعَاصِي أَوْجَبَتْ سَكْتَةً. وينشد:

السُّقْمُ عَلَى الجِسْمِ لَهُ تَرْدَادُ والصَّبْرُ يَقِلُّ وَالهَوَى يَزْدَادُ
مَا أَبْعَدَ شُقَّتِيْ ومَا لِيْ زَادٌ مَا أَكْثَرَ بَهْرَجِيْ وَلِيْ نَقَّادُ

يَا من يُفَرِّطُ في أَعْمالِهِ ويَتَّكِلُ عَلَى الشَّفَاعَةِ رُبَّ أَمَلٍ خَائِبٌ، يَا هَذَا كُلَّ يَوْمٍ تَحْضُر المَجْلِسَ ويَقِفُ لَكَ الشَّيْطَانُ عَلَى البَابِ، عِلْمًا مِنْهُ بِضُعْفِ عَزِيْمَتِكَ فِي التَّوْبَةِ، فَإِذَا خَرَجْتَ كما دَخلْتَ قالَ فُدِيتُكَ مَنْ لاَ يَفْلَحُ.

إخواني، تَخْرُجُونَ إلى سَبُعٍ مَا آذَاكُم إلاَّ لِيُقَالَ عَنْ أَحَدِكُم مَا أَجْلَدَهُ فَكَيْفَ تَترُكُونَ سَبُعَ الهَوَى وَقَدِ افْتَرَسَكُمْ؟ يَقُولُ الله عَزَّ وجَلَّ: «وعزَّتي وجلالي لا يبكي عبدي من خشيتي إلا أبدلته ضحكًا في الجنة». وينشد:

دَمْعِيْ لِفِراقِكُم يُحَاكِي المُزْنَا وَالشَّوْقُ يَزِيْدُ فَوْقَ وَجْدِي حُزْنَا
كَمْ أَخْدَعُ بالوِصَالِ قَلْبِي المُضْنَا أَرْجُو وعَسَى هَجْرُكُم أَنْ يَفْنَى

يَا هَذَا حَاسِبْ نَفسَكَ قبلَ أن تُحَاسَبَ، وَهَدِّدْهَا قَبْلَ أن تُعَاقَبَ، وجَاهِدْهَا الجِهَادَ الأَكْبَرَ، وقُلْ عندَ ذَبْحِهَا: بِسمِ الله وَالله أَكْبَرُ، وَاجْعَلْهَا قُرْبَةً لِمَولاكَ، وَاغْتَنِمْهَا قَبْلَ أَن يَظْفَر بِكَ أَعْدَاؤُكَ مِنْ شَهْوَتِكَ وَهَوَاكَ، فَيَا حَمَلَةَ القُرْآنِ مَا زَرَعَ القُرْآنُ في قُلُوْبِكُمْ؟ أَتَرَاهُ قَرَّبَكُمْ مِن مَحْبُوبِكُم؟ وَبَلَّغكُم إلى مَطلوبِكُم، أَمْ

قَصَّرتُمُوهُ على أَلْسِنَتِكُمْ وَشِفاهِكُمْ وَاتَّبَعْتُم بِتِلاوَتِهِ خَسَاسَةَ أَهْوَائِكُمْ.

أَمَا عَلِمْتُمْ أنَّ القرآنَ رَبِيْعُ المُؤمِنِ كَمَا أَنَّ الغَيْثَ رَبِيْعُ الأَرْضِ وقد نَزَلَ عليكم الغيث النافع فَأَيْنَ الخَائِفُ مِنكُمْ؟ وَأَيْنَ الخَاشِعُ؟ وَأَيْنَ حُضورُ جَلِيْسِكُم وَالسَّامِعُ؟ فَأَيْقِظُوا قُلوبَكُم لِتَفْهَمَ مَا أَنْتُم تَالوْنَ قِراءَتَه، وَأَحْضِرُوا هِمَّتَكُمْ مُتَوَفِّرَةً لَهُ فَعَنْ قَلِيْلٍ أَنتُم لهُ مُفَارِقُونَ، وعَمَّا عَمِلْتُم منه مَسْؤُولُونَ، أَمَا عَلِمْتُم أَنَّه يُقال للقارِئ: «اقرأ وارق» فَمَوضِعُه حَيثُ انْتَهَتْ قِرَاءَتُه فَارْغَبُوا في الدَّرَجاتِ وَالقُصُورِ، ومُشاهَدةِ المَلِكِ الغَفُورِ، وَاعْرِفُوْه وَاعْرِفُوا أنْفُسَكُم. وينشد:

قَدْ كانَ لي مَشْرَبٌ يَصْفُوْ لِرُؤيَتِكُمْ فَكَدَّرَتْهُ يَدُ الأَيَّامِ حِيْنَ صَفَا

يَا هَذَا أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَشْتَكِي؟ أَمَا آنَ لَكَ أنْ تَنْزَعَ نَفْسَكَ عَمَّا تَشْتَهِي؟ أَمَا أَنْتَ غَرَضٌ لِسِهَام المَنَايَا؟ أَما أَنْتَ مَوقُوفٌ بَيْنَ يَدَي رَبِّ البَرَايَا؟ فَما لَكَ لا تَنْتَبِهُ مِنْ رَقْدَتِكَ؟ وَتَتَيَقَّظُ مِن غَفْلَتِكَ؟ وتَأْخُذُ مِن دُنيَاكَ لآخرتِكَ، أَبِيَدِكَ كِتَابُ أَمَانٍ، أَمْ تَحَكَّمَ عليكَ طَرْدٌ وَحِرْمَانٌ، فَما أَسْعدَكَ إنْ أَنْتَ أَمِنْتَ، وما أَشْقَاكَ إنْ أَنْتَ حُرِمْتَ الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

قَوْمٌ عَمِلُوا في الدُّنيَا بِالإِخْلاصِ والطَّاعَةِ، وَفَازُوْا يَوْمَ القِيامَةِ بِالرِّبْحِ في البِضَاعَةِ، وتَنَزَّهُوا عَنِ التَّقْصِيرِ وَالغَفْلَةِ وَالإِضَاعةِ، وَلَبِسُوْا ثِيابَ التُّقَى وَارْتَدَوْا بِالقَناعَةِ، وقامُوا في الدُّنيا على السَّهَرِ وَالجَمَاعَةِ، فَيَا فَخرَهُم إذا قامتِ السَّاعَةُ، وقَدْ قُرِّبَتْ لَهُم مَطايَا التَّكْرِيمِ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

عَمِلُوا في الدُّنْيَا بِالوَحْدةِ وَالخَلْوَةِ، وَاعْتَذَرُوْا في الأَسْحَارِ مِنْ زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، وحَذَّرُوْا مِن مُوجِبَاتِ الإِبْعَادِ وَالجَفْوَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ المختارون والصَّفْوَةُ، والصِّدْقُ قَرِيْنُهُم وَالصَّبْرُ نَدِيمٌ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: الآية ١٣].

طَالَ والله مَا تَعِبتْ أَبْدَانُهم مِنَ الجُوعِ وَالسَّهَرِ، وحَبَسُوْا أعراضَهُم في الكلامِ والنَّظَرِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهَاهُم وَامْتَثَلُوا مَا أَمَرَ، وَتَغَنَّوْا بِكَلامِهِ وَالقَلْبُ قَدْ حَضَرَ، وَأَعَدُّوْا مِنَ الزَّادِ مَا يَصْلُحُ لِلسَّفَرِ، وَالخَوْفُ يُقْلِقُهُمْ فَمَنَعَهُمْ قَضاؤُهُم الوَطَرَ، والعَيْنُ تَجْرِي والقَلْبُ قَدِ اعْتَبَرَ، فَيَا حُسْنُهُمْ في جَوْفِ اللَّيْلِ ووَقْتِ

السَّحَرِ، السِّرُّ صافٍ، وَالحَالُ مُسْتَقِيْمٌ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

جَنَّ الظَّلَامُ فَزُمَّتْ مَطايَاهُم، وَجاءَ السَّحَرُ فَتُوفِّرَتْ عَطاياهُم، وكَثُرَ الاسْتِغْفَارُ فَحُطَّتْ خَطَايَاهُمْ، وكُلَّما طَلَبُوْا مِن فَضْلِ سَيِّدِهِمْ أَعْطَاهُمْ، فَسُبْحَانَ مَنِ اخْتارَهُم على الكُلِّ وَاصْطَفَاهُمْ وخَلَّصَهُمْ بِالإِخْلاصِ مِنْ شَوائِبِ الكَدَرِ وصَفَّاهُم، فَلَيْسَ المقصُودُ مِنَ الخَلْقِ بِالمَحَبَّةِ سِوَاهُمْ أَزْعَجَتْهُم عَواصِفُ المخَافَةِ فتَدارَكَهُم مِن الرَّجَاءِ نَسِيمُ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفِطار: الآية ١٣].

أَيْقَظَنَا الله وإياكم لِمَصَالِحِنَا، وعَصَمَنَا مِن ذُنُوْبِنَا وقَبائِحِنَا، وَاسْتَعْمَلَ في طَاعَتِهِ جَمِيْعَ جَوارِحِنَا، اللَّهُمَّ أَقْدِمْنَا مِنكَ عَلَى الرِّضا وَالأَمَانِ، وَانْقُلْنَا إلى مَنازِلِ الجِنَانِ، وَمَتِّعْنَا بِالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَرِيْم، وَاغْفِرْ لَنَا ولوالدينَا ولجمِيعِ المسلمينَ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تَسْلِيْمًا كثيرًا كثيرًا.

المَجْلِسُ السَّادِسَ عَشَرَ
في تَكْلِيم الله عَزَّ وجَلَّ مُوسَى عَلَيْه السَّلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدِنا مُحَمَّد وآلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّم تسليمًا

لَمَّا خَرَجَ مُوسَى بِأَهْلِهِ مِنْ مَدِيْنَةِ مَدْيَنَ يَقْصِدُ أَرْضَ مِصْرَ، انْطَلَقَ طَلِقُ الطَّلْقِ بِزَوْجَتِهِ، فلما زَالَ يُكادِحُ المُكَادِحَ فزاول قَدْحُ المُقَادِحِ فَلَمْ تُوْرَ؛ لأَنَّ عَرُوسَ الطور لَمَّا هَمَّتْ بالتَّجلِّي نُودِيَتِ النِّيْرَانُ بِلِسَانِ الغِيرَةِ مِنَ المُشَارَكَةِ غُضِّي فقامَ علَى أقْدامِ التَّحيُّرِ فهتَفَ بِهِ أَنِيْسُ آنَسَ فَآنَسَ. وينشد:

وما عُرِضَتْ لي نَظْرةٌ مُذْ عَرَفْتُه ... فَأَنْظُرُ إِلَى الأَرْكانِ مِنْ حَيْثُ أَنْظُرُ
أَغَارُ عَلَى طَرفِي لَهُ فَكَأَنَّنِيْ ... إذا رَامَ طَرفِيْ غيرَهُ لَسْتُ أَبْصُرُ
فَيا مُنْتَهَى سِرِّيْ وَذُخْرِي وَغَايَتِي ... وِدَادُكَ في قَلْبِي إلى يومِ أُحْشَرُ

فكَانَ لَمَّا أَظْلَمَ الجَوُّ كَالقَارِ، وَأَبَتِ الزِّنَادُ أَنْ تَنْقَدِحَ بِنَارٍ، لاَحَ لِبَصَرِ بَصِيْرَةِ الاخْتِيَارِ مِن جَانِبِ جَوانِبِ جَبَلِ الطُّوْرِ نَارٌ فآنَسَ الإِيْنَاسُ في نُوْرِ نُوْرِيَّةِ ذَلِكَ النِّبْرَاسِ، رَجَعَ إلى أَهْلِهِ بتُحْفَةِ أسْرارِ ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: الآية ١٠].

فَشَمَّرَ مُوسَى عَنْ سَاقِ القَصْدِ وَسَاقَ وأَعْمَلَ بعملة الطَّلَبِ، فَإِذَا هُوَ بِنَارٍ عَظِيْمَةٍ تَنُورُ مِنْ فُرُوْعِ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ شَدِيْدَةِ الخُضْرَةِ لاَ تَزْدَادُ النَّارُ فيمَا يَرَى إلاَّ تَضرُّمًا وَعُظْمًا، ولا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ عَلَى شِدَّةِ الحَرِيْقِ إلاَّ خُضْرَةً وَتَنَعُّمًا، وَكَشَفَ عَنْ بَصَرِهِ فَرَأَى المَلائِكَةَ صُفُوفًا فقالَ لَهُم: فيمَا اجْتَمَعْتُمْ؟ ولِمَاذَا عليهِ اجْتَمَعْتُمْ؟ قالُوا: أُنْزِلْنَا عَنْ سَمْكِ سَمَاكِ المَطَالِعِ العِلْوِيَّةِ لِنَحْضُرَ في حَضْرِ حَضِيرَةِ اصْطِفَاءِ

الهَيْئَةِ المُوْسَوِيَّةِ كَي نَسْمعَ التَّكلِيْمَ ونُشَاهِدَ التَّكْرِيمَ.

قالَ مُوسَى: الاسْمُ كَالاسْم، وَالرَّسْمُ كالرَّسْمِ لَيْتَنِيْ كُنْتُ صَاحِبَ هَذَا التَّعْظِيْمِ، وَأَنالُ شَرَفَ سِرِّ التَّكْرِيْم، مَدَّ مُوسَى بَاعَ الطَّلَبِ وَسَطَ نَادِي الطَّرَبِ، وَنارُ الأَنْوَارِ تَتَأَجَّجُ على شَجَرَةِ الأَسْرَارِ، نَادَاهُ عَالِمُ عِلْمِهِ، فَفَهَّمَهُ تُرْجُمانُ فَهْمِهِ، قالَ: أَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّارِ عِنْدَ مُقابَلَةِ الأَشْجَارِ الإِحْرَاقُ مَعَ الإِشْرَاقِ؟ فما بَالُ هَذِهِ النَّارُ تُشْرِقُ ولا تَأْكُلُ وَلا تُحْرِقُ؟ إِنَّما هذِهِ النَّارُ أَسْرارٌ وأَنْوارٌ فَإِذًا بِحَضْرَتِهَا قَد صَارَتْ عمُوْدًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَاشْتَدَّ خَوْفُه وكادَ يُخالِطُ في عَقْلِهِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ فَنُودِيَ مِنَ الشَّجَرَةِ: يَا مُوسَىْ، فَأَجَابَ سَرِيْعًا وَمَا يَدْرِيْ مَن دَعَاهُ.

فَقالَ: لَبَّيْكَ أَسْمَعُ صَوْتَكَ ولا أَرَىْ مَكَانَكَ؟ فَأَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فَوْقَكَ ومَعَكَ وَأَمَامَكَ وَأَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْكَ. فَحِيْنَئِذٍ ذَاقَ لَذَّةَ التَّكْلِيمِ، جَرَحَ قَلْبَهُ نَسْلُ الشَّوْقِ فَلَم يُدَاوِهِ إلاَّ طَبِيْبُ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]. وينشد:

أَسْكَرُوْهُ ثُمَّ قالُوا لا تُبِحْ ... وَسَقَوْهُ كَأْسَهُ وهُو مَلَا
كَانَ مِنْ قَبْلِ التَّجَلِّيْ عَاقِلًا ... فَغَدَا مُفْتَضِحًا مُخْتَبِلَا
ثَابِتًا زَلَّتْ بِهِ مِحْنَتُهُ ... عَاشِقًا مُتَّصِلًا مُنْفَصِلَا
كُلَّمَا هَدَّدَهُ مَحْبُوبُه ... بِبَلَاءٍ لَمْ يَقُلْ إلاَّ بَلَا
وإِذَا غُيِّبَ عَنْهُ سَاعَةً ... صَاحَ آهٍ قَدْ سُقِيْتُ الحَنْظَلَا
هَكَذَا يُهتَكُ سِرِّيْ في الهَوَى ... لَيْتَ شِعْرِي مَا شَرِبْتُ العَسَلَا
فَاقْتُلُوْنِي قِتْلَةً أَحْيَا بِهَا ... فَعَسَى يَحْيَا بِهَا مَنْ قُتِلَا

فبعث في حرب فرعون، فلم يزل مشغولاً بالجهاد إلى أن قبر القتيل في لحدِ اليَمِّ، فَطَلَبَ قَوْمُه كِتابًا يَضْبِطُ شَارِبَهُمْ وَيَرُدُّ شَارِدَهُمْ وَيَرُدُّ نَادَّهُم، فَأَمَرَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَصُومَ ثلاثينَ لَيْلَةً نَهارَهُ ولَيْلَهُ، فَأَمْسَكَ عَنْ مَسْكِ الإِمْسَاكِ بِكَفِّ الكَفِّ في الوِصَالِ، فَدَامَ فِدَامُ فِيْهِ عَنْ مَطْعَمِ المَطْعَمِ، فَقِيْلَ فَقِيْد بقيد قُوْتِ القَوْت التاقُوْتِ فصَارَ في ذِكْرِ الوَعْدِ، فَمَا انْقَضَتِ اللَّيَالِي حَتَّى انْقَضَتْ ظَهْرَ الصَّبْرِ فَقَامَ لِيَرى أَيْ هِلَالَ الوَفَاءِ بِالأَمْرِ، فَلَاحَ في مَطْلَعِ فَلَاحِ القَصْرِ، فَبَادَرَ

يَسْعَى علَى أقْدَامِ الحُبِّ لِزِيَارَةِ رَبْعِ الحَبِيْبِ تَكَادُ تُقِلُّه قُلَّةُ الوَجْدِ وَتَحْمِلُهُ رَاحِلَةُ الشَّوْقِ، فَوَجَدَ الهَوَى مُتَغَيِّرَ الرِّيحِ في عَرْصَةِ الفَمِ، فَصَاحَ بِهِ فَصِيْحُ لِسَانِ الحَزْمِ مِنْ وَرَاءِ رَأْيِ العَزْمِ: يَا مُوسَى غَيِّرْ أَثَرَ الأَزْمِ، فَتنَاوَلَ مُضْغَةً مِن النَّبَاتِ فَمَضَغَهَا، فقِيْلَ لَهُ: أَيُّهَا الصَّائِمُ عَنْ أَمْرِنَا لِمَ أَفْطَرْتَ بِرَأْيِكَ؟ فَقَالَ: وَجَدْتُ لِفَمِيْ خَلُوْفًا، وَمَا أَرَدْتُ بِذلكَ خِلَافًا.

فَقِيْلَ لَهُ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّ قَدْرَ فَوْرَةِ الخَلُوْفِ مِنْ قَدَرِ الإِمْسَاكِ أَطْيَبُ عِندَنَا مِنْ فَارَةِ المِسْكِ، إِنَّا نَنْظُرُ إلى قَصْدِ الفَاعِلِ لا إلى صُوْرَةِ الفِعْلِ. الدَّمُ نَجِسٌ مُجْتَنَبٌ، لكِنَّهُ في حَقِّ الشَّهِيْدِ شَهْدٌ زَمِّلُوهُمْ بِكُلُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ، فَرَجَعَ مُوسَى عَاكِفًا على مُعْتَكَفِ كَفِّهِ ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]، فكانَتِ العَشْرُ أَطْوَلَ مِن الثَّلاثِيْنَ عِنْدَهُ، فَأُحْضِرَ حَتَّى حَضَرَ حَضِيْرَةَ القُدْسِ فَنَسِيَ الإِنْسَ بِمَا آنَسَ مِنَ الأُنْسِ.

فَكُلُّ شَيْءٍ رَآهُ ظَنَّهُ قَدْ حَاق وكُلُّ شَخْصٍ رَآهُ ظَنَّهُ بالسَّاقِي، فَلَمَّا دارَتْ في دَائرَةِ دَارِ الحُبِّ كُؤُوسُ القُرْبِ، وَسَمِعَ النِّدَاءَ وَسْطَ النَّادِي بِلَا وَاسِطَةٍ، وَبُسِطَ لَهُ مِن وَسِيْطِ أَقْدَاحِ المُنَى في المُنَاجَاةِ بِلَا وَسِيطٍ طَابَ لَهُ شَرابُ الوِصَالِ مِنْ أَوْطَابِ الخِطَابِ في أَوَانِي سَماعِ الكَلام، فَنَادَاهُ بُوْقُ شَوْقِهِ عِنْدَ ذَوْقِهِ أَوَأَنْتَ في هَذَا الأَوَانِ رَأى على الفَوْرِ وَمِيْضًا فَاشْتَاقَ فصَاحَ لِسَانُ الوَجْد أَرِنِي.

قيلَ: يَا حَكِيْمَ الزَّمَانِ أَتَطْمَعُ في الرُّؤْيَةِ والكَلامُ في قَرْنٍ، هَذِه دَارُ المِحَنِ لَنْ إلاَّ أن جَزَعَ الفِطَامِ سَكَنَ بِعِلَّةٍ ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].

نَظَرَ بِعَيْنَيْهِ لِغَيْرِ المَقصُودِ حُجِبَ عَن مُلاحَظَةِ المَعْبُودِ كما حُكِيَ عن بَعْضِ المُحِبِّيْنَ أنَّه أطْنَبَ في وَصْفِ مَحَبَّتِهِ لِمَحْبُوبَتِهِ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَمْتَحِنَ دَعْواهُ فقالَتْ لَهُ: لَوْ نَظَرْتَ إلى أُخْتِي لَسَقطَتْ مِنْ قَلبِكَ مَحبَّتِي، فَتَشَوَّقَ مُلْتَفِتًا إليهَا وسَأَلَ عَنْهَا أُخْتَهَا، فقَالَتْ: هِيَ خَلْفِي، فَنَظَرَ إليهَا المُدَّعِي المُكَلَّفِي فَقالَتْ لَهُ: يَا بَطَّالُ تَدَّعِيْ مَحَبَّتَنَا وتَنْظُر إلى غَيْرِنَا ما أَسْوَأَ حَالَكَ بَعْدَهَا مَعَنَا، وَالْمُحِبُّ لاَ يَكُونُ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ لاَحِظًا، وَلا بِكَلامِ غَيْرِهِ لاَفِظًا، ولا يَرَى لنفسِهِ سِوَى الله حَافظًا، لَوِ

احْتَرَقَ المُحِبُّ بِالنَّارِ لَم يَشْعُرْ، لَو ضُرِبَ مِنْ خَلْفِهِ وَأَمامِهِ لَمْ يَنْظُر، يَنْتَهِي المُحِبُّ في المحبَّةِ إلى غايَةٍ لا يَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَلاَ بِالخَلْقِ، فَنِيَ عَنْ وُجُودِهِ، وَبَقِيَ مَعَ مُشاهَدَةِ مَوْجُودِهِ. وينشد:

قَالَ وَلَقَدْ أَعْرَضَتْ صَدًّا عَلَى كَلَفٍ ... أَشْرَكْتَ في حُبِّنَا بِالمَيْلِ في النَّظَرِ
فَلَيْسَ يَنْظُر مِنَّا مَنْ أَلَمَّ بِنَا ... بِصَفْوِ وُدٍّ مَعَ الإِشْرَاكِ وَالغِيَرِ
فقلتُ تَاللهِ مَا أَمَمْتُ مِنْ نظرٍ ... وَلا صَغَيْتُ بِسَمْعٍ لا ولا بَصَرِ
ولا هَمَمْتُ بِشَرٍّ كَيْ أُفَكِّرُهُ ... إلاَّ وَأَنْتَ الَّذِي في السِّرِّ وَالفِكَرِ
فَانظُرْ بِسِرِّكَ سِرِّيْ إلى نَظَرِيْ ... إلى سِوَاكَ ولكِنْ غَيْرَ مُخْتَبِرِ
فإنْ وَجَدْتَ سِوَى التَّوحِيْدِ فِيهِ هَوًى ... إلى سِوَاكَ فَلا تُبْقِيْ وَلا تَذَرِ

قال: فلما تَجَلَّى رَبُّهُ جَلَّ جَلالُه لِلْجَبَلِ، فَخَرَّ مُوسَى في بَحْرِ الصَّعْقِ، فأَقْبَلَ سُهى العَقْلِ في فَلَكِ النَّفْسِ لَمَّا تَجَلَّتْ شَمْسُ العَظَمَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ غَوَّاصُ العَقْلِ إلى سَاحِلِ الإِحْسَاسِ فَرَقَ فَرَقِيَ ذِرْوَةَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إليكَ مَا انْبَسَطَ موسَى بقَوْلِ: ﴿أَرِنِي﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠] إلا بِبَسْطِ سَلْنِيْ، ولو مِلْحَ عَجِيْنِكَ، ولو تَرَكَهُ مَعَ رَعْيِهِ الغَنَمَ في شِعْبِ شُعَيْبٍ مَا جَالَ في ظَنِّهِ ذلكَ الطَّمْعُ، وَلكِن اسْتَدْعَاهُ بِالنِّدَاءِ وَآنَسَهُ بِالتَّقْرِيْبِ وبَاسَطَهُ بِالتَّكْلِيْمِ وهَيَّمَهُ بالسَّماع سواك.

هو سَكْرَانٌ بِالمُكالَمَةِ فلِمَ قالَ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ جَواب، لأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى السُّؤالِ ومَا أُذِنَ له. قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] لأَنِّي طَلَبْتُ الأَعْلَى، ومَقَامِي الأَدْنَى كَانَ مُوسَى يَطوف في بَنِي إسرائيلَ ويقولُ: مَنْ يُحَمِّلُنِيْ رِسَالةً إلى رَبِّي ما كَانَ مُرادُهُ إلاَّ أَنْ يُطَوِّلَ الحَدِيْثَ مَعَ الحبِيْبِ. ينشد:

فقُلتُ لَهُ كَرِّرِ الحديثَ الَّذِي مَعي ... فَذكرُكَ مِن ذاكَ الحَدِيْثِ أُرِيْدُ
يُجَدِّدُ تِذْكَارُ الحدِيْثِ مَوَدَّتِيْ ... فذِكْرُكَ عندِي وَالحَدِيثُ جَدِيْدُ
أُنَاشِدُهُ إلاَّ أَعادَ حَدِيثَهُ كَأَنِّي ... بَطِيءُ الفَهْمِ حِيْنَ يُعِيْدُ

ماتَ مُوسَى قَتِيْلَ شَوْقِ ﴿أَرِنِي﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠]، فَلَمَّا جَازَ نَبِيُّنا ﷺ ليلَةَ

المعراج رَدَّهُ في الصَّلَوَاتِ ارْجِعْ إلى ربِّكَ فَاسْأَلِ التَّخْفِيفَ لِيَسْعُدَ بِرُؤيةِ مَنْ قَدْ رَأَى. وينشد:

إنْ تُشَقَّ عَيْنِي بِهِمْ فَقَدْ سَعِدَتْ عَيْنُ رَسُوْلِيْ وَفُزْتُ بِالنَّظَرِ
وكُلَّما جَاءَنِي الرَّسولُ لَهُم رَدَدْتُ شَوْقًا في طَرْفَةِ نَظَرِيْ
تَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ مَحاسِنُهُم قَدْ أَثَّرَتْ فيهِ أَحْسَنَ الأَثَرِ
خُذْ مُقْلَتِيْ يَا رَسُولَ الله عَارِيَةً فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكِم عَلَى بَصَرِيْ

إخواني، إذا كانَ وصولُ البَدَنِ إلى الكَعبَةِ لا يَصِلُ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، فَكَيْفَ بِوُصُوْلِ القَلْبِ إلى صَاحِبِهَا؟ اسْمَعُوا يَا أَرْبَابَ العَزَائِمِ لِئَلَّا تَلُومُوا القَائِلَ مَنْ لَم يَبْذُلْ نَفسَهُ فِي الطَّرِيْقِ، فَالرَّأْيُ أَنْ يَرجِعَ مِنَ الكُوْفَةِ. شعر:

يَا صَاحِبَيَّ قِفَا عَلَيَّ بِقَدْرِ ما أَسْقِي بِوَاكِفِ عَبَرَاتِي أَطْلَالَهَا

يَا هَذَا أَيْنَ أَنْتَ وَالطَّرِيْقُ سَبِيْلٌ نُصِبَ فِيْهِ آدَمُ، ونَاحَ لأَجْلِهِ نُوْح؟ وَرُمِيَ في النَّارِ الخَلِيْلُ، وأُضْجِعَ لِلذَّبْحِ إسْحَاقُ، وَبِيْعَ يُوسُفُ بِدَرَاهِمَ، ونُشِرَ بِالمِنْشَارِ زَكَرِيَّاءُ، وذُبِحَ الحَصُوْرُ يَحْيَى، وَضَنَى بِالبَلاءِ أَيُّوبُ، وزادَ علَى المِقْدَارِ بُكَاءُ دَاوُوْدَ، وتَنَغَّصَ في المُلْكِ عَيْشُ سُليمانَ، وتَحَيَّرَ بِرَدِّ ﴿لَن﴾ [الكهف: الآية ١٤] مُوْسَى، وهَامَ مَعَ الوَحْشِ عِيْسَى، وعَالَجَ الفَقْرَ مُحَمَّدٌ ﷺ وعليهِم أجْمَعِيْنَ، وتُرِيْدُهَا أَنْتَ بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ. شعر:

فَيَا دِيَارَهُمْ بِالحُزْنِ إنَّ مَزَارَهَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُوْنَ ذَلِكَ أَهْوَالُ

أَوَّلُ قَدَم في الطَّرِيْقِ بَذْلُ الرُّوْحِ هَذِه الجَادَةُ فَأَيْنَ السَّالِكُ؟ هَذَا قَمِيْصُ يُوْسُفَ، فَأَيْنَ يَعْقُوْبُ؟ هَذَا طُوْرُ سِيْنَاءَ فَأَيْنَ مُوْسَى؟ يَا جُنَيْدُ أُحْضُرْ يَا شِبْلِيُّ، اسْمَعْ يَا ابْنَ أَدْهَمَ أَقْبِلْ. وينشد:

قِفْ بِالدِّيَارِ فَهَذِهِ آثارُهُمْ تُبْكِي الأَحِبَّةَ حَسْرَةً وتَشَوُّقَا
كَمْ لي وَقَفْتُ بِهَا أُسَائِلُ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُشْفِقًا
فَأَجَابَنِي دَاعِيَ الهَوَى في رَسْمِهَا فَارَقْتَ مَنْ تَهْوَى فَعِزَّ المُلْتَقَا

أَيْنَ القَوْمُ يَا قَومِ؟ مَرُّوْا بَيْنَ أَيْدِيْنَا ولَم يَبْقَ لَنَا سِوَى اللَّومِ.

إخواني، أَكْثِرُوْا مِنْ غَرسِ الطَّاعَاتِ؛ فإنَّهُ زَرْعٌ مَا عليهِ خَرَاجٌ.

إخواني، عَيْنُ العَقْلِ تَتَلَمَّحُ النِّهَايَاتِ، وَنَاظِرُ الحِسِّ لا يَصِلُ إلى الغَايَاتِ، العِلْمُ رَائِضٌ يُعَلِّمُ حُسْنَ الآدَابِ، والقَناعَةُ والصَّبْرُ وَالعَفْوُ وَالتَّوَاضُعُ وَالعُزْلَةُ عَقَاقِيْرُ كِيمْيَاءِ النَّجَاةِ، يُبَلِّغنَ لِمُسْتَعْمِلِهِنَّ مَرْتَبَةَ الغِنَاءِ، وَالحِرْصُ وَالشَّرَهُ والغَضَبُ وَالعُجْبُ وَالعُجْرُ كُلُّهُنَّ مَجانِيْنُ في مَارَسْتَانِ العَقْلِ، وَهُوَ القَيِّمُ عَلَيْهِنَّ فَلْيَحْذَرِ الغَفْلَةَ عَنْهُنَّ، فإنَّهُ إنْ أَفْلَتَ مَجْنُونٌ مِنْهُنَّ حَلَّ البَاقِيْنَ كَلَامِيْ سَهْمٌ لا يَكَادُ يُخْطِئُ الهَدَفَ أَبْلُغُ بِلَفْظِي مَنْزِلَ المَعْنَى ومَا طَالَ سَفَرُ العِبَارَةِ لا إلى هَذِهِ المَعَانِي لِطَافٌ. فَأَيُّ سِلْكِ فَهْم دَقَّ فَلْيُنْظَمْ فيهِ فَإنَّما يُنْظَمُ اللُّؤْلُؤُ في خَيْطٍ لا في حَبْلٍ إذَا مَرِضَتِ الأَفْهَامُ السَّلِيْمَةُ مِنْ وَبَاءِ طَعَام العِبَارَاتِ الرَّكِيْكَةِ عَمِلَ لَفْظِي في شِفَائِهَا وَلا رُئِيَ الهِند كَلِمٌ يُدَاوِيْنَ كُلَّ كَلِم جَوَاهِرُ كُلُّهَا بِيضٌ تُوْجَدُ مَفْقُودَةَ المِثَالِ، تَجَنَّبَ الغَائِصُوْنَ عَنْهَا عَجْزًا، وَجَاشَتْ بِحَارُهَا لِي، جَمَعْتُ بَيْنَ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ بانْتِخَابِيْ هَذِه المَعَانِيَ فَهِيَ تُنَادِي السَّامِعِيْنَ وُلِدْتُّ عَنْ نِكَاحٍ لاَ مِنْ سِفَاحٍ.

إخواني، المالُ دَرَجٌ لِلْعَاقِلِ إلى أقْرَبِ القُرْبِ، ودَرَكٌ للغَافِلِ إلى أَبْعَدِ البُعْدِ. وَا عَجَبًا يَتْعَبُ النَّاسُ في اسْتِخْرَاجِ الذَّهَبِ مِن بَواطِنِ المَعَادِنِ وَيَنْصِبُوْنَ في سَبْكِهِ وَتَصْفِيَتِهِ وضَرْبِهِ، فإذَا مَلَكَهُ البَخِيْلُ حفَرَ له الأَرْضَ وَأَعَادَهُ، ولَيْسَ هذَا بعجِيْبٍ مِنْ فِعْلِ الجَاهِلِ، فإنَّ جَوْهَر مَعْنَاهُ خَرجَ مِنْ أَرْضِ طَبْعِهِ. إنَّ تَوْفِيْرَ المالِ بِنَقْصِ الدِّيْنِ لَغَبْنٌ فَاحِشٌ، يَا مَنْ سَبَقَ نُظَرَاءَهُ بِجَمْعِ المَالِ لقَدْ لَحِقَتْكَ التَّبِعَاتُ، يَا حَسْرَةَ مَنْ يفرح بِشِبْرٍ مِنَ الدُّنْيَا يَنالُهُ، ولا يَحْزُنُ لِكَثِيْرٍ مِنَ الأُخْرَى تَفُوْتُه.
شعر:

إذَا كُنْتَ ذَا مالٍ ولَمْ تَكن رَاحِمًا   فَأَنْتَ كَذِي نَعْلٍ ولَيْسَ لَه رِجْلُ
وَإنْ تَكُ ذَا فَهْمٍ ولَمْ تَكُ وَاعِيًا   فَأَنْتَ كَذِي رِجْلٍ وَلَيْس لَهُ نَعْلُ

إخواني، مَيِّزُوْا بَيْنَ لَذَّةِ سَاعَةٍ وحَسْرَةِ سِنِيْنَ، اِحْذَرُوا مِنَ الدُّنْيَا الَّتِيْ مَلَكْتُموهَا قَبْلَ أنْ تَمْلِكَكُمْ، الرَّجُلُ مَنْ مَلَكَ الأَشْيَاءَ لاَ مَنْ مَلَكَتْهُ، وتَصَرَّفَ فيهَا لا مَنْ تَصَرَّفَتْ فيهِ كَثْرَةُ العَلَائِقِ عَوَائِقُ، وقَدْ وَقَعْتُم فِي الشَّرَكِ فَدَبِّرُوا إنْ قَدَرْتُمْ،

يَا بَعِيْدَ الخَلَاصِ، يَا مَطرُودًا عَن البابِ، يَا مَضْرُوبًا بِسَوْطِ الحِجابِ، لَوْ وَفَيْتَ بِعَهْدِهِم، مَا رَمَوْكَ بِصَدِّهِمْ، لَو أَقَمْتَ عَلَى وِدَادِهِمْ لَسَلِمْتَ مِن بِعَادِهِمْ، لَو كَاتَبْتَهُم بِدَمْعِ الأَسَفِ غَفَرُوا كلَّ مَا سَلَفَ، لَو تَعَلَّقَ العُصاةُ بِنَا لَوَجَدُونَا، لَوْ ذَاقُوا وَصْلَنا مَا هَجَرُونَا. وينشد:

يَا مَنْ هَجَرُوْا وجُلَتِيْ يَهْوَاهُم ... قَلْبِي سَكَنُوا فَلِمَ جَفَوْا مَأْوَاهُم
مَا أَطْيَبَ في فمي لَهُم ذِكْرَاهُمْ ... فَلْيَحْتَكِمُوا فليسَ لِيْ إِلاَّ هُمْ

وَا عَجَبًا لِمَاشٍ في طرِيْقِ العلم على مَحَجَّةِ الفِكْرِ كيفَ زَلَّتْ قَدَمُه؟ يَا عَاصِي، إِذَا تفَرْعَنَتْ عَليكَ نَفْسُكَ فَذَكِّرْهَا أَصْلَهَا مِن الماءِ وَالطِّيْنِ، فإن هَمَّتْ بِالزَّلَلِ فَعَرِّفْهَا قَدْرَهَا يَوْمَ سُجودِ الملائكةِ، ثم قُلْ لَهَا قد عَلمتِ مَا جَرى على أبيْكِ، وَيَكْفِيْكِ تَأْثِيرَاتُ المُخَالَفَاتِ عَلى مَقادِيْرِهَا قَوِيَتْ زَلَّةُ آدَمَ فَخَرَجَ عُرْيانًا، وكَانَتْ غَلْطَةُ يُوسُفَ هَمًّا فَقُدَّ القَمِيصُ مَنْ عَصَى قُرِعَ بِعَصَا، ومَنْ هَمَّ عُوْتِبَ بِهَمٍّ مَنْ نَسِيَ الاسْتِغْفَارَ ذَكَّرهُ العِقابُ، يَا مَغْبُونَ الرَّأْيِ قَدْ بَقِيَ مِنَ العُمْرِ شَفَقٌ، يَا قَلِيْلَ الزَّادِ وسَفَرُهُ بَعِيْدَ المَدَى مَا لم يَكُنْ لَكَ مُحَرِّكٌ مِنْ بَاطِنِكَ فَالخَلْقُ يَضْرِبُ في حَدِيْدٍ بَارِدٍ. وينشد:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيْشُ بِه ... ضَاعَ مِنِّيْ في تَقَلُّبِهِ
رَبِّ فَارْدُدْهُ عَلَيَّ فَقَدْ ... عِيْلَ صَبْرِي في تَطَلُّبِهِ
وَأَغِثْ مَا دَامَ بِيْ رَمَقٌ ... يَا غِيَاثَ المُسْتَغِيْثِ بِهِ

إخواني، قامَ الصَّالِحونَ عَلَى أَقْدَامِ الجِدِّ يُرَحِّلُوْنَ الرَّكَائِبَ ويَغْدُوْنَ المَسِيْرَ لِيَلْحقُوا الرَّعِيْلَ الأَوَّلَ، اسْتَقَامَتْ لَهُمُ الجَادَّةُ فَلَم يَعْرِجُوا اهْتِمَامًا بِالسَّبْقِ فَكَيْفَ يَلْحقُهُمْ أَعْرَجُ عَن تَرْكِ المَال، وَابْتَذَلُوا الأَسْمَالَ وصَانُوا ثِيَابَ الزِّيْنَةِ لِعِيْدِ القِيَامَةِ مَرْتَبَة الرُّتْبَةِ غَدًا تَتَبَيَّنُ جَدَّ القَوْمَ وهَزَلْتَ وسَتَبْكِي إِذَا صَعِدَ القومُ ونَزَلْتَ، اسْمَعْ يَا أَصَمُّ أَوْضَاع الحدِيْثِ مَعَكَ إِذَا أُرْعِدَتْ سَحائِبُ التَّخْوِيفِ انْزَعَجَ لَهَا قَلْبُ المُتَيَقِّظِ فَانْفَتَحَتْ أَصْدَافُ سِرِّهِ كَانْفِتَاحِ أَصْدَافِ البَحْرِ لِتَلَقِّي قَطْرَةَ التِّبْيَانِ فَقَطرتْ منها قَطَراتٌ عَقَّدَهَا لُؤْلُؤُ رَبِيْعِ العِرفَانِ، فَنَهَضَ القَلْبُ يَعْرِضُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الجواهِرِ فَتَلَقَّى بِالقَبُوْلِ، أَيُّهَا الغَافِلُ رَبِحَ القَوْمُ وَخَسِرْتَ، وسَارُوْا إِلى الحَبِيْبِ

مُسْرِعِيْنَ وَمَا سِرْتَ وقَامُوا بِالأَوَامِرِ، وَضَيَّعْتَ مَا بِهِ أُمِرْتَ وَسَلِمُوا مِنْ رِقِّ الهَوَى، وَاغْتَرَرْتَ فَأُسِرْتَ، فَالدُّنْيَا تَخْدِمُهُمْ، وَالسَّعَادَةُ تَقْدِمُهُمْ حِيْنَ يُحْشَرُونَ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

لَقَدْ شُوِّقْتُم إلى الفَضَائِلِ فَما اشْتَقْتُم، وزُجِرْتُم عَنِ الرَّذَائِلِ وَأَنْتُم في سُكْرِ الهَوَى مَا أَنْفَقْتُمْ، وَلَوْ حَاسَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وحَقَّقْتُمْ عَلِمْتُم أَنَّكُم بغيرِ وَثِيْقٍ، لو تَوَثَّقْتُمْ، فَاطْلُبُوا الخلاصَ مِن أَسْرِ الهَوَى فقد جَدَّ الطَّالِبونَ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ٢٦].

وَا أَسَفًا أَصِفُ وَأُصَفِّي وَيَشْرَبُ غَيْرِي، اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ خَطِّيْ لَفْظِي، اللَّهُمَّ سَدِّدْنَا في القَوْلِ والعَمَل، وَاعْصِمْنَا مِنَ الخَطَايَا والزَّلَلِ.

إلٰهِي ضَعْ في ضَعْفِيْ مِنَّةً، وَلاَ تُبَدِّلْ مِنْكَ ودَعْ فِي كَفِّيْ كَفًّا مِن غَيْرِكَ، ولا تبدل عَيْشَ الرَّوْحِ بِجَحِيْمِ حِرْصِ النَّفْسِ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوالِدِيْنَا ولجميعِ المسلمينَ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا محمَّد خَاتَمِ النَّبِيِّيْنَ وعَلى آله الطَّيِّبِينَ الطَّاهرين وسلَّم تَسْلِيمًا دائمًا كثيرًا كثيرًا، والحمد لله ربِّ العالمين.

المَجْلِسُ السَّابِعَ عَشَرَ
فِي قِصَّةِ مُوسَى والخَضْرِ عَلَيْهِما السَّلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصَحْبِهِ وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الَّذِيْ جَعَلَ العِلْمَ لِلْعُلَمَاءِ نَسَبًا، وَأَغْنَاهُم بِهِ وإنْ عَدِمُوْا مَالاً ونَسَبًا، وَلأَجْلِهِ سَجَدَتِ الملائِكَةُ كُلُّهم وَإبليسُ أَبى، وبِحِيْلَةِ العِلْمِ اتَّكَأَ إدريسُ في الجَنَّةِ وَاجْتَبَى، ولطَلَبِهِ قَامَ الكَلِيمُ ويُوشَعُ وَانْتَصَبَا، فَسَارَا إلى أنْ لَقِيَا في سَفَرِهِمَا نَصَبًا، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَدُوْمُ بدوام الزمان ما هَبَّتِ الجَنُوبُ وَصَبَا، وأُصَلِّي علَى رَسُولِهِ مُحمَّدًا أَشْرَفِ الخلَائِقِ عَجَمًا وعَرَبًا، وعلَى أَبِي بَكْرٍ الَّذِي أَنْفَقَ المَالَ ومَا زالَ حتَّى تَخَلَّلَ بِالعِبَا، وعلى عُمَرَ جَدِيْدِ الجِدِّ فَمَا يَعْرِفُ لَعِبًا، وعلى عُثمانَ الَّذيْ حَيَّتْهُ الشَّهَادَةُ فَقَالَ مَرْحَبًا، وعلى عَلِيٍّ الَّذِي مَا فَلَّ سَيْفُ شَجَاعَتِهِ قَطُّ سُبَا، وعلى عَمِّهِ العبَّاسِ العَالِي نَسَبُه على جِبَالِ الشَّرَفِ والرُّبَا.

قال الله العظيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٦٠]، مَعْنَى الكَلام: اذكُرْ يا مُحَمَّدُ، إِذْ قالَ مُوسَى وهُوَ مُوسى بنُ عِمْرَانَ وَفَتَاهُ يُوْشَعُ بْنُ نُوْنٍ، وَإِنَّمَا سُمِّي فَتاهُ؛ لأنَّه كانَ يُلازِمُهُ ويَأْخُذُ عنهُ العِلْمَ ويَخْدِمُه فيه.

لا أَزَالُ أَسِيْرُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ، أي: مُلْتَقَاهُمَا وهُوَ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ بِلِقَاءِ الخَضِرِ فيهِ. قال قتادَةُ: هُو بَحْرُ فَارِسٍ وبَحْرُ الرُّوْمِ وهُمَا يَلْتَقِيَانِ، فَبَحْرُ الرُّومِ نَحْوَ المَغْرِبِ، وبَحْرُ فَارِسَ نَحْوَ المشرِقِ، وفي اسمِ البَلَدِ الَّذِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ قولان؛ **أَحَدُهُمَا**: أَفْرِيْقِيَّة، قالَه أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ. **والثاني**: طَنْجَةُ، قالَه مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ.

وسَبَبُ ذَلِكَ: لَمَّا عَلَا أَشْرَفُ الكَلِيْمِ بِالتَّكْلِيْمِ على كُلِّ شُرَفٍ قَالَ لَهُ قَوْمُه: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قالَ: أَنَا، ولم يَقُلْ فيمَا أَعْلَمُ مَنْ صَعِدَ على مَنْصَبةٍ أَنَا أَعْلَمُ أُنْزِلَ إلى دَرَجَةِ ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، يَا مَنْ يَرتَقِي إِلى مَرتَبَةِ التَّكْلِيْم أُنْزِلَ مَرْتَبَةَ التَّعْلِيم، فَابْتُلِيَ فيمَا أَقَرَّ بِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ مُوسَى عليه السلام قامَ بَيْنَ يَدَي الخَضِرِ كما يَقُومُ السَّلِيْمُ بَيْنَ يَدَي الأَعْلَم. قالَ وَهبُ: اسْمُهُ الْيَسَعُ. وقال ابْنُ المُبَارَكِ: إِرْمِيَا، وهَل كانَ نَبِيًّا فيه قولان:

فابْتِلَاءُ مُوْسَى بِسُؤَالِ ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: الآية ٦٦]؟ فَتَلَقَّاهُ بِرَدِّ: ﴿لَن﴾ [الكهف: الآية ٦٧] دَنَا إلى الخَضِرِ لِلتَّعْلِيم فلَفَظَهُ بلَفْظِ ﴿لَن﴾ [الكهف: الآية ٦٧]، ثُمَّ زَادَهُ مِنْ زَادِ الرَّدِّ بِكَفٍّ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ [الكهف: الآية ٦٨]؟ فلَمَّا سَامَحَه في نَوْبَةِ السَّفِيْنَةِ قالَ مُوسَى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [الكهف: الآية ٧٦].

عَلِمَ أَنَّ الصُّحْبَةَ لا سَبِيْلَ إليهَا فَوَقَعَ الشَّرْطُ من موسى، فقالَ الخَضِرُ: الحمدُ لله الذي وَقَعَتِ الفُرقَةُ مِن مُوسَى لا مِنِّي، وقَدْ كُنْتُ أنا أَرَدْتُ ذَلِكَ؛ لأَنِّي لَوْ صَحِبْتُه أكثرَ مِن ذَلِكَ لافْتَضَحْتُ، لأَن المُرادَ مِنِّيْ أن أُدِّبَ في ثلاثٍ هَذِهِ ثَلاثٌ مَا بَقِيَ قَيْدٌ في رِجْلِ شَرْط الصُّحبَةِ، ووَاجَهَهُ بالعِتَابِ في كَرَّةِ الغلامِ أَرَاقَ مَاءَ الصُّحبَةِ في حَالِ الجِدَار ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: الآية ٧٨].

ثُمَّ فَسَّرَ لَهُ سِرَّ المُشْكِل، فَجَعَلَ يَشْرَحُ القَصَصَ فَصلًا فَصْلًا بِقَوْلِ قَائِلٍ يَقُوْلُ: فَصْلًا، وكُلَّمَا ذَكَرَ أَصْلًا أَصْلًا لَمْ يَبْقَ لِمُوسى عَيْنٌ تَراهُ أَصْلًا، وكُلَّمَا سَلَّ مِنْ حَدِّ العِتَابِ نَصْلًا صَاحَ لِسَانُ حَالِ مُوْسَى: كَمْ فَصْلًا: فَأَلْقَى تَفْسِيْرَ الأُمُوْرِ عَلَى الكَلِيْم، وَأَمْلَى وَالقَدَرُ يَقُوْلُ هُوَ أَعْلَمُ أَمْ لا؟ فَعَلِمَ مُوْسَى وَيُوْشَعُ أَيَّ عَبْدٍ، أَمَّا مُنْذُ ابْتَدَأَ الشَّرْحَ بـ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ [الكهف: الآية ٧٩].

ثُمَّ أَخَذَ لِسَانُ العِتَابِ بِذِكْرِ مَنْسِيِّ مُوْسَى أَتُنْكر خَرْقَ السَّفِيْنَةِ لِظَاهِرِ إِفْسَادِ نَظْمِ ضِمْنُهُ صَلَاحٌ ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩]، أَوَ تُنْكِرُ إِتْلَافَ شَخْصٍ دَنِيٍّ لإِبْقَاءِ دِيْنِ شَخْصَيْنِ؟ أَوَ كَرِهْتَ إِقَامَةَ الجِدَارِ لِشُحِّ أَهْلِ القَرْيَةِ بِالقِرَى؟ أَقَارَنْتَ أَنْتَ مِنَ الأصفِيَاءِ مُعَامَلَةَ البُخَلَاءِ يَا مَنْ عَامَلَهُ بِالبُخْلِ؟ أَمَا تَلَمَّحْتَ سِرَّ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ؟ لَقَدْ أَنْكَرْتَ مَا جَرَى لكَ مِثْلُه فَضُرِبَ لَكَ هَذَا مَثَلًا، حَذَّرْتَ يومَ السَّفِينَةِ مِنَ الغَرْقِ فَصِحْتَ بِإِنْكَارِ ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ [الكهف: الآية ٧١]؟

أَنَسِيْتَ يَوْمَ ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: الآية ٧]؟ وَكَأَنَّكَ لاَ تَذْكُر انْفِلَاقَ البَحْرِ لَكَ، أَنْكَرْتَ أقتلت نفسًا بغير نفس؟ أَنَسِيْتَ يوم ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: الآية ١٥] نَهَيْتَ عَنْ عَمَلٍ بِلَا أَجْرٍ؟ أَنَسِيْتَ يَوْمَ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القَصَص: الآية ٢٤]؟

فَلَمَّا أَبَانَ الْبَيَانَ خَرَجَ الخَضِرُ مِنَ دَارِ الدَّعْوَى، وَأَخْرَجَ يَدَهُ مِن مِلْكِ التَّصَرُّفِ، وأَحَالَ الحَالَ إلى مَن لا يَحُوْلُ ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: الآية ٨٢].

فحِينَئِذٍ أَيْقَنَ التِّلْمِيْذُ بِالتَّأْدِيْبِ. وهَذِهِ القِصَّةُ قَدْ حَرَّضَتْ على جَمْعِ رَحْلِ الرَّحِيْلِ في طَلَبِ العِلْمِ وعَلَّمَتْ كَيْفِيَّةَ الأَدَبِ في كَفَّةِ كَفِّ الاعْتِرَاضِ على العَالِمِ، وَأَشَارَتْ إلى العَالِمِ بِنَفْيِ دَعْوَى الاسْتِقْلَالِ فصَاحَ نَصِيْحُهَا بِذِي اللُّبِّ: يَا صَاحِ دَعْ دَعْوَاكَ فعلَى دَعْوَى كَلِيْمٍ لِيْمَ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٦]. شعر:

أُطْلُبِ العِلْمَ يَا فَتَى إِنَّما العِلْمُ بِالطَّلَبِ
رَحِمَ الله مَنْ قَرأَ وَدَعَا لِلَّذِيْ كَتَبَ
لَو قَرُبَ الدُّرُّ عَلَى طُلَّابِهِ
مَا لَجَجَ الغَائِصُ في طِلَّابِهِ
لَوْ أَقَامَ لأَزِمَّا أَصْدَافَهُ
لَم يَكُنِ التِّيْجَانُ فِي حِسَابِهِ
مَا لُؤْلُؤُ البَحْرِ وَلاَ مَرْجَانُهُ
إلاَّ وَرَاءَ الهَوْلِ مِنْ عُبَابِهِ
مَنْ يَعشَقِ الحَسْنَاءَ يَلْقَ عِنْدَهَا
مَا يَلْقَى المُحِبُّ مِنْ أَحْبَابِهِ

قال رسول الله ﷺ: «**مَا سَلَكَ عَبْدٌ طَرِيْقًا إلَى العِلْمِ إلاَّ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ**».

قالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: العَالِمُ أَشَدُّ عَلَى إِبْلِيْسَ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، ولَوْ أَنَّ عَابِدًا مَاتَ في الإِسْلَامِ مَا نَقَصَ في الإِسْلَام إلاَّ شَخْصُه، ولَو أنَّ عَالِمًا مَاتَ لَفَقَدَتْهُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ، ومَا نَقَصَ عالِمٌ مِنَ الأَرْضِ إلاَّ تَثَلَّمَ في الإِسْلَامِ ثُلْمَةٌ لاَ تُسَدُّ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَإِنَّ الملائِكةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضَاءً لَهُ بِمَا يَصْنَعُ، ولِمَدَادٌ جَرَتْ بِهِ أقْلَامُ العُلَمَاءِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ. وَلَيَوَدَّنَّ رِجَالٌ قُتِلُوا في سَبِيْلِ اللهِ أنْ يَبْعَثَهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عُلَمَاءَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ فَضْلِ أَهْلِ العِلْمِ. ألا وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوْا دَرَاهِمَ ولا دَنَانِيْرَ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَصابَ عِلْمًا فَقَدْ أَصَابَ مِنْ خَيْرَي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ بارَزَ اللهَ بِالمُحَارَبَةِ.

وَاعْلَم أنَّ العِلْمَ وَالعَمَلَ تَوْأَمَانِ أُمُّهُمَا عُلُوُّ الهِمَّةِ.

أَيُّهَا الشَّابُّ: جَوْهِرْ نَفْسَكَ بِدِرَاسَةِ العِلْمِ وَحُلَّهَا بِحِلْيَةِ العَمَلِ، فَإِن قَبِلْتَ نُصْحِي لم تَصْلُحْ إلاَّ لِصَدْرِ سَرِيْرٍ أَوْ لِذِرْوَةِ مِنْبَرٍ، ومَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ لَمْ يَدْرِ مَا مَعَهُ.

أَيُّهَا العَالِمُ: تَثَبَّتْ عَلَى المُبتَدِي ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: الآية ١١] فالْعَالِمُ رُسُوْخٌ وَالمُتَعَلِّمُ قَلِقٌ. وَيَا أَيُّها الطَّالِبُ: تَواضَعْ في الطَّلَبِ، فَإِنَّ التُّرَابَ لَمَّا ذَلَّ لأَخْمَصِ القَدَمَيْنِ صَارَ طَهُوْرًا لِلْوَجْهِ، ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء: الآية ٤٣]، دُمْ عَلَى حُضُوْرِ المَجْلِسِ. فَالطِّفْلُ يَحْتَاجُ في كُلِّ سَاعَةٍ إلى الرَّضَاعِ، فَإِذَا صَارَ رَجُلًا صَبَرَ عَلَى الفِطَامِ.

وَاعْلَمْ أنَّ طَرِيْقَ الفَضَائِلِ مَشْحُونَةٌ بِالقَضَاءِ لِيَرْجِعَ عَنْها مُخَنَّثُ العَزْمِ. شعر:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوْهُ صَانَهُمْ ... ولَوْ عَظَّمُوْهُ في النُّفُوسِ لَعَظَّمَا
أَغْرِسُهُ عِزًّا وَأَجْنِيْهِ ذُلَّةً إذًا ... فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَسْلَمَا

إخواني، مَنْ ذَبَحَ حَنْجَرَةَ الطَّمْعِ في الدُّنْيَا بِخَنْجَرِ البَأْسِ أَعْتَقَ القَلْبَ مِنْ

أَسْرِ الرِّقِّ، مَنْ دَفَنَ خَنْدَقَ الحِرْصِ بِشُكْرِ القَنَاعَةِ ظَفِرَ بِكِيْمِيَاءِ السَّعَادَةِ، مَنْ قَطَعَ فُضُولَ الكَلَامِ بِشُفْرَةِ الصَّمْتِ وَجَدَ عَذُوْبَةَ الرَّاحَةِ في القَلْبِ، مَن رَكِبَ مَرْكَبَ الخَوْفِ جَرَتْ بِهِ رَجَاءُ الهُدَى إلى أَرْجَاءِ النَّجَاةِ. شعر:

قُـرَّةَ عَـيْـنِـيْ أنـا الـغـرِيـق فـخـذي   أَوْجَـشَ بَـيْـنِـيْ وَبَـيْـنَـكَ الـزَّلَـلُ
قُـرَّةَ عَـيْـنِـي أَنَـا الـغَـرِيـقُ فَـخُـذْ   كَـفَّ غَـرِيْـقٍ عَـلَـيْـكَ يَـتَّـكِـلُ

أَيُّهَا المُرِيْدُ: قُلْ لقَلبِكَ الرَّاعِيْ في رِيَاضِ الهُدَى احْذَرْ مِنْ لَفْتَةٍ إلى خَضْرَاءِ الدِّمَنِ، فَمَرْعَاكَ أَطْيَبُ وَشَرَابُكَ أَعْذَبُ، ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: الآية ٣٢]. يَا هَذَا، النُّفُوْسُ كَالأَسْرَى في سُجُوْنِ الأَبْدَانِ فَغُلَّهَا في النَّزَاهَةِ عَنْ أَدْنَاسِ الأَجْسَادِ، لَعَلَّهَا تَبْقَى عَلَى شَرَفِهَا الأَرْوَاحُ، طُيُورٌ سَماوِيَّةٌ حُبِسَتْ في أَقْفَاصٍ شَهَوَانِيَّةٍ.

إخواني، الـمُحَرَّمَاتُ حَرَمٌ، ونَظَرُ المملوكِ إلى حَرَمِ المالِكِ مِنْ أَقْبَحِ الجِنايَةِ، مَن دَقَّ في اليَوْمِ نَظَرُهُ جَلَّ في القِيَامَةِ خَطَرُهُ. وينشد:

لاَزَمْتُ بَـابَـكَ مُـشْـتَـاقًـا وَلِـيْ أَمَـلٌ   فَـهَـلْ يُـبَـلِّـغُـنِـيْ شَـوْقِـيْ إِلَـى أَمَـلِـيْ
وَحَقِّ عِـزِّكَ لاَ خَـلَـوْتُ مُـنْـصَـرِفًـا عَـنْـهُ   إلـى أنْ يُـوَافِـي الـمَـوْتُ بِـالأَجَـلِ

يَا عَاصِيْ: أَتْعَبْتَ الكَاتِبَ وَسَوَّدْتَ الدَّفَاتِرَ، يَا مَطْلُوبًا أَيْنَ الفِرَارُ فَقَدْ أَدْرَكَكَ الطَّالِبُ لاَ تَثِقْ بِوَعْدِ الأَمَلِ وَعْدُ الأَمَلِ كاذِبٌ، عَصَفَتْ رِيَاحُ الذُّنُوبِ فَأَطْفَأَتْ ذُبَالَةَ القُلُوْبِ، أَوَّاهُ لِعَاصٍ مُذْنِبٍ مَحْجُوْبٍ مُعَذَّبٍ مَكْرُوْبٍ، يَا عَاصِيْ: الجَنَّةُ فَوْقَكَ تُزَخْرَفُ، وَالنَّارُ تَحْتَكَ تُوْقَدُ، وَالقَبْرُ عَن قَلِيْلٍ يُحْفَرُ، ورُبَّمَا كَانَ كَفَنُكَ اليَوْمَ يُغْزَلُ وَأَنْتَ عَلَى المَعَاصِيْ دَائِمٌ، أَيَقْظَانٌ أَنْتَ اليومَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ، يَا مَنْ بَلَغَ عُمْرُه سِتِّيْنَ قَدْ دَرَنَ جِسْمُ قَلْبِكَ بِالذُّنُوبِ؟ يَا مَنْ قَلْبُهُ أَعْمَى بَيْنَ القُلوب، يَا عاصِي: إذَا رَأَيْتَ مُذْنِبًا قَدْ نَهَضَ فَاتَّبِعْ إِثْرَهُ، فَإِنَّ الكَرِيمَ يَسْتَحيِي مِن رَدِّ الطُّفَيْلِيِّ إلى كم هذا التَّأَخُّرُ. وَا عَجَبًا بَوْمَةُ مَنِيَّتُكَ تَنُوْحُ في خَرابِ بَدَنِكَ عَلَى أَطْلَالِ عُمرِكَ. أَبَقِيَ اللَّهْو على بَعْدَ الكِبَرِ مَوْضِعٌ؟ كَلَّا لِكُلِّ سِنٍّ سَنَةٌ. شعر:

طَـوِيْـلُ الـعُـمْـرِ فـي الـدُّنْـيَـا قَـصِـيْـرُ   وغَـايَـةُ كُـلِّ مَـا يَـفْـنَـى يَـسِـيْـرُ
ومـا أَحَـدٌ عـلَـى الأَيَّـامِ يَـبْـقَـى   وَكُـلُّ سَـلَامـةٍ فـيـهَـا غُـرُوْرُ

يَحُثُّ بِنَا المَسِيْرُ إلى المَنَايَا ... تُخَالُ بِنَا لِسُرْعَتِهَا تَطِيْرُ
وَأَحْسَنُ حالةِ الإِنْسَانِ فِيهَا ... كِفَافُ العَيْشِ وَالعَمَلُ الكَثِيْرُ

يَا هَذَا لَيْلُ الهوى مُظْلِمٌ، فَأَوْقِدْ مِصْبَاحَ الفِكْرِ تَرَى العَواقِبَ، يَا مَنْ لَمَعَ لَهُ سَرَابُ الأَمَلِ فَبَدَّدَ مَاءَ الاِحْتِيَاطِ، أَتَرَاكَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الأَمَانِي خِمَارٌ؟ وَيْحَكَ متى تَلْمَحُ العَواقِبَ فَترى نَفْعَ الصَّبْرِ؟ أَتَمْلِكُ أَنْ تَقْبِضَ يَدَكَ عِندَ مُحَرَّمٍ، لِتَبْسُطَ لِسَانَكَ في سُؤَالِ ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥]. غَضُّ البَصرِ تَجْتَلِبُ لِلقَلْبِ النُّورَ وَإِطْلاقهُ يُوْقِدُ في الفُؤادِ النَّارَ؛ لأَنَّهُ غَلْقَةٌ لِنَارِ الهَوَى، وَإِنَّهُ لَسَيْفٌ يَقَعُ في الضَّارِبِ. شعر:

يَا أَيُّهَا الخَالِيْ بِلَذَّاتِهِ ... ابْكِ عَلَى المَوْتِ وَغُصَّاتِهِ
وَمَصْرَعٍ مِنْهُ عَلَى غِرَّةٍ ... وَعِلَّةٍ مِن بَعْضِ عِلَّاتِهِ
وجَاهِلًا عن قُرْب سيقانه ... فكيف يعبر به ساعاته
فَكَيْفَ تَغْتَرُّ بِهِ سَاعَةً ... لَعَلَّهَا وَقْتُ مُوَافَاتِهِ
مَا لَكَ أصبحت به مُوقِنًا ... وجَاهِلًا عَنْ قُرْبِ مِيقَاتِهِ
كَمْ مُصْبِحٍ صَارَ بِهِ آمِنًا ... قَدْ غَيَّرَ الإِمْسَاءُ حَالاَتِهِ

سُبْحَانَ مَنْ يُرسِلَ رِيَاحَ المواعِظِ فَتُثِيْرُ في قلُوبِ المُتَيَقِّظِيْنَ غَيْمَ الغَمِّ عَلَى مَا سَلفَ فَتَسُوقُهُ إِلَى بَلَدِ الطَّمْعِ المُجْدِبِ بِرَعْدِ الوَعْدِ وبَرْقِ الخَشْيَةِ، فَتَرْقَى دُموعُ الأَحْزانِ مِنْ قَعْرِ بَحْرِ القَلْبِ إِلَى أَوْجِ الرَّأْسِ فَتَسِيْلُ في مَيَازِيْبِ الشُّبُؤونِ على سُطُوْحِ الوَجَنَاتِ، وَإِذَا أَعْشَبَ السِّرُّ يَهْتَزُّ فَرَحًا بِالإِبَانَةِ. وينشد:

ومَا تَطابَقَتِ الأَجْفَانُ عَنْ سِنَةٍ ... إِلاَّ وَجَدْتُكَ بَيْنَ الجَفْنِ وَالحَدَقِ
هَلْ يَنامُ حَزِيْنٌ مُوْجَعٌ قَلِقٌ ... أَجْفَانُهُ وُكِّلَتْ بِالسُّهْدِ وَالأَرَقِ
شَغَلَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا ... وَأَنْتَ وَالرُّوحُ شَيْءٌ غَيْرُ مُفْتَرَقِ
فكَمْ تُعَذِّبُهَا بِالصَّدِّ يَا أَمَلِيْ ... ارْحَمْ بَقِيَّةَ مَا فيهَا مِنَ الرَّمَقِ

أَيُّها الغافلُونَ: إلى كَم أَهُزُّ أَشْجَارَ القُلُوبِ في رَبِيْعِ التَّفَكُّرِ بِرِيْحِ المَوَاعِظِ وَمَا تَسْقُطَ ثَمَرَةٌ مِنْ فَنَنِ النَّدَمِ؟ يَا مَنْ خَيَّمَ الهَوَى في صَحْراءِ قَلْبِهِ أَقْلعِ

الأَطْنابَ فَقَدْ ضُرِبَ بُوْقُ الرَّحِيْلِ.

أَمَا تَسْمَعُ صَوْتَ السَّوْطِ في طَرِيْقِ الأَمَلِ؟ أمَا تَرَى عَجْلَةَ الشَّيْبِ وقُرْبَ الأَجَلِ؟ الشَّيْبُ أَذَانٌ، وَالمَوْتُ إقَامَةٌ، أَوَلَسْتَ عَلَى الطَّهَارَةِ؟ وَيْحَكَ عَجِّلْ تَطْهِيْرَ النَّفْسِ.

أَمَا خَوَّفَنِي أنْ يَكُونَ الكَدِرُ في أَصْلِ الوَضْعِ الهبَاتُ ذَاهِبَاتٌ، وَالمَنَايَا سَالِبَاتٌ. الدُّنْيَا وَإنْ أَتَتْ فَأَتَتْ وأَنْتَ تَعْمُر الدُّنيَا بِجِسْمٍ عَن قَليلٍ يَنْهدِمُ إذَا ذَهَبَ مِنكَ ذَهَبٌ ذَهَبْتَ تَبْكِي عليهِ، وَحُكمُ الفَنَاءِ دَائِمٌ في قَصِّ ثَوْبِ العُمْرِ ومَا تُحِسُّ بِهِ القلبُ غَائِبٌ فَمَنْ تُعَاتِبُ. شعر:

شَكَوْنَا إلى أَحْبَابِنَا طُوْلَ لَيلِنَا فقالُوا لَنَا مَا أَقْصَرَ اللَّيلَ عندَنَا
وَذَلِكَ بِأَنَّ النومَ يَغْشَى عُيُونَهُم ونَحْنُ فلا يَغْشَى لنَا النَّوْمُ أَعْيُنَنَا

شعر:

الشَّيْبُ مِثْلُ الشَّمْسِ عِند غُروبِهَا فَغِيْبُهَا في وَقْتِهَا مُتَوَقَّعُ
وكذا المَنِيَّةُ لِلشُّيُوخِ بِمَرْصَدٍ عَمَّا قليلٍ كَأْسُهَا يَتَجَرَّعُ

يا هَذَا ما كانَ في مَا مَضَى عُمرُكَ وزَمَانُكَ مِنَ اللَّعْبِ مَا كَفاكَ؟ ولا في مَا رَأَيتَ مِن تَغَيُّرِ أَحْوالِكَ مَا وَعَظَكَ ونَهَاكَ، ذَهَبَ العُمْرُ في كَسْبِ مَا يَضُرُّ وأَتَيْتَ الآخِرَةَ بِمَا لا يَسُرُّ.

حكاية:

قال بعْضُ السَّادَة الصالحين: كانَ إلى جَانِبِيْ رَجُلٌ كَثيرُ الغِرَّةِ شَدِيْدُ الحِرْصِ على الدُّنْيَا، فرَأَيْتُه بعدَ موتِهِ في المَنامِ، فَقُلْتُ لَه: أَنْتَ فُلانٌ؟ قالَ: نَعَمْ. فقلتُ: لَعَلَّكَ اسْتَرَحتْ مِن تَعبِكَ وسَكَنْتَ مِنْ نَصَبِكَ؟ فقال: هَيهَات، إنَّمَا نُقِلْتُ مِنْ تَعْبٍ إلى تَعْبٍ، كنتُ في تَعْبِ الآمَالِ، وأَنا اليومَ في تَعْبِ المُحَاسَبَةِ وَالسُّؤَالِ وَانْتِظَارِ حَمْلِ المقامِعِ وَالأَغْلَالِ، فَفَرِّقْ أَحْوَالِي بِحَالِي وَحَدِّثْهُمْ مَوْقِفِيْ وَسُؤَالِيْ. فَأنشدته:

مَا زِلتَ في ضُرٍّ تُكَابِدُه حتَّى قَطَعْتَ العُمُرَ خُسْرَانًا

وأَتَـيْـتَ بِـالأَوْزَارِ تَـحْـمِـلُـهَـا لا كَـانَ مَـا كَـانَ مِـنْـكَ لا كَـانَـا
وتَـرِكْـتَ أَحْـزَانًـا بُـلِـيـتَ بِـهَـا وَرَأَيْـتَ فِـي عُـقْـبَـاكَ أَحْـزَانًـا
فَـعَـسَـى الـكَـرِيْـمُ يُـتِـمُّ نِـعْـمَـتَـهُ وَيُـعِـيْـدُ ذَلِـكَ الـسُّـؤَالَ إِحْـسَـانَـا

إخواني، ابْكُوا على ساعَةٍ لا بُدَّ منهَا، أَمَا تَرَوْنَ المَوْتَ قَدْ أَفْنَى الأُمَمَ الماضِيَةَ؟ وهَدَمَ القُصُوْرَ العَالِيَةَ، وعَطَّلَ عِشَارَهُمْ وَخَرَّبَ دِيَارَهُم، قَدْ صَارُوْا في القُبُورِ رَمِيْمًا، وَلَقُوْا وَاللهِ مِنْ أَهْوالِ المَوْتِ أَمْرًا عَظِيمًا.

إخواني، الموتُ يَقْصِمُ الأَصْلابَ، ويُذِلُّ الرِّقَابَ، وَيَرُدُّ كُلَّ مَخْلُوقٍ إلى التُّرَابِ، فَيُقَرِّبُ المُؤْمِنَ إلى الخَيْرِ وحُسْنِ المَآبِ، ويَسُوقُ الفَاجِرَ إلى أَلِيْمِ العَذَابِ، مَسَاكِيْنُ أَهْلِ الذُّنوبِ لا بِالقُرآنِ عَمِلُوْا، ولا في المَوْتِ تَفَكَّرُوا.

إخواني، أَمَا تَكُونُونَ مِنَ الموتِ على حَذَرٍ. وينشد:

جَـرَرْتَ أَيَّـامَ الـبَـطَـالَـةِ لاَهِـيًـا كَـأَنَّـكَ لـم تُـكْـتَـبْ عـلـيـكَ ذُنُـوْبُ
وأَمْـلَـيْـتَ كِـتَـابَ الـشِّـمـالِ سَفَـاهَـةً بِـكَـثْـرَةِ مَـا تَـأْتِـي ولَـسْـتَ تَـتُـوْبُ
ومَـهْـمَـا يَـغِـبْ عَـنْـكَ الـحَـمَـامُ لِـمُـدَّةٍ سَـتَـبْـلُـغُـهُ حَـتْـمًـا وأَنْـتَ كَـئِـيْـبُ
فَـقُـلْ لـي إذَا وَافَـى عَـلـى غَـيْـرِ أُهْـبَـةٍ بِـأَيِّ جَـوَابٍ إذا دُعِـيْـتَ تُـجِـيْـبُ

يا هَذَا، أُصْدُقْ في بَاطِنِكَ تَرَى مَا تُحِبُّ في ظَاهِرِكَ، إِذَا أَرَدْتَ العُلُوَّ فَارْتَقِ دَرَجَةَ التَّقوَى، وَإِنْ شِئْتَ العِزَّ فَضَعْ جَبْهَةَ التَّواضُعِ، وَإِنْ آثَرْتَ الرِّئَاسَةَ فَارْفَعْ قَواعِدَ الإِخلاصِ. لَـمَّا سَلَّـمَ الـخَلِيْلُ جَاءَ لُطْفُ ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩]. وَاسْتَسْلَمَ الذَّبِيْحُ فَأَتَى رِفْقُ ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٧].

إخواني، وينشد:

مِنْ أَجْلِ هَـوَاكُـم هَـوِيْـتُ الـعِـشْـقَـا قَـلْـبِـي كَـلِـفٌ ودَمْـعَـتِـيْ مَـا تَـرْقَـا
فـي حُـبِّـكُـمْ مَـا يَـهُـونُ مَـا قَـدْ أَلْـقَـا مَـا يَـظْـفَـرُ بـالـنَّـعِـيْـمِ مَـنْ لا يَـشْـقَـا
يَا هَذَا، لَو شَرَحْتَ صَدْرَكَ لِسَماعٍ مَـا قُـلْـنَـا لاَسْـتَـرَحْـتَ وَاسْـتَـرَحْـنَـا

اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِنْ قُبحِ التَّصَنُّعِ وَالدَّعْوَى، وسَلِّمْنَا مِن شِدَّةِ البَأْسِ والبَلْوَى،

وامنُنْ علينَا بحُسْنِ الخَلاصِ وَالتَّقْوَى، فَنَحْنُ العَبِيْدُ وَأَنْتَ المَوْلَى.

اللَّهُمَّ تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِذَلكَ، ونَجِّنَا مِنْ مَصَارِعِ العَطَبِ والمَهَالِكِ، وَاسْتُرْنَا بِسَتْرِكَ الجَمِيْلِ، وَجُدْ علينَا بفَضْلِكَ الجَزِيْلِ، وَانْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّنَا في كُلِّ مَسْلَكٍ وسَبِيْلٍ، وَاجْعَلْ كلامَنا هَذَا خالِصًا لوَجْهِكَ الكَرِيْمِ، وَاصْرِفْ عَنَّا بعَفْوِكَ عذَابَ الجَحِيْمِ، وَطَيِّبْ وَقْتَنَا بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ الكَرِيْمِ، وصَلَّى الله على سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، مَا هَبَّ نَسِيْمٌ وَسَجَعَ وُرْقٌ بِصَوْتٍ رَخِيْمٍ، وسَلِّم تَسليمًا كثيرًا، والحَمْدُ لله رَبِّ العالَمين.

المَجْلِسُ الثَّامِنَ عَشَرَ
فِي قِصَّةِ بلعام بن بَاعُورْ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سَيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي إذَا أَلْطَفَ أَعَانَ، وإذَا عَطَفَ صَانَ، أَكْرَمَ مَنْ شَاءَ كَمَا شَاءَ وَأَهَانَ، وأَخْرَجَ الخَلِيلَ مِن آزَرَ وَمِن نُوحٍ كَنْعَانَ، يُمِيْتُ ويُحْيِيْ ويُغْنِي وَيُبْقِي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩].

يُزَيِّنُ بِمَوْهِبَةِ العِلْمِ فإذَا لَمْ يَعْمَلْ بِهِ شَانْ. خَلَعَ خِلْعَةَ العِلْمِ على بَلْعَامَ فلم يَصُنْهَا. ومَالَ بِهَواهُ إلى مَا عَنْهُ يُنْهَى، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥].

أَحْمدُهُ في السِّرِّ وَالإِعْلَانِ، وأُصَلِّي على رَسُولِهِ محمَّدٍ الَّذِي انْشَقَّ ليلةَ وِلادَتِهِ الإِيْوَانُ، وعَلَى أبي بكرٍ أَول مَن جَمَعَ القُرْآنَ، وعَلَى عُمَرَ المَوصُوفِ بِالعَدْلِ وكَذلِكَ كانَ، وعلى التَّقِيِّ الحَيِيِّ عُثمانَ، وعلى عَلِيٍّ سَيِّدِ العُلَمَاءِ وَالشُّجعَانِ، وعلى عَمِّهِ المُستَسْقَى بِشَيْبَتِهِ التُّهْتَانُ.

أَيُّهَا المُتَعَبِّدُ، خَفْ مِنَ الفِتَنِ ولا تَأْمَنْ، فَكَمْ أُخِذَ آمِنٌ فِي مَأْمَنٍ، إنَّهُ لَم يَنْجُ مِن غُصَامِصِ بَحْرِ الفِتَنِ الأَعْظَم، حَافِظُ الاسْم الأَعْظَم، بَلْ عَامَ بَلْعَامُ وَإِنْ عَامَ، فَكَمْ نَسِيَ الإِنْعَامَ، رَفَلَ في حُلَلِ النِّعَم كَالنَّعَم، غَافِلًا لا يَتَعَامَى عَنِ المُنْعِمِ، كانَتْ بَيْتُه بِنَّةَ تَعبُّدِهِ على رَمْلِ الرُّبَا، فَجرَتْ تَحْتَهَا أنهارُ التَّجْرِبَةِ فَانْهَارَ بُنْيَانُهَا فَخَرَّتْ، كانَ على دِيْنَارِ دِيْنِهِ وَرَقَةٌ رَقَّتْ، فَأَعْجَبَتْ نَظْرَةُ نَواظِرِ النَّاظِرِيْنَ.

فلما حَكَّهُ المُنْتَقِدُ علَى حَجَرِ الحِجْرِ افْتَضَحَ بَيْنَ أَهْلِ الحِجَى، وَكَشَفَ بِالمَعْصِيَةِ الحِجابَ، كَانَ ظَاهِرُهُ اتِّقاء التُّقَى وبَاطِنُهُ بَاطِئَةٌ بِخَمْرِ الهوى، فَلَقَدْ جَنَى الخَبَائِثَ في طَيِّ الطَّيِّبَاتِ، فَلَمَّا أَرَادَ المُقَدِّرُ تَنْبِيْهَ جارِهِ علَى جَوْرِهِ، وتَقَدَّمَ إلى القَدَرِ بِهَتْكِ سِتْرِهِ، فَأَتَاهُ وَهُوَ في عَقْرِ عَقَارِ الهوى يُعَاقِرُ عُقَّارَ الرِّيَاءِ، وقَدْ رُفِعَتْ لَه عَقِيْرَتُهَا عَاقِرَ الفَهْمِ إلى أنْ عَقَرَ لعقْرِ قَلْبِهِ فَعَادَ عَقِيْرًا، فدَعاهُ إلى صَفِّ صَفْصَفِ الهَوَى لِلدَّعْوَى، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ لإِصْرَارِهِ صَرْصَرَ العُجْبِ، فَمَزَّقَتْ جِلْبَابَ التَّعَبُّدِ، فَصَيَّرَهُ عَصَفُهَا عَصَفًا فانْكَشَفَ عَوَارُ عَوْرَتِهِ فَغَوَى، فإذَا هُوَ كَلْبٌ عَقُوْرٌ وفصه أفصا به أنَّ القَدَرَ سَاقَ الكَلِيْمَ إلى مُحَارَبَةِ فُسَّاقِ بَلَدِهِ، وكانوا كُفَّارًا.

وكانَ بلعامُ مُجابَ الدَّعْوَةِ، فَأَتَاهُ قَوْمُه فَقالُوا: هَذا مُوسَى قَد جَاءَ يُخْرِجُنَا مِن بِلَادِنَا ويَقْتُلُنَا، وَيَحُلُّهَا بَنِي إِسْرَائِيْلَ ونَحْنُ قومُكَ فَادْعُ الله عليهِمْ. فقالَ: وَيْلَكُمْ، نَبِيُّ الله ومَعَهُ الملائِكَةُ والمؤمنونَ فكَيْفَ أَدْعُو عَليهِمْ؟ فَلَم يَزَالُوْا يَتَضَرَّعُوْنَ إليهِ حَتَّى افْتُتِنَ، فرَكِبَ حِمَارَهُ مُتَوَجِّهًا إلى عَسْكَرِ مُوسَى، فما سَارَتْ إلاَّ القَلِيْلَ ووَقَفَتْ لِيَقِفَ سَير عَزْمِهِ فَأَهْوَى يَضْرِبُهَا حَتَّى أَضَرَّ بِهَا، فقَامَتْ في المَحَجَّةِ تَتَكَلَّمُ بِالحُجَّةِ علَيْهِ وقَالَتْ: وَيْحَكَ يَا بَلْعَامُ، أَيْنَ تَذْهَبُ؟ ألا تَرَى المَلَائِكَةَ أَمَامِي تَرُدُّنِيْ؟ أَمَا تَرَى نَبِيَّ الله وَالمُؤمِنِيْنَ؟ فَجَدَّ في ضَرْبِهَا فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إذَا أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى جَعَلَ لا يَدْعُوْ عَلَيْهِم بِشَيْءٍ إلاَّ صُرِفَ بِهِ لِسَانُهُ إلى قَوْمِهِ، وَلاَ يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إلاَّ صُرِفَ لِسَانُهُ إلى بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ إلاَّ أنَّه دَعَا أَنْ لا يَدخُلَ مُوسَى المَدِيْنَةَ فَوَقَعُوا في التِّيْهِ.

فقالَ مُوسَى: يَا رَبِّ كَمَا سَمِعْتَ دُعَاءَهُ عَلَيَّ فاسْمَعْ دُعَائِي علَيْهِ، فَدَعَا الله تَعَالَى أنْ يَنْزِعَ مِنْهُ الاسْمَ الأَعْظَمَ، فَنَزَعَ مِنهُ وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ على صَدْرِهِ فقال لقَوْمِهِ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الآنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ المَكْرُ وَالحِيْلَةُ.

جَمِّلُوا النِّسَاءَ وَأَعْطُوْهُنَّ السِّلعَ، وَأَرْسِلُوهُنَّ إلى العَسْكَرِ يَبِعْنَهَا، ومُرُوْهُنَّ أنْ لا تَمْنَعَ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِمَّنْ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُ إنْ زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ كُفِيْتُمُوْهُم، ففَعَلُوا فوَقَعَ رَجلٌ منهم على امْرَأَةٍ، فَأَرْسَلَ الله الطَّاعُونَ على بَنِيْ إسْرائِيلَ حِيْنَئِذٍ فَهَلَكَ منهم سبعُونَ أَلفًا في السَّاعَةِ.

قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خَرجَ مِنَ العِلْم ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أدْرَكَهُ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] يَعْنِي الضَّالِّين.

قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ في هَاءِ الكِنَايَةِ قَولانِ؛ **أحدُهما**: أنَّها تعُودُ إلى الإنسانِ المذكور، قاله الجمهورُ.

والثاني: أنَّها على الكُفْرِ بالآيَاتِ، فيَكُونُ المَعْنَى لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ عَنِ الكُفْرِ بِآيَاتِنَا. قالَه مُجاهِدٌ، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رَكَنَ إلى الدُّنْيَا وسَكَنَ، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] أَيْ: انْقَادَ لِمَا دَعا إليهِ الهَوَى.

قالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: العِلْمُ يَضُرُّكَ إذَا لَم يَنْفَعْكَ، وكَتَبَ حَكِيْمٌ إلى حَكِيْم: يَا أَخِي إنْ أُوتِيْتَ عِلْمًا فَلَا تُدَنِّسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ فَتَبْقَى في الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْعَى أهلُ العِلْمِ بِنُورِ عِلْمِهِمْ.

وكان عيسَى عليه السلام يَقُولُ: يَا معشر العُلَمَاءِ، مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ الدُّفْليّ يُعْجِبُ وَرَقُه مَنْ نَظَرَ إليْهِ ويَقْتُلُ طَعْمُه مَن أَكَلَهُ، كَلَامُكُم دَوَاءٌ يُبْرِئُ الدَّاءَ، وَأَعْمَالُكُمْ دَاءٌ لاَ يَقْبَلُ الدَّوَاءَ.

الحِكْمَةُ تَخْرُجُ مِنْ أفْواهِكُم، وليسَ بَيْنَها وبَيْنَ آذانِكُم إلاَّ أَرْبعُ أَصَابعَ، ثُمَّ لا تَعِيْهَا قُلُوبُكُم.

يَا مَعْشَرَ العُلَمَاءِ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أهلِ العِلْمِ مَن يَطْلُبُ العِلْمَ لِيُخْبِرَ بِهِ ولا يَطْلُبُه لِيَعْمَل بِهِ. العِلْمُ فَوْقَ رؤُوسِكُمْ، والعَملُ تَحْتَ أقْدامِكُم فَلَا أحْرارٌ كِرَامٌ، وَلاَ عَبِيْدٌ أتْقِيَاءُ.

إخواني، لَوْ فَتَحتُم أبْصَارَ البَصَائِرِ لَرَأَيْتُم المُذْنِبِيْنَ قَدْ طُمِسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، بَاعُوا البَاقِيَ بِالْفَانِي ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦]، يُغَلِّقُونَ الأَبْوابَ ويَسْدُلُونَ الحِجابَ ويُبَارِزُونَ المَلِكَ الوَهَّابَ، أَما سَمِعُوا في الكِتَابِ العِتَابَ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٨]، وَأَخْجَلَتهُمْ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: الآية ٦]، فَحِيْنَئِذٍ

يَبْكُونَ ولا يُرْحَمُوْنَ. شعر:

لـو بَـكَـتْ عَـيْـنـاكَ يَـا هَـذَا دَمًـا ... مَـا تَـقَـدَّمْـتَ إِلَـيْـنَـا قَـدَمًـا
كَـيْـفَ يَـصْـفُـوْ لَـكَ وُدٌّ بَـعْـدَمَـا ... نَـشَـرَ الـعُـذْرُ عَـلـيكَ الـعَـلَـمَـا
نُـحْ عَـلـيـنَـا أَسَـفًـا أَوْ لا تَـنُـحْ ... وَاقْـرَعِ الـسِّـنَّ عـلَـيْـنَـا نَـدَمَـا
إِنَّـمَـا يَـصْـفُـوْ وِدَادِيْ لامْـرِئٍ ... حَـفِـظَ الـعَـهْـدَ ورَاعَـى الـذِّمَـمَـا
لَـوْ أَرَدْنَـاكَ لَـنَـا مَـا فَـتَـنَّـا ... أَوْ وَصَـلْـنَـا حَـبْـلَـنَـا مَـا انْـصَـرَمَـا
مَـا رَأَيْـنَـا مُـنْـصِـفًـا عَـامَـلَـهُ ... مُـنْـصِـفٌ فِـي صَـفْـقَـةٍ فَـاخْـتَـصَـمَـا

يَا حَسْرَةَ العَاصِيْنَ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطُّور: الآية ١٣]، ويا حَسْرَةَ المُذْنِبِيْنَ يوم ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: الآية ٤٥]، يا عَاكِفِيْنَ على مَزَابِلِ الهَوَى ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يُونس: الآية ٢٥].

نَجَائِبُ السَّبِيْلِ قَدْ أُقِيْمَتْ عَلى السَّبِيْلِ تَحْملُ المُنقَطِعِينَ بِلَا أَجْرٍ فيَتَقَاعَدُونَ ولا عُذْرَ ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]، لَيْتَهُمْ تُركُوا عُراةً حينَ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ، لَيْتَهُم عَدِمُوا الفُرْشَ وَالغِطَاءَ حِيْنَ لَهُمْ مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ، ومِنْ فوقِهِمْ غَوَاشٌ، يَا مُبَارِزِيْنَ بِالقَبائِحِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨]، احْذَرُوا سَخَطًا إنْ حَلَّ انْحلَّ بُنْيَانُ الأَجْسَادِ ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٨١].

وعظ:

أَيُّ مُطْمَئِنٍّ لَمْ يُزْعَجْ، وأَيُّ قَاطِنٍ لَم يُخْرَجْ.

إخواني، قَدْ عُرِفَ المَنْهَجُ زَالَ والله الشَّكُّ فَالْحَقُّ أَبْلَجُ، فَرَسُ الرَّحِيْلِ مُسَرَّجٌ وَإِلى بَوادِي القُبُوْرِ المُخْرَجُ وَالنَّعْشُ المركوبُ بَعْدَ الهَوْدَجِ، وَالصَّرْفُ يَكُوْنُ صِرْفًا لا يُمْزَجُ، مَا هَتَفَ المَوْتُ بمُقيمٍ إلاَّ أَدْلَجَ ولا اسْتَدْعَى بِنُطْقٍ فَصِيْحٍ إلاَّ تَلَجْلَجَ.

إخواني، مَا جَرَى على الإخوَانِ أُنْمُوْذجٌ رَكَنُوا إلى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَيَئِسُوا

مِنَ الرُّتَبِ السَّنِيَّةِ، حتَّى إذَا اعْتَرَفُوا بِهَا صَرَعَتْهُم أيْدِي المَنِيَّةِ، سَلُوا عَنِ الجِيْرَانِ المَنَازِلَ، وقُولُوْا لَهَا أَيْنَ النَّازِلُ لاَ واللهِ مَا تُجِيْبُ السَّائِلَ، بَلَى إنَّ البِلاَءَ يَنْطِقُ بِالبَلَابِل. والدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ، وَحَالٌ حَائِلٌ، وَرُكْنٌ مَائِلٌ، ورَفِيقٌ خَاذِلٌ، ومَسْؤُولٌ بَاخِلٌ، وَسُمٌّ قَاتِلٌ، كَم تَعِدُ الدُّنْيا وتُماطِلُ، وكُلُّ وَعْدِهَا غُرورٌ وبَاطِلٌ، بِاللهِ مَا فَرِحَ بِهَا عَاقِلٌ، وَمَكْرُهَا لاَ يَغُرُّ على لُقْمَانَ بَل عَلَى بَاقِلٍ. وينشد:

خَلِيْلَيَّ كَم مِن مَيِّتٍ قَدْ حَضَرْتُه ... ولَكِنَّنِيْ لَمْ أَنْتَفِعْ بِحُضُوْرِي
وكَمْ مِن خُطُوْبٍ قَدْ طَوَتْنِيْ كَثِيْرَة ... وكَمْ مِنْ أُمُوْرٍ قَدْ جَرَتْ وَأُمُوْرِي
ومَنْ لَم يَزِدْهُ السِّنُّ مَا عَاشَ عِبْرَةً ... فَذَاكَ الَّذِيْ لا يَسْتَنِيْرُ بِنُوْرِي

الكلام على قَولِهِ تَعالَى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: الآية ٢]، الاعْتِبَارُ: النَّظَرُ في الأُمُوْرِ لِيُعْرَفَ بِهَا شَيْءٌ آخَرُ مِنْ جِنْسِهَا. والأَبْصَارُ: العُقُولُ، وَالمَعْنَى تَدَبَّرُوا.

وعظ:

إخواني، الدُّنْيَا دَارُ العِبْرَةِ، مَا وَقَعَتْ فيهَا خِبْرَةٌ إلاَّ وَرَدَ فِيهَا عِبْرَةٌ. أَيْنَ مَنْ عَاشَرْنَاهُ كَثِيْرًا فَأَلِفْنَا؟ أَيْنَ مَنْ مِلْنَا إِلَيْهِ وَانْقَطَعْنَا؟ أَيْنَ مَنْ ذَكَرْنَاهُ بِالمَحَاسِنِ وَوَصَفْنَا مَا نَعْرِفُهُمْ لَوْ عَنْهُمْ كَشَفْنَا، وَسَنَصِيْرُ كَمَا صَارُوْا، فَلَيْتَنَا أَنْصَفْنَاكُمْ أَغْمَضْنَا مِنْ أَحْبَابِنَا عَلَى كُرْهِهِمْ جَفْنَاكُمْ، كَمْ ذَكَّرَتْنَا مَصارِعُ مَنْ فَنِيَ وهَلْ يَفْنَى؟ كَمْ عَزِيْزٍ أَحْبَبْنَاهُ دَفَنَّاهُ وَانْصَرَفْنَا؟ كَمْ مِنْ مُؤَانِسٍ أَضْجَعْنَاهُ في اللَّحْدِ وَمَا وَقَفْنَا؟ أَمَا ضَرَّهُ التَّسْوِيْفُ وَهَا نَحْنُ قَدْ سَوَّفْنَا؟

أَمَا التُّرَابُ مَصِيْرُنَا فَلِمَاذَا مِنْهُ أَنِفْنَا؟ إلامَ تَغُرُّ بِالسَّلامَةِ وقَدْ تَلِفْنَا؟ أيْنَ حَبِيْبُنَا الَّذِي كَانَ وَانْتَقَلَ؟ أَيْنَ كَثِيْرُ المَالِ الطَّوِيْلُ الأَمَلِ؟ أَمَا خَلَا في لَحْدِهِ وَحْدَهُ بِالعَمَلِ؟

أَمَا سَافَرَ عَنَّا وَإِلَى الآنَ مَا قَفَلَ؟ أَيْنَ مَن تَنَعَّمَ فِي قَصْرِهِ بَلْ في قَبْرِهِ نَزَلَ؟ فَكَأَنَّهُ في الدَّارِ مَا كانَ وفي اللَّحْدِ لَمْ يَزَلْ، أَمَلَكَ أَمْوَالَهُم سِوَاهُم والدُّنْيَا دُوَلٌ؟ خَلَا وَاللهِ مِنْهُمُ النَّادِي الرَّحِيْبُ، وَلَمْ يَنْفَعْهُم طُوْلُ البُكاءِ وَالنَّحِيْبِ، وعَايَنُوا مِنْ

هَوْلِ المُطَّلَعِ كُلَّ أَمْرٍ عَجِيْبٍ. وسُئِلَ عَنْهُم عَاصِيْهِم فَلَمْ يَعْلَمْ كَيْفَ يُجِيْبُ؟ وينشد:

يَا مَنْ بِبِعَادِهِ دُمُوْعِيْ أَجْرَى ... حَتَّى خَدَّ في خُدُودِيْ مَجْرَى
كَمْ ذَا حُزْنًا وكَم أُقاسِيْ هَجْرا ... مِنْ بُعْدِكَ مَا أَرَى لِلَيْلِيْ فَجْرَا

يَا عَاصِيْ: لَوْ عَرَفْتَ قَدْرَ قَدْرِكَ مَا أَلْقَيْتَ جَوْهَرَ قَلْبِكَ في مَزَابِلِ الهَوَى. يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّمَا خُلِقَتِ الأَكْوَانُ كُلُّهَا مِنْ أَجْلِكَ، فَالدُّنْيَا لِتَزْرَعَ، والآخِرَةُ لِتَتَوَطَّنَ، وَالمَلَائِكَةُ سُجُوْدٌ لَكَ في الأُوْلَى وخَدَمٌ في الآخِرَةِ.

أَتَرَاكَ تَعْرِفُ قَدْرَ أَذْكُرُكُمْ؟ أَوْ قِيْمَةَ يُحِبُّهُمْ؟ أَوْ مَرْتَبَةَ وَأَنَا إِلى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا. إِذَا صَعِدَتِ الملائِكَةُ مِنْ مَجْلِسِ الذِّكْرِ قَالَ الله تَعَالَى: أَيْنَ كُنْتُمْ وهو أَعْلَمُ. قَالُوا: مِنْ عِبَادٍ يُسَبِّحُونَكَ ويَمْدَحُونَكَ. فيقولُ: مَا الَّذِي طَلَبُوا، ومِمَّا اسْتَغَاثُوا؟ فَإِذَا شَرَحُوا الحَالَ، قال: أُشْهِدُكُمْ أَنِّيْ قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ مَا طَلَبُوْا وَآمَنْتُهُمْ مِمَّا خَافُوْا.

السَّجع:

كَمْ مِنْ ظَالِمٍ تَعَدَّىْ وجَارَ، فَمَا رَعَى الأَهْلَ ولا الجَارَ، بَيْنَا هُوَ يَعْقِدُ عُقَدَ الإِصْرَارِ، حَلَّ بِهِ الموتُ فَحُلَّ مِنْ حُلَّتِهِ الأَزْرَارُ ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

مَا صَحِبَهُ سِوَى الكَفَنِ، إِلى بَيْتِ البِلَى وَالعَفَنِ، فلَو رَأَيْتَهُ قَدْ حَلَّتْ بِهِ المِحَنُ، وَشِيْنَ ذَلِكَ الوَجْهُ الحَسَنُ، فَلَا تَسْأَلْ كَيْفَ صَارَ؟ ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

سَالَ في اللَّحْدِ صَدِيْدُه، وبَلِيَ في القَبْرِ جَدِيْدُهُ، وهَجَرَهُ نَسِيبُهُ وَوَدُوْدُهُ، وتَفَرَّقَ حَشْمُه وعَبِيْدُه، وَالأَنْصارُ، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

تَقَطَّعَتْ بِهِ جَمِيْعُ الأَسْبَابِ، وهَجَرَهُ القُرَنَاءُ وَالأَتْرابُ، وصَارَ فِراشُهُ الجَنْدَلُ والتُّرَابُ، ورُبَّمَا فُتِحَ له في اللَّحْدِ بَابٌ إِلى النَّارِ، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: الآية ٢].

خَلَا والله بِمَا كانَ صَنَعَ، وَاحتَوَشَهُ النَّدَمُ مَا نَفَعَ، وتَمَنَّى الخَلَاصَ، وهَيْهَاتَ قَدْ وَقَعَ، وقَلَاهُ الخَلِيْلُ المُصافِي وَانْقَطَعَ، وَاشْتَغَلَ الأَهْلُ بِمَا كانَ جَمعَ، وتَمَلَّكَ الضدُّ المَالَ وَالدَّارَ، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

نَادِمٌ بِلَا شَكٍّ ولا خَفَاء، بَاكٍ علَى ما زَلَّ وَهَفَا، يَوَدُّ أَنَّ صَافي اللَّذَّاتِ مَا صَفَا. ويَعْلَمُ أَنَّه كان يَبْنِي عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحَشر: الآية ٢]. قَارنَهُ عَمَلُه مَنْ سَاقَهُ الحَيْنُ، فَهُوَ يَتَمَنَّى الفِرارَ، وَهَيْهَاتَ مِن أَيْنَ؟ ويَقُولُ: ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: الآية ٣٨]. فَهُوَ عَلَى فِراشِ الوَحْدَةِ وَالعمَلُ ثَاني اثْنَيْنِ، ولكِنْ لاَ في الغَارِ، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحَشر: الآية ٢].

وهَذِهِ وإن كَانَ حَالَةُ مَنْ عَدَا، فَلِكُلٍّ مِنْكُمْ مثلُها غدًا، فَانْتَبِهُوا مِن رُقَادِكُم قَبْلَ الرَّدَى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٣٦]؟ إنَّمَا هِيَ جَنَّةٌ أَو نَارٌ، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحَشر: الآية ٢].

إخواني، كَأَنِّيْ أَشُمُّ رِيحَ كَبِدٍ مُحْتَرِقَةٍ، أي: قَلْبٍ قَدْ لَفَحَتْهُ نَارُ كَأْسِ الشوقِ، وفَاحَتْ رِيْحُه هَذَا النَّفْسُ قَدْ وَصَلَ إلى العَرْشِ، فَإِذَا ضَربَتْ زِنَادُ المواعِظِ حَجَرَ القَلْبِ عَلَقتِ النَّارُ بِخِراقِ المَعْرِفَةِ فَلم يَتِمَّ اقْتِباسُها إلاَّ بِنَفْخٍ، لَوْلاَ دُموعُ العَيْنِ تُطْفِئُ بَعْضَ نَارِ الوَجْدِ لأَسْرَعَ الحَرِيْقُ في دَارِ القَلْبِ صُعَدَاءُ الأَنْفَاسِ تَشْرحُ حَالَ الوَجْدِ فَيَسْتَغْنِي بِهَا عن كَشْفِ المستُوْرِ.

يَا مَعْشَرَ العُصَاةِ: لا يَهُولَنَّكُمْ مَا سَمِعْتُم فكُلُّهُ يَنْدَفِعُ بِتَوْبَةٍ. وينشد:

إلى كَمْ عِتَابٌ يَسُدُّ الفَضَا ... سلَامٌ عَلَيْكُمْ مَضَى مَا مَضَى
بِحُرْمَةِ مَا قد كانَ بَيْنِي وبَيْنَكُم ... مِن الوُدِّ إلاَّ مَا رَجَعْتُم إلى الوَصْلِ
فلا تَحْرِمُوْنِي نَظْرَةً مِن جَمَالِكُم ... فَلَنْ تَجِدُوا في الحَيِّ عَبْدًا لَكُم مِثْلِيْ
فَوَالله مَا يَهْوِيْ فُؤَادِي غَيْرَكُم ... ولو تَرْشُقُوْنِيْ بِالأَسِنَّةِ وَالنَّبْلِ
مَتَى تَقْتُلُوني أَسْتَرِحْ من عَذابِكم ... عَذابُكُم عِنْدِي أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ
أَرَى كُلَّ شَيْءٍ هَالِكًا مُتَغَيِّرًا ... وحُبُّكَ لاَ يَبْلَى ولكِنَّهُ يُبْلِي

وَيْحَكَ يا هذا، لاَحَتْ نَارُ الهُدَى مِنْ زِنَادِ المَوَاعِظِ، فَقُم عَلَى أقدامِ الجِدِّ

لَعَلَّكَ تَجِدُ على النَّارِ هُدَى.

إخواني، أَطْيَارُ البَلَاغَةِ قَدْ خَرَجَتْ مِن بُرْجِ القَلْبِ عَلَى غُصْنِ اللِّسَانِ أَفتَرَاهَا أَخْضَرتْ رِيَاضَ الأَذْهَانِ، لَيْسَ كُلُّ مَجلِسٍ مَجْلِسُنَا، مَا كُلُّ قَمِيصٍ يَرُدُّ عَيْنَ يعقُوبَ، كُلَّما سَحَّتْ أَجْفَانُنَا صَحَّتْ أبْدَانُنا، كُلَّمَا تَابَ خُوَّانُنَا كَثُرَ إخْوانُنا، فالوَقْتُ بِحَمْدِ الله لَنا، والزَّمَانُ زَمانُنا.

اللَّهُمَّ أهلُ القُبُورِ رَهَائِنُ ذُنُوبٍ لاَ يَنْفَكُّونَ، وَأَسَارَى وَحْشَةٍ لاَ يُطلَقُونَ، وغُرَباءُ سَفَرٍ لاَ يُنْتَظَرُونَ، مَحَتْ دَارِسَاتُ التُّرابِ مَحَاسِنَ وُجُوهِهِم، وجَاوِرَهُم الهَوامُ في لُحودِهم، فَهُم خُمُودٌ لا يَتَكَلَّمون، وسُكَّانُ لَحْدٍ إلى الحَشْرِ لا يَظْعَنُوْنَ، فَمِنْهُم مُحْسِنُونَ وَمنهم مُسِيؤُونَ، اللَّهُمَّ مَن كانَ مِنهُم مُحْسِنًا فَزِدْهُ كَرامَةً وحُبُورًا، ومَن كانَ مَلْهُوفًا فَبَدِّلِ اللَّهُمَّ حُزْنَهُ فَرَحًا وسُرُوْرًا، فَإِنَّكَ قُلْتَ وقَوْلُكَ الحَقُّ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ٣٩] وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ النَّبِيِّ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تسليمًا.

المَجْلِسُ التَّاسِعَ عَشَرَ في قِصَّةِ قَارُون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ

الحَمْدُ لله الَّذِي يَمْحُو الزَّلَلَ وَيَصْفَحُ، وَيَغْفِرُ الخَطَايَا ويَسْمَحُ، كُلُّ مَنْ لاَذَ بِهِ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وكُلُّ مَن عامَلَهُ يَرْبَحُ، تَشْبِيهُهُ بِخَلْقِهِ قَبِيْحٌ وجَحْدُهُ أَقْبَحُ، رَفَعَ السَّماءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ فَتَأَمَّلْ وَالْمَحْ، وَأَنْزَلَ القَطْرَ فَإِذَا الزَّرْعُ في المَاءِ يَسْبَحُ، وَأَقَامَ الوُرَقَ عَلَى الوُرَقِ تَشْكُرُ وتَمْدَحُ، أَغْنَى وَأَفْقَرَ، وَالفَقْرُ في الأَغْلَبِ أَصْلَحُ، هَذَا قَارُوْنُ مَلَكَ الكَثِيْرَ وَبِالقَلِيْلِ لَمْ يَسْمَحْ، نُبِّهَ فَلَم يَزَلْ نومُه، وَلِيْمَ ولَم يَنْفَعْ لَوْمُه، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦].

أحمدُهُ مَا أَمْسَى المَسَاءَ ومَا أَصْبَحَ، وأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي أُنْزِلَ عليه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشّرح: الآية ١]، وعَلَى أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِهِ في الدَّارِ وَالغَارِ ولَمْ يَبْرَحْ، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي لَم يَزَلْ في إِعْزَازِ الدِّيْنِ يَكْدَحُ، وعَلَى عُثْمانَ ولاَ أَذْكُر ما جَرى عليهِ وَلاَ أَشرَحُ، وعَلَى عَلِيٍّ الَّذِيْ كَانَ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ في الوُضُوْءِ ولا يَمْسَحُ، وعَلَى عَمِّهِ العبَّاس أقْربِ الكُلِّ نَسَبًا وأَرْجَحِ.

كَانَ قارُونُ نَظِيْرَ بلعامَ في حِكْمَتِهِ، وكانَ في النَّسَبِ إلى مُوْسَى ابْنُ خَالَتِهِ، فَلَمَّا فاضَتْ كَثْرَةُ الدُّنْيَا عليهِ فَاظَتْ نَفْسُ عَمَلِهِ، وكَانَتْ مَقالِيْدُ خَزَانَاتِهِ وِقْرَ سِتِّيْنَ بَغْلًا، غيْرَ أنَّ الَّذِي فَاتَهُ بما قَالَهُ أَعْلَى وأَغْلَى. سَحَبَ ذَيْلَ ﴿فَبَغَىٰ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦]، فَقَامَ قَوْمُهُ قَوْمَةً بِزَجْرِ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦]، وأَلْقَوا إليهِ نَصَائِحَ ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ [النساء: الآية ١٢٥]، ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ [القصص: الآية ٧٧]، ﴿وَلَا تَنسَ﴾، ﴿وَأَحْسِن﴾ [القصص: الآية ٧٧].

فَرَكِبَ يَوْمًا في وَقْتِ اقْتِدَارِهِ فِي أَرْبَعَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ، وَسُمُّ الهَوَى يَعْمَلُ في المَقَاتِلِ، وَرَكِبَ مَعَهُ في مَعْمَعَتِهِ ثَلاثُمائة جارِيَةٍ وقَدْ أنْسَاهُ سَفَهُ الأَمَلِ أَنَّ سَفِينَةَ الأَجَلِ جَارِيَةٌ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَتِ الزَّكَاةُ أَتَى مُوسَى فَصَالَحَه على كُلِّ أَلْفِ دِيْنَارٍ دِيْنَارًا، وَعَلَى كُلِّ أَلْفِ دِرْهَم دِرْهَمًا، وعَلَى كُلِّ أَلْفِ شَاةٍ شَاةً، فَوَجَدَ ذلكَ مَالاً كَثِيْرًا فَجَمَعَ بَنِي إسرائيلَ وقَالَ: إنَّ مُوسى يُرِيْدُ أنْ يَأْخُذ أَمْوَالَكُم. قالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فقالَ: نَجْعَلُ لِفُلانَةَ البَغِيِّ جُعْلًا فَتَقْذِفُهُ بِنَفْسِهَا، ففعَلُوا.

ثُمَّ أَتَاهُ قارُونُ فقال: إنَّ قومَكَ قَدِ اجْتَمَعُوا لِتَأْمُرهُم وتَنْهَاهُم، فَخَرَجَ فقالَ: يا بَنِيْ إسرَائيلَ مَنْ سَرَقَ قَطَعْنَا يَدَهُ، ومَنِ افْتَرَى جَلَدْنَاهُ ثَمَانِيْنَ جَلْدةً، ومَنْ زَنَى وَلَيْسَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَلَدْنَاهُ مِائَةَ جَلْدَة، وَإِنْ كانَتْ لَهُ امرأة جَلَدْنَاهُ حَتَّى يَمُوتَ. فَقَالَ لَه قارونُ: وَإِن كُنْتَ أَنْتَ؟ قالَ: وَإِنْ كُنْتُ أَنَا.

قالَ له: فإنَّ بَنِي إسرائيلَ يَزْعُمُوْنَ أَنَّكَ فَجَرْتَ مَعَ فُلانَةَ البَغيَّةِ. قالَ: أُدْعُهَا. فَلَمَّا جاءَتْ، قالَ مُوسَى: يَا فُلانَةُ، مَا يَقُوْلُ هَؤُلاَءِ؟ قَالَتْ: لاَ بَلْ كَذَبُوا، وَإِنَّمَا جَعَلُوا لِيْ جُعلًا عَلَى أنْ أَقْذِفَكَ.

فَسَجَدَ فَأَوحَى الله إليه يَا مُوسَى مُرِ الأَرْضَ بما شِئْتَ. فقالَ: يَا أَرْضُ خُذِيْهِ، فَأَخَذَتْهُ حَتَّى غَيَّبَتْ قَدَمَيْهِ، فَمَا زَالَ قَارُونُ يُناشِدْهُ بِالرَّحِم ومُوسَى يَقُولُ: يَا أَرْضُ خُذِيْهِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ فَأَوحَى الله إِلَيْهِ، يَا مُوسَى، مَا أَفَظَّكَ، وَعِزَّتِيْ وجَلَالِيْ لَوِ اسْتَغَاثَ بِيْ لأَغَثْتُهُ.

قال سمرةُ بْنُ جُنْدُبٍ: يُخْسَفُ بِهِ كُلَّ يَوْم قَدْرَ قَامَةٍ فَيَبْلُغُ بِهِ إلى الأَرْضِ السُّفْلَى إلى يَوْمِ القِيَامَةِ. فقالَ الجَاهِلُونَ: إنَّما بَادَرَ مُوسَى لأَخْذِ بَدَرِهِ بِبِدَارِه. قال حاكِمُ الغَيْبِ لإِزَالَةِ الرَّيْبِ وَبِدَارِهِ فَكَانَ الخَسْفُ بِمالِهِ وَبِدَارِهِ بَعْدَ خَسْفِهِ بثَلاثَةِ أَيَّامٍ.

إخواني، الدُّنيَا إِذَا طَلعَتْ على الطَّغَام تُطْغِيْ، وَإِذَا بُغِيَ نِكاحُهَا عَلى العفَافِ تَبْغِي، ثُمَّ إنَّها تَقْصِدُ هَلاك مُحِبَّها وتَبْغِي، أَمَا سَحَبَتْ قُرُوْنَ قارُوْنَ مَعَ أقْرانِهِ إلى القَرارِ فِيْ قَرنٍ؟ أَمَا كَفْكَفَتْ كَفُّ مَكْفُوفٍ مَعَ حُبِّهَا فَأَرَتْكَ يَوْمًا مِمَّا يَكُونُ فِيكَ في كَفَنٍ؟ تَاللهِ لَقَدْ لَقِيَ الغَنِيُّ الغَبِيَّ عِبُّ غَبَاوَتِهِ، فَلَمَّا انْجلَى عَيْهَبُ

عَيْبِهِ رَأَى الغَبَنُ الغَبْنَ. وينشد:

أُنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلَا ذَنْبٍ وَلا مَعْنَا
أَسَاؤُوا ظَنَّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّا
فَإِنْ عَادُوا لَنا عُدْنَا وَإِنْ خَانُوا فَمَا خُنَّا
وَإِن كَانُوا قَدِ اسْتَغْنَوْا فَإِنَّا عَنْهُم أَغْنَا

إخواني، إذَا رَأَيْتُم المُبارِزِيْنَ بِالخَطايَا قَدِ اتَّسَعَ لَهُم مَجالُ الاِحْتِمَالِ فَلَا تَسْتَعْجِلْ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨]، لَقَدْ فَرِحُوا بِمَا يُوجِبُ الغَمَّ، بَيْنَا أَرْضُ إعرَاضِهِم قَد أَخَذَتْ زُخْرُفَهَا وَازَّيَنَتْ جَعَلْنَاهَا ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ﴾ [يُونس: الآية ٢٤]، تَرَكَهُمْ خَادِعُ القَدَرِ في غُرُوْرِ سُرُوْرِهِم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]، بَاتُوْا يَتَقَلَّبُوْنَ عَلَى فُرُشِ المَعَاصِيْ ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]، ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ﴾ [يونس: الآية ٥٤]، فَقَدُوا النَّجاةَ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠]. طَالَ قِيامُهُمْ في صَحْرَاءِ القِيَامَةِ ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ [الأنعَام: الآية ٣١].

إخواني، أمَا يَنْتَبِهُ لِشَرْحِ حَالِهِمْ مَنْ قَدْ رَقَدَ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: الآية ١١١].

يَا مَعْشَرَ العُصَاةِ تُعْرِضُوْنَ عَنَّا ونُقْبِلُ عَلَيْكُم، وَتُبارِزُوْنَنَا ونَسْتُرُكُمْ، وَتُنْفِقُوْنَ نِعَمَنَا على مُخَالَفَتِنَا، وَنُمِدُّكُمْ وَتَنْأَوْنَ عَنْ جَنَابِنَا، وَنَتَعَرَّضُ لَكُمْ؛ هَلْ مِن سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ يَا مَنْ قَالَ إذَا شِبْتُ تُبْتُ.

اليَوْمَ عَهْدُكُمْ فَأَيْنَ المَوعِدُ؟ هَيْهَاتَ لَيْسَ اليَوْم عَهْدكُم غَدُ، يَا هَذَا مَا لَكَ تَتَعَلَّلُ بِالمَجَالِسِ، وَأَنْتَ جَالِس، عَقْلُكَ يَحُثُّكَ عَلَى التَّوْبَةِ، وهَوَاكَ يَعُوْقُ. اخْلَعْ لِبَاسَ الالْتِبَاسِ، ومَزِّقْ رِدَاءَ التَّرَدُّدِ، فَالعُرْيُ أَحْسَنُ مِنْ أَثْوابِكَ إِنْ خَرَجْتَ وَمَا أَنبْتَ فَلَسْتَ مِنْ أُولي العَزْمِ.

إخواني، فَرِّغُوْا قُلوبَكُم تَفْهَمُوْا مَا تَسْعَوْنَ إِذَا سَكَنَ الحَبِيْبُ في دَارِ القَلْبِ

لَمْ يَبْقَ فيْهَا نَذَالَةٌ، فَإذَا عَرَفَ القَلْبُ عَظَمَةَ السَّاكِنِ صَارَ قِبْلَتَهُ الَّتِي لا يُقابِلُ سِوَاهَا، فَبِهِ يَسْمَعُ وَبِهِ يَبْصُرُ. وينشد:

آنَسْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا أَوْحَشْتَنِي ... يَا مُوْحِشِي بِبِعَادِهِ وَأَنِيْسِيْ
ولَقَدْ جَعَلْتُكَ في الفُؤَادِ مُحَدِّثِيْ ... وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أرادَ جُلُوسِيْ
فَالجِسْمُ مِنِّي للجَليسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيْبُ قَلْبِي في الفُؤَادِ أَنِيْسِيْ

إخواني، اعْتَبِرُوا بِمَنْ مَضَى مِنَ الأَقْرانِ، وتَفَكَّرُوْا في مَن بَنَى كَيْفَ كَانَ، تَقَلَّبَتْ وَالله بِهِم الأَحْوَالُ، وَنَسِيَهُمْ أَحْبَابُهُم بَعْدَ لَيَالٍ، وعَانَقُوا التُّرَابَ وفَارَقُوا الحالَ، فَلَو أُذِنَ لِصَامِتِهِمْ لَقَالَ:

مَنْ وَرَاءَنَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ ... أَنَّهُ مُوفٍ عَلَى قُرْبِ الزَّوَالِ
وصُرُوفُ الدَّهْرِ لاَ يَبْقَى لَهَا ... وَلَمَا تَأْتِيْ بِهِ صُمُّ الجِبَالِ
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوْا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ الخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلَالِ
والأَبَارِيْقُ عَلَيْهَا نَدَمٌ ... وعِتَاقُ الخَيْلِ تَزْهُوْ فِي الحِجَالِ
عَمَرُوْا دَهْرًا بِعَيْشٍ حَسَنٍ ... أَمِنُوْا دَهْرَهُمْ غَيْرَ عِجَالِ
ثم أصْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرُ بِهِمْ ... وكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالِ

وعظ:

يا مَشْغُولاً بِالأَمَلِ وَالمُنَى، تَأَهَّبْ لِمَصْرَعٍ قَدْ قَارَبَ وَدَنَا، كَأَنَّكَ بِكَ وقد مَدَّ كَفَّهُ إِلَيْكَ المجالِسُ، وَافْتَرَسَكَ أَسَدٌ كَمْ قَدْ فَرَى في الفَرَائسِ؟ وحَلَلْتَ بِقَاعَ البِلَى وتَخَلَّتْ مِنْكَ بِقاعُ المَجَالِسِ، وَنَفرَ عَنْكَ الصَّدِيْقُ الصَّدُوقُ الوَدُوْدُ المَجَالِسُ، وَأَصْبَحَ رَبْعُكَ بَعْدَكَ وَهُوَ خَالٍ دَارِسٌ، ونَزَلْتَ لَحْدَكَ وَحْدَكَ في ظُلْمَةِ الحَنَادِسِ، وبَكَى الأَهْلُ سَاعَةً وَالرُّؤُوسُ للنَّوى نَوَاكِسُ، ورَجَعُوا إلى الحُلَّةِ وَكُلٌّ في حُلَّتِهِ آيِسُ، وَانْطَلَقُوا فَأَطْلَقُوا أَمْوَالَكَ الحُبَاسَ، وَأَنْتَ تَتَمَنَّى العَوْدَ كَلَّا وَالعُوْدُ يَابِسُ، وتَعَوَّضْتَ الرُّغَامَ عَلَى الرَّغْمِ والثَّرَى مِنَ الثَّرى بَعْدَ المَلَابِسِ، فَيَا بُؤْسَ هَذَا المَلْبُوسِ، ويَا ذُلَّ هَذَا اللَّابِسِ، فَلَو اطَّلَعَ عَلَيْكَ بَعْدَ يَوْمِ خَامِسٍ أو سَادِسٍ، لَرَأَى أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ قَد غَيَّرَتْهُ الطَّوامِسُ، وَبَقِيْتَ حَدِيْثًا يَجْرِي عَلَى مَرِّ المَدَى في المدارسِ، فَاغْتَنِمْ حَيَاتَكَ قَبْلَ المَماتِ فَأَنْفَاسُ النُّفُوسِ نَفَائِسُ. وينشد:

أَلا كُلُّ مَوْلُودٍ فَلِلْمَوْتِ يُوْلَدُ ... وليسَ تَرَى حَيًّا يَعِيْشُ وَيُخْلَدُ
تَجَرَّدْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ إِنَّما ... خَرَجْتَ إلى الدُّنْيَا وأَنْتَ مُجَرَّدُ
وأَفْضلُ شَيْءٍ نِلْتَ مِنْهَا فَإِنَّهُ ... مَتاعٌ قَلِيْلٌ يَضْمَحِلُّ وَيَنْفُدُ
وكَمْ مِن عَزِيْزٍ أَعْقَبَ الذُّلُّ عِزَّهُ ... فَأَصْبَحَ مَذْمُوْمًا وَقَدْ كَانَ يُحْمَدُ
فَلا تَحْمَدِ الدُّنْيَا ولكِن ذُمَّهَا ... ومَا بالُ شَيْءٍ ذَمَّهُ اللهُ يُحْمَدُ

وعظ:

أَيْنَ أَربابُ القُصورِ هذهِ طُلُولُهَا يَنْطِقُ بِالخَرابِ سُوْرُهَا؟ قُلْ لَهَا: أَيْنَ عَامِرُهَا وَأَيْنَ نَزِيْلُهَا؟ يا كثيرَ الأَسْولَةِ لهَا كَمْ تُطِيْلُهَا. كانَتْ فيهَا حَبَرَةٌ ثُمَّ آنَ رَحِيْلُهَا، أَمَرَ لَهَا مَرَدُّهَا مَرَّتْ بِهِ مُرَدُهَا وَكُهُولُهَا.

أَمَا يَكْفِي القُلوبُ الغَافِلَةُ وَعْظًا دَلِيْلُهَا؟ يَا لَنُفُوسٍ أَمْرَضَهَا الهَوَى فَما يُشْفَى عَلِيْلُهَا، أَمَا هَذَا طَرِيْقُهَا؟ أَمَا هَذَا سَبِيْلُها؟ يَا لَها مِنْ مَوْعِظَةٍ كَمْ نُسْمِعُهَا وَكَم نَقُوْلُها؟ خَلَجَ وَاللهِ البَيْنُ مِن القَومِ مَنْ خَلَجَ، أَمِ الموتُ آمَنَهُمْ فَلَا يُسْأَلُ كَيْفَ انْزَعَجَ.

وَاسْتَنْزَلَ عَالِيَهُم مِنْ أَعَالِي الدَّرَجِ فَدَرَجَ، وسَارُوْا في عَسْكَرِ البِلَى فَالتَقَفَهُمُ الوَهَجُ، وَزَفَرَتْ أَبْدَانُهُمْ بَعْدَ طِيْبِ الأَرَجِ، فَنَسَجَ لَهُمُ البِلَى ثَوْبًا، فَيا بِئْسَ مَا نَسَجَ.

وَعَامُوْا في بَحْرِ الأَسَى فَلَجَّجَ بِهِم في اللُّجَجِ، وَلَقِيَهُم مِنَ البَلايَا مَا ضُوْعِفَ ومَا ازْدَوَجَ، واسْتَغَاثُوا ولكنْ في غَيرِ إبَّانِ الفَرَجِ، وَطَلَبُوا رَاحةً ولكنَّهُ زَمَانُ الحَرَجِ، وسُئِلُوا فَفَقَدُوْا تَحقِيْقَ الجَوابِ وتَصْحِيْحَ الحُجَجِ، فَيَا أَسَفًا لِمَسْؤُولِهِم فَلا فَازَ ولَا أَفْلَحَ. وينشد في الحال:

أَمُرُّ على المَنَازِلِ وهيَ قَفْرٌ ... مِنَ الأَحْبَابِ خَالِيةُ المَغَانِيْ
أَلاَ يَا دَارُ بَدْرُكِ أَيْنَ وَلَّى ... فَمَا لِي أَرَاهُ ولا يَرَانِيْ
فقالَتْ سَارَ عَنِّي عَنْ قَرِيبٍ ... وَلِلبَلْوَى بِفُرْقَتِهِ دَهَانِيْ
فَلَو أَنِّي مَلَكْتُ عِنَانَ نَفْسِي ... لَمِتُّ مِنَ التَّفَجُّعِ في مَكَانِيْ

وعظ:

يا هَذَا اِعْرِضْ نَفْسَكَ قبلَ عَرْضِكَ، هَلْ أَنْتَ مِنَ الَّذِيْنَ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٢]؟ أم أنتَ من الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ [السجدة: الآية ١٦]؟ أو مِنَ الذين ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: الآية ٣٧]؟ أَوَ طُبِعْتَ شَقِيًّا، فَكُلَّما صَدَمَكَ الوَعْظُ قيل: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠]. لَيْسَ لِلْمَواعِظِ مَوضِعٌ عِنْدِ قَوْمٍ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٩]، بالله عليكَ مَثِّلْ لِنَفْسِكَ صَيْحة الصُّوْر ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصَّافات: الآية ١٩]، وصَوِّر لِنَفْسِكَ فَنَاءَ الصُّوَرِ في اللُّحُودِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٩].

يَا هَذَا تَلَمَّحْ بِعَيْنِ الإِيمانِ أَهْلَ القُبُورِ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القَمَر: الآية ٧]، ثُمَّ يُحْشَرُونَ إلى الحِسَابِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٣٠]، فَيَقِفُونَ حَيَارَى ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ١٠]، يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ عَجِزَ الوَاصِفُوْنَ عَنْ هَوْلِهِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ [الانفِطار: الآية ١٧]، يَقِفُوْنَ عَلَى الأَقْدَامِ خَمْسِيْنَ أَلْفَ عَامٍ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطفِّفين: الآية ٦].

يا مَعْشَرَ الغَافِلِيْنَ في لَذَّاتِهِم ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النَّبأ: الآية ٤٠]، بَانَ والله الرَّابِحُ مِنَ الخَاسِرِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التّغَابُن: الآية ٩] ذِكْرُ ذلكَ اليَوْمِ طَرَدَ النَّومَ عَنْ جُفُونِ العُقَلاءِ.

إخواني، ما أَحْسَنَ الإِيَابَ بِالشَّبَابِ، وما أَقْبَحَ الخِطَابَ لِمَنْ شَابَ. يَا شَيْخُ كَمْ هَذَا التَّسْوِيْفُ؟ كَم يَبْقَى الوَرَقُ عَلَى الشَّجَرِ في الخَرِيْفِ. وينشد:

إِذَا رَحَلَ الشَّبَابُ وحَلَّ شَيْبٌ فَهَلْ بَعْدَ المَشِيْبِ سِوَى الحِمامِ

إخواني، مَجْلِسُنَا بَحْرٌ يَرِدُ فِيْهِ الفِيْلُ وَالعُصْفُوْرُ، فَيَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم على قَدْرِ حَوْصَلَتِهِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٠]، كَمْ بَيْنَ حِدَّةِ نَظَرِ الهُدْهُدِ وَبَيْنَ عَشي عَيْنِ الخُفَّاشِ، يَا مَنْ هَدَمَ قَوَاعِدَ التَّوْبَةِ، ارْفَعْ قَوَاعِدَ الإِخْلاصِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ بَعْدَ التَّوْبَةِ، أَقْبَحُ مِن سبعينَ قَبْلَهَا. أَتَرَاكَ مَا تَسْتَحْيِيْ يَوْمًا عِنْدَ التَّائِبِيْنَ أَنْ تَمْشِيَ بَيْنَهُمْ وَثِيَابُ تَقْوَاهُمْ جُدَدٌ وقَمِيْصُكَ مَرْقُوْعٌ. وينشد:

هَلِ الدَّهْرُ يَوْمًا بِوَصْلٍ يَجُوْدُ وَأَيَّامُنَا بِاللِّوَى هَلْ تَعُوْدُ

زَمَانٌ تَقَضَّى وَعَيْشٌ مَضَى بِنَفْسِيْ وَاللهِ تِلْكَ العُهُوْدُ
أَلا قُلْ لِسُكَّانِ وَادِي الحَبِيْبِ هَنِيْئًا لَكُم فِي الجِنَانِ خُلُوْدُ
أَفِيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ فَيْضًا فَنَحْنُ عُطَاشٌ وَأَنْتُمْ وَرُوْدٌ

وعظ:

إخواني، دَنَتْ عَسَاكِرُ البَطالَةِ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: الآية ٤١]، خُذُوْا مِنَ الدُّنْيَا قَدْرَ مَا يُعْبَرُ بِهِ القَنْطَرَةُ، وَلَعَمْرِي إنَّ ضَرُوْرَاتِ المَعَاشِ تُغْبَرُ فِي وَجْهِ الزُّهْدِ فَيَتَعَثَّرُ السَّالِكُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطّلاق: الآية ٢].

إخواني، الحَذَرَ الحَذَرَ كُلُّكُم تَسْمَعُونَ كَلَامِيْ، لَكِنْ فَرْقٌ بَيْنَ سَماعٍ وسَمَاعٍ، كُلُّ النِّسْوَةِ رَأَيْنَ يُوسُفَ ﷺ وَلَكِنْ زَليخَا وَاحِدَةٌ. يا هَذَا إِذَا رَكِبْتَ الجَادَّةَ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هُود: الآية ١١٢].

يَا فِتْيَان التَّوْبَةِ زُوْرُوا المَقابِرَ وجَالِسُوا الفِكْرَ وَجَانِبُوْا رُفَقَاءَ الهَوَى، فَإِنْ قالَ لكُم بَعْضُهم: أَقَنِعْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِخِرْقَةٍ وَمِنَ اللِّعْبِ بِحَرْقَةٍ؟ فَقُوْلُوا: هَذَا هُوَ العَيْشُ لَوْ صَفَا، ويقاس الذي أنتَ له مُسْتَقْبِحٌ مَا عَلَى اسْتِحْسَانِهِ عِنْدِي مَزِيْدُ، فَإِذَا نَحْنُ تبَايَنَّا كَذَا فَاسْتماعُ العَذْلِ شيءٌ لا يُفِيدُ.

وعظ:

يَا هَذَا إذا قالَ لكَ رُفَقَاؤكَ: امْشِ مَعَنَا فَقُلْ: أَقْعَدَنِي الخَوْفُ، يَا فِتْيَانَ التَّوْبَةِ إنْ تَحَرَّكَتْ نُفُوْسُكُمْ إِلَى بَعْضِ مَا اعْتَادَتْ قُولُوْا: انْقَضَى زمَانُ الرَّضاعِ ولا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الفِطَامِ، وكُلُّ قَرِيْنٍ بالمُقَارِنِ مُقَيَّدٌ، إيَّاكَ ومُوافَقَةَ النَّفْسِ إنَّهَا مُؤَنَّثَةٌ وطَاعَةُ النِّسَاءِ نَدَامَةٌ، وما يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً عَلَى أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنَ الرِّفْقِ بِالضِّلْعِ العَوْجَاءِ فَلَا تَحْقَحَقْ أَيُّهَا الزَّاجِرُ بِالسَّيْرِ، فَإِنَّ سَوْقَكَ بِالقَوَارِيْرِ إِذَا لَم تَلْطُفْ بالنَّاقَةِ لَمْ تَصِلْ إلى مِنًى فَهَلْ لكَ غَيْرَ هَذَا القَلْبِ قَلْبٌ؟ وهَل لَكَ غَيْرُ هَذَا الرُّوْحِ رُوْحٌ. وينشد:

يَا نَدِيْمَيَّ صَحَا القَلْبُ صَحَا فَاطْرُدَا عَنِّيَ الصِّبَا وَالمَرَحَا
شَمِّرَا بُرْدَيَّ لِلنُّسُكِ وَلا تَعْجَبَا مِنْ فَاسِدٍ قَدْ صَلُحَا

وَاتْـرُكَـا مَـا قَـدْ فَـنِـيَ فـي حُـبِّـهِـمْ ولا تَـراهُ الـعَـيْـنُ إلاَّ شَـبَـحَـا

السَّجع على الآية:

لله دَرُّ قَوْمٍ مَالُوا إلى الله وتَرَكُوا المَالَ، وأَغْلَقُوا بابَ الطَّمْعِ فِي فَضْلَةِ الآمَالِ، وأَعْرَضُوا عَنِ الدُّنْيَا شُغْلًا بِالمَالِ، وآنَسُوا بِمُنَاجَاتِهِ فَنَسُوا الأَهْلَ وَالمَالَ، فَإِذَا تَلَقَّاهُمْ مَوْلاَهُمْ قَالَ: مَرْحبًا بِالوُفُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٢٨] وَرَدُوْا إليهِ أَكْرَمَ وُرُوْدٍ، وأَمِنُوا في وِصَالِهِمْ عَوائِقَ الصُّدُوْدِ وَأَتْعَبُوا الأَعْضَاءَ في خِدْمَتِهِ وَالجلُودَ، فَمَنَحَهُمْ طِيبُ العَيْشِ في جَنَّاتِ الخُلُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾.

شَكَرُوْا مَن أَخْرَجَهُم مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، وتَفَضَّلَ عَلَيْهِم بكُلِّ خَيْرٍ وَجُوْدٍ، وعَلِمُوا أَنَّ الإِخلاصَ هو المقصُودُ، فَاسْتَعَدُّوا لِليومِ المَشْهُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾.

وتَمَسَّكُوا بِالكتابِ القَدِيْمِ، وبَالَغُوا في طَلَبِ التَّقْدِيمِ، فَطَلَبُوا مِن المُنْعِمِ الكَرِيمِ أَن يَعُمَّهُمْ بالفَضْلِ وَالتَّكْرِيمِ، فَمَنَّ عَلَيْهِم بالخَيْرِ العَمِيْمِ فَهُم في الجِنَانِ في أَعْلَى نَعِيمٍ عِنْدَ مَلِيكٍ كَبِيرٍ عَظِيْمٍ لَيْسَ بوَالِدٍ ولا مولُودٍ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٢٨، ٢٩]، أَعَدَّ لَهُمْ أوفَى الذَّخَائِرِ، وهَذَّبَ مِنْهُم البَواطِنَ وَالظَّوَاهِرَ، وجَعَلَهُم بَيْنَ عِبَادِهِ كَالنُّجُومِ الزَّواهِرِ، وبَنَى لَهُم الغُرَفَ بِاللَّآلِئِ وَالجوَاهِرِ، فَهُمْ في مَجْدٍ كَرِيْمٍ وسَعْدٍ ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: الآية ١٠٨]، ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾، اسْتَزَادَهُم إلى جَنَّتِهِ، وخَصَّهُمْ بِكَرامَتِهِ فأَنْعَمَ عَلَيْهِم بِرُؤْيَتِهِ، وجَعَلَهُمْ في حِصْنٍ حَصِيْنٍ مِنْ رِعَايَتِهِ، في ظِلٍّ عَمِيْمٍ دَائِمٍ مَمْدُوْدٍ، ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٢٨]. اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا مِنَ المُتَّقِيْنَ الأَبْرَارِ، وَأَسْكِنَّا مَعَهُم في دارِ القَرَارِ ولا تَجْعَلْنا مِنَ المُخَالِفِيْنَ الفُجَّارِ.

اللَّهُمَّ نَوِّرْ دِيْنَنَا بِضَوْءٍ مِنْ تَوْفِيقِكَ، وَاقْطَعْ أَيَّامَنَا بِالاتِّصَالِ بِكَ، وَانْظِمْ شَتَاتَنا في سِلْكِ طاعَتِكَ.

اللَّهُمَّ افْتَحْ مَسامِعَ الأَفْهَامِ لِقَبُولِ مَا يَنْفَعُ، وصلَّى الله على سَيِّدِنا ونَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ، وسَلَّم تَسْلِيمًا دَائِمًا.

المَجْلِسُ العِشْرُون
في نُصْرَةِ داوود عليه السَّلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صَلَّى الله على سَيِّدِنا محمَّد وآلِهِ وسلَّم تسليمًا

الحمدُ لله رَبِّ الأَرْبَابِ، وَمُسَبِّبِ الأَسْبَابِ وَمُنْزِلِ الكِتَابِ، حَفِظَ الأَرْضَ بِالجِبَالِ مِنَ الاضْطِرَابِ، وقَهَرَ الجَبَّارِيْنَ وَأَذَلَّ الصِّحَابَ، وَسَمِعَ خَفِيَّ النُّطْقِ ومَهْمُوْسَ الخِطابِ، وأَبْصَرَ فَلَمْ يَسْتُرْ بَصَرَهُ حِجَابٌ، أَنْزَلَ القُرْآنَ فَحَثَّ فِيْهِ على اكْتِسَابِ الثَّوَابِ، وزَجَرَ عَنْ أَسْبَابِ العِقَابِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: الآية ٢٩].

ابْتَلَى المُصْطَفَيْنَ بالذُّنُوبِ لِيُعْلم أَنَّه تَوَابٌ، أَما سَمِعْتَ بِزَلَّةِ آدَمَ وما جَرَى عليهِ مِنْ عِتَابٍ، ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: الآية ٢١].

أَحْمَدُهُ على رَفْعِ الشِّرْكِ والارْتِيابِ، وَأَشْكُرُهُ على سَتْرِ الخَطَايَا وَالعِتَابِ، وأُقِرُّ لَهُ بِالتَّوحِيْدِ إِقْرَارًا نَافِعًا يَوْمَ الحِسَابِ، وَأَعْتَرِفُ لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ أَنَّهُ لُبَابُ اللُّبَابِ، صَلَّى الله عليهِ وعَلَى صَاحِبِهِ أَبِيْ بَكْرٍ خَيْرِ مَنْ وَطِىءَ الثَّرى مِنَ الأَصْحابِ، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ في المَجْلِسِ طَابَ، وعَلَى عُثْمَانَ المَقْتُولِ ظُلْمًا ومَا تَعَدَّى الحِسابَ، وعَلَى عَلِيٍّ البَدْرِ يَوْمَ البَدْرِ والصَّدْرِ يَوْمَ الأَحْزَابِ، وعلى عَمِّهِ العَبَّاسِ الَّذِي نَسَبُهُ أَشْرَفُ الأَنْسَابِ.

اللَّهُمَّ يَا مَنْ ذَلَّتْ لَهُ جَمِيعُ الرِّقَابِ، احْفَظْنَا في الحَالِ وَالمَآبِ، وَارْزُقْنا الاعْتِبارَ لسَالِفِ الأَتْرابِ، وهَبْ لِشَيْبِنَا مَعَاصِيَ الشَّبَابِ، وَارْزُقْنِي وَالحَاضِرِيْنَ عِمارَةَ قُلُوْبِ الخَرَابِ، بِرَحْمَتِكَ يَا كَرِيْمُ يَا وَهَّابُ.

قال الله العظيم: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [صَ: الآية ٢١]، دَاوُوْدُ هُوَ ابْنُ إِيْشِيَا بْنِ عُوَيْدٍ مِنْ نَسْلِ يَهُوْدَا ابنِ يعقُوبَ، وكَانَ مَبْدَأُ أَمْرِهِ أَنَّ الله تعالى بَعَثَ طَالُوْتَ مَلِكًا خَرَجَ مَعَهُ مِنْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ ثَمَانُوْنَ أَلْفًا لِقِتَالِ جَالُوتَ، فَقالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩]، فلَمْ يَلْبَثْ مَعَهُ غَيْرُ ثَلثِمائةٍ وَثَلاثَةَ عَشرَ.

وكان فيهمْ أَبُو دَاوُودَ وَثلاثَةَ عَشَرَ ابْنًا لَهُ ودَاوُودُ أَصْغَرُهُمْ، وأَنَّهُ مَدَّهُ بِثَلاثَةِ أَحْجَارٍ وكَلَّمهُ وَقُلْنَ: يَا دَاوُودُ خُذْنَا نَقْتُلُ بِنَا جَالُوْتَ فَأَخَذَهُنَّ ومَشَى إلى جَالُوتَ، فَوَضَعَهُنَّ في قُذَافَتِهِ فَصِرْنَ حَجَرًا وَاحِدًا، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَصَكَّ بَيْنَ عَيْنَيْ جَالُوتَ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ هَلَكَ طَالُوتُ، فَمَلَكَ دَاوُودُ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ، وجَعَلَهُ الله تَعالَى نَبِيًّا، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الزَّبُورَ، وعَلَّمَهُ صَنْعَةَ الحَدِيْدِ وَأَلانَهُ لَهُ، وَأَمَرَ الجِبَالَ والطَّيْرَ أن يُسَبِّحْنَ مَعَهُ.

وَكانَ إِذَا قَرَأَ الزَّبُورَ تَصِيْخُ لَهُ الوُحُوشُ حَتَّى يَأْخُذَ بِأَعْناقِهَا.

وَكانَ كَثِيْرَ التَّعَبُّدِ وَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يومًا عِنْدَهُ هَلْ يَأْتِيْ عَلَى الإنسَانِ يَوْمٌ لاَ يُصِيْبُ فِيهِ ذَنْبًا؟ فَأَضْمَرَ أَنَّه يُطِيْقُ ذَلِكَ فَابْتُلِيَ يَوْمَ عِبادَتِهِ بِالذَّنْبِ حَتَّى نَكَسَ رَأسَ الرِّئَاسَةِ عَلَى عَتَبَةِ الذُّلِّ، رَمَاهُ سَهْمُ القَضَاءِ في دِرْعِ لَيَالِي الفِتَنِ فَقَضَى عَلَيْهِ بِمَا قَدَّرَ الدَّرَاعُ عَلَى رَدِّهِ بِدِرْعِه وَقَدْرِهِ.

وإِذَا سَهْمُ المَقَادِيْرِ رَمَى، فَدُرُوْعُ المَرْءِ أَعْوَانُ النِّصَالِ، ظَنَّ لِقُوَّةِ عِصْمَتِهِ لِقَاءَ قَرْنِ الهَوَى فَلَاحَتْ لَهُ في حِمَى دَعْوَاهُ حَمَامَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَذَهَبَ يَصِيْدُهَا فَوَقَعَ في شَرَكِ عَيْنِهِ. وينشد:

ظَنَّ غَدَاةَ البَيْنِ أَنْ قَدْ سَلِمَا ... لَمَّا رَمَى سَهْمًا وَمَا أَجْرَى دَمَا
فَعَادَ يَسْتَقْرِي حَشَاهُ فَإِذَا ... فُؤَادُهُ مِنْ بَيْنِهَا قَدْ عَدِمَا

لَمْ يَدْرِ مِن أَيْنَ أُصِيْبَ قَلْبُهُ، وَإِنَّمَا الرَّامِي دَرَى كَيْفَ رَمَى، أَتْبَعَ الحَمَامَةَ بَصَرَهُ، فَإِذَا بامْرَأَةٍ فَخَطَبَهَا مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ أُوْرِيَا، قَدْ خَطَبَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَاغْتَمَّ أُوْرِيَا فَعُوقِبَ إِذْ لَم يَتْرُكْهَا لِخَاطِبِهَا الأَوَّلِ، وهَذَا أَجْوَدُ مَا قِيْلَ في فِتْنَتِهِ، وَيَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [صَ: الآية ٢٣].

وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ أَنَّهُ بَعَثَ زَوْجَهَا في الغَزَوَاتِ حَتَّى قُتِلَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَحِيْحًا. طَافَ عَلَى بَابِهِ طَبِيْبُ الأَلْطَافِ فَأَرَادَ اسْتِخْرَاجَ النَّصْلِ مِنْ بَاطِنِ الشِّغَافِ فَجَثَى عَلَى عَتَبَةِ عِتَابِهِ يا عتُوبة خَصْمَانِ فَقَضَى على نفسِهِ بِصَرِيْحِ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فَبَيْنَمَا هُوَ يُلَاحِظُ لَفْظَ القِصَّة مَعًا مَعَانِي بِالمَعَاصِيْ فَفَطِنَ ففتن في الفَتَى الفَاتِنُ فَتن فَتَنَّاهُ ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: الآية ٢٤]، فَنزَلَ عَنْ مَرْكَبِ العِزِّ إلى ستر مَسْجِدِ الذُّلِّ فَافْتَرَشَ فِرَاشَ مَنْ أسَاءَ في دَارِ الأَسَى، وَخَلَعَ خِلَعَ الفَرَحِ، وَلَبِسَ جِلْبَابَ الحُزْنِ فَأَسْكَتَ الحَمَامَ بِنَوْحِهِ وشَغَلَهَا عَنْ صَدْحِهَا بِصَوْتِهِ، فَبَالَغَ حَرِيْقَ النَّدَمِ في سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ، وَأَقْلَقَ الأَفْئِدَةَ بِشَجِيٍّ شَجِيَّتِهِ، ومَاتَ خَلْقٌ مِنَ الخَلْقِ بِتَرَنُّم شَجْوِهِ، فَشَرِبَ عِرْقُ العُشْبِ مِنْ عَيْنِ عَيْنِهِ، وكانَ يَقُولُ في مُناجَاتِهِ: خَرَجْتُ أَسْأَلُ أَطِبَّاءَ عِبَادِكَ أَنْ يُدَاوُوْا لِيْ جُرْحَ خَطِيْئَتِي فَكُلُّهُمْ عَلَيْكَ يَدُلُّنِي، إلَهِي أَمِدَّ عَيْنِيْ بِالدُّمُوعِ وَضعْفِي بِالقُوَّةِ حَتَّى أَبْلُغَ رِضَاكَ عَنِّي. وينشد:

يَا مَنْ تَجَنَّبَ صَبْرِيْ في تَجَنُّبِهِ ... هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِيْ عَلَيْكَ بِهِ
حَتَّى مَتَى زَفَرَاتِيْ في تَصَعُّدِهَا ... إلى المَمَاتِ وَدَمْعِيْ فِي تَصَوُّبِهِ
وَلِي فُؤَادٌ إذَا طَالَ الغَرَامُ بِهِ ... هَامَ اشْتِيَاقًا إلى لُقْيَا مُعَذِّبِهِ

فَما زَالَ يَغْسِلُ العَيْنَ مِن عَيْنِ العَيْنِ ولِسَانُ العِتَابِ يَقُوْلُ: يَا بُعْدَ النَّقَا وكُلَّمَا رَفَعَ قصَّته غُصَّةٍ جَاءَ الجَوَابُ بِزِيَادَةِ الجوَى وهُوَ يَسْتَغِيثُ وَيُنَادِي حَتَّى أَقْلَقَ الحَاضِرَ وَالبَادِيْ. وينشد:

إنَّ شَفِيْعِيْ إلَيْكَ عَنِّي ... دُمُوْعُ عَيْنِي وحُسْنُ ظَنِّيْ
فَبِالَّذِيْ قَادَنِيْ ذَلِيْلًا ... إلَيْكَ إلاَّ عَفَوْتَ عَنِّيْ
رَمَى الهَوَى مُهْجَتِيْ بِسَهْمٍ ... أَدَامَ إدْمَانَ قَرْعِ سِنِّيْ

يَا هَذَا مَنِ اجْتَهَدَ وَجدَّ وَجدَ، وَلَيْس مَنْ سَهِرَ كَمَنْ رَقَدَ. وَالفَضَائِلُ تَحْتَاجُ إلى وَثْبَةِ الأَسَدِ، لَقَدْ رَضِيْتَ الغَبْنَ وَالغَبَنَ، وَبِعْتَ عُمْرَكَ بِأَقَلِّ الثَّمَنِ، وَأَنْفَقْتَ فِيمَا يُرْدِيْكَ الزَّمَنَ، يَا مَغْرُوْرًا بِخَضْراءِ الدِّمَنِ، يَا جَامِعًا مَانِعًا قُلْ لِيْ: لِمَنْ كَيْفَ يَنَالُ الفَضَائِلَ مُسْتَرِيْحُ البَدَنِ؟ سِلَعُ المَعَالِي غَالِيَاتُ الثَّمَنِ.

إخواني، مَنْ يُوْقِدُ مِصْبَاحَ الفِكْر تَلُحْ لَهُ الأَعْلَامُ. وينشد:

إِذَا مَـا الـخِـيَـامُ الـبِـيْـضُ لاَحَـتْ لَـدَامِـنِّـي
فَـعَـرِّجْ فَـإِنَّـا بَـعْـدَهَـا بِـقَـلِـيْـلِ
تَـرَانَـا لَـدَى الأَطْـنَـابِ صَـرْعَـى مِـنَ الـهَـوَى
تُـكَـفْـكِـفُ دَمْـعًـا لاِفْـتِـقَـادِ خَـلِـيْـلِ
وكَـمْ أَنَّـةٍ أَرْدَفْـتُـهَـا بِـتَـنَـفُّـسٍ
وكَـمْ عَـبْـرَةٍ أَتْـبَـعْـتُـهَـا بِـعَـوِيْـلِ
قِـفُـوْا وَانْـظُـرُوا ذُلِّـيْ وَعِـزَّ مُـعَـذِّبِـي
تَـرَوْا عَـجَـبًـا مِـنْ قَـاتِـلٍ وقَـتِـيْـلِ

قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [صَ: الآية ٢٤]. قَالَ المُفَسِّرُونَ: بَقِيَ في سُجُوْدِهِ أَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلاَّ لِوَقْتِ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ أَوْ لِحَاجَةٍ لا بُدَّ مِنْهَا، وَلاَ يَأْكُلُ ولاَ يَشْرَبُ، فَأَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ جَبْهَتِهِ ونَبَتَ العُشْبُ مِن دُمُوعِهِ وهُوَ يَقُولُ في سجودِهِ: رَبِّ زَلَّ دَاوُودُ زَلَّةً أبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ.

قالَ مُجاهِدٌ: وكانَتْ خَطِيْئَتُهُ في كَفِّهِ مَكْتُوبَةً. قالَ يَحْيَى بْنُ أبي كَثِيرٍ: بلغنا أَنَّهُ كانَ يَمْكُثُ بمكة قَبْلَ أَنْ يُنَاجِيَه سَبْعًا لا يَأكُلُ ولا يَشْرَبُ وَلا يَقْرُبُ النِّسَاءَ، ويُخْرِجُ لَهُ مِنْبَرًا إلى البَرِيَّةِ، وَيَأْمُرُ سُلَيْمَانُ مُنادِيًا يُنادِي في البِلَادِ وَالبَرَارِي، أَلاَ مَنْ أَحَبَّ أنْ يَسْمَعَ نَوْحَ دَاوُوْدَ فَلْيَأْتِ.

قَالَ: فَتَأْتِي الوُحُوشُ وَالسِّبَاعُ والهَوَامُ وَالطَّيْرُ وَالرُّهْبَانُ وَالعَذَارَى مِنْ خُدُوْرِهِنَّ، ويَجْتَمِعُ النَّاسُ لِذلِكَ اليَوْمِ، ويَأْتِي دَاوُوْدُ حَتَّى يَرْتَقِي على المِنْبَرِ ويُحِيْطُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيْل فَكُلُّ صِنْفٍ عَلَى حِدَةٍ.

قَالَ: وسُلَيْمانُ قَائِمٌ على رَأْسِهِ فَيَأْخُذُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ فَيَضِجُّوْنَ بِالبُكاءِ وَالصُّراخِ. ثُمَّ يَأْخُذُ في ذِكْرِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فتَمُوتُ طَائِفَةٌ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ومِنْ كُلِّ مَنْ حضَرَ، ثُمَّ يَأْخُذُ في ذِكْرِ المَوْتِ وَأَهْوَالِ يَوْم القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ في النِّيَاحَةِ فتَمُوتُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ طَائِفَةٌ، فإذَا رَأَى سُلَيْمَانُ مَا كَثُرَ مِنَ المَوْتِ نَادَى يَا أَبَتَاهُ: قَدْ مَزَّقْتَ المُسْتَمِعِيْنَ كُلَّ مُمزَّقٍ، فَيَقْطَعُ النِّيَاحَةَ وَيأْخُذُ في الدُّعَاءِ فيُغْشَى عليهِ

فيُحْمَلُ عَلَى سَرِيْرٍ، فإذَا أَفَاقَ قَالَ سُلَيمَانُ: مَا فَعَلَ عُبَّادُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ فَيَقُولُ: مَاتُوْا، فَيَدْخُلُ في بَيْتِ عِبَادَتِهِ ويُغلِقُ عليهِ بابَهُ.

ويُنادِي أَغَضْبَانٌ أَنْتَ عَلَى دَاوُوْدَ؟ قَالَ عُلَمَاءُ السِّيَرِ: كَانَتْ لَهُ جَارِيَتَانِ قَدْ أَعَدَّهُما، فكانَ إِذَا جَاءَهُ الخَوْفُ سَقَطَ وَاضْطَرَبَ، فَقَعَدَتَا على صَدْرِهِ وَرِجْلَيْهِ مَخَافَةَ أَنْ تَتَفَرَّقَ أَعْضَاؤُهُ. ويُقالُ: لَو وُزِنَتْ دُمُوعُهُ عَدَلَتْ دُموع الخَلَائِقِ. ولَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ إِلى السَّمَاءِ حَتَّى مَاتَ.

وعظ:

إخواني، إِذَا تَمَكَّنَ الحُبُّ اسْتَحَالَ السُّلُوُّ، وإِذَا تَعَلَّقَ يَدُ المَحَبَّةِ بِتَلَابِيْبِ القَلْبِ فَلَا يُمْكِنُهُ التَّخَلُّصُ مِنْ غَرِيْمِ الغَرَامِ فَيَدُورُ مَعَهَا في دَارِ المُدَارَاةِ إِذَا نَزَلَ سُلطانُ المحبَّةِ بِسَاحَةِ القَلْبِ، فَدَخَلَ على بَابِ الوَجْدِ حُرِسَتِ الطُّرُقُ من الطُّرَّاقِ، وَأُغْلِقَ بَابُ السُّلُوِّ، وَفُتِحَ بَابُ الأَشْوَاقِ فَتَرَى المُحِبَّ تَارَةً وَاجِمًا، وَتَارَةً يَسْهَرُ اللَّيْلَ ويَرْعَى الكَواكِبَ، وتَارَةً مُهَنْدِسًا يُنْشِئُ نَوَاعِيْرَ القَلَقِ بِمِيَاهِ البُكَاءِ لِيَسْقِيَ بَذْرَ الهَوَى. وينشد:

أَبْكِيْ وَحُقَّ لَهُ إِرْسَالُ دَمْعَتِهِ ... عَبْدٌ تَبَاعَدَ عَنْ مَوْلاهُ وَانْتَزَحَا
سَقَتْهُ لَوْعَتُه أَنْوَاعَ عَبْرَتِهِ ... إِذَا انْقَضَى قَدْحٌ أَهْدَتْ لَهُ قَدحَا
كَذَا المُحِبُّ إِذَا صَحَّتْ مَوَدَّتُهُ ... أَيَّامَ فُرْقَتِهِ لاَ يَعْرِفُ بِهِ الفَرَحَا

وعظ:

إخواني، احْذَرُوا المَعَاصِيْ فَبِئْسَ المَطْلُوْبُ، مَا أَقْبَحَ آثَارَهَا في الوُجُوهِ وَالقُلُوبِ، يَا حاضِرِيْنَ بِالأَبْدَانِ وَقُلُوْبُهُمْ عَلَى المَرَاحِلِ، انْتَبِهُوا مِن رَقَدَاتِ الغَفْلَةِ وَاجْتَنِبُوا خَمْرَ الهَوَى، فَمَنْ صَحَا صَحَّة هَذَا زَمَانُ اللقط لِلُّقَاطِ، يَا زَمَنًا لَقَدْ أَتَى الخَرِيْفُ وَأَيُّ الخرِيْفِ.

إخواني، في الشَّيْبِ فِضَّةٌ سَبَكَتْهَا يَدُ الزَّمانِ، وَرسْمُهَا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٢١]، يَا عَاصِيْ لاَحَتِ الشَّعَرَاتُ البِيْضُ، فَجَعَلَتْ تَفْرِخُ وَتَبِيْضُ، فَتَقَيَّضْ لِنَفْسِكَ وَاذْكُرْ زَوَالَكَ، ودَعِ الأَمَلَ وَلَوْ طُوِيَ لَكَ الدُّنْيَا وزُوِيَ لَكَ، فَكَأَنَّكَ بِالمَوْتِ قَدْ حَيَّرَكَ وَأَبْدَى كَلَالَكَ، وَنَسِيَكَ الحَبِيْبُ؛ لأَنَّهُ

أَرَادَكَ لَهُ لاَ لَكَ، وَشَاهَدْتَ أَمْرًا أَفْظَعَكَ وهَالَكَ، تَوَدُّ أَنْ تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِالدُّنْيَا لَوْ أَنَّهَا لَكَ، فَتَنَبَّهْ مِنْ رُقَادِ الهَوَى لِمَا هُوَ أَوْلَى لَكَ، وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكَ أَعْمَى لَكَ، وَأَفْعَالُكَ أَفْعَى لَكَ.

لَو كانَ لَكَ بَاعِثٌ مِنْ نَفْسِكَ مَا احْتَجْتَ إلى مُحَرِّكٍ مِنْ خَارِجٍ.

هَذَا الدِّيْكُ يَصِيْحُ في أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ يُؤَدِّي وَظَائِفَهَا بِبَاعِثِ الطَّبْعِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ في القَرْيَةِ دِيْكٌ غَيْرُهُ وَأَنْتَ تُؤَخِّرُ وَظَائِفَ صَلواتِكَ وَتَنْقُصُ مِنْ وَاجِبَاتِ عِبَادَتِكَ، فَإِنْ بَكَيْتَ في المَجْلِسِ فَلِبُكَاءِ الجَمَاعَةِ، وَإِذَا خَلَوْتَ خَلَوْتَ مِنْ مُحَرِّكٍ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ له مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ لم تَنْفَعْهُ المَوَاعِظُ. وينشد:

لاَ يَنْفَعُ الزَّجْرُ قَلبًا قَاسِيًا أَبَدًا ... وَلاَ يَلِيْنُ لِقَوْلِ الوَاعِظِ الحَجَرُ
ولا أَرَى أَثَرًا لِلذِّكْرِ في جَسَدِي ... وَالحَبْلُ في الحَجَرِ القَاسِيْ لَهُ أَثَرُ
وَالمَرْءُ مَا عَاشَ في الدُّنْيَا لهُ سَفَرٌ ... إذا انْقَضَى سَفَرٌ مِنْهَا أَتَى سَفَرٌ
لَهَا حَلاَوَةُ عَيْشٍ غَيْرِ دَائِمَةٍ ... وَفي العَوَاقِبِ مِنْهَا المُرُّ وَالصَّبِرُ

وعظ:

عِبَادَ الله مَنِ اسْتَحْضَرَ عَقلَهُ عَلِمَ أَنَّه مسؤولٌ عن فِعْلِهِ وَأَمْرِه بِالتَّزَوُّدِ لِرَحِيْلِهِ.

قال بَعْضُ المُتَعَبِّدِيْنَ: لَمَّا خَلَوْتُ بِالعَقْلِ في بَيْتِ الفِكْرِ عَلِمْتُ أَنِّي مَخلوقٌ لِلتَّكْلِيفِ، مُعَاقَبٌ عَلى التَحْرِيفِ، لَسْتُ بِمُهْمَلٍ فَأَسْهُو، وَلا بِمَتْرُوكٍ فَأَلْهُوْ، رَأَيْتُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَقُودَانِنِي إلى قَبْرِي، ويُفْنِيَانِ في سَيْرِهِمَا عُمْرِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الهَلاكَ أَخُو السَّلاَمَةِ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ التَّفْرِيْطِ النَّدامَةُ.

فَلَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي مُكَلَّفٌ مُحَاسَبٌ، مُثَابٌ على الفِعْلِ وَمُعَاقَبٌ، هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَضَ نَهْضَةَ عَازِمٍ صَدُوْقٍ إلى دَارِ التَّكلِيْفِ وقَضَاءِ الحُقُوْقِ فَقَيَّدَتْنِيْ نَفْسِي بِقُيُودِ الهَوَى، أَفْسَدَتْ مِنْ حَالِيْ مَا اسْتَقامَ وَاسْتَوَى، فَبَقِيْتُ أَتَفَكَّرُ في مَا جَرَى، وَأَمْسَحُ مِن عَيْنِي سِنَةَ الكَرَى، وأقولُ: مَاذَا مَنَعَنِيْ مِنْ مَقْصُودِي؟ وَأَيُّ شُغْلٍ شَغَلَنِي عَنْ مَعْبُودِي؟ ومَا لِي أَقْصُرُ في سَيْرِيْ؟ وكَيفَ سَبَقَنِي إلى الفَضَائِلِ غَيْرِي، فَتَعَجَّبْتُ مِمَّا نَابَنِيْ، وحَزِنْتُ لِمَا أَصَابَنِيْ، ولَمْ أَزَلْ أَنْظُرُ في المواضِعِ حتَّى فَهِمْتُهَا، وَأَتَدَبَّرُ

طَرِيقَ الهُدى حتَّى عَلِمتُها، وذلِكَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ جَبَلَ النَّفْسَ على حُبِّ الشَّهَواتِ وجَعَلَهَا في حَبْسِ الغَفْلَةِ، وجَعَل لهَا مِنْ رَائقِ مَقْصُودِهَا مَا شَغَلَهَا وُجُودُهُ عَنْ وُجُودِهَا وهي تَمِيْلُ إلى مُشْتَهَاهَا وَإِنْ أدَّاهَا إلى المَهَالِكِ.

لمَا وَضَعَ في قَلْبِهَا مِنْ حُبِّ ذلكَ، فَلَمَّا وضَعَهَا الحَقُّ علَى هَذَا وَأَلَّفَهَا وخَاطَبَهَا لمُخالَفَةِ طَبْعِهَا، وكَلَّفَهَا وحَذَّرَهَا مِنَ الزَّلَلِ وَخَوَّفَهَا، وضَمِنَ لَهَا أَنَّها إنْ جَاهَدَتْ أَسْعَفَهَا، وَإن تَرَكَتْ إعْرَاضَهَا أَخْلَفَهَا، ومَا وَعَدَهَا وَعْدًا قَطُّ فَأَخْلَفَهَا، وَأَوْضَحَ لَهَا عُيُوبَ العَاجِلَةِ وكَشَفَهَا، ورَغَّبَهَا في لَذَّاتِ جَنَّتِهِ وَوَصَفَهَا، وحَذَّرَهَا جَهَنَّمَ وَأَسَفَهَا، وَغَيَّظَهَا على العُصَاةِ وَلَهَفَهَا، وَأَعْلَمَهَا أنَّ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦].

فَلَقَدْ أنْصَفَهَا فَعَذَلتُها وفَرَّغْتُهَا وَأَوْعَدْتُها وأَسْمَعْتُهَا، فَلَم تَرْتَدِعْ عَن هَواهَا ولَم تَرُعْ عَمّا أذَاهَا، ورَأَتْ مَصَارِعَ القُرَنَاءِ وما كَفَاهَا، ولم تَأْنَفْ مِن ذُنُوْبِهَا، وذُلُّ المَعَاصِيْ قَدْ عَلاهَا، فكانَ الخِطَابُ الَّذِي أتى مِمَّنْ سَوَّاهَا إلى سِوَاهَا، فَعَلِمتُ أَنَّهَا حِيْنَئِذٍ تَحْتَاجُ إلى مَن يُحَاسِبُها وتَفْتَقِرُ إلى مَنْ يُطالِبُها، ولا تَسْتَغْنِي عَن مُوَبِّخٍ يُعَاتِبُها، فَالعَجَبُ مِمَّنْ عَرَفَ نفسَه كَيْفَ أَهْمَلَهَا، والله لَقَدْ ضَرَّهَا وقَتَلَهَا.

وَعن أنس بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**يا ابْنَ آدَمَ لا تَزُولُ قَدَمَاكَ يومَ القِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي الله عَزَّ وجَلَّ حَتَّى يَسْأَلُكَ عَنْ أَرْبَعٍ: عُمْرِكَ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ، وَجَسَدِكَ فِيمَا أَبْلَيْتَهُ، ومَالِكَ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ، وأَيْنَ أَنْفَقْتَهُ**». وينشد:

تَعَاظَمَ ذَنْبِيْ حِينَ حَانَتْ مَنِيَّتِيْ ... فَقُلْ لِي مَتَى تَرْجُو الزِّيَادَةَ في العَمَلِ
وقَدْ غَرَّنِيَ التَّسويقُ حَتَّى تَقَطَّعَتْ ... عُرَى العَيْشِ مِنْ عُمْرِي وَجَاءَنِي الأَجَلُ
فَـهَـا أَنَـا قَـدَّمْـتُ زَادًا لِـرِحْـلَـتِـي ... وَلا تَـمَّ لِيْ مَا كُنْتُ أَرْجُو مِنَ الأَمَلِ
فيا أَسَفَى مِنْ يَوْم عَرْضِي ومَوْقِفِيْ ... إذَا قُمْتُ مَا بَيْنَ المَخَافَةِ وَالخَجَلِ

إخواني، الأَيَّامُ سُفُنٌ رَوَاحِلُ وَمَا يُحَسِّنُ يَسِيْرهَا الرَّاحِلُ حَتَّى يَبْلُغَ البَلَدَ أَوِ السَّاحِلَ، فَليبادِرِ المُسْتَدْرِكُ، وَمَا أَظُنُّهُ يُدْرِكُ، مَا هذِهِ الغَفْلَةُ وَالفُتُوْرُ؟ أَمَا عَلِمْتُم مُنْتَهى السُّرُوْرِ؟ أَمَّا الأَجْدَاثُ المَنَازِلُ إلى النُّشُورِ، إمَّا المآلُ إلى اللّحودِ والقُبُورِ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: الآية ٣٦] بِبَعْضِ فِعْلِكَ تَهْلِكُ، أَيُّهَا الشَّيْخُ، آنَ الرَّحِيْلُ عَنْ أَهْلِكَ، أَيُّهَا الغَافِلُ مَا أَنْذَرَكَ مَنْ كانَ مِنْ قَبْلِكَ؟

السَّجع على الآية:

أيُّها الضَّالُّ عَنْ طَرِيقِ الهُدَى، أما تَسْمَعُ صَوْتَ الحَادِيْ قَدْ حَدَى مَن لَكَ إذا ظَهَرَ الجَزَاءُ وَبَدَا، ورُبَّمَا كانَ فيهِ أَنْ تَشْقَى أَبَدًا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾، وَيْحَكَ إنَّ الرَّقِيْبَ حَاضِرٌ يَرْعَى عَلَيْكَ اللِّسَانَ، والنَّاظِرُ، وهُوَ إلى جَمِيْعِ أَفْعَالِكَ نَاظِرٌ، إنَّما الدُّنْيَا مَراحِلٌ إلى المقابِرِ، وسَيَنْقَضِي هَذَا المَدَى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

مَا لي أَرَاكَ في الذُّنُوبِ تُعَجِّلُ؟ فإذَا زُجِرْتَ عَنْهَا لاَ تَقْبَلُ، وَيْحَكَ انْتَبِه لِقَبِيْحِ مَا تَفْعَلُ، إنَّ الآجَالَ تَعْمَلُ في الأَيَّامِ عَمَلَ المَدَى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

سَتَرْحَلُ مِنْ دُنْيَاكَ فَقِيْرًا ولا تَمْلِكُ مِمَّا جَمَعْتَ نَقِيْرًا، بَلَى قد صِرْتَ بِالذُّنُوبِ عَقِيْرًا بَعدَ أَنْ رَدَّاكَ التَّلَفُ رِدَاءَ الرَّدَى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

كَأَنَّكَ بِالمَوْتِ قَدْ قَطَعَ وَبَتَّ وَبَدَّدَ الشَّمْلَ المُجْتَمَعَ وشَتَّ وَأَثَّرَ فِيْكَ النَّدَمُ حِيْنَئِذٍ وَبَتَّ، انْتَبِهْ لنفسِكَ فَقَدْ أَشْمَتَّ وَالله العِدَى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

كَأَنَّكَ بِبِسَاطِ العُمْرِ وَقَدِ انْطَوَى بِعَوْدِ الصِّحَةِ وَقَدْ ذَوَى، وَبِسِلْكِ الآمَالِ قد قَطعَ فَهَوى، اسْمَعْ يَا مَنْ قَتَلَهُ الهَوَى، وَمَا رَدَى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

بِالله مَا يُقَالُ وَمَا يُعْذَرُ، فَإِنْ كُنْتَ نَائِمًا فَانْتَبِهْ وَاحْذَرْ، كَمْ وَعَظَكَ أَحَدٌ غَيْرُكَ وَكَمْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَر قَبْلَ مَجِيْئِهِ فَما اعْتَدَى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

بَادِرْ زَمَانَكَ وَاحْذَرِ الفَوْتَ، وأَصِخْ لِلزَّوَاجِرِ فَقَدْ رَفَعْتَ الصَّوْتَ وتَذَكَّرْ فطالَ مَا قَدْ سَهَوْتَ، وَاعْلَمْ قطعًا ويقينًا أَنَّ الموتَ لا يَقْبَلُ الفِدَا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

تَالله انْهَضْ إلى التَّقْوى بِقَرِيْحَةٍ، وَابْكِ الذُّنُوبَ بِعَيْنِ القَرِيْحَةِ وَازْعَجْ لِلجِدِّ أَعْضاءَكَ المُسْتَرِيْحَةَ، تَالله لَئِنْ لَم تَقْبَل هَذِهِ النَّصِيْحَةَ لَتَنْدَمَنَّ غَدًا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: الآية ٣٦].

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا في سَاعَتِنَا هذِهِ أَدَبًا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ وإلى مَقام الخَاشِعِيْنَ وفَهْمِ العَارِفِينَ، وَأَخْرِجْنَا بِعَفْوِكَ مِن سُجُونِ الغَافِلِيْنَ المُذْنِبِيْنَ إلى تَمَتُّعِ رِيَاضِ العَامِلِيْنَ، وَاجْعَلْ مَجْلِسَنَا هَذَا لِوَجْهِكَ الكَرِيْمِ حَتَّى تُبَلِّغَنَا بِهِ إلى جَنَّاتِ النَّعِيْمِ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدينَا ولجمِيعِ المُسْلِمينَ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ، وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، وسَلِّم تَسليمًا دائمًا كثيرًا.

المَجْلِسُ الحَادِي والعِشْرُونَ
فِي قِصةِ سُلَيْمَان عليه السَّلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سَيِّدنا محمَّد وآلِهِ وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله المُتَعَالِيْ عَنِ الأَنْدَادِ المُتَقَدِّسِ عَن الأَضْدَادِ، المُتَنَزِّهِ عَنِ الأَوْلاَدِ، البَاقِي على الآبَادِ، رَافِعِ السَّبْعِ الشِّدَادِ عَالِيةً بِغَيْرِ عِمَادٍ، مُزَيَّنَةً بِكُلِّ كَوْكَبٍ مُنِيْرٍ وَقَّادٍ، سَطَحَ الأَرْضَ مُثْبَتَةً بِالرَّاسِيَاتِ الأَطْوَادِ، المُطَّلِعِ عَلَى سِرِّ القَلْبِ وضَمِيْرِ الفُؤَادِ، مُقَدِّرِ مَا كانَ وَمَا يَكُونُ مِن الضَّلالِ والرَّشادِ، في بَحْرِ لُطْفِهِ تَجْرِي مَراكِبُ العُبَّادِ، وعَلَى عَتَبَةِ بَابه مَنَاخُ العِبَادِ، وفي مَيْدانِ حُبِّه تَجُولُ خَيْلُ الزُّهَّادِ، وَبِعَيْنِهِ مَا يَتَحَمَّلُونَ مِنْ ثِقْلِ الاجْتِهَادِ، أَعْطَى فَلَمْ يَخَفِ الأَعْوَانَ وَالنَّفَادَ.

وجَادَ على السَّائِلِيْنَ فَزَادَهُم مِنَ الزَّادِ كُلَّ شَيء، وَأَلَّفَ بَيْنَ الأَجْسَادِ فَلَمْ يُشْبِهِ الأَجْسَادَ، وخَلَقَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وتَوَحَّدَ بِالانْفِرَادِ، ابْتَلَى بِالغَفْلَةِ أَهْلَ اليَقْظَةِ والاجْتِهَادِ، لِيَنْكَسِرُوا بِالزَّلَلِ وَانْكِسَارُ العَبْدِ المُرَادُ، وَبَسَطَ لِسُليمانَ النَّيْلَ فَوَقَعَ المَيْلُ إلى الخَيْلِ عَنْ بَعْضِ الأَوْرَادِ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [ص: الآية ٣١].

أَحْمَدُه حَمْدًا يَفُوْقُ الأَعْدَادَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ الوَاحِدَ لاَ كَالآحَادِ، وَأُصَلِّي على رَسُوْلِهِ المَبعُوثِ إلى جَمِيْعِ الخَلْقِ في جَمِيْعِ البِلَادِ وعَلى صاحِبِهِ أَبِيْ بَكْرٍ الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَجادَ، وعلَى عُمَرَ الْفَارُوْقِ الذِي بَالَغَ في نُصْرَةِ الإِسْلَامِ وأَجَادَ، وعَلَى عُثمانَ الشَّهِيْدِ، فَيَا فَخْرَهُ يَوْمَ يَقُوْمُ الأَشْهَادُ، وعلى عَلِيٍّ الذِي يَفْنَى البَحْرُ ومَا لِعَلْمِهِ نَفَادٌ، وعلى عَمِّهِ العبَّاسِ وَآلِهِ الأَمْجَادِ.

قالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: الآية ٣٠]، دَاوُودُ، اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ وسُلَيمانُ اسْمٌ عِبْرَانِيٌّ، وَكَانَ لِسُليمانَ مِنَ الفِطْنَةِ مَا بانَ بِهَا الصَّوابُ في حُكْمِهِ دُونَ حُكم أَبِيْهِ في قِصَّةِ الحَارِثِ وَغَيْرِهِ.

قالَ الله تَعالَى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩]، فماتَ داوُودُ ومَلَكَ سُلَيْمَانُ ولَهُ مِنَ العُمرِ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنةً فزَادَهُ الله على مُلْكِ دَاوُود وسَخَّرَ لَهُ الجِنَّ وَالإِنْسَ والطَّيْرَ، وكانَ عَسْكرُهُ مَائَةَ فَرْسَخٍ خَمْسَةٌ وعِشرونَ لِلوُحُوشِ وخمسةٌ وعِشْرُوْنَ لِلطَّيْرِ، وكانَ لَهُ أَلْفُ بَيْتٍ مِنْ قوارِيْرَ فِيهَا ثَلثُمَائَةِ زَوْجَةٍ وسَبعُمائةِ سَرِيَّةٍ، وَلا يَتَكَلَّم أَحَدٌ بِشَيْءٍ إلاَّ جَاءَتْ بِهِ الرِّيْحُ إِلَى سَمْعِهِ.

وكانَ إذا جَلَسَ على البِسَاطِ وَأشْرافُ الإِنْسِ مِمَّا يَلِيْهِ، وأَشْرَافُ الجِنِّ مِنْ وَرَائِهِمْ، ثُمَّ يَدْعُو الطَّيْرَ فَتُظِلُّهُمْ، ثُمَّ يَدْعُو الرِّيحَ فَتَحْمِلُهُمْ وَالطَّبَّاخُوْنَ في أَعْمَالِهِمْ لا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ عَمَلٌ فَيُطْعِمُ النَّاسَ النَّقِيَّ، وَيُطْعِمُ أَهْلَهُ الخَشْكَارَ، وَيَأْكُلُ هُوَ الشَّعِيْرَ.

وَرَوَى يَسارٌ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِيْنَارٍ قالَ: خَرجَ نَبِيُّ الله سُليمَانُ وَالإِنْسُ والجِنُّ عَنْ يَمِيْنِهِ ويَسارِهِ، فَأَمَرَ الرِّيْحَ فَحَمَلَتْهُم حَتَّى سَمِعُوا زَجْلَ الملائِكَةِ في السَّماءِ بِالتَّقْدِيسِ، ثُمَّ أَمَرَهَا فَحَطَتْهُمْ حَتَّى مَسَّتْ أَقْدَامُهُمْ البَحْرَ فَسَمِعُوا صَوْتًا مِنَ السَّماءِ يَقُولُ: لَو كَانَ في القَلْبِ صَاحِبِكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الكِبْرِ لَخَسَفْتُ بِهِ أَبْعَدَ مِمَّا رَفَعْتُهُ. وينشد:

يُحِبُّ الفَتَى طُوْلَ الحَيَاةِ وَإِنَّمَا ... عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الحَيَاةَ فَنَاءُ
زِيَادَتُه في العُمْرِ نَقْصُ حَيَاتِهِ ... ولَيْسَ عَلَى نَقْصِ الحَيَاةِ نَمَاءُ
إِذَا مَا طَوَى يَوْمًا طَوَى اليومُ بَعْضَه ... ويَطْوِيْهِ إِنْ جَنَّ المَسَاءَ مَسَاءُ
جَدِيْدَانِ لاَ يَبقَى الجَمِيْعُ عَلَيهِما ... وَلاَ لَهُما بَعْدَ الجَمِيْعِ بَقَاءُ

قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، هَذَا نِهَايَةٌ في المَدْحِ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: الآية ٣٠]، أَيْ: رَجَّاعٌ بِالتَّوبَةِ إلى الله عَمَّا يَقَعُ مِنْ سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهُوَ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ و﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [صَ: الآية ٣١] هِيَ الخَيْلُ وفيهَا قولانِ:

أَحَدُهُما: أنها القَائِمَةُ عَلَى ثَلَاثِ قَوائِمَ وَقَدْ أَقامَتِ الأُخْرَى عَلى طَرفِ

الحَافِرِ مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلٍ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدِ بْنِ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ الزَّجَّاجُ وَاحْتَجَّ بِقولِ الشَّاعِرِ:

أَلِفَ الصُّفُوْنَ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ   مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلاَثِ كَسِيْرًا

وَالثَّانِي: أَنَّها القَائِمَةُ سَواءٌ كانَتْ عَلى ثَلاثٍ أَوْ غَيْرِ ثَلاثٍ. قَالَ الفَرَّاءُ: عَلَى هَذَا رَأَيتُ العَرَبَ وَأَشْعارَهُم تَدُلُّ على أَنَّها القِيامُ خَاصَّةً. وَاحْتَجَّ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَلَى هَذَا بقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ لَهُ النَّاسُ صُفُوْفًا**» ـ أي: قيامًا ـ «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». وَأَمَّا الجِيادُ فَهِيَ السُّرَّاعُ في المَشْيِ والجَرِي، وسَبَبُ عَرْضِهَا عَلَيهِ أَرْبَعَةُ أقْوالٍ، وفي عَدَدِهَا أَرْبَعَةُ أقْوالٍ.

قالَ المُفَسِّرُوْنَ: لَم تَزَلْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ إلى أَنْ غَابَتِ الشَّمْسُ فَفَاتَتْهُ صَلَاةُ العَصْرِ فَلَمْ يُذَكِّرُوْهُ، ولأَنَّهُ كَانَ مَهِيْبًا لا يَبْتَدِئُهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ فَلَمَّا غَابَتْ ذَكَرَهُ ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ ـ يَعْنِي آثَرْتُ الخَيْلَ ـ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رُدُّوهَا﴾ أي: أعيدوا الخيل، ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ﴾ [صٓ: الآية ٣٣]، فَهِيَ جَمْعُ سَاقٍ، وَفِي المُرَادِ بِالمَسْحِ قولانِ:

أحدُهُما: أنَّه ضَرَبَها بِالسَّيْفِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ كَرَى سُوْقَهَا وأَعْنَاقَها وَحَبَسَهَا في سَبِيْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ، حَكاهُ الثَّعْلَبِيُّ والعُلَمَاءُ عَلَى الأَوَّلِ، لَمَّا نَظَرَ الحقُّ إلى حُسْنِ قَصْدِهِ في عَقْرِ الخَيْلِ بَعَثَ الله خَيْلًا لا تَمْشِي بِالأَرْجُلِ فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيْحَ. وينشد:

أَهْلُ المحبَّةِ لاَ تَخْفَى شَوَاهِدُهُم   ذَلُّوا فَعَزُّوْا كَذَا حَالُ المُطِيْعِيْنَا
الصَبْرَ إِنْ مُنِعُوْا وَالشُّكْرَ إِنْ رُزِقُوْا   فالقَوْمُ بِالله في الحَالَيْنِ رَاضِيْنَا

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صٓ: الآية ٣٤]، أي: ابْتَلَيْنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ وَالجَسَدُ هُو الشَّيْطَانُ، يُقالُ لَه صَخْرٌ وَلم يَكُنْ مِمَّنْ سُخِّرَ لَهُ ثُمَّ أَنابَ، أي: رَجَعَ عَن ذَنْبِهِ. وقيلَ: إِلَى مُلْكِهِ.

وفي سبَبِ ابْتِلَائِهِ ثَلاثَةُ أقوالٍ:

أَحَدُها: أَنَّه كانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وكانَ بَيْنَ أَهْلِهَا وبَيْنَ قَوْمٍ خُصُومَةٌ فقَضَى بَيْنَهُمْ

بِالحَقِّ إلاَّ أنَّه وَدَّ لَوْ كانَ الحَقُّ لأَهْلِهَا فَعُوْقِبَ إِذْ لَمْ يَكُنْ هَواهُ بَيْنَهُمْ وَاحِدًا، قالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ.

وَالثَّاني: أنَّ هذِهِ الزَّوْجَةَ كانَتْ مِنْ آثَرِ النِّسَاءِ عِنْدَهُ، فَقالَتْ لَهُ يَومًا: إنَّ بَيْنِي وبَيْنَ فُلانَةَ خُصُومَةً وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَقْضِيَ لِيْ. فقالَ: نَعَمْ، ولَمْ يَفْعَلْ فَابْتُلِيَ لأَجْلِ مَا قَالَ، قالَه السَّدِيُّ.

والثَّالِثُ: أنَّ هذِهِ الزَّوْجَةُ كَانَ قَدْ سَبَاهَا فَأَسْلَمَتْ، فكانَتْ تَبْكِي اللَّيْلَ والنَّهارَ وتَقُولُ: أَذْكُرُ أَبي ومَا كُنْتُ فِيهِ، فَلَوْ أَمَرْتَ الشَّياطِيْنَ أن يُصَوِّرُوْا صُوْرَتَهُ في دَارِيْ أَتَسَلَّى بِهَا فَفَعَلَ، فكَانَ إِذَا خَرَجَ تَسْجُدُ لَهُ هِيَ وَوَلاَئِدُهَا، فَلَمَّا عَلِمَ كَسَرَ تلكَ الصُّورةَ وعَاقَبَ المَرأَةَ ووَلائِدَهَا.

قالَ وَهَبٌ في كيفيَّةِ ذَهَابِ الخَاتَمِ قولان:

أَحَدُهما: أنَّه كانَ جالِسًا على شَطِّ شَاطِئِ البَحْرِ فَوَقَعَ مِنْهُ.

والثَّانِي: أنَّ شَيْطانًا أَخَذَهُ.

ثُمَّ في كيفِيَّةِ أَخْذِهِ **أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ**: أَمَّا سُلَيمانُ، فإنَّه لَمَّا ذَهَبَ مُلكُهُ انْطَلَقَ هَارِبًا في الأَرْضِ فكانَ يَسْتَطْعِمُ فلَا يُطْعَمُ فيقول: لَو عَرَفْتُمُونِيْ أَعْطَيْتُمونِيْ، أنا سُلَيمَانُ، فَيَطْرُدُوْنَه حَتَّى أعْطَتْهُ امْرَأَةٌ حُوْتًا فَشَقَّهُ فَوَجَدَ الخَاتَمَ في بَطْنِ الحُوتِ بَعْدَ أَرْبَعِيْنَ ليلةً في قَوْلِ الحَسَنِ. وقالَ سعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: بَعد خمسِيْنَ لَيلةً فلما رَدَّ الله مُلْكَهُ وبَهَاءَهُ وَأَظَلَّتْهُ الطَّيْرُ، أَقْبَلَ لا يَسْتَقْبِلُهُ إِنْسِيٌّ وَلاَ جِنِيٌّ وَلا طَائِرٌ ولا حَجَرٌ ولا شَيْءٌ إلاَّ سَجَدَ لَهُ حَتَّى انْتَهى إلى مَنْزِلِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إلى الشَّيْطانِ فَجِيْءَ بِهِ فَجَعَلَهُ في صُنْدُوْقٍ مِنْ حَدِيْدٍ، وَأَقْفَلَ عَلَيْهِ وخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُلْقِيَ في البَحْرِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ. وينشد:

مَوْلًى يَجُوْدُ عَلَى العَاصِيْ وَيَسْتُرُه ... وقَدْ تَقَرَّبَ بِالعِصْيَانِ مِنْ نِقَمِهِ
ويُتْبِعُ الذَّنْبَ إِحْسَانًا ومَغْفِرَةً ... فَنَحْنُ في حُكْمِهِ غَرْقَى وَفِي نِعَمِهِ
فَيَا مُقِيْمًا عَلَى العِصْيَانِ مُجْتَهِدًا ... ومَا ارْعَوَيْتَ ومَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ كَرَمِهِ

إخواني، تَأَمَّلُوا هَذَا السُّلطانَ العَظِيمَ كَيْفَ نَزَلَ بِالزَّلَلِ، واخْتَلَّتْ أُمُورُهُ بِالخَلَلِ. فَخَطَؤُهُ أَوْجَبَ خُرُوْجَهُ مِنَ المَمْلَكَةِ، ولُقْمَةُ آدَمَ كَادَتْ تُوقِعُهُ في مَهْلَكَةٍ،

فَعَلَيْكُم بِالتَّقوى فإنَّها سَبِيْلُ السَّلامَةِ، فَمَنْ أَخْطَأَهَا أَخْطَأَتْهُ الكَرَامَةُ، أي: مَتَى رَأَيْتُم العَقْلَ يُوثِرُ الفَانِي عَلَى البَاقِيْ؟ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُسِخَ مَنْ رَكِبَ ظَهْرَ التَّفْرِيطِ نَزَلَ به مَنْزِلَ النَّدَمِ. أَمَا سَمِعْتُم أنَّ دَاوُودَ أُعطِيَ نِعْمَةَ نَغْمةٍ كانَ يَقِفُ لَهُ الماءُ والطَّيْرُ فَامْتَدَّتْ يَدُ التَّفْرِيْطِ فَقَدَّتْ قَمِيْصَ العِفَّةِ فَأَثَّرَ زَلَّتُهُ حَتَّى في التِّلَاوَةِ. وينشد:

يَا بَعِيْدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِهِ مُفْرَدًا يَبْكِيْ عَلَى شَجَنِهِ
كُلَّمَا جَدَّ النَّحِيْبُ بِهِ زَادَتِ الأَسْقَامُ في بَدَنِهِ
وَلَقَدْ زَادَ الفُؤَادُ شَجًى هَاتِفٌ يَبْكِيْ عَلى فَنَنِهِ
شَقَّهُ مَا شَقَّنِيْ فَبَكَا كُلُّنَا نَبْكِيْ عَلَى سَكَنِهِ

إخواني، إذَا قَرَعَ المَرءُ بَابَ الكُهُولَةِ فلَقَدِ اسْتَأْذَنَ عَلَى البَلاءِ فَقَطَعَ وَاللهِ الْمَشِيْبُ سِلْكَ العُمْرِ، وذَهَبَتِ القُوَى في الهَوَى ولَمْ يَبْقَ حِيْلَةٌ إلاَّ الانْكِسَارَ، وَالبُكَى كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الشَّبَابِ، شَهْرٌ وَكُلُّ شَهْرٍ دَهْرٌ؛ فَإِذَا نَزَلَ الْمَشِيْبُ نَفِدَ الحِسَابُ، سُقِيَ مِنَّا وَلَيَالِي الخَيْفِ مَا شَرِبْتَ، أَيُّها الشَّيخُ مَاتَتْ لَذَّةُ الهَوَى وَخَلِقَتْ عِنْدِي خِرْقَةُ الأَسَى. شعر:

يَا يَوْمَ مُفْتَرَقِ الرِّفَاقِ تَرَى تَعُوْدُ لِمُلْتَقَاهَا
هَكَذَا تَذُوْبُ عَلَيْكُم نَفْسِي ومَا بَلَغَتْ مُنَاهَا
وَاهًا عَلَيْهَا وَلَوْلا أَنْ يَلُومَ اللَّائِمُوْنَ لَزِدْتُ آهًا

قالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ لأَصْحَابِهِ: لَوْ رَأَيْتُم في الجَنَّةِ رَجُلًا يَبْكِيْ أَمَا كُنْتُمْ تَعْجَبُونَ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: وَأَعْجَبُ مِنْهُ رَجُلٌ يَضْحَكُ في الدُّنْيَا ولا يَدْرِي إلى مَا يَصِيْرُ.

يَا أَيُّهَا المُعْجَبُ بِنَفْسِهِ تَأَمَّلْ أَصْلَكَ نُطْفَةٌ، بِالأَمْسِ جِيْفَةٌ، في الغَدِ عَاجِزٌ، في الحَالِ إذَا أَثَارَ عَجَاجُ غُباره العُجْبِ غَطَّى عَيْنَ البَصَائِرِ، وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ فَنِعْمَ السَّمْتُ الصَّمْتُ إِنَّه لَيَسْتُرَ المَعَايِبَ مَتَى تَمَّ العَقْلُ نَقَصَ الكَلَامُ.

مَا سَعِدَ مَنْ سَعِدَ إلاَّ بِنَقْصِ الهَوَى، رُؤيَتُكَ لِنَفْسِكَ يُوْرِثُ العَمْيَ عَنِ

الحَقائِقِ. سُكُوتُكَ إلى مَدْحِكَ كَمِيْنُ مَكْرٍ بِكَ نَفْسُكَ إلى الذَّمِّ أَحْوَجُ مِنْهَا إلى المَدْحِ. كَيْفَ لاَ وَطَاعَتُهَا تَدْعُوْكَ إلى مَعْصِيَةِ الله، وَرِضَاهَا تَحْمِلُكَ عَلَى سَخَطِهِ، وَيْحَكَ أَرْضُ الفِطْرَةِ زَكِيَّةٌ، فَانْظُرْ مَاذَا تَغْرِسُ إنْ غَرَسْتَ أَشْجَارَ التُّقَى أَثْمَرَتْ حَلاوةَ الأَبَدِ، وَإِنْ بَذَرْتَ بُذُورَ التَّبْذِيْرِ فَكُلُّ ثِمارِهَا مُرٌّ. شعر:

مَـجْـلِـسُـنَـا مَـأْتَـمٌ لِـلـذُّنُـوْبِ ... فَـابْـكُـوْا فَـقَـدْ حَـانَ مِـنَّـا الـبُـكَـاء

وَيَـوْمَ الـقِـيَـامَـةِ مِـيْـعَـادُنَـا ... لِـكَـشْـفِ الـسُّـتُـورِ وهَـتْـكِ الـغِـطَـاء

فَيَا مَنْ عَمَلُه بِالنِّفاقِ مَغْشُوشٌ يَتَزَيَّنُ لِلنَّاسِ كَما يَتَزَيَّنُ المَنقُوشُ. إنَّما يَنْظُرُ إلى البَاطِنِ لا إلى النُّقوشِ، إذا هَمَمْتَ بِالمَعَاصِي فَاذْكُرْ يَوْمَ النُّعُوشِ، فَكَيْفَ تُحْمَلُ إلى قَبْرٍ بِالجَنْدَلِ مَفْرُوْشٌ. مَنْ لَكَ إذَا جُمِعَ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَالوُحُوْشُ؟ وَقَامَ العَاصِي مِنْ قَبْرِهِ حَيْرَانَ مَدْهُوْشٌ، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القَارعَة: الآية ٥].

السَّجع:

يَا مَنْ أغْصَانُ إخْلَاصِهِ ذَاوِيَةٌ، وصَحِيْفَتُه مِنَ الطَّاعَاتِ خَاوِيَةٌ، لَكِنَّهَا لِكِتابِ الذُّنوبِ حَاوِيَةٌ. كَمْ بَيْنَكَ وبَيْنَ البُطونِ الطَّاوِيَةِ؟ كَمْ بَيْنَ طَائِفَةِ الهُدَى وَالغَاوِيَةِ؟ أَعْلِمْ أَعْضَاءَكَ أَنَّهَا في التُّرابِ ثَاوِيَةٌ، لَعَلَّكَ تَنْفَرِدُ بِالجِدِّ في زَاوِيَةٍ قَبْلَ أن تَعْجِزَ عندَ المَوْتِ القُوَّةُ المُتَقَاوِيَةُ. وتَرَى عُنُقَ المِيْزانِ لِقِلَّةِ الخَيْرِ لاوِيَةً، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: الآيتان ٨، ٩].

ذِكْرُ الحِسَابِ أَطَارَ عَن أَعيُنِ المُتَّقِيْنَ النُّعَاسَ، وَلَثَقِيْلُ المِيْزَانِ فَرَغَتْ أَكْيَاسَ الأَكْيَاسِ مَن قَدَّمَ مَالَهُ فهُوَ لَهُ وَمَا خَلَّفَهُ بعدَهُ فلَيْسَ لَهُ. وينشد:

كَـيْـفَ الـرَّحِـيْـلُ بِـلَا زَادٍ إلـى وَطَـنٍ ... لاَ يَـنْـفَـعُ الـمَـرْءَ فِـيـهِ غَـيْـرُ تَـقْـواهُ

مَنْ لَـم يَـكُـنْ زَادُه الـتَّـقْـوَى فَـلَـيْـسَ لَـهُ ... يَـوْمَ الـقِـيَـامَـةِ عُـذْرٌ عِـنْـدَ مَـوْلاهُ

السَّجع:

يَا مَن أَرْكانُ إخْلَاصِهِ وَاهِيَةٌ، أَمَا لَكَ مِنْ عَقْلِكَ نَاهِيَةٌ؟ إلى متَى نَفْسُكَ

سَاهِيَةٌ؟ مُعْجَبَةٌ بِالدُّنْيَا زَاهِيَةٌ، مُفَاخِرَةٌ لِلأَقْرانِ مُضاهِيَةٌ، النَّارُ بَيْنَ يَدَيْكَ وتَكْفِي دَاهِيَةٌ، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾.

يَوْمَ تَقُومُ مِنْ قَبْرِكَ ضَعِيفَ الجأْشِ، قَدْ جَالَ قَلْبُكَ فِي بَدَنِكَ وجَاش، ووَابِلُ الدَّمْعِ يَسْبِقُ الرَّشَاشَ، أَتَدْرِيْ مَا تُلاقِي فِي العُطَاشِ الظَّامِيَةِ؟ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة: الآيتان ١٠، ١١].

لَو رَأَيْتَ الظَّالِمَ قَدْ شُقِيَ يَصِيْحُ فِي المَوقِفِ وَأُقْلُقِي، اشْتَدَّ وَاللهِ عَطَشُهُ وَمَا سُقِي، وشَررُ النَّارِ إِلَيْهِ تَقِيْ، فَمَنْ يَتَّقِي تِلْكَ الرَّامِيَةَ؟ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة: الآية ١١].

لَو رَأَيْتَهُ يُقَاسِي حَرَّهَا، ويُعَانِي ضَرَّهَا، جَحِيْمَهَا وَقَرَّهَا، وَاللهِ لا يَدْفَعُ اليَوْمَ شَرَّهَا، إلاَّ عَيْنٌ هَامِيَة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة: الآيتان ١٠، ١١].

أَيْنَ مَنْ عَلَا وتَكَبَّرْ؟ أَيْنَ مَن عَتَا وَتَجبَّر؟ أيْنَ مَنْ لِلدِّوَلِ بِالظُّلْمِ دَبَّرَ؟ مَسْكَنُهُ الهَاوِيَةُ، ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾.

يَوْمَ يَفِرُّ الوَلَدُ مِنْ أبِيْهِ، والأَخُ مِن أَخِيْهِ، وكُلُّ قَرِيْبٍ مِنْ ذَوِيْهِ، اِسْمَعْ يَا مَن مَعَاصِيْهِ نَامِيَةٌ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾.

لِهَذَا كانَ المُتَّقُونَ يَقْلقُوْنَ، ويَخَافُونَ وَيُنْفِقُونَ، فَكَم جَرَتْ مِنْ عُيُونِهِم عُيُونٌ، كَانَتْ جُفُونُهُمْ دَائِمَةً دَامِيَةً، ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة: الآية ١١].

اللَّهُمَّ رُدَّنَا إِلَيْكَ رَدًّا جَمِيلًا. اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِلهَوَى على عُقُولِنَا سَبِيلًا. اللَّهُمَّ رَغِّبْنَا فِيمَا يَبْقَى. اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِيمَا يَفْنَى. اللَّهُمَّ لا تَرُدَّنَا بِالخيبَةِ مَطْرُودِيْنَ، وصَلَّى الله على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وعَلَى آلِهِ وسَلَّم تسلِيمًا دَائِمًا كثيرًا.

المَجْلِسُ الثَّانِي والعِشْرُونَ
فِي قِصَّةِ سُلَيْمَان مَعَ بَلْقِيْس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذِي لِقُدْرَتِهِ يَخْضَعُ مَنْ يَعْبُدُ، ولِعَظَمَتِهِ يَخْشَعُ مَنْ يَرْكَعُ ويَسْجُدُ، وَلِطِيْبِ مُناجَاتِهِ يَسْهَرُ العَابِدُ ولاَ يَرْقُدُ، ولِطَلَبِ ثَوابِهِ يَقُومُ المُصَلِّي وَيَقْعُدُ. وإِذَا دَخَلَ الدَّخِلُ في العَمَلِ يَفْسُدُ.

وَإِذَا قُصِدَتْ بِهِ سُوْقُ الخَلْقِ يَكْسُدُ، ، يَجِلُّ كَلامُه عَنْ أن يُقالَ مَخْلُوقٌ ويَبْعُدُ مَن شَبَّهَ أَوْ عَطَّلَ لَمْ يَرْشُدْ، مَا جَاءَ في القُرآنِ قَبْلَنا أو في السُّنَّةِ لَمْ تَرْدُدْ، فَإِمَّا أنْ تَقُولَ في الخَالِقِ بِرَأْيِكَ فَإِنَّهُ يَبْرُدُ، أَلَيْسَ هَذا اعتقادُكُم يَا أَهْلَ الخَيْرِ؟ وكيفَ لا أتَفَقَّدُ العَقائِدَ خَوْفًا مِنَ الضَّيْرِ؟ فَإِنَّ سُلَيمَانَ تَفَقَّدَ الطَّيْر، ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ يُرْشَدَ بِالوُقوفِ عَلَى بَابِهِ فَلا يَشْرُدْ، وَأُصَلِّي على رَسُولِهِ محمَّدِ الَّذِي قِيْلَ لِحاسِدِهِ فَلْيَمْدُدْ، وعَلَى الصَّدِّيقِ الَّذِيْ في قُلُوبِ مُحِبِّيْهِ فَرحاتٌ، وفي صُدُورِ مُبْغِضِيْهِ قَرَحَاتٌ فِيهَا تُوْقَدُ، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي لَم يَزَلْ يُقَوِّي الإِسْلَامَ ويَعْضُدُ، وعَلَى عُثْمانَ الَّذِيْ جَاءَتْهُ الشَّهَادَةُ فَلَم يَرْدُدْ، وعَلَى عَلِيٍّ الَّذِيْ كَانَ يَنْسِفُ زَرْعَ الكُفْرِ بِسَيْفِهِ ويَحْصُدُ، وعَلَى عَمِّهِ الَّذِيْ يَعْلُو نَسَبُهُ الأَنْسابَ ويَمْجُدُ.

قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٠]؟ رَكِبَ سُلَيْمَانُ يومًا مَرْكَبَ الرِّيْحِ فَرَاحَتْ بَوَادِرُهُ عَلَى وَادِي النَّمْلِ فَنَدَّتْ نَمْلَةٌ فَنَادَتْ أَخَواتِهَا بِنَدَّةٍ ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النَّمل: الآية ١٨]، ثُمَّ قَامَتْ

فَأَقامَتْ لِعَدْلِهِ عُذْرَ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: الآية ١٨]، فَحَمَلَتْهُ أَرِيْحِيَّةُ الشُّكْرِ عَلى طَرَبٍ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النَّمل: الآية ١٩]، وذَلِكَ أَنَّهَا بِلَفْظَةِ ﴿يا﴾ نَادَتْ ﴿أَيُّهَا﴾ نَبَّهَتْ النَّمل، حَذَّرَتْ ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، أَمَرَتْ ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، نَبَّهَتْ ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، خَصَّتْ ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾، عَمَّتْ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: الآية ١٨] عَذَرَتْ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩] مُلْكه ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: الآية ١٨] وَقَعَ في مَفَازَةٍ لا يَرَى فِيهَا عَيْنَ الـمَاءِ عَلَى ما عَلِمْنَا فَجَاشَ جَأْشَ صَدْرَ الجَيْشِ لِفَقْدِهِمْ في القَفْرِ إِلَى المَاءِ، وكانَ الهُدْهُدُ يَدُلُّهُم عَلَى المَاءِ فَغَابَ، ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟ - وَالـمَعْنَى مَا لِلْـهُـدْهُـدِ لاَ أَرَاهُ؟ - ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النَّمل: الآية ٢٠، ٢١].

قال ابنُ عَبَّاسٍ: يَنْتِف رِيْشه.

وقالَ الضَّحَّاكُ: شَدِّ رِجْلَيْهِ وَتَشَمُّسِهِ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النَّمل: الآية ٢١]، أي: بحُجَّةٍ، وكانَ الهُدْهُدُ حِيْنَ نَزَلَ سُلَيْمَانُ قَدِ ارْتَفَعَ إِلى السَّمَاءِ يَتَأَمَّلُ الأَرْضَ، فَرَأَى بُسْتَانًا لِبَلْقِيْسَ فَمَالَ إِلى الخُضْرَةِ فَإِذَا هُو بهُدْهُدٍ لهَا، فقالَ لَه: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فقالَ: مِنَ الشَّامِ مَعَ صَاحِبِيْ سُليمَانَ.

فمِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ فقَالَ: من هُدَاهِدِ البِلَادِ ومَلِكَتُها بَلْقِيسُ، فَانْطَلَقَ مَعَهُ فَرَأَى بَلقِيْسَ ومُلْكَهَا.

وَبَلقِيْسُ لَقَبٌ، وَاسْمُهَا بَلْقَمَةُ بِنْتُ ذِي سَرَجٍ. وقِيْلَ: بِنْتُ شَيْطَانَ مَلِكِ سَبَأَ، ثُمَّ احْتُضِرَ فَاسْتَخْلَفَهَا لِما رَأَى مِنْ رَأْيِها وتَدْبِيْرِهَا فَمَلَكَتْ وَكانَتْ سَاكِنَةً في أَرْضِ سَبَأَ وَهِيَ مَأْرِبُ.

وكَانَ تَحتَ يَدِهَا المُلُوكُ، فَلَمَّا رَآهَا الهُدْهُدُ رَجعَ. قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا الَّذِيْ غَيَّبَكَ؟ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النَّمل: الآية ٢٢]. وسَبَأَ: هِيَ القَبِيْلَةُ الَّتِي مِنْ أَوْلادِ سَبأَ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وهُوَ اسمُ رَجُلٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَ رَجُلٌ رسولَ الله ﷺ عَنْ سَبَأَ أَرَجُلٌ، أَم امْرَأَةٌ، أَمْ أَرْضٌ؟ فقالَ: بَلْ هُوَ رَجُلٌ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةُ أَوْلادٍ فَسَكَنَ اليَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وبِالشَّام أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا اليَمانِيُّوْنَ؛ فَمُذْحِجٌ وَكِنْدَةٌ وَالأَزْد وَالأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمارُ وَحِمْيَرُ. وَأَمَّا الشَّامُ؛ فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وعَامِلَة وغَسَّانُ.

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ - يَعْنِيْ بَلْقِيْسَ - ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ يُعْطَاهُ المُلُوكُ ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣] وهُوَ السَّرِيْرُ. وَكانَ مِنْ ذَهَبٍ قَوائِمُهُ مِنْ جَوْهَرٍ مُكَلَّلٌ بِاللُّؤْلُؤِ. ثُمَّ كَتَبَ كِتَابًا وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ ودَفَعَهُ إِلى الهُدْهُدِ وقالَ: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: اسْتَتِرْ، ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٨] أي: يردون مِنَ الجَوابِ.

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى رَأْسِ المَرأَةِ رَفْرَفَ سَاعَةً وَالنَّاسُ يَنْظُرونَ فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا فَأُلْقِيَ الكِتابُ مِنْ قَادَةِ مِنْقَارِهِ في حِجْرِهَا، فَرَأَتْ اليَقْظي بِيَقْظَانِ فَهِمِهَا كِتَابًا مَخْتُومًا وَكَلامًا عَجِيْبًا وحَامِلًا غَرِيْبًا، فَصَادَهَا العَقْلُ وَالفَهْمُ فصَادَاهَا فَاسْتَشَارَتْ قَوْمَهَا فَأَوْمَوْا إِلَى الحَرْبِ بِلَفْظِ ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأۡسٍ شَدِيدٍ﴾ [النَّمل: الآية ٣٣] - والمَعْنَى نَقْدِرُ عَلَى القِتَالِ -، ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾، أي: أَخْرَبُوهَا وَأَذلُّوا أَهْلَهَا، فَصَدَّقَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ فقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٣٤]، فَعَلِمَتْ أَنَّ مَن جُنْدُهُ الطَّيْرُ لا يُقَاوَى وبَقِيَتْ مَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الدَّعْوَةِ والدَّعَاوِيْ ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النَّمل: الآية ٣٥] وَا عَجَبًا لِلذَّهَبِ إذا ذَهَبَ سَهْمُه ولا يُخْطئُ وَلِلرَّشَا إِذَا رَشَّتْ مَزَالِقَ أَقْدَامِ العَقْلِ لاَ يُبْطِئُ. وينشد:

لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنَ المَرْءِ رِدَاءٌ رَقَعهُ ... وَقَمِيْصٌ فَوْقَ كَعْبِ السَّاقِ مِنْهُ رَفَعَهُ
وجَبِيْنٌ لاَحَ مِنْهُ أَثَرٌ قَدْ صَنَعَهُ ... أَرِهِ الدِّرْهَمَ تَعْرِف غَيَّهُ أَوْ وَرَعَهُ

فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ ثلاثَ لَبِنَاتٍ مِن ذَهَبٍ في كُلِّ لَبِنَةٍ مِئَةُ رَطْلٍ ويَاقُوْتَةٌ حَمْرَاءَ طولُها شِبْرٌ مَثْقُوبَةٌ، وَثَلاثِيْنَ وَصِيْفًا وَثَلاثِيْنَ وَصِيْفَةً أَلْبَسَتْهُم لِبَاسًا وَاحِدًا فَلا يُعْرَفُ الذَّكَرُ مِنَ الأُنْثَى، ثُمَّ كَتَبَتْ إِلَيْهِ قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْك كَذَا وكَذَا، فَأَدْخِلْ في اليَاقُوتَةِ خَيْطًا وَاخْتِمْ عَلَى طَرَفَيْهِ بِخَاتِمِكَ، ومَيِّزْ بَيْنَ الجَوارِي وَالغِلْمانِ.

فَدَعَا بِالذَّرَّةِ وربَط فِيهَا خيطًا وَأَدْخَلَهَا في ثُقْبِ اليَاقُوتَةِ حَتَّى خَرَجَتْ مِن

طَرَفِهَا الآخَرِ، ثُمَّ جَمَعَ طَرَفَيِّ الخَيْطِ فَخَتَمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ مَيَّزَ بَيْنَ الغِلْمانِ وَالجَوارِيْ بِأَنْ أَمَرَهُم بِالوُضُوْءِ.

قَالَ قَتَادَةُ: بَدَأَ الغِلْمَانُ بِغَسْلِ ظَواهِرِ السَّاعِدِ وَالجَوَارِيْ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ، ثُمَّ صَاحَ سُلَيْمانُ بِعِزٍّ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النَّمل: الآية ٣٦]؟ ثُمَّ قَالَ لِلرَّسُولِ: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ [النَّمل: الآية ٣٧] لَيسَ الشَّأْنُ في تَحْصِيْلِ أَلْفاظِ العِلْم، إِنَّمَا الشَّأْنُ في تحصيلِ المَعْنَى. أَظْرَفُ الأُمُورِ انْقِيَادُ العَقْلِ إلى طَاعَةِ الحِسِّ وَهُوَ يَعْلَمُ غَيْبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ. وَا أَسَفًا عَلَى حُرٍّ اسْتَعْبَدَهُ الهَوَى.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٠]، فَقَدِّمْ يَا أَخِي في العَمَلِ الصَّالِحِ وَاغْتَنِم مَا بَقِيَ مِن عُمْرِكَ، واعلَمْ أنَّ الآخرَةَ مِرْآةُ الدُّنْيَا فَمَا عَمِلْتَهُ في هَذِهِ رَأَيْتَهُ في تِلْكَ، فَأَنْتَ اليومَ تَعْمَلُ وغَدًا تَرَى، فَإِنْ كُنْتَ عَاقِلًا فَابْكِ عَلَى مَا جَرَى، وَاذْكُرْ مَا قَدَّمْتَ فَكَأَنَّكَ قد وَصَلْتَ. وينشد:

ذَكَـرْتُ إِسَـاءَتِـيْ فَـازْدَدْتُ حُـزْنًـا ... ومِـثْـلِـي مَـن تَـذَكَّـرَ ثُـمَّ نَـاحَـا
قَـطَـعْـتُ الـعُـمْـرَ عِـصْـيَـانًـا وجَـهْـلًا ... وَجَـانَـبْـتُ الـمُـروَّةَ وَالـصَّـلَاحَـا
سَـيُـبْدِي الـعِـرضُ مِـنِّـي يَـوْمَ حَـشْـرِي ... لأَهْـلِ الـعَـرْضِ أَحْـوَالاً قِـبَـاحَـا

يا هَذَا، تَدَرَّعْ بِدُرُوْعِ أَهْلِ التُّقَى تَقِيْ، ثُمَّ انْدَمْ عَلَى مَا فَاتَ، فَعِنْدَ المَمَاتِ تَظْهَرُ الْمُخْبَّاتُ، وَيْحَكَ يَا رَاحِلُ وَمَا حَصَلْتَ على طَائِلٍ، إلى كَم تَنامُ وَظَلَامُ لَيْلِكَ عَادَ صَباحُ؟ بِالله أَمَا عَلَيْكَ في قُبْحِ فِعْلِكَ جَنَاحٌ؟ لَكِنْ طَائِرُ جِدِّكَ مَقْصُوصُ الجَنَاحِ، وَيْحَكَ بَدِّلْ أَقْدَامَ النَّدَامَةِ قبل الإقْدَامِ عَلَى صِرَاطِ القِيَامَةِ، فَكَم مِنْ أَمِيْرٍ كانَتْ لَهُ جنودٌ وأَبْطَالٌ حَالُه بِالحِمَامِ قَدْ حَالَ، وكَمْ مِنْ آمِنٍ في سِرْبِهِ نَادَى مُنَادِي المَنَايَا يسربه، أَوَّاهُ كَمْ مِنْ رَجُلٍ كانَ عَلَى عِيَالِهِ شَدِيْدَ الحَذَرِ غِيرَةَ غَيْرِهِ مِن بَعْدِهِ مَلَكَهُنَّ غَيْرُهُ وبَات في قَبْرِهِ في حَيْرَةٍ. وينشد:

مُـقِـيـمٌ إلـى أن يَـبْـعَـثَ الله خَـلْـقَـهُ ... لِـقَـاؤُكَ لا يُـرْجَـى وَأَنْـتَ قَـرِيْـبُ
تَـزِيْـدُ بِـلًـى فـي كُـلِّ يَـوْمٍ وَلَـيْـلَـةٍ ... وتُـبْـلَـى كَـمَـا تُـبْـلَـى وَأَنْـتَ حَـبِـيْـبُ

إخواني، الحِرْصُ يَضْرِبُ ظَهْرَ الحَرِيْصِ بِعَصَا الحُبِّ، فَلَوْ قَدْ عَصَى كُفَّ

العَصَا، اسْلُكُوا سَبِيْلَ القَنَاعَةِ مَا زَادَ على القُوْتِ مُسْتَخْدِمٌ لِصَاحِبِهِ، الحِسُّ أَعْشَى وَالعَقْلُ عَيْنُ الهُدْهُدِ.

يَا هَذَا، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ المَقَادِيْرَ إِذَا سَاعَدَتْ أَلْحَقَتِ العَاجِزَ بِالحَازِمِ، وَيحَكَ الهَوَى أَهْوَى بِكَ فِي دَقِّ قَلْبِكَ دَوِيٌّ، فَهُوَ يَمْنَعُ وُقُوْعَ سَهْمِيْ فِي مَرْمَى سِرِّكَ لاَ بِالتَّسْوِيْفِ تَسْتَوِيْ ولاَ بِالتَّخْوِيْفِ تَرْعَوِي، وَيحَكَ اقْطَعْ طَرِيْقَ الطَّبْعِ بِأَقْدامِ المُجاهَدَةِ، فَإِنْ خَلَصْتَ مِنَ الظُّلُماتِ وصَلْتَ إلى عَيْنِ الحَيَاةِ، وَاجْتَمَعَ لَكَ مُلْكُ الإِسْكَنْدَرِ فِي طُوْلِ عُمْرِ الخَضِرِ، أَشْرَافُ الأَوْصَافِ أَوْصَافُ الأَشْرَافِ، سَادَاتُ العَادَاتِ عَادَاتُ السَّاداتِ، أَحْرَارُ الشِّيَمِ شِيَمُ الأَحْرَارِ.

إخواني، أَفِيكُم مَنْ يُعِيْنُنِيْ عَلَى شَجَنِي؟ أَفِيْكُم مَنْ يُسَاعِدُنِي عَلَى حُزْنِيْ؟ سَبَقُوْنِيْ وَمَا تُرِكْتُ، أَرَادُوْنِي وَمَا أَرَادُوْنِيْ فَرَدُّوْنِيْ. وينشد:

فَأَصْبَحْتُ كَالبَازِيْ المُنْتَفِ رِيْشُه ... يَرَى حَسَرَاتٍ كُلَّمَا طَارَ طَائِرُ
يَرَى طَائِرَاتِ الجَوِّ يَخْرِقْنَ فِي الهَوَى ... فَيَذْكُرُ رِيْشًا مِنْ جَنَاحَيْهِ وَافِرُ
وقد كانَ دَهْرًا في الرِّيَاضِ مُنَعَّمًا ... عَلَى كُلِّ مَا يَهْوِيْهِ مِنَ الصَّيْدِ قَادِرُ
إِلَى أَنْ أَصَابَتْهُ مِنَ الدَّهْرِ نَكْبَةٌ ... فَها هُوَ مَكْسُورُ الجَنَاحَيْنِ خَاسِرُ

رَجَعْنَا إلى القِصَّة، فَلَمَّا صَحَّ ذلكَ عِنْدَهَا مَا تَدْعُو إليهِ وَثَبَتَ وَثْبَةً على أَقْدامِ الطَّلَبِ، وهَيَّأَتْ مَرَاكِبَ القَصْدِ فَرَحَلَتْ في هَجِيْرِ شَمْسِ الهُدَى عَلَى نَجَائِبِ الهِجْرَةِ، فَلَمَّا سَمِعَ سُلَيْمَانُ بِرَحِيلِهَا أَرَادَ تَقْوِيَةَ دَلِيْلِهَا فَنَادَى في نَادِي عَفَارِيْتِهِ مُسْتَعْرِضًا جُنْدَ بَطْشِهَا ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النَّمل: الآية ٣٨]؟ فَلَمَّا جِيْءَ بِهِ سَرَّهُ بِقَوَامٍ ﴿نَكِّرُوا﴾ [النَّمل: الآية ٤١]، ثُمَّ ابْتَلَاهَا لِيَرَى ذَكَاءَهَا ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النَّمل: الآية ٤٢]؟ ثُمَّ صَرَّحَ بِلَفْظِ ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾.

وكانَ قَدْ وَقَعَ الشياطِينُ فيهَا عِنْدَهُ قَالُوْا: رِجْلُهَا كرِجْلِ الحِمَارِ. فَأَمَرَ أَنْ يَرَى ذَلِكَ فَشَبَّهَ لَهَا بِضُعْفِهَا عَنْ إِطَاقَةِ كَأْسِ سَاقِيْهَا ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، فلما وَصَلَتْ وسَلَّمَتْ أَسْلَمَتْ فَسَلِمَتْ وحَلَّتْ قَبْلَ أن حَلَّتْ نِطاقَ النُّطْقِ، فَنَشَرَتْ خَرَزَات نِظَامِهِ عَلَى نَظْم العُذْرِ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: بِمَا سَبَقَ مِنَ الكُفْرِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٤].

فَتَزَوَّجَهَا سليمان وَرَدَّهَا إلَى مُلْكِهَا، وكَانَ يَزُوْرُهَا في كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً ويُقِيْمُ عِنْدَهَا ثَلاثَةَ أيَّامٍ، وبَقِيَ مُلْكُهَا إلى أنْ مَاتَ سُلَيمَانُ فَزَالَ مُلْكُهَا بِمَوْتِهِ.

إخواني، اسْمَعُوا هَدَاكُمُ الله: عَقَرَ سُليمانُ الخَيْلَ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيْحَ. وَاسْمَعْ يَا بَخِيْلُ، غَدًا يَقُولُ المَحْبُوسُونَ لِلسُّؤَّالِ: مَنْ هَؤُلاَءِ المُبَرَّؤُوْنَ مِنَ العَيْبِ؟ فيُقَالُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٩].

فيَقُولُونَ: مَا حَالُهُم؟ فيُقَالُ: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: الآية ٢٩]، فإذَا وَصَلُوْا إلى الجِنَانِ وَفُتِحَتْ أبْوَابُهَا بَدَأَ لَهُمُ الخَزَنَةُ بِالتَّسْلِيْمِ إتْمَامًا لِرَفْعِ التكَلُّفِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٣]، فتلك جنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: الآية ٣٥].

يَا هَذَا تَأَمَّلْ بِعَيْنِ الفِكْرِ بَاطِنَ مَا خَدَعَكَ ظاهِرُهُ تَرَى الوَسَخَ مَحْشُوًّا في وِعَاءِ الحُسْنِ ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧]. وينشد:

أقولُ لَمَّا نَأَت نُزْلُ الحِمَالِ بِهِمْ
وَالقَلْبُ في وَجَلٍ والجِسْمُ في عِلَلِ
قِفُوا بِفَضْلِكُم كَيما أُوَدِّعَكُمْ
قَبْلَ الرَّحِيْلِ فَقَدْ أدْنَيْتُمْ أَجَلِي
قَالُوا فُدِيتُكَ يَا هَذَا فَقُلْتُ لَهُم
إنِّيْ خَفِيْتُ عَنِ الأَذْهَانِ وَالمُقَلِ
قَالُوا فَفِيْ الحُبِّ مَنْ أُضنِيْتَ قُلْتُ لَهم
كُفُّوا فَإنَّكُم أَكْثَرتُمْ عَذَلِيْ
قَالُوا بِعَيْشِكَ أَخْبِرْنَا فَقُلْتُ لَهُم
في حُبِّ مَنْ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَجَلِ

السَّجع على الآية:

يَا مُعْتَرِضًا بِالذَّنْبِ لِلعِقَابِ، يَا غَافِلًا عَنْ يَوم السُّؤَالِ والجوابِ، يَا مُبارِزًا بِالمَعَاصِي رَبَّ الأَرْبَابِ، يَا مَنْ أَعْظَمُ جُرْأَةً منكَ عَلَى العَذَابِ، قُلْ لِي مَنْ أَصْبَرُ

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

لَقَدْ أَنَاخَ التَّقْصِيرُ وَالتَّمادِيْ بِبَابِكَ، وقَدْ آنَ يَعْبَقُ بِرِيْحِ الثَّوَابِ شَيْءٌ مِنْ أثوابِكَ، وَالشَّيطانُ يَجْرِي مَجْرَى الدَّمِ مِنْ آرَائِكَ، فهو مُتَمَكِّنٌ مِنْكَ إِذَا قُمْتَ في مِحْرَابِكَ، مِنْ حِيْنِ قَوْلِكَ الله أَكْبَرُ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

تَقُومُ إلى صَلاتِكَ وَأَنْتَ مُتَكَاسِلٌ، وَتَدْخُل في العِبَادَةِ وَالقَلْبُ غَافِلٌ، وتَسْتَعْجِلُ في الصلاةِ لأَجْلِ العَاجِلِ، وَإِذَا نَظَرْنَا بَعْدَ الفَرَاغِ إلى الحَاصِلِ، فَالجَسَدُ أَقْبَلَ والقَلْبُ أَدْبَرَ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

يَا مَنْ ذُلُّ المَعَاصِيْ تَعْلُوهُ، يا مُظلمَ القَلْبِ متى تَجْلُوهُ؟ هذَا القُرآنُ يُتْلَى عَلَيْكَ وتَتْلُوهُ، ولكنْ مَا تَتدبَّرُ، ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

يَا مُغْتَرًّا بِالزَّخَارِفِ وَالتَّمويهِ، وَتَعْجَبُ بِمَا تَجمعُه وتَحْوِيْهِ، هَلَكَ وَالله كُلُّ ذِي عَجْبٍ أَوْ كِبْرٍ أَوْ تِيْهٍ، ونَجَى والله أَشْعَثُ أَغْبَرُ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

أَنْتَ في دَارِ انْزِعَاجٍ لاَ تَأْمَنْهَا، ولاَ تَرْكَنُ إليها، وَاحْذَرْ مِنهَا وَإِنَّما أُسْكِنْتَهَا لِتَخْرُجَ منهَا، فَتَأَهَّبْ لِلنَّقْلَةِ فَلِلْمُسْتَوْطِنُ مُغْتَرٌّ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

أَيْنَ مَنْ كَانَ يَتَنَعَّمُ في قُصُورِهَا قَدْ فَسَحَ لِنَفْسِهِ في بَوَانِيْهَا وَقُصُوْرِهَا، فَخَدَعَتْهُ وَالله بِغَرِيْرِ غُرُوْرِهَا، بَعْدَ أَنْ سَاسَ الرَّعَايَا ودبَّرَ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

نَقَلَتْهُ وَالله سَرِيْعًا، وسَلَبَتْهُ مَا جَمَعَهُ جَمِيعًا وَبَزَّتْهُ كِبرًا كَبِيْرًا وَعِزًّا مَنِيْعًا، أَتراهُ يَفْخَرُ في قَبْرِهِ أَوْ يَتَكَبَّرُ، ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

خَلَا بِعَمَلِهِ في ظَلَام لَحْدِهِ، لَمْ يَنْفَعْهُ غَيْرُ اجْتِهَادِهِ وَجِدِّهِ، ولَو قُضِيَ بِرُجُوعِهِ وَرَدِّهِ لَحَدَّثَنَا بِهَذا وَأَخْبَرَ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

فَتَنَبَّهْ مِنْ رُقادِكَ وَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ في حَياتِكَ، فَقَدْ بَالَغَتِ الزَّوَاجِرُ في عِظَاتِكَ، كَمْ تَسْمَعُ مَوْعِظَةً وتَجْلِسُ تَحْتَ مِنْبَرٍ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: الآية ١٣].

يَا لَهَا مِن نَصِيْحَةٍ لَوْ وَجَدتَ نَفَاذًا هِيَ حِجَّةٌ عَلَيْكَ إنْ لَمْ تكُنْ مَلاذًا والشَّيْءُ إذَا لَمْ يَنْفَعْ فَرُبَّمَا آذَى. وَأَنْتَ يَا هَذَا بِنَفْسِكَ أَخْبَرُ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: الآية ١٣].

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلوبَنَا مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى المَعاصِي، اللَّهُمَّ قُدْنَا إلى طَاعَتِكَ، يَا مَنْ بِيَدِهِ جَمِيعُ النَّواصِي، اللَّهُمَّ اهْدِنَا بِالهُدَى، وَاغْفِر لَنَا في الآخِرَةِ وَالأُوْلَى، وصَلَّى الله على سَيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ، وسَلَّم تسليمًا بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمِ الرَّاحِمِيْنَ.

المَجْلِسُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُوْنَ فِي قِصَّةِ سَبَأْ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صَلَّى الله على سَيِّدنا مُحَمَّد وآلِهِ

الحَمْدُ لله المُتَفَرِّدِ بِالعِزِّ والجَلالِ، المُتَفَضِّلِ بِالعَطَاءِ وَالإِفْضَالِ، مُسَخِّرِ السَّحَابِ الثِّقَالِ، مُرَبِّي الزَّرْعِ تَرْبِيَةَ الأَطْفَالِ، جَلَّ عَنْ مِثْلٍ ومِثَالٍ، وتَعَالَى عَنْ حُكْمِ الفِكْرِ وَالخيَالِ، قَدِيْم لَم يَزَلْ ولا يَزَالُ يَتَفَضَّلُ بِالإِنْعَامِ، فإن شُكِرَ زَادَ، وإنْ لَم يَشْكُرْ أَزَالَ. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

أَحْمَدُهُ على كُلِّ حَالٍ، وأُصَلِّي على رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَشْرفِ مَنْ نَطَقَ وَقَالَ، وعَلَى صَاحِبِهِ بَاذِلِ النَّفْسِ وَالمَالِ، وَعَلَى عُمَرَ العَادِلِ فلا جَارَ ولا مَالَ، وعَلَى عُثمانَ الثَّابِتِ لِلشَّهادَةِ ثُبوتَ الجِبَالِ، وعَلَى عَلِيٍّ بَحْرِ العُلُومِ وبَطلِ الأَبْطالِ، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ المُتَقَدِّمِ في نَسَبِهِ عَلَى جَمِيْعِ الأَهْلِ والآلِ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سَبأ: الآية ١٥]. سَبَأُ: هي قَبِيلَةٌ مِنْ أولادِ سَبَأ، وكانَت بَلقِيسُ لَمَّا مَلَكَت قومَهَا رَأَيَهُمْ رَأَتْهُمْ يَقْتُلُونَ على مَاءِ وَادِيْهِمْ، فَجَعَلَتْ تَنْهَاهُمْ وَلا يُطِيْعُونَهَا، فَتَرَكَتْ مُلْكَهَا وَانْطَلَقَتْ إلى قَصْرِهَا ونَزَلَتْ. فَلَمَّا كَثُرَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ أَتَوْهَا فَسَأَلُوهَا أن تَرْجع إلى مُلكِهَا فَأَبَتْ فَقالُوا: لَتَرْجِعَنَّ أَوْ لَنَقْتُلَنَّكِ. فَقَالَتْ: إِنَّكُم لا تُطِيعُوْنَنِي. فَقَالُوا: إِنَّا نُطِيْعُكِ، فَجَاءَتْ إلى وَادِيْهِمْ، وكانُوا إِذَا مُطِرُوْا أَتَاهُ السَّيْلُ مِن مَسِيْرَةِ أَيَّام، فَأَمَرَتْ بِسَدٍّ مَا بَيْنَ الجَبَلَيْنِ بمسناة، وحَبَسَتِ المَاءَ مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ، وَجَعَلَتْ لَهُ أَبْوَابًا بَعْضُهَا فوقَ بَعْضٍ، وَبَنَتْ مِنْ دُوْنِهِ بِركَةً، وجَعَلَتْ فِيْهَا اثْنَي عَشَر

مَخْرَجًا عَلَى عَدَدِ أَنْهَارِهِم، فكانَ المَاءُ يَخْرُجُ منها بِالسَّوِيَّةِ إلى أن أَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيمانَ فَكانَتْ لَهُمْ جَنَّتَانِ عن يَمِيْنٍ وشِمالٍ، وَأَخْصَبَتْ أَرْضَهُمْ وكَثُرَتْ فَوَاكِهُهُم، فَإِنْ كانَتِ المَرأَةُ لَتَمُرُّ بَيْنَ الجَبلَيْنِ وَالمِكْتَلُ على رَأْسِهَا فترجِعُ وَقَدِ امْتَلأَ مِنَ الثَّمَرِ ولا تَمَسُّ بيدِهَا شَيْئًا مِنْهُ.

ولم يَكُنْ يُرَى في بَلَدِهِم حَيَّةٌ ولا عَقْرَبٌ ولا بَعُوضَةٌ ولاَ ذُبَابَةٌ ولا بَرغُوثٌ، فَبَعَثَ الله بَعْدُ إِلَيْهِمْ ثَلاثَةَ عَشَرَ نَبِيًّا، وقيلَ لهم: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: هذِهِ بَلْدَةٌ لم تَكُنْ سَبِخَةً ولا فِيهَا مَا يُؤذِي، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سَبأ: الآية ١٥] أي: والله غَفورٌ. فَأَعْرَضُوا عَنِ الحَقِّ وَكَذَّبُوا الأَنبياءَ فأرسل الله ﴿عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سبأ: الآية ١٦]، وفيه أَرْبَعَةُ أقوالٍ:

أحدُهَا: أن العَرِمَ: الشَّدِيدُ. وقِيلَ: السَّيْلُ الَّذِي لا يُطاقُ.

والثَّانِي: أنَّه اسمُ الوَادِيْ.

والثَّالِثُ: المِياهُ. وقيلَ: العَرِمُ: جَمْعُ عَرِمَةٍ، وهيَ السِّكْرُ والمُسَنَّاةُ.

والرَّابِعُ: أَنَّهُ الجُرَذُ الَّذِي ثَقَبَ عَلَيْهِم السِّكْرَ. وفي وَصْفِ إِرْسَالِ هَذَا السَّيْلِ قَوْلانِ:

أَحدُهُما: أَنَّ الله بَعَث على سِكْرِهِمْ دَابَّةً فَنَقَبَتْ في سِكْرِهِم ثَقْبًا فَسَالَ ذلكَ المَاءُ إلى غَيْرِ المَوضِعِ الَّذِي كَانُوا يَنْتَفِعونَ بِهِ.

قالَ قَتَادَةُ: بعَث الله عليهِمْ جُرَذًا فَسُمِّيَ الخَلَدُ، وَالخَلَدُ: الفَأْرُ الأَعْمَى فَثَقَبَهُ مِنْ أَسْفَلِهِ فَأَغْرَقَ الله جَنَّاتِهِمْ وخَرَّبَ بِهِ أَرْضَهُمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّه أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَاءً أَحْمَرَ فَشَقَّ السَّدَّ وَهَدَمَهُ وَحَفَرَ الوَادِيَ.

السَّجع:

يَا أَهْلَ الذُّنوبِ لا يَغُرَّنَّكُم الإِمْهالُ، فَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ وَلَيَالٍ، ورُبَّ مَشغُولٍ بِلَذَّاتِهِ، عن ذِكْرِ تَخْرِيْبِ ذَاتِهِ يَلْهُو بِأَملِهِ عَنْ تَحْوِيْلِ عَمَلِهِ يَتَقَلَّبُ في أَغْراضِهِ،

نَاسِيًا قُرْبَ أَمْراضِهِ، بَغتَهُ الفَاجِعُ بِبَأْسِهِ فَشَغَلَهُ عَن أَهْلِهِ وَجُلَّاسِهِ، كَمْ مَأْخُوذٍ عَلَى الزَّلَلِ، خُتِمَ لَهُ بِسُوْءِ العَمَلِ، نَزَلَ بِهِ الموتُ، فيا هَوْلَ مَا نَزَلَ، فَأَسْكَنَهُ القَبْرَ فَكَأَنْ لَم يَزَلْ، فَهَذَا مَصِيْرُ العَاقِلِ لَوْ عَقَلَ، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾.

كَم نَائِمٍ عَلَى فِراشِ التَّقْصِيْرِ، مُغْتَرٍّ بِالعُمْرِ القصيرِ، صَاحَ به ولَمْ يُبَالِ النَّذِيْرَ، فَاسْتُلِبَ عَلَى الخطأِ وَالتَّبْذِيْرِ، فَلَمَّا أَحسَّ البَأْسَ ثَارَتْ مِنْ نِيْرَانِ النَّدَمِ شُعَلٌ، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾.

كَم مِنْ مُسْتَحِلٍّ شَرَابَ الهَوَى، شَرِبَ مِن كَأْسٍ حَتَّى ارْتَوَى بَيْنَمَا هُوَ على جَادَةِ أَغْراضِهِ هَوَى، فَما نَفَعَهُ عِنْدَ المَوْتِ مَا حَوَى، ولاَ شَرِبَ وَلاَ مَا أَكَلَ، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحِجر: الآية ٣]. لا تَغْتَرَّ بِنَعِيْمِ القَوْمِ، فَإِنَّ غَدَا بَعْدَ اليَوْمِ دَعْهُمْ يُوْثِرُ فِيهِمْ لُؤمْ، وهَلْ يَسْرَحُ التَّحْرِيْكُ مَيْتًا وَهَلْ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحِجر: الآية ٣].

إخواني، إذَا قُمْتُم إلى المَجْلِسِ فَادْخُلُوا دَارَ الخَلْوَةِ، وشَاوِرُوْا نَصِيْحَ الفِكْرِ وحَاسِبُوْا شَرِيْكَ الخِيَانَةِ، وتَلَمَّحُوا تَفْرِيْطَ الثَّوَانِي في بِضَاعَةِ العُمْرِ ويَكْفِي مَا قَدْ مَضَى فَلْيَحْذَرِ الأَعْمَى الحَجَرَ. وينشد:

أَيَا سَامِعًا ليسَ السَّماعُ بِنافِعٍ ... إِذَا أَنْتَ لَم تَعْمَلْ بِمَا أَنْتَ سَامِعُ
إِذا كُنْتَ في الدُّنْيَا عَنِ الخَيْرِ عَاجِزًا ... فَمَا أَنْتَ في يَوْمِ القِيَامَةِ صَانِعُ

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ [سَبأ: الآية ١٨]، هذا مَعْطُوفٌ على قولِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ [سَبأ: الآية ١٥]، والمعنى: وكَانَ مِن قِصَصِهِمْ أَنَّا جعلنا ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ هذا وهي قُرى الشَّامِ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، أي: مُتَوَاصِلَةً يَنْظُرُ بعضُهَا إلى بَعضٍ.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ فكانُوا يَغْدُونَ فَيَقِيْلُونَ في قَريةٍ ويَرُوْحُونَ فَيَبِيْتُونَ في قريةٍ. قالَه الحَسَنُ وقتادةُ. وقيل: أَنَّه جَعَل ما بَيْنَ القَرْيَةِ وَالقَريةِ مِقْدَارًا وَاحِدًا، قَالَهُ ابنُ قُتَيْبَةَ. ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سَبأ: الآية ١٨] أي: لَيْلًا ونهارًا؛ آمِنِيْنَ مِنْ مَخاوِفِ السَّفَرِ مِن جُوْعٍ وعَطَشٍ أو سَبُعٍ أَوْ ذِئْبٍ فَبَطَرُوا النِّعْمَةَ،

ومَلُّوهَا كما مَلَّ بَنُو إسرائيلَ المَنَّ والسَّلْوَى، فقالُوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾، قَرَأَ ابنُ كَثِيْرٍ وأَبُو عَمرٍو: (وبَعِّدْ)، والباقونَ: ﴿بَٰعِدۡ﴾. ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكُفرِ وتكذِيْبِ الرُّسُلِ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بعدَهُم يَتَحَدَّثُونَ بما فُعِلَ بِهِمْ ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سَبَأ: الآية ١٩]، أي: فَرَّقناهُم في كلِّ وَجْهٍ من البِلادِ كُلَّ التَّفرِيْقِ؛ لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لَمَّا أغْرَقَ مَكانَهُم بُدِّدُوْا في كلِّ بِلادٍ. وقَدْ حَذَّرَتْ هذِهِ القِصَّةُ وبَيَّنَتْ عِقابَ تَارِكِي الشُّكْرِ. وينشد:

أَتَعْمَى عَنِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ بَصِيرٌ ... وتَجْهلُ مَا فِيْهَا وَأَنْتَ خَبِيْرُ
وتُصْبِحُ تَبْنِيْهَا كَأَنَّكَ خَالِدٌ ... وأَنْتَ غَدًا عَمَّا بَنَيْتَ تَسِيْرُ
فَلَو كَانَ يَنْهَاكَ الَّذِي أَنْتَ عَارِفٌ ... لَقَدْ كانَ فِيْهَا قَدْ بَلَوْتَ نَذِيْرُ
مَتَى أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ شَيْئًا فلم يَكُنْ ... لَهَا مُخْبِرًا إنَّ البَقَاءَ يَسِيْرُ
فَدُوْنَكَ فَاصْنَعْ كُلَّما أَنْتَ صَانِعٌ ... فَإنَّ بُيُوتَ المَيِّتِيْنَ قُبُوْرُ

وعظ:

وَا أَسَفًا مِنَ الصَّحِيْفَةِ إنْ أَشْهَرَهَا، وَا حُزْنًا عَلَى الذُّنُوبِ إذْ أَظْهَرَهَا، وَا حَسْرَتَا على الخَطَايَا مَا غَفرَهَا، مَنْ لِمَنْ حَادَ عَنِ الطَّرِيْقِ وَقَدْ أَبْصَرَهَا مَنْ لِمَنْ شَاهَدَ نَجَاتَهُ وَكَأَنَّهُ لم يَرَهَا.

تَاللهِ لَقَدْ آذَى العَاصِي نَفْسَهُ وَعَثَّرَهَا، كَمْ سَمِعَ مِنْ مَوْعِظَةٍ مِنْ مُذَكِّرٍ كَرَّرَهَا، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا بَعْدَ أَن فَهِمَهَا وتَدَبَّرَهَا، يا بَائِعًا نَفْسَهُ أَرضِيْتَ الفَانِي مِنْ ثَمَنِكَ؟ أَيْنَ زَادُ رَحِيْلِكَ وعُدَّةُ كَفَنِكَ؟ كَيْفَ السَّبِيْلُ إلى صَلاحِ نَفْسِكَ وتَلَافِيْكَ؟ وكُلَّمَا ذَكَرَهُ الغَائِبُ وَتَلَافِيْكَ، أَمَا يُزْعِجُكَ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [الكهف: الآية ٥٩]؟ أَمَا يُنْذِرُكَ إعْلامُ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هُود: الآية ١٠٢]؟ أَمَا يُقَصِّرُ مِنْ قُصُورِكُمْ ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٥]؟ أَمَا رَأَيْتَ شِمَالَ العُقُوبَةِ قَدْ فَرَّقَتْ شَمْلَهُمْ، لَقَدْ مَرَّتْ في جَوِّ التَّخْوِيْفِ تَهْتِفُ بِالعُصَاةِ ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٠]. يَا هذا أَلا نَوْمَ أَثْقَلُ مِنَ الغَفْلَةِ؟ ولا رِقَّ أَمْلَكُ مِنَ الشَّهْوَةِ؟ ولا مُصِيْبَةٌ كَمَوْتِ القَلْبِ؟ ولا نَذِيْرَ أَبْلَغُ مِنَ الشَّيْبِ؟ وينشد:

أَلا تَسْلُو فَتَقْصُرُ عَنْ هَوَاكَا ... فَقُلْ لِمَشِيْبِ رَأْسِكَ كَانَ ذَاكَا

أَكُلُّ الدَّهْرِ أَنْتَ كَما أَرَاكَا   نَرَاكَ إِلى المَمَاتِ كَذَا نَرَاكَا
أَرَاكَ تَزِيْدُ حِذْقًا بِالمَعَاصِيْ   وتَغْفُلُ عَنْ نَصَائِحِ مَنْ دَعَاكَا

يَا قوم غَرِقَتِ السَّفِيْنَةُ ونحنُ نِيامٌ، أَبُوكُمْ لم يُسَامَحْ في حَبَّةِ حِنْطَةٍ، ودَاوُودُ لَم يُسَاهَلْ فِي نَظْرَةٍ، يَا مُدْمِنَ الذُّنُوبِ. مُذْ كانَ غُلامًا فَعَلَى مَا عَوَّلْتَ؟ قُلْ لِيْ عَلَى ما أَتى؟ مَنْ أَتَى حَرَامًا تَرَى مَا حَلَّ بِهِمْ؟ إليكَ قَدْ ترى مَا آهٍ لِجَفْنٍ عَلِمَ مَا سَيَلْقَى كَيْفَ يَلْقَى مَنَامًا؟ أَيْنَ المُجتَمِعُونَ عَلَى خُمُوْرِهِمْ وَالنَّدَامَا، كُلُّ القَوْمِ في قُبُوْرِهِمْ نَدَامَا. أَمَا مَا جَرَى عَلَى العُصَاةِ يَكْفِيْ إِمَامًا مَا لِيْ أَرَى نِيْرَانَ تَخْوِيْفِكَ قد صَارَ بَرْدًا وسَلَامًا. وينشد:

فَذَكِّرِ النَّفْسَ هَوْلاً أَأَنْتَ رَاكِبُهُ   وكُرْبَةً سَوْفَ تَلْقَى بَعْدَهَا كَرَمَا
إِذَا أَتَيْتَ المَعَاصِيْ فَاخْشَ غَايَتَهَا   مَنْ يَزْرَعِ الشَّوْكَ لَم يَحْصُدْ بِهِ عِنَبَا

كَانَ الشِّبْلِيُّ يُنَادِي في جَوْفِ اللَّيْلِ قُرَّةَ عَيْنِي وَسُرُورَ قَلْبِيْ، مَا الَّذِي أَسْقَطَنِي مِنْ عَيْنِكَ يَا أَرْبابَ الدَّنَسِ؟ يَا أَوْسَاخَ الذُّنُوْبِ لا تَقْنَعُوْا بِصَبِّ مَاءِ التَّوْبَةِ عَلَى ظَاهِرِ الجَسَدِ، بُلُّوا الشَّعْرَ وَأَنْقُوا البَشَرَةَ مَا لَمْ تَمْسَحْ بِدَمْعِ عَيْنِكَ لَمْ تَأْتِ بِسُنَّةِ الغُسْلِ، أَبْلَغُ المَرَاهِمَ في دَوَاءِ الخَطَايَا النَّدَمُ، وَأَحْسنُ رُتْبَةِ التَّائِبِ الانْكِسَارُ. وينشد:

هَذَا كُلِّيْ بِكُلِّكُم مَشْغُوْلُ   وَالقَلْبُ بِفَرْطِ شَوْقِكُم مَتْبُوْلُ
والرُّوحُ بِسَيْفِ هَجْرِكُم مَقْتُولُ   أَنْتُمْ قَصْدِي وَمُنْيَتِي وَالسُّؤْلُ

يَا عَاصِيْ تُصَلِّيْ وتَصُومُ ولكِنْ بِلَا قَلْبٍ، قِلَّةُ المَعْرِفَةِ تُفْقِرُ ربْعَ التَّعَبُّدِ، مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى قيَامِ اللَّيْلِ كَفَاهُ أَنْ يَبْكِيَ بِالنَّهارِ. إِمَّا أَنْ تَحرِقَ مَنْزِلَ قَلْبِكَ بِنَارِ النَّدَمِ، وَالشَّوْقِ لِلْحَبِيْبِ وَإِلاَّ فَنارُ النَّدَمِ أَشَدُّ حَرًّا؟ وَا عَجَبًا أُسَلِّيْكُم مِنَ الدُّنْيَا، وهَلْ هِيَ إِلاَّ جِيْفَةٌ. شعر:

مَا لِيْ أُعَلِّلُ نَفْسِيْ بِالوُقُوفِ   عَلَى مَنازِلَ قَدْ خَلَتْ مِنكُمْ وَأَطْلَالِ

وَا عَجَبًا تَنْتَبِهُ الحيواناتُ بِاللَّيْلِ وتُصَوِّتُ، وأَنْتَ غَافِلٌ، ويحك، ويحك إِذَا فَتَحْتَ عَيْنَيْكَ في الدُّجَى فَصِحْ بِقَلْبِكَ.

إخواني، مُصِيبَتُنَا في التَّفْرِيْطِ وَاحِدَةٌ، وَأَهْلُ الأَحْزَانِ أَهْلٌ يَا هَذَا، لَوْ أَشْرَفْتَ عَلَى وَادِي الدُّجَى لَرَأَيْتَ خِيَمَ القَوْمِ عَلَى شَاطِئِ أَنْهَارِ الدُّمُوعِ، خَلَوْا واللهِ بِالحَبِيْبِ فَطَالَ الحَدِيْثُ، عَيْنٌ تَبْكِي مِنَ المَحبُوبِ، وَأُخْرَى تَبْكِي عليه، لَفْظَةٌ تَشْكُو مِنْهُ، وأُخْرَى تَشْكُو إِلَيْهِ، رِيٌّ تَامٌّ لجبَّتِه، وعَطَشٌ مُحْرِقٌ إلى رُؤْيَتِهِ، مَنْ لَم يَكُنْ لَهُ مِثْلُ تَقْوَاهُمْ لم يَعْلَمْ مَا الَّذِي أَبْكَاهُمْ، مَنْ لَمْ يُشاهِدْ جَمَالَ يُوسفَ لم يَعْلَمْ مَا الَّذِي آلَمَ قَلْبَ يَعْقُوبَ. وينشد:

مَن لَم يَبِتْ وَالحُبُّ حَشْوُ فُؤَادِهِ ... لَمْ يَدْرِ كَيفَ تَفَتَّتِ الأَكْبَادُ

شعر:

هَذَا وَلَهِي وكَمْ كَتَمْتُ الوَلَهَا ... صَوْتًا لِحَدِيْث مَنْ هَوى النَّفْسَ لَهَا
يَا آخِرَ مِحْنَتِيْ ويَا أَوَّلَهَا ... أَيَّامُ عَنَايَ فِيْكَ مَا أَطْوَلَهَا

وعظ:

ذُنُوبُكَ ظَاهِرَةٌ لا تَحْتَاجُ إلى التَّنْقِيْشِ، حَيَّةُ لِسَانِكَ في المَنَاهِيْ مِنَ الحَيَّاتِ المَنَاهِيْشِ، كَيفَ تَلْحَقُ الصَّالِحِينَ وهَلْ يَطِيْرُ طائِرٌ بِلَا رِيْشٍ؟ تَغْتَابُ الرُّفَقَاءَ وتَعِيْبُ الأَصْدِقَاءَ مَعَ مَن تَعِيْشُ؟ لا عَمَلُكَ لَنَا خَالِصٌ ولا تُقَاكَ لِهَوَاكَ قَانِصٌ، لَقَدْ رَضِيْتَ المَعَائِبَ وَالنَّقَائِصَ، أَمَا ظِلُّ الحياةِ ظِلٌّ نَاقِصٌ، كَمْ قَبَضَ المَوْتُ كَفَّ قَانِصٍ؟ كَم أَشْخَصَ الرَّدَى مِنْ طَرَفٍ شَاخِصٍ كَأَنَّكَ قَدْ جَاءَكَ المُغَافِصُ، ولَقِيْتَ كُلَّ الأَذَى مِنْ أَذَى القَوَارِضِ، ورَأَيْتَ هَوْلاً تَرْعَدُ مِنْهُ الفَرائِصُ، فَصَاحُوا ثُمَّ قالُوا خَلُّوْهُ فهو غَائِصٌ فَبَكَى لِمَصْرَعِكَ العَدُوُّ وَالوَلِيُّ الخالِصُ. وينشد:

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ أُناسٍ هَلَكُوا ... فَبَكَوْا أَحْبَابَهُمْ ثُمَّ بُكُوْا
تَرَكُوا الدُّنْيَا لِمَنْ بَعْدَهُم ... لَيْتَهُمْ لَوْ قَدَّمُوا مَا تَرَكُوْا
كَمْ رَأَيْنَا مِن مُلوْكٍ شوقةً ... ورَأَيْنَا شوقةً قَدْ مَلَكُوْا
قَلَّبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَلَكًا ... فَاسْتَدَارُوْا حَيْثُ دَارَ الفَلَكُ

السَّجع:

يا مَن عليهِ مَنازِلُ المَوْتِ تَدُوْرُ، وَهُوَ مُسْتَأْنِسٌ بِالمَنازِلِ والدُّوْرِ، لا بُدَّ أَنْ

تَخْرُجَ مِنَ القُصُوْرِ على التَّوَانِيْ وَالقُصُوْرِ، أُهلك واللهِ الغرور، ولا بُدَّ من الرَّحِيْلِ إلى بِلَادِ القُبُوْرِ، على الغَفَلَاتِ والفُتُوْرِ، أَهْلَكَ وَاللهِ الغُرُوْرُ، بِفُنُوْنِ الخِدَعِ وَالغُرُوْرِ.

يَا مُظْلِمَ القَلْبِ وَمَا لِلقَلْبِ نُوْرٌ، البَاطِنُ خَرَابٌ والظَّاهِرُ مَعْمُوْرٌ، لَوْ ذَكَرْتَ القُبُوْرَ وَالحُفُورَ، كَادَتْ عَيْنُ الأَعْيُنِ تَغُورُ، لَوْ تَفَكَّرْتَ في الكِتابِ المَسْطُوْرِ، دَفَنْتَ الاسْتِغْفَارَ بَيْنَ السُّطورِ، لَوْ تَصَوَّرْتَ النَّفْخَ في الصُّوْرِ، وَالسَّمَاءَ تَتَغَيَّر وَتَمُوْرُ، وَالنُّجُومَ تَتَكَدَّرُ وَتَغُوْرُ، والصِّراطَ مَمْدُوْدٌ لاَ بُدَّ مِنْ عُبُوْرٍ، وَأَنْتَ مُتَحَيِّرٌ في الأُمُوْرِ، تَبْكِي على خِلَافِ المَأْمُوْرِ، سَتُحَاسَبُ على الأَيَّامِ وَالشُّهُورِ، وتَرَى مَا فَعَلْتَه مِنْ فُجُورٍ، في النَّهَارِ والدَّيْجُوْر، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾.

سَتَحْزَنُ بَعْدَ السُّرُوْرِ على تِلْكَ السُّرُوْرِ، إذَا وُفِّيَتِ الأُجُوْرُ بَانَ المَوْصُوْلُ مِنَ المَهْجُورِ، ونُجِّيَ المُخْلِصُونَ دُوْنَ أَهْلِ الزُّوْرِ، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾.

تُصَلِّي وَلَكِنْ بلَا قَلْبٍ ولا حُضُوْرٍ، وتَصُومُ والصَّومُ بِالغِيْبَةِ مَعْمُورٌ، لَوْ رَأَيْتَ الوِلْدَانَ وَالحُوْرَ لَسَأَلْتَهُمْ وَقْتَ السَّحُورِ، كَمْ نَتَلَطَّفُ بِكَ يَا نفُورُ؟ كَمْ تُنَعِّمُ عليكَ يَا كَفُوْرُ؟ كَم بارَزْتَ بِالقَبِيْحِ وَالكَرِيْمُ غُفُورٌ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: الآية ١٩].

اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مُوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالغَنِيْمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلَامَةَ من كُلِّ إِثْمٍ، وَالعَافِيَةَ مِن النَّارِ، وَالفَوْزَ بِالجَنَّةِ. وَاغفِرِ اللَّهمَّ لنا وللحاضرين والغائبين من إخواننا، اللَّهُمَّ اغفر لنا ولآبَائِنَا وَلأُمَّهاتِنَا ولوالدينا وَلِذُرِّيَاتِنَا، وَاجْعَلْ لَهُمْ وَافِرَ حَظٍّ وَنَصِيْبٍ في كُلِّ رَحْمَةٍ تَمُنُّ علينَا، وصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وسَلَّم تَسلِيمًا دَائمًا كَثِيرًا كَثيرًا.

المَجْلِسُ الرَّابِعُ والعِشْرُونَ
فِي قِصَّةِ يُونُس عليه السَّلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سَيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الوَاجِدِ المَاجِدِ، العَظِيْمِ الدَّائِمِ القَائِمِ العَالِمِ القَدِيْمِ، القَدِيْرِ البَصِيْرِ النَّضِيرِ الحَلِيْمِ، قَضَى فَأَسْقَمَ الصَّحِيْحَ وعَافَى السَّقِيْمَ، وَقَسَمَ عِبَادَهُ إلى قِسْمَيْنِ؛ مُطِيْعٌ وَآثِمٌ، وجَعَلَ مَآلَهُمْ إلى دَارَيْنِ دَارِ النَّعِيْمِ ودارِ الجَحِيْمِ، فَمِنْهُم مَنْ عَصَمَهُ مِنَ الخَطَايَا فَكَأَنَّهُ في حَرِيْمٍ، ومِنْهُم مَن قَضَى لَهُ أن يَبْقَى على الذُّنُوبِ وَيُقِيْمُ، ومِنْهُمْ مَن يَدُوْرُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ وَالعَمَلُ لِلْخَوَاتِيْم.

خَرَجَ مُوْسَى رَاعِيًا فعَادَ وهُو كَلِيمٌ، وذَهَبَ ذُو النُّونِ مغاضبًا ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: الآية ١٤٢].

وكانَ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا فصَار الكَوْنُ لِذلِكَ اليَتِيْم.

وعَصَى آدَمُ وَإبْلِيْسُ فهَذَا مَرْحُومٌ وهَذَا رَجِيمٌ فإذَا سَمِعْتَ بِنَيْلِ المَمَالِكِ، ورَأَيْتَ وُقوعَ المَهَالِكِ، فَقُلْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٦].

أَحْمَدُهُ وكَيْفَ لاَ يُحْمَدُ، وَأشْهَدُ أنَّه لَمْ يَلِدْ ولَم يُوْلَدْ، وأَنَّ محمَّدًا عَبْدُهُ الأَمْجَدُ، ورَسُوْلُه الأَوْحَدُ، أَخَذَ لَهُ المِيْثَاقَ على أقْرَبِ الأَنْبِيَاءِ وَالأَبْعَدِ. وأَقَامَ عِيْسَى يَقُولُ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: الآية ٦].

وبِهِ تَوَسَّلَ آدَمُ وقَدْ سَجَدَ له مَنْ أَسْجَدَ، مِنْ كُلِّ مَلَكٍ كَرِيْمٍ ﷺ ما سَلَكَ

الطَّرِيْقَ المُسْتَقِيْمَ، وعلى صَاحِبِهِ أَبِيْ بكرٍ الصِّدِّيْقِ، السَّابِقِ إلى الإيمانِ والتَّصْديقِ، وَالمُحِبِّ الشَّفِيْقِ، والرَّفِيقِ الرَّفِيقِ حيْنَ سافَرَ وحِيْنَ يُقِيْمُ، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي عَمَرَ مِنَ الدِّيْر مَا عَمَرَ، ودَمَغَ الكُفْرَ وَدَبَّر أَحْسَنَ تَدْبِيْرٍ وأَكمَلَ تَقْوِيْم، وعلى عثمانَ الشَّرِيفِ قَدْرُهُ الكَثِيْفُ سِتْرُهُ، وعِندَ الله صَبْرُه عَلَى مَا ضِيْمَ، وعَلَى عَلِيٍّ مَدارِ العُلماءِ وَقُطْبِهِمْ، ومُقَدَّمِ الشُّجْعَانِ في حَرْبِهِم، المُسْتَبِقِ مِنْ كَرْبِهِم، مُقْعِدٍ مُقِيْمٍ، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ صِنْوِ أَبِيْهِ أَقْرَبِ الخَلْقِ إِلَيْهِ نَسَبًا يَلِيْهِ صَمِيْم.

قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٣٩]. يُونُسُ: اسْمٌ أَعَجَمِيٌّ وفِيهِ سِتُّ لُغاتٍ، ضَمُّ النُّونِ وفَتْحُها وكَسْرُها، والهمزةُ مَعَ اللُّغَاتِ الثَّلاثِ، فكانَ يُونُسُ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ، وكانَ عابِدًا مِنْ عُبَّادِ بَنِيْ إِسْرائيلَ، فَرَأى مَا هُم فيهِ من الكُفْرِ، فَخافَ أَنْ يَنْزِلَ بهم عُقُوبَةٌ، فَخَرَجَ هارِبًا بنَفْسِهِ وذُرِّيَتِهِ حَتَى كانُوا بِنَيْنَوَى مِن أَرْضِ مَوْصِلٍ، فَبَعَثَهُ الله رَسُولاً إليهِمْ فدَعَاهُم إلى التَّوْحِيدِ وأَمَرَهُم بِتَرْكِ عبادةِ الأَصْنامِ، وكانَ رَجُلًا فيهِ حِدَّةٌ، فلمَّا لم يَقْبَلُوا أَخْبَرَهُم أَنَّ العَذَابَ مُصَبِّحُهُم بَعْدَ ثَلاثٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لم يَبْقَ بَيْنَ العَذابِ وبَيْنَهُم إلاَّ قَدْرُ مِيْلٍ ووَجَدُوْا حَرَّهُ على أَكْتَافِهِم، فَلَمَّا أَيْقَنُوْا الهَلاكَ لَبِسُوا المَسُوْحَ، وحَثُّوا على رُؤوسِهِم الرَّمادَ، وفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا في النَّاسِ والأَنْعامِ، وعَجُّوا إلى الله بالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ، وقالُوا: آمَنَّا بما جَاءَ بِهِ يُونُسُ، فَكَشَفَ عَنْهُم العذابَ. فَقِيْلَ لِيونُسَ: ارْجِعْ إليهِمْ. فقال: كَيْفَ أَرْجِعُ إليهم فَيَجِدُوْنِيْ كَذَّابًا. وكَانَ مَن يُكَذِّبُ فيهِمْ يُقْتَلُ. فَرَكِبَ السَّفِيْنَةَ فإنْ قيلَ: لِمَ غَاضَبَ؟ فَالجوابُ أَنَّه غاضَبَ قومَه قبلَ التَّوْبةِ وَاشْتَهى أن يَنْزِلَ عليهم العَذابُ، عَانَى مِنْ تَكْذِيْبِهِمْ فعُوقِبَ على كَرَاهِيَّةِ العَفْوِ عَنْهُم.

فلمَّا رَكِبَ السَّفِيْنَةَ وَقَفَتْ. فقالَ: مَا لِسَفِيْنَتِكُم؟ قالُوا: لا نَدْرِي؟ قالَ: لَكِنِّي أَدْرِيْ، فيهَا عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّها والله لا تَسِيْرُ حتَّى تُلْقُوْهُ. فقَالُوا لَهُ: أَمَّا أَنْتَ يا نَبِيَّ الله فَلَا نُلْقِيْكَ. قالَ: فَأَقْرِعُوا. فَقَرَعَ يُونُسُ وهُو معْنَى قولِهِ: ﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤١]، فَأَلْقَى نفسَهُ في الماءِ ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: الآية ١٤٢]، أي: مذنب، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤]،

أي: مِنَ المُصلِّينَ قَبْلَ الْتِقَامِهِ الحوتُ، وفي قَدْرِ مَكْثِهِ في بَطْنِ الحُوْتِ خَمْسَةُ أقْوالٍ، وكيفيَّةُ خُرُوجِهِ أنَّ الحوتَ تَثَأَّبَ فَرَأى يُونُسُ ضَوْءَ الشَّمْسِ فقالَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ﴾.

قولُه: ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ وهيَ الأَرْضُ الَّتِي لا يَتَوَارَى فيها شَجَرٌ ولا غَيْرُه، ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٥] أي: مَرِيضٌ. قالَ ابنُ مَسْعُودٍ: كَهيئَةِ الفَرْخِ المَمْعُوْطِ الَّذِي لَيْسَ له رِيْشٌ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٦] وهي الدُّبَّاءُ لِيُغَطَّى به وَرَقُهَا ويَمْنَعَهُ الذُّبابُ؛ لأَنَّه لا يَسْقُط على وَرَقِهِ ذُبَابَةٌ، وَقُيِّضَتْ لَهُ أَرْوَاةٌ مِنَ الوُحُوشِ تَرُوْحُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وعَشِيَّةً فيَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا.

فَنَامَ وَاسْتَيْقَظَ وقَدْ يَبِسَتْ الدُّبَّاءُ، فَحَزِنَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ له: أَنْتَ لَمْ تَخْلُقْ، وَلَمْ تَسْقِ، ولَمْ تُنْبِتْ، تَحْزُنُ عَلَيْهَا! وأنَا الَّذِيْ خَلَقْتُ مِئَةَ أَلْف مِنَ النَّاسِ أوْ يَزِيْدُونَ ثُمَّ رَحِمْتُهُم فَشَقَّ عَلَيْكَ. وفي الزِّيادَةِ على مِئَة ألفٍ أَرْبَعَةُ أقوالٍ.

إخواني، انْظُرُوا إلى التَّوْبة الصَّادِقَةِ كَيْفَ أَثَّرَتْ ووَقَعَ العَذابُ فَدَفَعَتْ ونَفَعَتْ، فَلْيَلْجَأِ العَاصِي إلى حَرَمِ الإِنَابَةِ، وَلْيَطْرُقْ بِالأَسْحَارِ بابَ الإِجَابَةِ فما صَدَقَ صَادِقٌ فَرُدَّ، ولا أَتَى البَابَ مُخْلِصٌ فَصُدَّ، فكيفَ يُرَدُّ مَنِ اسْتُدْعِيَ فقيلَ له: تُوْبُوا، إنَّما الشَّأْنُ في صِدْقِ التَّوْبَةِ ولَيْسَتِ التَّوْبَةُ نُطْقَ اللِّسَانِ، إنَّما هي نَدَمُ القَلْبِ وعَزْمِهِ أنْ لا يَعُوْدَ.

ومن شَرْطِ صِحَّتِهَا أن تكُونَ قَبْلَ مُعايَنَةِ أُمُوْرِ الآخِرَةِ، فَمَنْ عايَنَ الموتَ فَقَدْ فَاتَهُ مَوْسِمُ القَبُولِ، نَسْألُ الله يَقْظَةً تُحَرِّكُنَا إلى البِدارِ قَبْلَ أن يَقَعَ الفَوْتُ وَالْحِسَابُ.

إخواني، الأَجَلُ والأَيَّامُ مَراحِلُ، وسَيَصِلُ الرَّاحِلُ، يَا خاسِرًا رَأْسَ مَالِهِ وَمَا يَفْتَقِدُهُ، يا مَغرُورًا بِالأَمَلِ بِئْسَ مَا تَعْتَقِدُهُ، يَا طَالِبًا طُوْلَ البَقاءِ مَا تَجِدُهُ. وينشد:

أَنْتَ في غَفْلَةٍ وقلبُكَ سَاهِي ... نَفَذَ العُمْرُ وَالذُّنُوْبُ كَما هِيَ

لـم تُـبـادِرْ بِـتَـوبَـةٍ مـنـكَ حـتَّـى ... صِرْتَ شَيْخًا فَعَظْمُكَ اليَوْمَ وَاهِي

يا تَائِهًا طُوْلَ لَيْلِهِ، وَغَافِلًا جَمِيْعَ نَهارِهِ، وهَلِ الخَاسِرُ إلاَّ أَنْتَ، وهَلِ الشَّقِيُّ إلاَّ مِثْلُكَ، قَلْبٌ لاَ يَلِيْنُ لِوَعْظٍ، وعَيْنٌ لا تَدْمَعُ مِنْ ذَنْبٍ، ولِسَانٌ لاَ يَفْتُرُ مِنَ الشَّرِّ، وَسِرٌّ لا يَهُبُّ عليه نَسِيْم الوَجْدِ، حَياةٌ على غُرُوْرٍ، ومَوْتٌ على غَفْلَةٍ، ومَصِيْرٌ إلى حَسْرَةٍ، وقِيامٌ إلى الحِسَابِ بِلا حُجَّةٍ، جَواهِرُ الحِكَم لَدَيْكَ ولكنْ يَدُ التَّناوُلِ شَلَّتْ عَرَائسُ الهُدَى تُجَلَّى وَلَكِنْ عَينُ التَّأَمُّلِ عَمِيَتْ، وَيْحَكَ بادِرْ مَدَى العافِيَةِ.

إخواني، ضُرِبَ بُوقُ الرَّحِيْلِ وَأَطْرُشُ الغَفْلَةِ مَا يَسْمَعُ. وينشد:

تَزَايَدَ مَا أَلْقَى وقد جَاوَزَ الـمَدَى ... وكَانَ الهَوَى مَزْحًا فصَارَ الهَوَى جِدًّا

وقد كُنْتُ جَلْدًا ثُمَّ أَوْهَنَنِيَ الهَوَى ... كَذَاكَ الهَوَى مَا زَالَ يَسْتَوْهِنُ الجَلْدَا

أَتَيْتُكَ أَسْتَعْدِيْ عليكَ من الهَوَى ... ومَن كان مثلي لا يُلَامُ إذَا اسْتَعْدَا

يَا هَذَا أُبْعُدْ عَنْ أَرْبَابِ الدّنْيَا فإنَّكَ تَخسِرُ في مُقَارَبَتِهِمْ دِيْنًا، فهُو أكثَرُ مِمَّا تَرْبَحُ مِن دُنْيَاهُمْ، ولا تُصَادِق فَاسِقًا ولا تَثِقْ بِهِ، فَإنَّ مَن خافَ أوَّلَ مُنْعِم عليهِ فإنَّهُ لا يَبْقَى مَعَكَ، تَعَرَّضْ لِجَنَابِ الكَرَم فَمَدُّ بحْرِ الجُوْدِ بِلَا جَزْرٍ، وَابْعُدْ عَنِ الجُهَّالِ فَإنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ لا تَنالُ ما تُرِيدُ إلاَّ بتَرْكِ ما تَشْتَهِي، ولا تَبْلُغُ مَا تَرْجُو إلاَّ بالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ.

إخواني، كُفُّوا كَفَّ الهَوَى عَنِ الفُضُولِ، فَالمُؤاخِذُ بِالمَرْصَدِ، سَلْسِلُوْا سِبَاعَ الأَلْسُنِ فَإنِ انْحَلَّتْ فَرَسَتْكُمْ، لا تُرامُوا بِأَسْهم العُيُونِ فَفِيْكُم تَقَعُ، كَمْ كَلمةٍ كَلَمَتْ صَاحِبَهَا، وكَمْ نَظْرَةٍ لم تُنَاصِرْ، لا تَحْقِرَنَّ زَلَّةً صَغِيْرَةً، فَرُبَّ مَدَرةٍ صَرَعَتْ فِيْلًا، تَذَكَّرُوْا تَأْثِيْرَ لُقْمَةِ آدَمَ ونَعْتَبِرُ نَظْرةَ دَاوُدَ. وينشد:

وَإنِّي لَـمَجْلُوبٌ إلى الشَّوْقِ كُلَّما ... تَـنَـفَّـسَ بَـاكٍ أَو تَـأَلَّـمَ ذُو وَجْـدِ

تَعَرَّضَ حَادِي الشَّوقَ والرَّكْبُ هَاجِعٌ ... فَأَيْقَظَنِيْ مِنْ بَيْنِ نوامهـمْ وَجْدِي

إخواني، تَدَبَّرُوا أُمُوْرَكُم تَدَبُّرَ نَاظِرٍ، أَيْنَ السُّلطَانُ الكَبِيْرُ القَاهِرُ، كَمْ جَمَعَ في مَمْلَكَتِهِ مِنْ عَسَاكِرٍ، وكَمْ عَلَا على المَنَابِرِ ثُمَّ لآخِرِ الأَمْرِ المقابِرُ، العَاقِلُ يَنظر فيمَا سَيَأتِي، ويَقْهَرُ بِعَزْمِهِ شَرَّ الهَوَى العَانِي، فَإذَا قَالَتِ النَّفْسُ: حَظِّي. قَالَ: حَظِّي نَجاتِي.

إخواني، احْذَرُوا الرِّيَاءَ، فَإِنَّ المُرَائِيْ يَحْشُو جَرَابَ العَمَلِ رِمَالاً يُثْقِلُهُ ولا يَنْفَعُهُ، رِيْحُ المُرَائِيْ جِيْفَةٌ تَتَجَافَاهَا مَشَامُّ القُلُوْبِ وَمَا يَخْفَى المُرَائِيْ عَلَى الفِطَنِ، يَا قاسِيَ القَلْبِ تَسْمَعُ هَذَا، ومَا جَرى دمْعُكَ ولا هَمَى يَدُ عِصْيَانِكَ هَدَّ مَا شَيَّدَ الإِحْسَانُ، وهَدَّ مَا عَدَمَ المَعَانِي ذلك العَانِيْ أَوَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ فَانٍ؟ وَمَا قُلْتَ كَفَانِي، مَا لِيْ أَرَى اسْمَكَ في القَبَائِحِ قَدْ سَمَا، أَنْتَ غَافِلٌ عَنْ ضُرٍّ مَا قَدْ شُبَّ مِنْ نَارِ الجَحِيمِ وضُرِّمَا يَا مُوَلِّي! أَينَ الذَّهَابُ ارْجِعْ إلى المَلِكِ الوَهَّابِ. وينشد:

أَتَلْتَمِسُ الرِّضَا مِنَّا وقلبُكَ مُعْرِضٌ عَنَّا
فَإِنْ أَوْفَيْتَ وَافَيْنَا وَإِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنَّا
تَضَرَّعْ إِنْ أَرَدْتَ القُرْبَ في اللَّيْلِ إِذَا جَنَّى
تَنَلْ فِيْهِ رِضَى المَوْلَى عَنِ العَبْدِ إِذَا جَنَى

يَا هَذَا مَضَى عَنْكَ عُنْوانُ الشَّبَابِ وقَدْ وَلَّى، مَا قَبلَ الشَّيْبُ قَدْ تَقَشَّعَ وَاسْتَوْلَى، وَيْحَكَ جَنَّ عُوْدُكَ، فَأَيْنَ جُودُكَ؟ وذَهَبَ شَبَابُكَ، فَأَيْنَ مَتَابُكَ؟ ودَنَا رَحِيْلُكَ، فَأَيْنَ عَوِيْلُكَ؟ وقَرُبَ مَصِيْرُكَ، فَأَيْنَ نَصِيْرُكَ بِاللهِ؟ باللهِ أَمَا لِظُلْمَةِ لَيْلِكَ صَبَاحٌ؟ أَمَا لِفَسَادِ عَمَلِكَ قَبلَ مَوْتِكَ صَلَاحٌ؟ فُدِيْتُكَ اسْمَعْ لِخِطَابِ خَطِيْبِ الوَاعِظِ الزَّاجِرِ، سَماعَ المُخْلِصِ الحَاضِرِ، ضَحِكَ الشَّيْبُ بِرَأْسِكَ فَأَنْذَرَ، وَدَنَا حِمَامُكَ فأَخْبَرَ أَنْتَ لأَسْوَإِ المَصَائِرِ، يَا ظَالِمُ صَائِرٌ عِبَادَ اللهِ النَّظَرَ النَّظَرَ إِلى العَوَاقِبِ أَيْنَ تَعَب مَنْ صَابَرَ الهَواجِرَ؟ وأَيْنَ لَذَّةُ العَاصِيْ الفَاجِرِ؟ رَحَلَتِ اللَّذَّاتُ مِنَ الأَفْوَاهِ إلى الصَّحَائِفِ، وذَهَبَ نَصَبُ الصَّالِحِيْنَ بِجَزْعِ الخَائِفِ فَكَأَنْ لَمْ يَتْعَبْ مَنْ صَابَرَ اللَّذَّاتِ وكَأَنْ لَمْ يَلْتَذَّ مَنْ نَالَ الشَّهَوَاتِ. وينشد:

حَصَلُوا بأَنْوَاعٍ مِنَ الأَجْدَاثِ ... مِنْ كُلِّ مَا عَمَرُوْا عَلَى الأَجْدَاثِ
فَإِذَا الَّذِي جَمَعُوا طُوْلَ حَيَاتِهِم ... نَهْبُ العِدَى أَوْ قِسْمَةُ الوُرَّاثِ
حَالَتْ مَنازِلُهُم على طُوْلِ المَدَى ... وَوُجُوْهُهُمْ في الأَرْضِ بَعْدَ ثَلَاثِ
يَا مَنْ يَسُرُّ بِبَيْتِهِ وَأَثَاثِهِ ... لَكَ في الثَّرَى بَيْتٌ بِغَيْرِ أَثَاثِ

السَّجع:

أيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا في اللَّذَّاتِ يَتَقَلَّبُوْنَ وَيَتَجَبَّرُوْنَ عَلَى الخَلائِقِ وَلاَ يُغْلَبُونَ مُزِجَتْ لَهُمْ كُؤُوسُ المَنَايَا يَتَجَرَّعُوْنَ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

مَدُّوا أيْدِيَهُمْ إلى الحَرَامِ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الزَّلَلِ وَالآثَام، فَكَمْ وُعِظُوْا بِمَنْثُوْرٍ وَمَنْظُوْمٍ مِنَ الكلامِ، لَوْ أَنَّهُم يَسْمَعُوْنَ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

حُمِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُمْ في الكَفَنِ إلى بَيْتِ البَلَاءِ وَالعَفَنِ فما صَحِبَهُمْ غَيْرُهُ من الوَطَنِ وكُلّ مَا كَانُوا يَجْمَعُوْنَ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

ضَمَّهُمْ واللهِ التُّرَابُ، وسُدَّ عَلَيْهِمْ في ثَوَاهُمْ البَاب، وتَقَطَّعَتْ بِهِم الأَسْبَابُ، والأَحْيَاءُ يَرْجِعُوْنَ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

أَيْنَ أمْوَالُهُمْ والذَّخَائِرُ؟ أيْنَ أَصْحَابُهُمْ وَالعَشَائِرُ؟ دَارَتْ على القَوْمِ الدَّوَائِرُ فَفِيْمَ أَنْتُمْ تَطْمَعُوْنَ، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

شُغِلُوا عَنِ الأَهْلِ والأَوْلاَدِ، وَافْتَقَرُوْا إلى اليَسِيْرِ مِنَ الزَّادِ، وَبَاتُوْا على النَّدمِ على أَخْشَنِ مِهَادٍ وإِنَّمَا هَذِهِ حَصَادُ مَا كَانُوا يَزْرَعُوْنَ، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

لَوْ رأَيْتَهُمْ في حُلَلِ النَّدَامَةِ، إذَا بَرَزُوْا يَوْمَ القِيَامَةِ، وعَلَيْهِمْ لِلْعِقَابِ عَلَامَةٌ يُسَاقُونَ بِالذُّلِّ لا بِالكَرَامَةِ إلى النَّارِ فَهُمْ يُوْزَعُوْنَ، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

يَا مَعاشِرَ العَاصِيْنَ قَدْ بَقِيَ القَلِيْلُ، وَالأَيَّامُ تُنَادِي قَدْ دَنَا الرَّحِيْلُ، وكَمْ صَاحَ بِكُمْ إلى الهُدَى الدَّلِيْلُ إنْ كُنْتُم تَسْمَعُوْنَ، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٠٧].

اللَّهُمَّ نَوِّرْ بِكِتَابِكَ أبْصَارَنَا، وَأَطْلِقْ بِهِ أَلْسِنَتَنَا، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا وَأَحْيي قُلُوبَنَا بِنُوْرِ اليَقِيْنِ، وَاغْفِرْ لِوَالِدِيْنَا وَلِذُرِّيَّتِنَا ولجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّيْنَ، وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ أَجْمَعِيْنَ وسَلِّمْ تَسْلِيمًا.

المَجْلِسُ الخَامِسُ والعِشْرُوْنَ
في قِصَّةِ زَكَرِيَّا ويَحْيَى عَلَيْهِما السَّلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذِيْ لَمْ يَزَلْ عَظِيْمًا عَلِيًا، يَخْذُلُ عَدُوًّا وَيَنْصُرُ وَلِيًّا، أَنْشَأَ الآدَمِيَّ خَلْقًا سَوِيًّا، ثُمَّ قَسَمَهُمْ رَشِيْدًا وَغَوِيًّا، رَفَعَ السَّمَاءَ سَقْفًا مَبْنِيًّا، وَسَطَحَ الأَرْضَ بِسَاطًا مَدْحِيًّا، وَرَزَقَ الخَلَائِقَ بَرِّيًّا وبَحْرِيًّا، كَمَا أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ سَرِيًّا أَخْرَجَ منه لَحْمًا طَرِيًّا، وكَمْ أعْطَى ضَعِيْفًا مَا لم يُعْطِ قَوِيًّا، فَبَلَّغَهُ على الضُّعْفِ ضِعْفَ المُرَادِ، وَوَهَبَ على الكِبَرِ الأَوْلَادَ. ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريَم: الآيتان ١، ٢].

أَحْمَدُهُ إذَا أعْطَى، وَأَفْضَلَ شَبْعًا وَرِيًّا، وأُصَلِّي على رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلَ مَنْ رَكِبَ وَامْتَطَى سَرِيًّا. وعلى أَبِيْ بَكْرٍ الَّذِي أَنْفَقَ وَمَا قَلَّلَ حَتَّى تَخَلَّلَ ويكفي زِيًّا. وعَلَى عُمَرَ الَّذِيْ كانَ مُقَدَّمًا في الجِدِّ جَرِيًّا. وعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي لم يَزَلْ عَفِيْفًا حَيِيًّا. وعَلَى عَلِيٍّ أَشْجَعَ مَنْ حَمَلَ حَظِيًّا. وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ المُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ فَانْتَفَعَتِ الأَرْضُ رَيًّا.

قصة زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلام:

لَمَّا قَدِمَ زَكَرِيَّا بِإِقَامَةِ الإِقَامَةِ لِمَرْيَمَ رَأَى وَكِيْلَ الغَيْبِ يَسْبِقُهُ بِالإِنْفَاذِ عَلَى يَدِ القُدْرَةِ في كِنْ كُنْ، وَكانَ إِذَا خَرَجَ ثَمَّةَ جَاءَ فإِذَا ثِمَارُ الثِّمَارِ قَدْ تَمَّتْ، فَكَمْ قَدْ أَلْفَا أَلْفَافَ الفَاكِهَةِ الفَائِقَةِ لا في حِيْنِهَا، فَتَلَمَّحَ بِعَيْنِ زَرْقَاءَ الفَهْمِ، فَرَأَى نَفَقَةَ الجَارِيَةِ جَارِيَةً، وَكِيْسُ الأَسْبَابِ عَلَى خَتْمِهِ، فَصَاحَ لِسَانُ الدَّهْشِ ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فَأَحَالَتِ الحَالَ عَلَى المُسَبِّبِ ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٧].

فَنبَّهت هَذِهِ الآيَةُ رَاقِدَ طَبْعِهِ بَعْدَ أَنْ طَالَ وَسَنةً سَنَةً فَسَنَّ عَلَى سِنَةِ خَرَاب وَجْهِهِ مَازِجًا مَاءً آسِنٍ مِمَّا لَمْ يَتَسَنَّهْ، وقَامَ الشَّيْخُ بَعْدَ أَنْ تَقعْوَسَ وَتَشَعْشَعَ وَعَشَا عَلَى بَابِ عَسَى في مِحْرَابِ ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: الآية ٣٨] قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: الآية ٣]، المُرادُ بِالنِّدَاءِ الدُّعَاءُ، وَإِنَّمَا أَخْفَاهُ لِئَلَّا يَقُولَ النَّاسُ: انْظُرُوا إلى هَذَا الشَّيْخِ يَسْأَلُ الوَلَدَ عَلَى الكِبَرِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضَعُفَ، وإنَّمَا خَصَّ العَظْمَ لأنَّهُ الأَصْلُ في التَّرْكِيْبِ.

قال مُجاهِدٌ وقتادةُ: شَكَى ذَهَابَ أَضْرَاسِهِ ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انْتَشَرَ الشَّيْبُ فِيْهِ وكَثُرَ كَمَا يَنْتَشِرُ شُعَاعُ النَّارِ في الحَطَبِ ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٤] أي: لَمْ أَكُنْ لأَتْعَبَ بِالدُّعَاءِ. ثُمَّ لأَخِيْبَ لأَنَّكَ وَعَدْتَنِي الإِجَابَةَ، فَلَمَّا أَوْرَدَ في قِصَّتِهِ مَا يُرِيْدُ في حَمْلِهَا يُرِيْدُ الرَّجَاءَ إلى مَن عَوَّدَ العَوْد بِكَشْفِ الجَوَى في الجَوَابِ.

قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: الآية ٧].

قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَم يُسَمَّ قَبْلَهُ يَحْيَىٰ فَشُرِّفَ بأَنْ سَمَّاهُ الله تَعَالَى يَحْيَىٰ ولَم تَكُنْ تَسْمِيَتَهُ إلى أَبَوَيْهِ، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: الآية ٨]؟ وإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَعْلَمَ أَيَأْتِيْهِ الوَلَدُ على هذِهِ الحَالِ، أَمْ يُرَدُّ هُوَ وَزَوْجَتُهُ إلى حَالةِ الشَّبَابِ.

قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٨]، وهُوَ نُحُوْلُ العَظْمِ ويُبْسُهُ. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، أي: الأَمْرُ كَمَا قِيْلَ لَكَ مِنْ هِبَةِ الوَلَدِ على الكِبَرِ.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: وكانَ سِنُّهُ يَوْمَئِذٍ مِئَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً وامرأته بنت ثمانٍ وتسعين سنةً.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: خَلْقُ يَحْيَىٰ عَلَيَّ سَهْلٌ، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريَم: الآية ٩] أي: أوجدتك من قبل ولم تكُ شيئًا، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم: الآية ١٠] أي: علامة عَلَى وُجُوْدِ الحَمْلِ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَعْجِلَ السُّرُوْرَ وَيُبَادِرَ الشُّكْرَ.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريَم: الآية ١٠]، والمعنى؛ تُمْنَعُ الكَلَامَ وَأَنْتَ سَلِيْمٌ سَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ خَرْسٍ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [مريم: الآية ١١] وهَذَا صَبِيْحَةُ اللَّيْلَةِ الَّتِي حَمَلَتْ فيهَا امْرَأَتُهُ مِنَ المِحْرَابِ أيْ مُصَلَّاهُ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: الآية ١١]، وفيه قولانِ:

أَحَدُهُمَا: كَتَبَ إليهِمْ في كِتَابٍ، قالَهُ ابْنَ عَبَّاسٍ.

والثَّانِي: أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ ويَدَيْهِ، قَاله مُجاهِدٌ ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ [مريَم: الآية ١١] أي: صَلُّوا لله ذَرَّهُ خَدَمٌ حَتَّى شَابَ، ثُمَّ طَلَبَ تَائِبًا عَلَى البَابِ فَأَصْبَحَ مَيِّتُ أَمَلِهِ بوُجُوْدِ يَحْيَىٰ يَحْيَىٰ، فَلَمَّا وُلِدَ لَهُ يَحْيَىٰ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ يَافِعٍ إلاَّ وهُوَ وَلَدٌ نَافِعٌ كَانَ صِبَا الصِّبَى تَمِيْلُ بِالصِّبْيَانِ وَلا تَهُزُّهُ.

فَإن قَالُوا: هَلُمَّ بِنَا نَلْعَبُ، قالُوا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلَّعْبِ، أي: للتعب في الخدمة لله لاَ لِلَّعْبِ فَقَطْ لَهُ القَدَرُ قَطا مِنْ عِصامِ العِصْمَةِ مَا قَطّ قَطّ لأَحَدٍ فَما خَطأَ إِلى خَطَإٍ وَلا هَمَّ.

قوله: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ وهي التَّوْراةُ، أي: بِجِدٍّ وَاجْتِهادٍ في العَمَلِ بما فِيهَا ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريَم: الآية ١٢]، وفي سِنِّهِ يَومئِذٍ قولان:

أحدهما: سَبْعُ سِنِيْنَ، رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

والثاني: ثَلاثُ سِنِيْنَ، قَالَهُ قتادَةُ ومقاتلٌ، لَقَدْ رَمَى الدُّنْيَا عَنْ يَدِ التَّمَسُّكِ وعَلَا عَلَى فُضُوْلِهَا عَلَى مَا قالَ القَائِلُ، فَنُبِّئَ صَغِيْرًا في زَمَنِ أَبِيْهِ، فسَاحَ في الأَرْضِ يَدْعُو النَّاسَ إلى الله تعالى، وكانَ طَعَامُه الجَرَادَ وقُلُوبَ الشَّجَرِ.

لَقَدْ دَوَا في دَوٍّ فُؤَادِهِ غَيْمُ الغَمِّ، فَغَدَا العَرقُ يَدُقُّ إلى أن فَاضَ قُلَيْبُ قَلْبِهِ فَانْقَلَبَتْ عَيْنَاهُ عَيْنًا حَتَّى قَرَّتْ فَحفَرَتْ في خُدُوْدِ الخُدُودِ مَجْرى، ولَم يَزَلْ مِعْوَل دَمْعِهِ يَحْفِرُ رَكِيَّةَ خَدِّهِ حَتَّى بَدَتْ فيه أَضْرَاسُ فِيْه، فكان يَأْخُذُ القَدَحَ لِيَصُبَّ مِنْ مَائِهِ فَيَصُوْبُ صَيِّبُ دَمْعِهِ مِنْ سَمَائِهِ حَتَّى يَفِيْضَ الماءُ بالدَّمْعِ.

فَيَا عَجَبًا مِنْ بُكَاءِ مَنْ مَا عَصَى وَلا هَمَّ وَضَحِكَ مَنْ كِتابُه بالذُّنُوْب قَدِ ادْلَهَمَّ.

عَن وَهِيْبِ ابْنِ الوَرْدِ. قالَ: كانَ يَحْيَىٰ بْنُ زَكَرِيَّاءَ لَهُ خَطَّانِ في خَدَّيْهِ من البُكاءِ، فقالَ له أَبُوهُ زَكريَّاءُ: إنِّي إنما سَأَلْتُ الله وَلَدًا تَقِرُّ بِهِ عَيْنِي. فقالَ له: يَا أَبَتِ إنَّ جبرئيل عليه السَّلام أَخْبَرَنِي أنَّ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ مَفَازَةً لا يَقْطَعُهَا إلا كُلُّ بَاكٍ.

قالَ عُلَماءُ السِّيَرِ: لَمَّا حَمَلَتْ مَرْيَمُ اتَّهَمَتِ اليَهُودُ زَكَرِيَّاءَ وَقَالُوا: هَذَا مِنْهُ فَطَلَبُوْهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ حَتَّى انْتَهَى إلى شَجَرَةٍ عَظيمةٍ فَتَجَوَّفَتْ فَدَخَلَ فيهَا، فَجاؤُوا يَطُوفُوْنَ بِالشَّجَرَةِ فَرَأَوْا هُدَبَة ثَوْبِهِ فَقَطَعُوْا الشَّجَرَةَ.

قَالَ ابن عباس: حَتَّى خَلصُوا إليهِ فَقَطَعُوْهُ، واخْتَلَفُوْا في سَبَبِ ذَبْحِ يَحْيَىٰ. قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: بَعَثَ عِيْسَى يَحْيَىٰ في جَمَاعةٍ مِنَ الحَوَارِيِّيْنَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ، فكانَ فيما نَهَوْهُمْ عَنْهُ نِكاحُ ابْنَةِ الأَخِ، وكانَ لِمَلِكِهِمْ ابْنَةُ أَخٍ تُعْجِبُهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وكانَ لَهَا في كُلِّ يَوْم حَاجَةٌ مَقْضِيَّةٌ، فَبَلَغَ ذلِكَ أُمَّهَا وقالَتْ لها: إذا سَأَلَكِ المَلِكُ حَاجَتَكِ فقُولِيْ أنْ تَذْبَحَ يَحْيَىٰ. فَقَالَ: سَلِيْنِي غَيْرَ هَذَا. قالَتْ: مَا أَسْأَلُ غَيْرَهُ. فَدَعَا يَحْيَىٰ فَذَبَحَهُ، فَبَذَرَتْ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهِ عَلَى الأَرْضِ فَلَمْ تَزَلْ تَغْلِي، حَتَّى بَعَثَ الله بُخْتَ نَصَّرَ فَقَتَلَ على ذَلِكَ الدَّم سَبْعِيْنَ أَلفًا مِنْهُمْ حَتَّى سَكَنَ الدَّمُ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَّصَهُ مِنْ ذِئْبِ الذَّنْبِ ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريَم: الآية ١٥].

وعــظ:

إخواني، مَا مِنَ المَوْتِ بُدٌّ، ويَابُ البَقَاءِ في الدُّنْيَا قَدْ سُدَّ، كم قَدٍّ في القَبْرِ قَدْ قُدَّ؟ كَمْ خَدٍّ في الأُخْدُوْدِ قَدْ خُدَّ؟ يَا مَنْ ذُنُوبُهُ لا يُحْصَى إذَا شَكَكْتَ، عُدَّ يَا مَنْ أَتَى بَابَ الإِنَابَةِ كَاذِبًا فَرُدَّ، كَيْفَ يَعْجَلُ مَنْ بِضَاعَتُهُ القَبَائِحُ؟ كَيْفَ يَغْفُلُ مَنْ شُهُودُهُ الجَوَارِحُ؟ وينشد:

يَا مَنْ تَجَاوَزَ بِالإِسَاءَةِ حَدَّهَا ... وجَفَا الحَقَائِقَ مُعْرِضًا مُتَحَرِّفَا
ذَهَبَتْ حَيَاتُكَ في الخِيَانَةِ وَالجَفَا ... وأَتَى الحِسَابُ مُطَالِبًا لَكَ بِالْوَفَا
مَاذَا تَقُولُ إذَا دُعِيْتَ فلم تَجِدْ ... عَن دَعْوَةِ المَلِكِ العَظِيْمِ تَخَلُّفَا
ونُقِلْتَ مِن تَعَبِ الحَيَاةِ لِمَوْقِفٍ ... مَا زِلْتَ مِنْ لَوْعَاتِهِ مُتَخَوِّفَا

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَكُون جَوابَهَا ... فَشَرَابُ حُزْنِكَ بِالنَّدَامَةِ قَدْ صَفَا
فَاسْتَقْبِلِ العُقْبَى بِذِلَّةِ نَادِمٍ ... مُتَأَلِّمًا مُتَهَجِّعًا مُتَلَهِّفَا
فَارْغَبْ إلى المَوْلَى الكَرِيْمِ فَلَمْ يَزَلْ ... يَعْفُوْ وَيَرْحَمُ مُنْعِمًا مُتَعَطِّفَا

إخواني، أَيْنَ الَّذِيْنَ سَلَبُوا سُلِبُوا، طَالَ مَا غَلَبُوا فَغُلِبُوا، عَمَرُوْا دِيَارَهُم فلما تَمَّتْ لَهُم خَرَّبُوا، ورُيِّقَتْ لَهُم كُؤُوسُ المَنَايَا وَأُكْرِهُوا فَشَرِبُوا. وينشد:

سَيْرُ اللَّيَالِي إلى أَعْمَارِنَا خَبَبُ ... فما يَبِيْنُ ولا يَعْتَاقُهَا نَصَبُ
ومَا إِقَامَتُنَا في مَنْزِلٍ هَتَفَ فِيْهِ ... بِنَا مُنْذُ سَكَنَّا رَبْعَهُ النُّوَبُ
وَأَذَابَتْنَا وقَدْ بَانَتْ عِمَارَتُه ... بأَنَّهُ عَنْ قَلِيْلٍ دَاثِرٌ خَرِبُ

عَنْ لَيْثٍ أنَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ رَأَى الدُّنْيَا في صُوْرَةِ عَجُوْزٍ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِيْنَةٍ، فقالَ لَهَا: كَمْ تَزَوَّجْتِ؟ فقالَتْ: لاَ أُحْصِيهِمْ. فَقَالَ: وكُلُّهُمْ مَاتوا عَنْكِ، أو كُلُّهُمْ طَلَّقَكِ؟ فَقَالَتْ: بَلْ كُلُّهُم قَتَلْتُ. فَقَالَ عِيْسَى: بُؤسًا لأَزْوَاجِكِ البَاقِيْنَ كَيْفَ لا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكِ المَاضِيْنَ؟ يَا مَنْ قَد لَعِبَ الهَوَى بِفَهْمِهِ، وَسَوَّدَتْ شَهَوَاتُهُ وَجْهَ عَزْمِهِ، يَا مَبْنِيًّا قَدْ عَزَمَ البَانِي على هَدْمِهِ، يَا مَحْمُولاً إِلَى البِلَاءِ لِتَمْزِيْقِ لَحْمِهِ، أَمَا يَكْفِيْكَ مُنْذِرًا وَهْنُ عَظْمِهِ؟ كَم تُقَرِّبُكَ وَأَنْتَ مُتَبَاعِدٌ؟ كَمْ تُنهِضُكَ إلى العُلَى وَأَنْتَ قَاعِدٌ؟ كَمْ تُحَرِّضُكَ وَمَا تُساعِدُ؟ كَمْ تُوْقِظُكَ وَأَنْتَ في الهَوَى رَاقِدُ؟ يَا أَعْمَى البَصِيْرَةِ ومَا لَهُ قَائِدٌ، يَا قَتِيْلَ الأَمَلِ لَسْتَ بِخَالِدٍ، يَا مُصَرِّفَ الهُمُوْمِ وَالمَقْصُوْدُ وَاحِدٌ، إنْ لاَحَتِ الدُّنْيَا فَشَيْطَانٌ مَارِدٌ، تُقَاتِلُ عَنْهَا فَتَكِرُّ وَتُطَارِدُ، وَإِذَا جَاءَتِ الصَّلاةُ فَقُلْتَ غَائِبٌ وَجِسْمٌ شَاهِدٌ، وتَقُوْلُ: قَدْ صَلَّيْتُ أَتُبَهْرِجُ على النَّاقِدِ مَا تَعْرِفُ رَبَّكَ إلاَّ في الأَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ، أَمَا ذُنُوْبُكَ كَثِيْرَةٌ فَمَا لِلطَّرْفِ جَامِدٌ، مَلَكَكَ الهَوَى وَنَحْنُ نَدُقُّ في حَدِيْدٍ بَارِدٍ. وينشد:

وَرُبَّمَا غُوْفِصَ ذُو غَفْلَةٍ ... أَصَحَّ مَا كَانَ ولَمْ يَسْقَمِ
يَا وَاضِعَ المَيِّتِ في قَبْرِهِ ... خَاطَبَكَ القَبْرُ ولَمْ تَفْهَمِ

يا أخي، كَمْ لَيْلَةٍ سَهِرْتَهَا فِي الذُّنُوْبِ؟ كَمْ خَطِيْئَةٍ أَمْلَيْتَهَا في المَكْتُوْبِ؟ كَم صلاةٍ تَرَكْتَهَا مُهْمِلًا لِلوُجُوْبِ؟ يَا أَعْمَى القَلْبِ بَيْنَ القُلُوْبِ، سَتَدْرِيْ دَمْعَ مَنْ يَجْرِيْ وَيَذُوْبُ، أَيْنَ الفِرارُ وَفِيْ كَفِّ الطَّالِبِ المَطْلُوبُ؟ تَنَبَّهْ لِلخَلَاصِ أَيُّهَا

المِسْكِيْنُ، أَعْتِقْ نَفْسَكَ مِنَ الرِّقِّ، يَا رَهِيْنُ اقْلَعْ أَصْلَ الهَوَى فَعِرْقُ الهَوَى مَكِيْنٌ.

احْذَرْ غُرُوْرَ الدُّنْيَا فَمَا لِلدُّنْيَا يَمِيْنٌ، كَيْفَ تَرَى حَالَكَ إِذَا عُرِّيَتِ الشِّمَالُ بِاليَمِيْنِ؟ ثُمَّ نُقِلْتَ ولُقِّيْتَ بِالمَيِّتِ الدَّفِيْنِ، وَا أَسَفًا لِعَظَمِ حَسْرَتِكَ سَاعَةَ التَّلْقِيْنِ، يَا مَسْتُوْرًا عَلَى الذُّنُوبِ غَدًا تَتَجَلَّى عنك وَتَبِيْنُ، تَرَى مَتَى هَذَا القَلْبُ القَاسِيْ يَلِيْنُ؟ وَا عَجَبًا لِقَسْوَتِهِ وهُوَ مَخْلُوْقٌ مِنْ طِيْنٍ. وينشد:

وَقَبْلَ شُخُوْصِ المَرْءِ يجْمَعُ زَادَهُ وتُمْلَأُ مِنْ قِبَلِ الرِّمَاءِ الكَنَائِنُ
حَصَادُكَ يَوْمًا مَا زَرَعْتَ وَإِنَّمَا يُدَانُ امْرُءٌ يَوْمًا بِمَا هُوَ دَائِنُ

سَاعَاتُ السَّلَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ مَبْذُوْلَةٌ، فَسَابِقْ سُيُوْفَ الآفَاتِ فَإِنَّهَا مَسْلُوْلَةٌ، وَبَادِرْ مَا دَامَتِ المَعَاذِيْرُ مَقْبُولَةٌ، وَاقْرَأْ عُلومَ النَّجَاةِ فَإِنَّهَا مَنْقُوْطَةٌ مَشْكُوْلَةٌ، وَافْتَحْ عَيْنَيْكَ فَإِلَى كَم بالنَّوْمِ مَكْحُولَةٌ؟ وغَيِّرْ خَلَائِقَكَ القَبَائِحَ المَرْذُوْلَةَ، يَا لَهَا من نَصِيْحَةٍ غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ عَلَى الخِلَافِ مَجْبُولَةٌ.

السَّجع:

وَيْحَ العُصَاةِ لَقَدْ عُجِّلُوْا، لَوْ تَأَمَّلُوا العَوَاقِبَ مَا فَعَلُوا، أَيْنَ مَا شَرِبُوْا؟ أَيْنَ مَا أَكَلُوْا؟ بِمَاذَا يُجِيْبُوْنَ إِذَا أُحْضِرُوْا وسُئِلُوْا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؟

آهٍ لَهُمْ في أَيِّ حُزْنٍ مِنَ الحَزَنِ نَزَلُوْا، لَقَدْ جَدَّ بِهِم الواعِظُ غَيْرَ أَنَّهُمْ هَزَلُوْا، إِنَّما كَانَتْ وِلَايَةُ الحَيَاةِ يَسِيْرًا ثُمَّ عُزِلُوْا، وَانْفَرَدُوْا في زَاوِيَةِ الأَسَى وَاعْتَزَلُوْا، وَإِذَا شَاهَدُوْا ذُنُوْبَهُمْ مَكتُوْبَةً ذَهَلُوْا، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾، ذَهَبَتْ مِنْ أَفواهِهِم الحَلَاوَةُ، وَبَقِيَتْ آثَارُ الشَّقَاوَةِ حُطُّوْا إلى الحَضِيْضِ مِنْ أَعْلَى رُبَاوَةٍ، وحُمِّلُوا عِدْلَ المَوْتِ وَالفَوْتِ وَالحَسْرةُ عَلَاوَةٌ وَأَعْجَزَهُمْ والله ما حَمَلُوْا بِمَا فَعَلُوْا، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: الآية ٦]، اجْتَمَعَتْ كَلِمَةٌ إلى كلمةٍ ونَظْرَةٌ إلى نَظْرَةٍ إلى خَاطِرٍ قَبِيْحٍ إلى فِكْرَةٍ في كِتَابٍ يَحْصِيْ حَتَّى الذَّرَّة

وَالعُصَاةُ مِن المعاصِيْ في سَكْرَةٍ، فَجَنُوْا مَنْ جَنَى مَا جَنَوْا ثِمَارَ مَا غَرَسُوْه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

كَم تَنَعَّمَ بِمالِ المَظْلُوْمِ ظَالِمٌ وبَاتَ لا يُبَالِيْ إلى المَظالِم وَالمَسْلُوْبُ يَبْكِي فَيَبْكِي الحَمَائِمُ مَا كَفَاهُ أَخْذُ مَالِهِ حَتَّى حَبَسُوْهُ، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

أَيْنَ مَا كَانُوْا جَمَعُوْهُ، كَمْ لِيْمُوْا وَمَا سَمِعُوْهُ، كَمْ قِيْلَ لَهُم: لَوْ قَبِلُوْهُ. ذَهَبَ الغَرَضُ غَيْرَ أَنَّ العِرْضَ دَنَّسُوْهُ، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾، كَمْ كَاسِبٍ لِلمالِ مِنْ حَرَامِهِ وحَلالِهِ فَيُحَاسِبُ شَرِيْكَهُ عَلَى عَوْدِ خِلَالِهِ، ولا يُنْفِقُ مِنْهُ شَيْئًا في تَقْوِيْم خِصَالِهِ، فَلَمَّا وَقَعَ صَرِيْعًا بَيْنَ أَشْبَالِهِ، اشْتَغَلُوْا عَنْهُ بِانْتِهَاب مَالِهِ، ثُمَّ في اللَّحْدِ نَكَسُوْهُ، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: الآية ٦].

جَعَلَنَا الله مِنَ الَّذِيْنَ عَرَفُوا ورأوا الحَقَّ فَاتَّبَعُوْهُ، وَزَجَرُوا الهَوَى عَنْهُمْ وَرَدَعُوْهُ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ بِالقُرْآنِ في مَوْقِفِ العَرْضِ عَلَيْكَ ذُلَّ مَقَامِنَا، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولجميع المسلمين أَجْمَعِيْنَ، وَصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحبه أَجْمَعِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ.

المَجْلِسُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ
في قِصَّة مَرْيَم وعِيسَى عَلَيْهِما السَّلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيْمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي لا شَأْنَ يَشْغَلُهُ، ولاَ نِسْيَانَ يُذْهِلُهُ، ولا قاطِعَ لِمَنْ يَصِلُهُ، ولا نَافِعَ لِمَنْ يَخْذُلُهُ، جَلَّ عَنْ مِثْلٍ يُطاوِلُهُ، أَو نِدٍّ يُشاكِلُهُ، أَوْ نَظِيْرٍ يُقَابِلُهُ. يُثِيْبُ بِالعَمَلِ القَلِيْلِ وَيَقْبَلُهُ، وَيَحْكُمُ عَنِ العَاصِيْ فَلَا يُعَاجِلُهُ، وَيَدَّعِي الكَافِرَ لَهُ شَرِيْكًا ويُمْهِلُهُ.

ثُمَّ إِذَا بَطَشَ هَلَكَ كِسْرَى وَصَوَاهِلُهُ، وَذَهَبَ قَيْصَرُ ومَعَاقِلُهُ، اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَمَا العَرْشُ حَامِلُهُ، وَيَنْزِلُ لا كَالمُنْتَقِلِ تَخْلُوْ مَنَازِلُهُ، هَذِهِ جُمْلَةُ اعْتِقَادِنَا، وهَذَا حَاصِلُهُ، مَنِ ادَّعَى عَلَيْنَا التَّشْبِيْهَ فَالله يُقَاتِلُهُ، مَذْهَبُنَا مَذْهَبُ أَحْمَدَ ومَنْ كَانَ يُمَاثِلُهُ، وطَرِيْقُنَا طَرِيْقُ الشَّافِعِيِّ وَقَدْ عُلِمَتْ فَضَائِلُهُ، وَنَرْفُضُ قَوْلَ جَهْم وَقَدْ عُرِفَ بَاطِلُهُ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِيْ ارْتَجَّتْ لَيْلَةَ وِلاَدَتِهِ أَعَالِي الإِيْوَانِ وأَسَافِلُهُ، وعَلَى أَبِيْ بَكْرٍ ثَانِي اثْنَيْنِ فَلْيَعْرِفْ قَائِلُهُ، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي صَفَّى الإِسْلَامُ بِحَدِّهِ وعَذُبَتْ مَنَاهِلُه، وعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي زَارَتْهُ الشَّهَادَةُ ومَا تَعِبَتْ رَوَاحِلُهُ، وعَلَى عَلِيٍّ بَحْرِ العُلُوْمِ فَمَا يُدْرَكُ سَاحِلُهُ، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ أَقْرَبُ الخَلْقِ نَسَبًا فَمَاذَا يُشاكِلُهُ.

قال الله العظيم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: الآية ١٦]، الكِتابُ: القُرْآنُ. ومَرْيَمُ: اسْمٌ أعْجَمِيٌّ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّهَا حَنَّةَ قَدْ حَنَّتْ إلى وَلَدِهَا فَكَبُرَ عَلَيْهَا امْتِنَاعُهُ وَاسْتَوْلَى الكِبَرُ فَرَأَتْ يَوْمًا طَائِرًا يَغُرُّ فَرْخًا فَرْخًا، أَمَلَهَا البُؤْسُ

فَرْجًا فَرْجًا فسالَتْ عندَ هذِهِ القِصَّةِ وَلَدَيْهَا وَلَدًا، فلمَّا عَلِمَتْ بالحَمْلِ أَكْسَبَهَا السُّرُوْرُ وَلَهًا، فَوَهَبَتْهُ بِلِسَانِ النَّذْرِ لِمَنْ وَهَبَهُ لَهَا مُحَرَّرًا خَادِمًا لِلْكَنِيْسةِ فقالَ القَدَرُ: يَا مَالِكَ التَّصْوِيْرِ صَيِّرِ الحَمْلَ أُنْثَى لِيَبِيْنَ أَثَرَ الكَرَمِ في قَبُوْلِ النَّاقِصِ.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ [آل عمران: الآية ٣٦] وَضَعَتْهَا بِأَنَامِلِ الإِنْكِسَارِ عَنْ سَرِيْرِ السُّرُوْرِ وحَمَلَتْهَا إِلَيْهِمْ فَجَبَرَ كَسْرَهَا جَابِرُ ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾، وسَاقَ عنَانَ اللُّطْفِ إلى سَاقِيْ زَرْعِهَا فَرَبَا في رُبَا ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٧]، ولَمَّا انْطَلَقتْ بِهَا الأُمُّ تَؤُمُّ بَيْتَ المَقْدَسِ لَبِسَ القَوْمُ لأَمَتَهُمْ في حَرْبِ ﴿يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٤]، فَثَبَتَ قَلَمُ زَكَرِيَّا، إِذْ زُيِّنَتِ الأَقْلامُ فَكَفَتْهَا ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧] أي: ضَمَّها وكَفَّلَها فَأَرَاهَا المُسَبِّبُ غِنَاهَا عَنِ السَّبَبِ بِآيَةِ عِنَايَةِ ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٧] فَرَبَّاهَا مَنْ رَبَّهَا فَنَشَأَتْ لا تَرَى إلاَّ رَبَّهَا، فَلَمَّا بَلَغَتْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ﴿فَٱنتَبَذَتْ﴾ [مريَم: الآية ٢٢] أي: تَنَحَّتْ عن أَهْلِهَا ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٦] مِمَّا يَلِي المَشْرِقَ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: حَاجِزًا يَمنَعُ مِنَ النَّظَرِ. قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: ضَرَبَتْ سِتْرًا لِتَطْهُرَ مِنَ الحَيْضِ وتَمْتَشِطَ، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهُو جَبرئيلُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ [مريَم: الآية ١٧] أي: تَصَوَّرَ لَهَا في صُورَةِ البَشَرِ التَّامِ الخِلْقَةِ.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: في صُوْرَةِ شَابٍّ جَعْدٍ قَطِطٍ حِيْنَ اخْضَرَّ شارِبُهُ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٨]، المعنى أَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تَتَقِي الله فَتَنْتَهِي لِتَعْوِيْذِي مِنْكَ. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: لا تَخَافِنَّ ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ أي: أَرْسَلَنِي ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريَم: الآية ١٩] أي: طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: كَيْفَ يَكُونُ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تَعْنِيْ الزَّوْجَ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٠] أي: فَاجِرَةً. قال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ﴾ [مريَم: الآية ٢١] أيْ: يَسِيْرٌ أَنْ أَهَبَ لَكِ غُلامًا مِنْ غَيْرِ أَبٍ ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دَلالَةً عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ أي: لِمَنْ تَبِعَهُ وَآمَنَ بِهِ ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢١] أي: محكُومًا بِهِ ومَفْرُوغًا مِنْهُ.

قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَنَفَخَ جبرئيلُ في جَيْبِ دِرْعِهَا فَمرَّتِ المرأةُ حامِلًا في الوَقْتِ وفي مِقْدَارِ حَمْلِهَا سَبْعَةُ أقْوالٍ؛ فَلَمَّا عَلِمَتْ أَلِمَتْ بِمَا حَمَلَ عليها بالحَمْلِ فَأَخْرَجَهَا حَيَاءُ الحَيِّ عَنِ الحَيِّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: بالحَمْلِ ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ [مريَم: الآية ٢٢] أي: بَعِيْدًا. قَال ابنُ إسْحَاقٍ: مَشَتْ سِتَّةَ أَمْيَالٍ فِرَارًا مِنْ قَوْمِهَا أَنْ يُعَيِّرُوْهَا بِوِلادَةٍ مِن غَيْرِ زَوْجٍ.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ وَالمَعْنَى فَجَاءَهَا، وَالمَخَاضُ وَجَعُ الوِلاَدَةِ ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾، وهُوَ سَاقُ نَخْلَةٍ يَابِسَةٍ فِي الصَّحْرَاءِ لَيْسَ لَهَا رَأْسٌ ولا شُعَبٌ، فلما تَحَيَّرَتْ مِنْ وُجُوْدِ وَلَدٍ وَمَا فَجرَتْ، فَجَرَتْ عَيْنُ الدَّمْعِ، فَصَاحَ لِسَانُ الحَفَزِ بِلِسَانِ النَّدْبِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ اليَوْمِ. وهَذَا الأَمْرُ قَالَتْهُ حَيَاءً مِنَ النَّاسِ.

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريَم: الآية ٢٣] أي: يَا لَيْتَنِي لَم أَكُ شَيْئًا ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ [مريَم: الآية ٢٤] وفيه قَولاَنِ:

أَحَدُهُمَا: المَلَكُ، وكانَتْ عَلَى نَشَزٍ.

والثَّانِي: عِيْسَى لَمَّا وَلَدَتْهُ ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريَم: الآية ٢٤] والسَّرِيُّ النَّهْرُ الصَّغِيْرُ، وكانَتْ قَدْ حَزِنَتْ لِجَدْبِ مَكانِهَا وخُلُوِّهِ عَنْ مَاءٍ وطعامٍ، فقِيْلَ لها: قَدْ أَجْرَيْنَا لَكِ نَهْرًا وأَطْلَعْنَا لَكِ رُطَبًا، وفي ذلكَ آيَةٌ تَدُلُّ على قُدْرَةِ الله تعالى في إِيجَادِ عيسَى فَهَزَّتْ جِذْمَ جِذْعٍ مَائِلٍ قَائِمٍ مِنَ الحطب، فَتَسَاقَطَ عَلَيْهَا في الحالِ رَطْبُ الرُّطَبِ فَأَخَذَهَا الجَوَى في إعْدَادِ الجوابِ. فقيل لها: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ [مريَم: الآية ٢٦] كُلِي كُلَّ الكُلِّ إلى مَن لَهُ الكُلُّ كنتِ بِمَعْزِلٍ مِنْ وُجُودِ الوَلَدِ فَتَكُوْنِي بِمَعْزَلٍ مِنْ إِقَامَةِ العُذْرِ فَالَّذِيْ تَوَلَّى إِيجَادَهُ يُقِيْمُ عُذْرَ العَذْرَاءِ، لا تَعْجَبِيْ مِنْ وُجُوْدِ حَمْلٍ سَافَرَ عَنْ أَرْضِ القُدْرَةِ فلم يَصْلُحْ يَنْزِلُ إلاَّ بِمَنْزِلٍ أَرْكَانُهُ عَلَى عُمُدٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٢].

إخواني، كَمْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ المُتَّقِيْنَ الأَبْرَارِ، مَلَّكْتُكُمُ الدُّنْيَا ومَلَكوْهَا، فَالقَوْمُ أَحْرَارٌ كانَتْ لَهُم أَنَفَةٌ فَاحْتَمُوا مِنَ العَارِ، وعَرَفُوا قَدْرَ الزَّمَانِ فَانْتَهَبُوا الأَعْمَارَ،

فَلَو مَدَدْتُم بَاعَكُمْ مَا كانَتْ فِيهِمْ إلاَّ كَالأَشْبَارِ، لَوِ اطَّلَعْتُمْ عليهِمْ في وَقْتِ الأَسْحارِ، لَرَأَيْتُمْ نُجُوْمَ الهُدَى، بَلْ هِيَ أَقْمَارٌ فَأَمُّوْا جَمِيْعَ الدَّجَى عَلَى قَدَمِ الاعْتِذَارِ. وينشد:

باحَتْ بِسِرِّي في الهَوَى أَدْمُعِي ... ودَلَّتِ الوَاشِيْ عَلَى مَوْضِعِيْ
يَا قَوْمِ إن كُنْتُم عَلَى مَذْهَبِيْ ... فِي الوَجْدِ وَالحُزْنِ فَنُوحُوْا مَعِيْ
يَحِقُّ لِي أَبْكِي عَلَى زَلَّتِيْ ... فلا تَلُومُوْنِيْ عَلَى أَدْمُعِيْ

مَالَتْ بَالعَارِفِيْنَ رِيحُ الأَسْحَارِ مَيْلَ الأَسْحَارِ مَيْلَ الشَّجَرِ بِالأَغْصَانِ، هَزَّ الخَوْفُ أَفْنَانَ القُلُوْبِ فَانْتَشَرَتِ الأَفْنَانُ، فَاللِّسَانُ تَضَرَّعُ، وَالعَيْنُ تَدْمَعُ، وَالوَقْتُ بُسْتَانٌ.

خَلَوْتُهُمْ بِالحَبِيْبِ تَشْغَلُهُم عَنْ نِعَم وَنُعْمَانٍ، اطَّلِعْ مِنْ خَوْخَةِ التَّيَقُّظِ بِعَيْنِ التَّأَمُّلِ تَرَى البُرْهَانَ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنهُمْ مَا نَائِمٌ كَيَقْظَانٍ، كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُم، أَيْنَ الشُّجَاعُ مِنْ جَبَانٍ؟ مَا لِلْمَوَاعِظِ فَيْكَ مَواضِعُ القَلْبِ بِالهَوَى مَلآنٌ، يا هَذَا قِفْ عَلَى بَابِ النَّجَاحِ وَلَكِنْ وُقُوْفَ لَهْفَانٍ، ارْكَبْ سُفُنَ الصَّلَاحِ فَهَذَا المَوْتُ طُوْفَانٌ، أَيَكُوْنُ بَعْدَ هَذَا إِيْضَاحٌ أَوْ مِثْلُ هَذَا تِبْيَانٌ. يَا لَهَا من مَوْعِظَةٍ سَحَبَتْ ذَيْلَ الفَصَاحَةِ فَحَارَ سُحْبَانُ بَعْدَ أَذِيَّةٍ إِمَامِيَّةٍ نَاصِرِيَّةٍ لاَ يَعْرِفُ ضَرْبَ خُرَاسَانَ. شعر:

بَرَّنِيْ مَعْرُوْفُكُم قَبْلَ أَبِي ... وغَذَّانِيْ بَرُّكُمْ قَبْلَ اللَّبَنِ
فَإِذَا أَنْتُم وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ ... فَإِذَا أَنْتُمْ لَمْ تُوَالُوْنِيْ فَمَنْ

مَنْ نَزَلَ عَنْ مَطِيَّةِ الإِخْلَاصِ مَشَى في حَسَك التَّغَيُّرِ فَتَقَطَّعَ قَدَمُ الصِّدْقِ ولم يَبْلُغِ المَنْزِلَ، الرِّياءُ أَصْلُ النِّفَاقِ، نِفَاقُ المُنافِقِيْنَ صَيَّرَ المَسْجِدَ مَزْبَلَةً وقال المُنَزَّهُ: ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨] لا تَعْجَبُوْا بِصُورَةِ التَّعَبُّدِ وتَلَمَّحُوا حُسْنَ المَقْصِدِ، لَيْسَ كُلُّ مُصَلٍّ بِمُتَعَبِّدٍ، ولا كُلُّ صَائِم بِزَاهِدٍ، وَلا كُلُّ بَاكٍ بِخاشِعٍ، ولا كُلُّ مُتَصَوِّفٍ بِصَافٍ، لَيْسَ التَّكَحُّلُ في العَيْنَيْنِ كَالكُحْلِ، كَمْ حَوْلَ مَعْرُوْفٍ منْ دَفِيْنٍ ذَهَبَ اسْمُه كَمَا بَلِيَ رَسْمُه، ومَعْرُوْفُ مَعْرُوْفٌ وَذَهَبَ أَهْلُ التَّحْقِيْقِ وبَقِيَتْ بُنْيَانُ الطَّرِيْقِ.

وَا عَجَبًا لَقَدْ رَحلَ القَوْمُ وبَقِيَ أَهْلُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ. كَانَ الصُّوفِيَّةُ قَدِيمًا يَسْخَرونَ من الشَّيطانِ والآنَ الشَّيْطانُ يَسْخَرُ بِالقَوْمِ. الوقتُ يَنْقَضِيْ بِكَ يَا عَاصِيْ، فَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ، ومُنادِي الوِصالِ على بَابِ القَبُولِ يُنادِيْ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣]. شعر:

لَئِنْ جَلَّ ذَنْبِي وَارتَكَبْتُ المَأْثَمَا ... وَأَصْبَحْتُ في بَحْرِ الخَطِيئَةِ عَائِمًا
أُجَرِّرُ ذَيْلِيْ في مُتابَعَةِ الهَوَى ... لأَقْضِيَ أَوْطَارَ البَطَالَةِ هَائِمًا
فَهَا أَنا يَا رَبِّ أَقْرَرْتُ بِالَّذِي ... جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي وأَصْبَحْتُ نَادِمًا
أَجَلُّ ذُنُوْبِيْ عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِي ... حَقِيرَ وَإن كَانَتْ ذُنُوْبِيْ عِظَامًا

يا هَذَا، بادِرْ قَبْلَ أَنْ تَكْشفَ القَفَصَ ويَنْطَلِقَ الطَّائِرُ، ولا تَغْتَرّ بالمُهْلَةِ، فطائِرُ عُمْرِكَ طَائِرٌ كَمْ أَنْتَ بِالمَلاهِي لاَهِي. لِمَ لا تُطِيْعُ حينَ أَسْرَفْتَ في المَنَاهِيْ نَاهِي؟ أَفِقْ أَيُّهَا السَّائِحُ في بِحَارِ الغَمَرَاتِ، فَما مِنْ حُسْنِ الأَخْلَاقِ أن يكُونَ ثيابُ عَمَلِكَ أَخْلَاق إلى كَمْ أُجَرِّرُ في الخِلَافِ؟ أَرْدَانِيْ فَمَا أَرْدَانِيْ؟ ولا أُغَمِّضُ عَن المَحَارِمِ أَجْفَانِي، إلى كَمْ تَسْحَبُ ذَيْلَ التَّوَانِي يَا وَانِي وحَتَّى مَتَى تَصْحَبُ التَّجَانِيْ يَا جَانِي؟ انْظُرْ وَيْحَكَ إلى المُسْتَحْسِنِ في لَحْدِهِ وقَدْ سَالَ نَاظِرُهُ عَلَى خَدِّهِ وَقَدْ تَبَدَّلَ مُبَيِّضُهُ بِمُسْوَدِّهِ؟ وقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ بِضِدِّهِ. وينشد:

جَاءَتْ تَزُوْرُ وِسَادَتِيْ بَعْدَمَا دُفِنَتْ ... فَظِلْتُ أَلْثُمُ خَدًّا زَانَهُ الجِيْدُ
فَقُلْتُ قُرَّةَ عَيْنِيْ قَدْ بُعِثْتَ لَنَا ... فكَيْفَ ذَا وَطَرِيْقُ القَبْرِ مَسْدُوْدٌ
قَالَتْ هُناكَ عِظَامِيْ فِيْهِ مُلْحَدَةٌ ... تَجُوْلُ فِيْهَا الهَوَامُ وَالحَيَّاتُ وَالدُّوْدُ
وهَذِهِ النَّفْسُ قَدْ جَاءَتْكَ زَائِرَةً ... كَذَا زِيَارَةُ مَنْ في القَبْرِ مَلْحُوْدُ

يا هذا، بادِرْ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ القَفَصُ ويَنْطَلِقَ الطائِرُ ولا تغترّ بِالمُهْلَة، فَطَائِرُ عُمْرِكَ طَائِرُ، كَم أَنْتَ به يَا هَذَا حَتَّى مَتَى لا تَلْزَمُ بَابَ طَبِيْبِكَ، وإِلَى كَمْ وَكَمْ لا تُدْمِنُ القَرْعَ وَسِيْلَةً لِحَبِيْبِكَ؟ أَمَا فُتِحَ لَكَ البَابُ؟ أَمَا رُفِعَ لَكَ الحِجَابُ؟ أَمَا ضَمِنَ لَكَ المَثَابَ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ مُنْزِلِ الكِتَابِ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: الآية ٨٢]؟ ومَاذَا تَقُوْلُ مَا مَعْنَى إِذَا نَادَاكَ سَيِّدُكَ؟ أيُّ قَاطِعٍ قَطَعَكَ عَنَّا؟ أَيُّ مَانِعٍ مَنَعَكَ مِنَّا؟ يَا مَنْ عَظَانَا غَدًا نَرَاكَ ولاَ تَرَانَا؟ يَا مَنْ إِذَا رَشَقَتْهُ النَّوَائِبُ

جَزَعَ؟ يَا مَنْ شَابَ وَلاَ ارْتَجَعَ؟ يَا مَنْ آمَنَ لا تَأْمَنْ؟ وهَدَّدَ النَّفْسَ لِيَوْمِ الفَزَعِ؟ أَتَرْضَى بِالبَطَالَةِ وَغَيْرُكَ جَدَّ إِلَى الفِرْدَوْسِ وَبَلَغَ شَمْسُ حَيَاتِكَ قَدْ أَعْلَمَ بِالغُرُوْبِ بَعْدَ مَا بَزَغَ؟ يَا مَعْرُوْفًا بِتَرْكِ المَعْرُوْفِ؟ يَا مَنْ هُوَ بِكَسْبِ القَبَائِحِ مَوْصُوْفٌ؟ وَإِلَى كُلِّ خَدَعٍ مُخَالِفٍ مَأْلُوفٌ؟ إلى كَمْ تَعْتِقُ المَمَالِكَ وَأَنْتَ لاَ تُعْتَقُ وتُطْلِقُ الأُسَارَى وأَنْتَ مِنْ أَسْرِ شَهْوَتِكَ لاَ تُطْلَقُ؟ مَا لِغَيْرِكَ وَقْفٌ وَأَنْتَ لاَ تُوْقَفُ؟ لَيْسَ الغَفْلَةُ عَنِ الحَقِّ بِحَقٍّ انْهَضْ فَلَيْسَ مُتَأَخِّرٌ كَمَنْ سَبَقَ؟ مَنْ عَرَفَ الله عَاشَ، ومَنْ جَهِلَ حَقَائِقَ المَعْرِفَةِ طَاشَ، تَالله مَا وَقَعَ عَلَى حَقِيْقَةِ الطَّاعَةِ، مَنْ تَرَكَ النَّفْسَ مُطَاعَةً. وينشد:

قَدْ تَنَاهَتْ فِي بَلاَئِي حِيَلِيْ ... وبَلاَئِيْ كُلُّهُ مِنْ قِبَلِيْ
كُلَّمَا قُلْتُ تَجَلَّتْ غُمَّتِي ... عُدْتُ فِي نَائِبَةٍ مَا تَنْجَلِيْ
لَعِبَتْ بي شَهَوَاتِي فَانْقَضَتْ ... لِي حَيَاتِيْ فِي غُرُوْرِ الأَمَلِ
وأَحَلَّتْ فِي ذُنُوْبِي سَقَمًا ... كَيْفَ لِيْ بِالبُرْءِ مِنْهُ كَيْفَ لِيْ
وَرَمَتْنِيْ سَيِّئَاتِي وَالهَوَى بسِهَامٍ ... فَأَصَابَتْ مُقْلَتِيْ
وَأَتَى شَيْبِي وَحَالِيْ كَالَّذِيْ ... كُنْتُ فِيْهِ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

رَجَعْنَا إلى القِصَّةِ، فَلَمَّا سَكَنَتْ وسَكَتَتْ بَعْدَ أَنْ قَامَتْ وقَعَدَتْ أَقَامَتْ أَيَّامَ النِّفَاسِ. قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا مَرَّتْ عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَطَهُرَتْ مِنْ نِفَاسِهَا ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: الآية ٢٧] فَنَادَوْا مِنْ أَنْدِيَةِ التَّوْبِيْخِ إِذَا مَا شَهِدُوْا قَطُّ أُخْتَهَا ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: الآية ٢٨]، وفيه أَرْبَعَةُ أَقْوالٍ؛ فَأَضْجَرُوْا مَرِيْضًا قَدْ ضَنَى مِنْ أَنِيْنٍ ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عِمران: الآية ٣٧] عَلَى فِرَاشِ ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: الآية ٢٣] فَلَمَّا أَشَارَتْ أَرْيَ الرَّأْيِ أَشَارَتْ فَأَخَذَتْ أَلْسِنَةُ تَعَجُّبِهِمْ تَعُجُّ بِهِمْ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ [مريم: الآية ٢٩] فَكَأَنَّهَا قَالَتْ لَهُمْ: أَنَا طَرِيْقٌ وهَذَا مُسَافِرٌ، وَالمُسَافِرُ يَسْأَلُ عَنِ الطَّرِيْقِ لا الطَّرِيْقُ عَنِ المُسَافِرِ، فَنَزَعَ مِنْ فِيْهِ ثَدْيَهَا وقَامَ يَمْخَضُ أَوْطَابَ الخِطَابِ عَلَى مِنْبَرِ الخَطَابَةِ فَأَبْرَزَ بِالمَخْضِ مَخْضَ إِبْرِيْزِ الإِقرار ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: الآية ٣٠].

قَالَ عِكْرِمَةُ: قَضَى أَنْ يُؤْتِيَنِي الكِتَابَ وَأَوْصَى إلى وُجُودِهِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ في

إشارَةِ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: الآية ٣٢] فكانَ وَاسِطَ عِقْدٍ ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦]، فلمَّا تَمَّ سِنُّ الشَّبَابِ جَلَسَ على بَابِ المُعْجِزَةِ يُعْطِي العَافِيَةَ العَافِيَةَ ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [المائدة: الآية ١١٠] فَرُبَّمَا أُلْقِيَ بِبَابِهِ خَمْسِيْنَ أَلْفًا يُبْرِئُهُ في كُلِّ يَوْمٍ، ولَقَد تَرَكَ الدُّنْيَا وطَلَّقَهَا أيَّ تَطْلِيْقٍ وَأَبْغَضَهَا لا كَبُغْضِ الرَّافِضِيِّ الصِّدِّيْق فَغَزَاهَا بِجُنْدِ الزُّهْدِ بَيْنَ مُسَرَّحٍ وَمُلْجَم وَفَتَكَ كَمَا فَتَقَ بِالتُّقَى ابْنُ مُلْجَم مَا الْتَفَتَ إليهَا قَطُّ وَجْهُ عَزْمِهِ ولاَ صَافَحَهَا يَوْمًا كَفُّ قَلْبِهِ وَلاَ غَازَلَهَا سَاعَةً لِسانُ فِكْرِهِ.

قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: دَخَلَ عِيْسَى يَوْمًا فَدَخَلَ خَلْفَهُ ذُوْ دَخْلٍ فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شِبْهُهُ فَقَتَلَهُ اليَهُوْدُ وَصَلَبُوْهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧].

قالَ عُلَمَاءُ النَّقْلِ: رُفِعَ ثَلاث سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، وأُلْبِسَ النُّوْرَ وكُسِيَ الرِّيْشَ وَقُطِعتْ عَنْهُ لَذَّةُ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ فَأَصْبَحَ إنْسِيًّا مَلَكِيًّا.

وقالَ بَعْضُهُم: رُفِعَ لَيْلَةَ القَدْرِ، وكان عُمْرُهُ ثَلَاثًا وثَلاثِيْنَ سَنَةً وَأَشْهُرًا، ومَاتَتْ أُمُّهُ بَعْدَ رَفْعِهِ بِستِّ سِنِيْنَ، وكانَ عُمْرُهَا أَرْبَعًا وَخَمْسِيْنَ سَنَةً.

وجَاءَ في الحَدِيْثِ عنهُ عليه السَّلامُ أنَّ عِيْسَى يَنْزِلُ عَلَى المَنَارَةِ البَيْضَاءَ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ، ويَقْتُلُ الخِنْزِيْرَ، ويُقَاتِلُ النَّاسَ على الإسْلامِ، وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَتَزَوَّجُ، ويُوْلَدُ مِنْهُ وَيَمْكُثُ خَمْسًا وأَرْبَعِيْنَ سَنَةً، ويَمُوتُ ويُدْفَنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ.

وعظ:

ما يُزَاد تَأَهَّبْ لِلْمُنْقَلَبِ فَلَسْتَ بِمُقِيْمٍ، وَتَهَيَّأْ لِلرَّحِيْلِ لِيَوْمٍ عَظِيْمٍ. وينشد:

تَزَوَّدْ قَرِيْنًا مِنْ فِعَالِكَ إنَّما ... قَرِيْنُ الفَتَى في القَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَنْ يَصْحَبَ الإِنْسَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ ... إلَى القَبْرِ إلاَّ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ

ألا إنَّمَا الإِنْسَانُ ضَيْفٌ لأَهْلِهِ ... يُقِيْمُ قَلِيْلًا عِنْدَهُم ثُمَّ يَرْحَلُ

وعظ:

إلى كَمْ تَعْصِيْ وَتَتَمَرَّدُ وَأَقْبَحُ مِنْ قَبِيْحِكَ أَنَّكَ تَتَعَمَّدُ، يَا رَدِيَّ الغَرْمِ، يَا

سَيِّئَ المَقْصَدِ، يَا تَقِيَّ الثَّوْبِ وَالقَلْبُ أَسْوَدُ، مَا هَذَا الأَمَلُ ولَسْتَ بِمُخَلَّدٍ؟ أَمَا تَخَافُ مِمَّنْ هَدَّدَ وَأَوْعَدَ؟ يَا مَسْؤُولاً عَنِ القَبِيْحِ أَتُقِرُّ أَمْ تَجْحَدُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ السَّفَرَ بَعِيْدٌ فَمَتَى تتزَوَّدُ؟ يَا مَنْ شَابَ ولا تَابَ هَذَا الدَّأْبُ مُذْ كُنْتَ أَمْرَدَ؟ أَتَشْتَرِي الدُّنْيَا لَذَّةَ سَاعَةٍ بِعَذَابٍ سَرْمَدٍ؟ يَا مَرْمِيًّا فِيْ جُبِّ حُبِّ الهَوَى هَذَا الجَبَلُ وَمَا تَصْعَدُ، بِاللهِ عَلَيْكَ تَأَمَّلْ نُصْحِيْ وَتَفَقَّدْ، أَمَا الطَّرِيْقُ طَوِيْلَةٌ فَاقْبَلْ مِنِّيْ وَتَزَوَّدْ تَخَلَّصْ فَإِلَى كَمْ تُفَنِّدْ، مَيِّزْ مَا يَبْقَى مِمَّا يَفْنَى ثُمَّ اطْلُبِ الأَجْوَدَ.

مَا أَرَى قَوْلِيْ يُؤْثِرُ فِيْكَ ولو دُرِسَ مُجَلَّدٌ، أَظْرَفُ مِنْ فِعْلِكَ قَلْبُ فَهْمِكَ وَأَنْتَ تَتَبَعَّدُ، أَسَفًا لأَيَّامٍ مَضَتْ في الذُّنُوْبِ وتَوَلَّتْ، تَحَمَّلَتْ فِيهَا النَّفْسُ فَأَفْسَدْتَهَا إِذَا تَوَلَّتْ، وعلى لَيَالِيَ كَشَفَتِ الصَّحَائِفُ لَوْنَهَا فَركَسَتْ وَأَذَلَّتْ، آهٍ لِشَيْبٍ كانَ الشَّبَابُ فِيْهِ أَصْلَحَ، ولِذِيْ عَيْبٍ مَا قَوَّمَهُ العِتَابُ ولاَ أَصْلَحَ، وَلِمُفْرِطٍ يَخْسَرُ كُلَّ يَوْمٍ ولا يَرْبَحُ، أَوَ لِمُتَخَبِّطٍ في ظَلَامِ الظُّلْمِ وَالصُّبْحُ قَدْ أَصْبَحَ.

السَّجع:

لَوْ رَأَيْتَ التَّائِبَ جفْنًا مَقْرُوْحًا، تَسْمَعُهُ في الأَسْحَارِ عَلَى بَابِ الاعْتِذَارِ مَطْرُوْحًا، سَمِعَ قَوْلَ الإِلَـٰهِ يُوْحِيْ فِيْمَا يُوْحَى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ مَطْعَمُهُ يَسِيْرٌ، وحُزْنُهُ كَثِيْرٌ، ومُزْعِجَهُ مُشِيْرٌ، وكأَنَّه أَسِيْرٌ، قد رُمِيَ مَجْرُوْحًا، ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

أَنْحَلَ بَدَنَهُ الصِّيامُ، وَأَتْعَبَ قَدَمَهُ القِيَامُ، وحَلَفَ بِالعَزْمِ على هَجْرِ المَنَامِ، فَبَذَلَ جَسَدًا وَرُوْحًا ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

الذُّلُّ قَدْ عَلاهُ، والحُزْنُ قَدْ وَهَاهُ، يَذُمُّ نَفْسَهُ على هَوَاهُ، وبهذا صَارَ مَمْدُوْحًا ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

أَيْنَ مَنْ يَبْكِي على جِنَايَاتِ الشَّبابِ الَّتِي بِهَا اسْوَدَّ الكِتَابُ؟ أَيْنَ مَنْ يَأْتِي البَابَ يَجِدِ البَابَ مَفْتُوْحًا؟ ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحْريم: الآية ٨].

اللَّهُمَّ عَرِّفْنَا بَرَكَةَ هَذَا الجَمْعِ السَّعِيْدِ، وَاجْعَلْهُ لَنَا وَسِيْلَةً في طَلَبِ الزُّلْفَى وَالمَزِيْدِ، وبَلِّغْنَا مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ في طَاعَتِكَ مَا تُرِيْدُ، وَاحْشُرْنَا في جُمْلَةِ الطَّائِعِيْنَ مِنَ العَبِيْدِ، وَاغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِمَشَايِخِنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ والمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ، وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين وسَلِّم تَسْلِيمًا كَثِيْرًا.

المَجْلِسُ السَّابِعُ والعِشْرُونَ
في قِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيْمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي لاَ يعْتَرِيْهِ دَاءٌ وَلاَ يَتَغَيَّرُ أَبَدًا، لَم يَزَلْ وَاحِدًا أَحَدًا، ولَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً ولا وَلَدًا، اخْتَارَ مَنْ شَاءَ فَنَجَّاهُ مِنَ الرَّدَى، وأَنْقَذَ أَهْلَ الكَهْفِ وأَرْشَدَ فَهَدَى، وَأَخْرَجَهُمْ بِقَلَقٍ رَاحَ بِهِمْ وغَدَا، فَاجْتَمَعُوا في الكَهْفِ يَقُولُوْنَ: كَيْفَ حَالُنَا غَدًا؟ وَأَرَاحَهُمْ بِالنَّوْمِ مِنْ تَعْبِ التَّعَبُّدِ مُدَدًا ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: الآيات ١٠ - ١٣].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا عَلَى مَا ارْتَجزَ حَادٍ وَحَدَا، وأُصَلِّي على رَسُولِهِ محمَّدٍ أَشْرَفِ مَتْبُوعٍ وَأَفْضَلِ مُقْتَدَى، وعَلَى صَاحِبِهِ المُتَّخِذِ بِالإِنْفَاقِ عِنْدَ الإِسْلَامِ يَدًا، وعلى عُمَرَ فَمَا جَارَ عِنْدَ وِلايَتِهِ ولاَ اعْتَدَى، وعلى عُثْمَانَ الصَّابِرِ في الشَّهَادَةِ على وَقْعِ المُدَى، وعلى عَلِيٍّ مَحْبُوبِ الأَوْلِيَاءِ وَمُبِيْدِ العَدَدِ والعِدَى، وعلى عَمِّهِ العَبَّاسِ أَشْرَفِ الكُلِّ نَسَبًا وَمُحْتَدَى.

قَالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف: الآية ٩]، كانَ رَقْمٌ كَتَبَ في قُلُوبِهِم الإِيْمَانَ وَأَعْلا كَهْفٍ قُلُوْبُ أَهْلِ الكَهْفِ، وَالكَهْفُ غَارٌ في الجَبَلِ إلاَّ أَنَّهُ وَاسِعٌ فَإِذَا صَغُرَ فَهُوَ غَارٌ،

وفي الرَّقِيْم سِتَّةُ أقْوَالٍ؛ فَلَمَّا نَصبَ مَلِكُهُمْ شَرَكَ الشِّرْكِ بَانَ لَهُمْ خَيْطُ الفَخِّ فَفَرُّوْا، خَرَجُوْا مِنْ ضِيْقِ الحَبْسِ إلى فَضَاءِ القَضَاءِ، فَمَا رَاعَهُمْ في الطَّرِيْقِ إلاَّ رَاعٍ رَافَقَهُمْ فَوَافَقَهُمْ كَلْبُهُ فَأَخَذُوْا في ضَرْبِهِ لكَوْنِهِمْ لَيْسُوْا مِنْ ضَرْبِهِ، فَصَاحَ لِسانُ حَالِهِ لاَ تَطْرُدُوْنِي لِمُبَايَنَتِيْ جِنْسَكُمْ، فَإنَّ مَعْبُوْدِي لَيْسَ مِنْ جِنْسِكُمْ، أَنا فِيْ قَبْضَةِ إِيْثَارِكُمْ أَسِيْرٌ إنْ سِرْتُمْ وَأَحْرِسُ إنْ نِمْتُمْ.

فَلَمَّا دَخَلُوا دَارَ ضِيَافَةِ العُزْلَةِ اضْطَجَعُوْا عَلَى رَاحَةِ الرَّاحَةِ مِنْ أَرْبَابِ الكُفْرِ فَغَلَبَ النَّوْمُ القَوْمَ ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: الآية ٢٥] بِحِرَاسَةِ حُلَّتِهِمْ مِنْ بَلَاءِ بِلًى، وَأَعْيُنُهُمْ مَفْتُوْحَةٌ، لِئَلَّا يَذُوْبَ بِإِطْبَاقِ الأَطْبَاقِ وَيَدُ اللُّطْفِ تُقَلِّبُ أَجْسَادَهُمْ لِتَسْلَمَ مِنْ أَفْنِ العَفْنِ، وَجَرَتِ الحَالُ في كَلْبِهِمْ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف الآيتان: ١١، ١٢]، أي: لِنَعْلَمَ خَلْقَنا. وأَرَادَ بِالحِزْبَيْنِ المُؤْمِنِيْنَ والكَافِرِيْنَ، وكانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَهُمْ تَنَازُعٌ في مُدَّةِ لَبْثِهِمْ.

وَالوَصِيْدُ: الفِنَاءُ وَالبَابُ. قالَ وَهَبٌ: وخَرَجَ المَلِكُ وَأَصْحَابُهُ في طَلَبِهِم فَوَجَدُوْهم نِيَامًا، فَكانَ كُلَّمَا أَرَادَ أنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ أَخَذَهُ الرُّعْبُ.

فَقَالَ قَائِلٌ لِلمَلِكِ: أَلَيْسَ أَنَّكَ أَرَدْتَ قَتلَهُمْ؟ قالَ: بَلَى. فَابْنِ عَلَيْهِمْ بَابَ الكَهْفِ حَتَّى يَمُوْتُوا جُوْعًا وعَطَشًا. فَفَعَلَ فَمَا ضَاعَ حَتَّى ضَاعَ المَلِكُ في بَيْدَاءِ المُلْكِ فَانْسَابَ رَاعٍ إلى سَبَبِهِمْ فَفَتَحَ بَابَ الكَهْفِ لِيُحْرِزَ الغَنَمَ فَهَبَّ الهوى فَهَبَّ الرَّاقِدُ.

قَالَ ابْنُ إسحاقَ: جَلَسُوا فَرِحِيْنَ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ لاَ يَرَوْنَ فِي وُجُوْهِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ مَا يُنْكِرُوْنَهُ إنَّمَا هُوَ كَهَيْئَتِهِمْ حِيْنَ رَقَدُوْا وهُمْ يَرَوْنَ أنَّ مَلِكَهُمْ في طَلَبِهِمْ، وَتَرنَّمَ أَحَدُهُمْ بلَفْظِ ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فَأَجَابَهُ أَحَدُهُمْ ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ [الكهف: الآية ١٩].

ثُمَّ رَأَى بَقِيَّةَ الشَّمْسِ فَاتَّقَى بِالوَرَعِ وَرَطَاتِ الكَذِبِ فعادَ يَتَّبِعُ أَوْبَ ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: الآية ١٩] فَلَمَّا قَفَلُوْا مِنْ سَفَرِ النَّوْمِ إلى دِيَارِ العِبَادَةِ زَادَ

تَقَاضِي الطَّبْعِ بِالزَّادِ فَخَرَجَ رَئِيسُهُمْ فِي ثَوْبٍ مُتَنَكِّرًا مُسْتَخْفِيًا مُتَخَوِّفًا أنْ يَرَاهُ أَحَدٌ فَضَلَّتْ مَعْرِفَتُهُ بِالمَعَاهِدِ فَأَقْبَلَ يَتَّهِمُ اليَقْظَةَ ويَتَوَهَّمُ أَنَّهُ في الحُلْمِ وَمَا أَشْبَه الدُّنْيَا بِالدُّنْيَا، فَمَدَّ إِلَى بَائِعِ الطَّعَامِ بَاعَهُ فما بَاعَهُ فَظَنَّ أَنَّهُ وَجَدَ كَنْزًا، ولَقَدْ وَجَدَ كَنْزًا ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، بَلْ حَصَلَ لَهُمْ بَائِعُ الطَّعَامِ يَتَعَجَّبُ إلى مُلْك ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣] وجَعَلَ بَائِعُ الطَّعَامِ يَتَعَجَّبُ مِنْ نَقْشِ الوَرَقِ ثُمَّ أَلْقَاهُ إلى آخَرَ فَجَعَلُوْا يَتَطارَحُوْنَهُ بَيْنَهُمْ ويَتَشَاوَرُوْنَ فَفَرَّ مِنْهُمْ وَظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوْهُ. فَقَالَ: أَمْسِكُوا طَعَامَكُمْ فَلَا حَاجَةَ لِيْ إِلَيْهِ، فَحَمَلَهُ القَوْمُ إِلَى الوَالِيْ، فقَالَ: إِنَّهُ لَمَالِي.

إخواني، لَيْسَ العَجَبُ مِنْ نَائِمٍ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ مَا مَرَّ مِنْ نَوْمِهِ، إِنَّمَا العَجَبُ مَنْ نَامَ في يَقْظَةِ عُمْرِهِ.

إخواني، خَرَجَ أَهْلُ الكَهْفِ مِنْ بُيُوْتِ الرَّفَاهِيَّةِ، فَجَدُّوْا في قَطْعِ فَلاةِ الجِدِّ فَاسْتَلبَ تُوْقُهُمْ أَزِمَّةَ نُوْقِهِمْ فَأَفْضَاهَا بِالقَوِيِّ في مَهْدِ الرِّفْقِ، فَنامُوْا وقَامَتْ عَزائِمُهُمْ تَتَعَبَّدُ، نِيَّةُ المُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ، مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لله عَوَّضَ الله خَيْرًا مِنْهُ. وينشد:

طَالَ وَالله بِالذُّنُوْبِ اشْتِغَالِي ... وتَمَادَيْتُ في قَبِيْحِ فِعَالِيْ
لَيْتَ شِعْرِيْ إِذَا أَتَيْتُ فَرِيْدًا ... وَالمَوَازِيْنُ قد نُصِبْنَ حَوَالِيْ
وَالدَّوَاوِيْنُ قَدْ نُشِرْنَ جَمِيْعًا ... ثُمَّ لَمْ يُغْنِنِيْ هُنَاكَ مَالِيْ
مَا احْتِيَالِيْ وما أَقُوْلُ لِرَبِّيْ ... في سُؤَالِيْ ومَا يَكُوْنُ مَقَالِيْ

قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «**مُرُوْا بِالمَعْرُوْفِ وإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وإن لم تَنْهَوْا عَنْهُ كُلِّهِ**».

وعظ:

إخواني، يَا هَذَا مَا الَّذِيْ يُجْزِي عَنْكَ وُقُوْفُكَ بِالمِحْرَابِ، وقلبُكَ مِنَ التَّقْوَى خَرَابُ؟ فَيَا مَنْ هَتَكَ سِتْرَ المَحَارِمِ وتَهَاوَنَ تَعْظِيْمَ الجَرَائِمِ. أَمُسْتَيْقِظٌ أَنْتَ أَمْ نَائِمٌ؟ مُصِيْبَتُكَ مُصِيْبَةٌ صعْبَةٌ، تَهَاوَنْتَ بِالذُّنُوْبِ وتَأَخَّرْتَ عَنِ التَّوْبَةِ.

لَوْ عَرَفْتَ أَنَّكَ مُسَافِرٌ عَلَى مَطِيَّةِ اللَّيَالِيْ وَالأَيَّامِ إِلَى حُفْرَةِ مَصَارِعِ الحَرَامِ وَمَضَاجِعِ الوَحْشَةِ وَالآلاَمِ، مَا طَابَ لَكَ الشَّرابُ ولا الطَّعَامُ. وينشد:

تَفَكَّرْتُ في ذُنُوْبِي وَأَسْهَرْتُ مُقْلَتِيْ ... وَهَيَّجْتُ أَحْزَانِيْ وَأَسْبَلْتُ دَمْعِيْ
فَمَنْ لِي إِذَا غُمِضَتْ أَوْ قِيْلَ قَدْ مَضى ... وأَطْفُوْا سِرَاجِيْ وَاسْتَخَفُّوْا بِحُرْمَتِي
ومَنْ لِيْ إذا شُدَّتْ إِلَى الرَّأْسِ لِحْيَتِيْ ... وسُجِّيْتُ في ثَوْبِيْ وعَزَّوْا قَرَابَتِيْ
ونُقِلْتُ مِنْ فُرُشِيْ إلى لَوْحِ مَغْسَلِيْ ... وجُرِّدْتُ أَثْوَابِيْ وَبُدِّلْتُ كِسْوَتِيْ
ومَنْ لي إِذَا أُدْرِجْتُ فِي الدِّرْعِ وَالرِّدَى ... وشُيِّعْتُ مَحْمُولاً فَيَا طُوْلَ غُرْبَتِيْ
وخَلْفِيْ كَرِيْمَاتٌ عَلَيَّ بَوَاكِيَا ... وفِيْهِنَّ أُمِّيْ وَشَقِيْقِي وَعِتْرَتِيْ
يُنادُوْنَ خَلْفَ النَّعْشِ مَنْ لاَ يُجِيْبُهُمْ ... وقَدْ كُنْتُ في الدُّنْيَا سَرِيْعًا إِجَابَتِيْ
وصلَّى عَلَيَّ القَوْمُ صَفًّا فَأَسْرَعُوْا ... بِسَيْرِيْ إِلَى لَحْدِيْ يُوَارُوْنَ سَوْأَتِيْ
وَأُحْدِرْتُ مِنْ نَعْشِيْ إِلَى القَبْرِ صَاغِرًا ... صَرِيْعًا عَلَى خَدِّيْ وقَامَتْ قِيَامَتِيْ
وحَثَّى عَلَيَّ التُّرَبَ مَنْ كُنْتُ آلِفُهُ ... وعَادَ هَوَانِي مِنْ عَظِيْمِ كَرَامَتِيْ
وَسَالَتْ مِنَ الأَجْفَانِ عَيْنَيَّ عَلَى الثَّرَى ... وَمَزَّقَ كَفُّ المَوْتِ جِسْمِيْ وجُثَّتِيْ
وَسَارُوْا إِلَى دَارِيْ يُرِيْدُوْنَ إِرْثَهُمْ ... فَنُوْدِيْتُ بِاسْمِيْ وَاسْتَخَفُّوْا بِكُنْيَتِيْ
وقَدْ هَجَرُوْا قَبْرِيْ فَمَا يَعْرِفُوْنَهُ ... وَقَدْ كُنْتُ في الدُّنْيَا كَثِيْرًا زِيَارَتِيْ
فَيَا رَبِّ بَارِكْ في ضَرِيْحٍ سَكَنْتُهُ ... فَإِنْ لَمْ تُبَارِكْ لِي فَيَا شُؤْمَ صَرْعَتِيْ

وعظ:

يَا هَذَا كَيْفَ جَفَّتْ مِنْكَ المُقَلُ وَالأَجْفَانُ مَعَ قُرْبِ فِرَاقِ الأَحْبَابِ وَالخُلَّانِ؟ أَنْفَقْتَ فِي البطَالَةِ مَا مَضَى مِنْ أَيَّامِكَ، فَأَيْنَ مَا كُنْتَ تَجِدْهُ مِنْ أَيَّامِ شَبَابِكَ؟ أَيْنَ بَهْجَتُكَ بِإِخْوَانِكَ وأَتْرَابِكَ؟ أَيْنَ جُمْلَةُ أَهْلِكَ وأَحْبَابِكَ؟ قَدْ نَظَمَ البَيْنُ جَوْهَرَ شَمْلِهِمْ فِي سِلْكِ الفُرْقَةِ وَالشَّتَاتِ كَمَا نَثَرَ المَوْتُ جَوَاهِرَ أَشْخَاصِهِمْ فِي حُفَرِ اللُّحُوْدِ المُظْلِمَاتِ، فَلَا لأَحْبَابِكَ بَكَيْتَ، وَلاَ عَلَى نَفْسِكَ تَأَلَّمْتَ، فَاسْتَيْقِظْ فَأَيُّ حَسَنَةٍ لَكَ أَبْقَيْتَ. وينشد:

لا عُذْرَ لِيْ قَدْ أَتَى المَشِيْبُ ... فَلَيْتَ شِعْرِي مَتَى أَتُوْبُ

إِذَا انْـقَـضَـى لِـلـشَّـقِـيِّ ذَنْـبٌ تَـجَـدَّدَتْ بَـعْـدَهُ ذُنُـوْبُ
وَمِـنْ وَرَائِـيْ حُـلُـوْلُ قَـبْـرٍ سَـاكِـنُـهُ مُـفْـرَدٌ غَـرِيْـبُ
ولَـسْـتُ أَدْرِيْ إِذَا أَتَـانِـيْ رَسُـوْلُ رَبِّـيْ بِـمَـا أُجِـيْـبُ
هَـلْ أَنَـا عِـنْـدَ الـجَـوَابِ مَـتَـى أُخْـطِـئُ فـي الـقَـوْلِ أَمْ أُصِـيْـبُ
أَمْ أَنَـا عِـنْـدَ الـحِـسَـابِ نَـاجٍ أَمْ لِـيْ فـي نَـارِهِ نَـصِـيْـبُ
وَا أَسَـفَـى لَـو سَـفَـحْـتُ دَمْـعِـيْ وَالـنَّـوْحُ فـي مِـثْـلِ ذَا يَـطِـيْـبُ
يَـا رَبِّ جُـدْ لِـيْ فـي رَجَـاءٍ بِـمِـثْـلِـهِ مِـنْـكَ لاَ أَخِـيْـبُ

رَجَعْنَا إِلى القِصَّةِ، قِيْلَ لِمْلِيْخَا: أَيْنَ الكَنْزُ الَّذِيْ وَجَدْتَ؟ قَالَ: مَا وَجَدْتُ كَنْزًا، ولكِنْ هَذِهِ وَرِقُ آبَائِيْ ونَقْشُ هَذِهِ المَدِيْنَةِ وَضَرْبُهَا ولَكِنْ وَاللهِ مَا أَدْرِيْ مَا شَأْنِيْ وَلاَ مَا أَقُوْلُ لَكُمْ، وَكانَ الوَرِقُ مِثْلَ أَخْفَافِ الإِبِلِ، قال: وَإِنَّمَا كُنَّا فِتْيَةً أُكْرِهْنَا على فِتْنَةٍ فَخَرَجْنَا عَشِيَّةَ أَمْسِ فَنِمْنَا في بَاطِنِ كَهْفٍ.

فَلَمَّا انْتَبَهْنَا خَرَجْتُ لأَبْتَاعِ قُوْتٍ فَصَارَ القَوْمُ مَعَهُ فِي عَسْكَرٍ يَتَعَجَّبُ، وكانَ أَصْحَابُهُ قَدْ ظَنُّوا لإِبْطَائِهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ أُخِذَ، إِذْ سَمِعُوا الأَصْوَاتَ وجَلَبَةَ الخَيْلِ، فَظَنُّوْا أَنَّهُم رُسُلُ دُقْيَانُوْسَ فَقَامُوْا إِلى الصَّلاَةِ، وَسَلَّمَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَسَبَقَ يَمْلِيْخَا إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَبْكِيْ فَبَكُوْا مَعَهُ وسَأَلُوْهُ عَنْ شَأْنِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُ فَعَرَفُوْا أَنَّهُمْ كَانُوْا نِيَامًا بِأَمْرِ اللهِ، وَإِنَّمَا أُوْقِظُوْا لِيَكُوْنُوْا آيَةً لِلنَّاسِ وتَصْدِيْقًا لِلْبَعْثِ، وجَاءَ مَلِكُهُمْ فَاعْتَنَقَهُمْ وبَكَى.

فَقَالُوْا نَسْتَوْدِعُكَ اللهَ. فَبَيْنَا المَلِكُ قَائِمٌ، رَجَعُوْا إِلى مَضَاجِعِهِمْ، وَتَوَفَّى اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ، وحَجَبَهُمْ بِحِجَابِ الرُّعْبِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ المَلِكُ فَجَعَلَ عَلَى بَابِ الكَهْفِ مَسْجِدًا يُصَلَّى فِيْهِ، وَصَارَ عِيْدُهُم عِنْدَ كُلِّ سَنَةٍ، وقَدْ نَبَّهَتْ قِصَّتُهُم عَلَى أَنَّ مَنْ فَرَّ إِلَى اللهِ حَرَسَهُ وَلَطَفَ بِهِ، وجَعَلَهُ سَبَبًا لِهِدَايَةِ الصَّالِحِيْنَ. شعر:

إِذَا اشْتَغَلَ اللَّاهُوْنَ عَنْكَ بِشُغْلِهِمْ جَعَلْتُ اشْتِغَالِيْ فِيْكَ يَا مُنْيَتِيْ شُغْلِيْ
مَنْ لِي بِأَنْ أَلْقَاكَ في سَاعَةِ الرِّضَا ومَـنْ لِـيْ بِـأَنْ أَلْـقَـاكَ وَالـكُـلُّ مَـوْلِـيْ

وعظ:

لَقَدْ رَبِحَ القَوْمُ وَأَنْتَ نَائِمٌ، وَخِبْتَ وَرَجَعُوْا بِالغَنَائِمِ وأنت بِاللَّيْلِ نَائِمٌ، وَبِالنَّهَارِ هَائِمٌ، وغايَةُ مَا تَشْتَهِي مُشَارَكَةُ البَهَائِمِ، نَظَرُوْا فِي عَوَاقِبِ الأُمُوْرِ، فَقَبَرُوْا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ القُبُوْرِ، يَا هَذَا لاَ تَكُنْ لأَحَدٍ غَيْر الله عَبْدًا مَا وَجَدْتَ مِنَ العُبُوْدِيَّةِ بُدًّا. وينشد:

جِئْتُ مُسْتَخْفِيًا وَقَدْ عَرَفُوْنِيْ ... وَأَنَا تَائِبٌ تَرَى يَقْبَلُوْنِيْ
أَنَا بِالْبَابِ وَاقِفٌ لِيْ دَهْرًا ... كُلَّمَا رُمْتُ وَصْلَهُمْ طَرَدُوْنِيْ
أَبْعَدُوْنِيْ وَقَرَّبُوا الغَيْرَ دُوْنِيْ ... وَرَأَوْنِيْ مُقَصِّرًا تَرَكُوْنِيْ
مَا أَنَا أَهْلُ وَصْلِكُمْ لاَ وَلَكِنْ ... أَنْتُمْ بِالوِصَالِ أَطْعَمْتُمُوْنِيْ

يَا غَائِبَ القَلْبِ في صَلَاتِهِ، يَا مُشَتَّتَ الهِمَمِ في جِهَاتِهِ، يَا مَشْغُولاً بِآفَاتِهِ عَنْ ذِكْرِ وَفَاتِهِ، يَا قَلِيْلَ الزَّادِ مَعَ قُرْبِ مَمَاتِهِ، يَا مَنْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ طُوْلَ حَيَاتِهِ، يَا مَنْ يَرْحَلُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ عَنِ الدُّنْيَا مَرْحَلَةً وَكِتابُهُ قَدْ حَوَى حَتَّى مِقْدَار خَرْدَلَةٍ، وَمَا يَنْتَفِعُ بِالنَّذِيْرِ وَالنَّذْرُ مُتَّصِلَةٌ، ونُوْرُ الهُدَى قَدْ بَدَا وَمَا رَآهُ وَمَا تَأَمَّلَهُ، وهُوَ يَأْمَلُ البَقَاءَ وَقَدْ رَأَى مَصِيْرَ مَنْ أَمَلَهُ، وأَجَلُهُ قَدْ دَنَى وَلَكِنْ أَمَلُهُ قَدْ شَغَلَهُ، وقَدِ انْعَكَفَ عَلَى العَيْبِ بَعْدَ الشَّيْبِ بِصَبَابَةٍ وَوَلَهٍ، ويُحْضِرُ بَدَنَهُ في صَلَاتِهِ، وَأَمَّا القَلْبُ فَقَدْ أَهْمَلَهُ، وكُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَبَيْنَ يَدَيْكَ الحِسَابُ وَالزَّلْزَلَةُ، بَادِرْ مَا بَقِيَ مِنَ العُمُرِ وَاسْتَدْرِكْ أَوَّلَهُ فَبَاقِي عُمْر المُؤْمِنِ لاَ قِيْمَةَ لَهُ.

السَّجع:

إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ، ظَنَّ قَارُوْنُ أَنَّهَا مَنَحَتْهُ، وَنَمْرُوْدُ أَنَّها قَدْ صَالَحَتْهُ، وبَلْعَامُ أَنَّهَا قَدْ بَايَعَتْهُ، وكُلُّهُمْ قَدْ ذَبَحَتْهُ وَكَسَرَتْ سَكِيْنَتَهُ، ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾، أُمِرُوْا بِالطَّاعَةِ فَعَمِلُوْا بِأَعْمَالِ الفُجَّارِ، وقُرِّبُوْا مِنَ الجَنَّةِ، فَهَرَبُوْا إلى النَّارِ.

أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الجَبَّارِ حِيْنَ قَسَمَ وَاخْتَارَ، هَؤُلاَءِ لِلجَنَّةِ وَهَؤُلاَءِ لِلنَّارِ، أَيُّ غَبِيْئَةٍ ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: الآية ٢٠].

اللَّهُمَّ لاَ تَفْضَحْنَا إِذَا جَمَعْتَنَا، اللَّهُمَّ ومَعَ الفَائِزِيْنَ المُؤْمِنِيْنَ فَأَدْخِلْنَا، اللَّهُمَّ عَمِّرْ بِالحُزْنِ عَلَى الآخِرَةِ خَرَابَ قُلُوْبِنَا، وَطَهِّرْ بِالعَفْوِ جَوَارِحَنَا مَنْ دَنَسِ زَلاَّتِنَا وَذُنُوْبِنَا، اللَّهُمَّ زَيِّنْ أَقْوَالَنَا بِبَهْجَةِ الصَّالِحِيْنَ، وَتَوِّجْنَا بِبُرْهَانِيَّةِ الخَائِفِيْنَ، وَاجْعَلْنَا في كَلَامِنَا هذا مِنَ المُحَقِّقِيْنَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ، وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّيْنَ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ، وسَلَّم تَسْلِيْمًا كَثِيْرًا كَثِيْرًا.

المَجْلِسُ الثَّامِنُ والعِشْرُوْنَ
فِي أَمْرِهِ ﷺ وَفَضْلِهِ
ورَضَاعِهِ وهِجْرَتِهِ ومَوْلِدِهِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وسلَّم تَسْلِيمًا

الحَمْدُ لله قَاهِرِ المُتَجَبِّرِ وَمُذِلِّهِ، وَرَافِعِ المُتَوَاضِعِ وَمُجِلِّهِ، رَفَعَ مَنْ شَاءَ بِإِعْزَازِهِ كَمَا حَطَّ مَنْ شَاءَ بِذُلِّهِ، وَاخْتَارَ مُحَمَّدًا مِنَ الخَلْقِ، فَكَانَ الخَلْقُ خُلِقُوْا مِنْ أَجْلِهِ، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى أَجَلِّ الإِنْعَامِ وَأَقَلِّهِ، وأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ شَهَادَةَ مُصَدِّقٍ قَوْلَهُ بِفِعْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ أَرْسَلَهُ لِنَقْضِ الكُفْرِ وَحِلِّهِ، فَقَامَ مُعْجِزَتُهُ تُنَادِيْ ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣] ﷺ.

وعلى صَاحِبِهِ وَاصِلِ حَبْلِهِ، وَعَلَى عُمَرَ الَّذِي كَانَ يَفِرُّ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ، وعَلَى عُثْمَانَ مُجَهِّزِ جَيْشِ العُسْرَةِ وَعَاقِدِ شَمْلِهِ، وعَلَى أَخِيْهِ وَابْنِ عَمِّهِ ومُقَدَّمِ أَهْلِهِ، وعَلَى عَمِّهِ صِنْوِ أَبِيْهِ وَأَصْلِهِ[1].

اللَّهُمَّ يَا مَنْ جَمِيْعُ الخَلَائِقِ مُفْتَقِرُوْنَ إلى فَضْلِهِ، يَا مُنْعِمًا بِالجَزِيْلِ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، سَامِحْ كُلًّا مِنَّا في جِدِّهِ وهَزْلِهِ، وَارْزُقْنَا أَقْدَامَ شُجَاعٍ وإلى العَدُوِّ وَجْهُهُ وَلَمْ يُوَلِّهِ، وَارْحَمْنَا يَوْمَ يَذْهَلُ كُلُّ خَلِيْلٍ عَنْ خِلِّهِ، وَانْفَعْنِيْ وَالحَاضِرِيْنَ بِمَا اجْتَمَعْنَا لأَجْلِهِ، خَلَقَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ أَرْضَى الأَرْضِ

(١) في نسخة وأهله.

أَرْضًا، وَأَصْفَى أَصْفَى الأَوْصَافِ وَصْفًا، وطَهَّرَ آبَاءَهُ مِنْ زلل الزِّنَا إلى أنْ صَدَقَتْ بِتِلْكَ الذُّرَّةِ صَدَفَةُ آمِنَةَ.

قَالَ عُلَمَاءُ السِّيَرِ: لَمَّا حَمَلَتْ بِهِ آمِنَةُ قَالَتْ: مَا وَجَدْتُ بِهِ ثِقْلًا، ولا وَجَعًا وكانَتْ وِلاَدَتُهُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ رَبِيْعِ الأَوَّلِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: لِعَشْرٍ خَلَوْنَ مِنْهُ. وتُوُفِّيَ أَبُوْهُ عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ حَمْلٌ، فَخَلَّفَ لَهُ خَمْسَةَ أَجْمَالٍ وَقِطْعَة غَنَم، وأُمُّ أَيْمَنَ، فَكَانَتْ تَحْضِنُهُ فَوَثَبَتْ لِرَضَاعِهِ ثُوَيْبَةُ مولاة أبي لهب أَيَّامًا، ثُمَّ قَضَتْ بَاقِي الدَّيْنِ حُلَيْمَةُ فَقَامَ بَنَاتُهُ مُسْتَخْفِيًا عَلَى سُوْقِهِ، مُسْتَعْجِلًا قِيَامَ سُوْقِهِ، فَنَشَأَ في حُكْمِ هَجَرِ الكَلَام كَمَا قَدِمَتْ حُلَيْمَةُ وَالجَذْبُ عَامِرٌ في العَام فَأَعْرَضْنَ المُرْضِعَات فَأَعْرَضَ اليَتِيْمُ ومَا كُلُّ مَا ضَرَّ في يَعْرِفُ يَتِيْمَةَ الدَّهْرِ إلى أَنْ رَاحَتْ حَلِيْمَةُ إلى حِلَّتِهَا فَثَابَ لَبَنُهَا وَلَبَنُ رَاحِلَتِهَا فَبَاتُوا بِبَرَكَةِ رُؤْيَاهُ رِوَاءً، وهَبَّ عَلَى مَبَارِكِهِمْ نَسِيْمُ نَسَمَةٍ مُبَارَكَةٍ، وكانَ الرِّعَاءُ تَسْرَحُ فَيَعْقِرُهَا سَرْحَانُ الجَذْبِ وَرَاعِيَ حَلِيْمَة لِلْحِفْظِ وَالرَّعْي يُعِيْدُ الغَنَمَ بِالغُنْمِ.

فَبَيْنَمَا الصَّبِيُّ مَعَ الصِّبْيَانِ هَبَّتْ صَبَا الخَيْرِ لِجَبْرَئِيْلَ فَجَاءَهُ فُجْأَةً فَشَقَّ عَنِ القَلْبِ، ثُمَّ شَقَّهُ وَمَا شَقَّ عَلَيْهِ فَعَلِقَ بِيَدِهِ مِنْ بَاطِنِهِ بَاطِنة عُلْقَة، وقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ، وقد قَطَعْنَا عُلْقَةً ثُمَّ أَعَادَ قَلْبَهُ بَعْدَ أَنْ قَلَبَهُ وَمَا بِهِ قَلَبَة فَبَقِيَ أَثَرُ المَخِيْطِ في صَدْرِهِ بَاقِي عُمْرِهِ بِإِظْهَارِ سُورَةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشّرح: الآية ١].

فَلَمَّا بَلَغَ سِتَّ سِنِيْنَ أَلْوَى المَوْتُ بِالوَالِدَةِ، فَجَدَّ في كَفالَتِهِ الجَدُّ عَامَيْنِ، ثُمَّ طَلَبَ المَوْتُ عَبْدَ المُطَّلِبِ فَمَا أَتَى الطَّالِبُ وَمَا اشْتَغَلَ بِأَوْصَابِهِ، حَتَّى أَوصَى بِهِ أَبَا طَالِبٍ، فَخَرَجَ وَقَدْ رَآهُ أَنَّهُ كَالتَّاج تَاجِرًا، فَتَيَمَّمَ بِاليَتِيْم مَنْزِلَ تَيْمَاءَ فَرَآهُ بُحَيْرَاءَ بِتَجْرِبَةٍ قَفْرًا سِمَاتَ النُّبُوَّةِ مِنْ شَمَائِلِ يَعْرِفُوْنَهُ فَشَامَ بَرْقُ فَضْلِهِ فَلَاحَ مِنْ شِيْمَتِهِ شَامَتُهُ، فقال لِعَمِّهِ. احْفَظْ هَذِهِ الشَّامَةَ مِنْ شَامَةٍ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «**خَرَجْتُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ مِنْ نِكَاحٍ لاَ مِنْ سِفَاحٍ**». فَسُبْحَانَ مَنْ فَضَّ لَهُ مِنَ الفَضَائِلِ مَا فَضَّلَهُ وكَسَاهُ مِنْ حُلَلِ الفَخْرِ الجَمِّ مَا جَمَّلَهُ، جَمَعَ اللهُ تعالى بَيْنَنَا وبَيْنَهُ في جَنَّتِهِ، وأَحْيَانَا على كِتابِهِ وسُنَّتِهِ. آمِيْنَ.

وعظ:

يَا عِبَادَ الله أُذْكُرُوْا العَهْدَ الأَوَّلَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٠]، مَا تَفْسِيْرُ العَهْدِ إلاَّ أَنْ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: الآية ٤٠] مَا تَمَامُ العَهْدِ إلاَّ العَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغَابُن: الآية ١٦].

إخواني، الشَّابُّ التَّائِبُ كَمُسِيْلِ المَاءِ في طَرِيْقِ الحِجَازِ، وَالشَّيْخُ التَّائِبُ كَسَاقِي المَاءِ على الدِّجْلَةِ.

إخواني، الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ يُمِيْتُ القَلْبَ، ورُبَّمَا هَجَمَتِ العُقُوْبَةُ قَبْلَ الإِنَابَةِ. وينشد:

أَهْلُ الغَرَامِ تَجَمَّعُوا اليَوْمَ يَوْمَ عِتَابِنَا ... قُوْمُوا بِنَا بِحَيَاتِكُمْ نَمْشِيْ إلى أَحْبَابِنَا
نَعَقَ الغُرَابُ بَيْنَنَا فَغُرابُنَا أَغْرَابِنَا ... إنَّ الَّذِيْنَ نُحِبُّهُمْ قَدْ وُكِّلُوْا بِعَذَابِنَا

يَا قُلُوْبَ التَّائِبِيْنَ اذْهَبِيْ، يَا نُفُوْسَ المُذْنِبِيْنَ ارْهَبِيْ، يَا أَفْئِدَةَ المُشْتَاقِيْنَ أُطْرُبِيْ، يَا خَيْلَ الله ارْكَبِي، مَنْ مَشَى إليَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ، دَعَوْنَاكَ بِالوَسَائِطِ فَلَم تَأْتِ فَأَتَى المُرْسِلُ يَنْزِلُ إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا، النُّطْقُ مُتَشَابِهٌ وَالذَّوْقُ مُحْكَمٌ، كَأَنِّي أَرَى الخِلَعَ قد خُلِعَتْ عَلَى المَقْبُوْلِيْنَ، كَأَنِّي أَرَى المَلائِكَةَ تُصافِحُ التَّائِبِيْنَ فَتَعَالَوْا نَبْكِ عَلَى المَطْرُوْدِيْنَ. وينشد:

يَا مُوْحِشَ نَاظِرِيْ وَقَلْبِيْ مَأْوَاهُ ... أَشْكُوْ إِلَيْكَ آه مِنْ هَجْرِكَ آه
إنْ كَانَ فِي بِشْرِكَ المُوْدَعُ فَاهَ ... فَاجْعَلْ حُرْقَ الغَرَامِ وَالصَّدَّ جزاهُ

وعظ:

يَا هَذَا كُلَّمَا تَفْرَحُ بِهِ في الدُّنْيَا لا بُدَّ مِنْ حُزْنٍ يَزِيْدُ على فَرَحِهِ، إمَّا أَنْ تَذْهَبَ عَنْهُ، وَإِمَّا أَنْ يَذْهَبَ عَنْكَ، وأَكْثَرَ مَا يَضُرُّكَ مَا تُحِبُّ، وَيْحَكَ مَتَى تَسْتَوْحِشُ مِنْ مُعَاشَرَةِ الخَلْقِ، مَتَى تَسْتَأْنِسُ مُنَاجَاةِ الحَقِّ.

إخواني، لَمَّا أَخْطَأَ أَبُوْكُمْ آدَمُ بِتِلْكَ اللُّقْمَةِ بَدَتْ لَهُ سَوْأَتُهُ فَانْطَلَقَ هَارِبًا،

فَأَوْحَى الله تعالى إليهِ يا آدم أَفِرَارًا مِنِّيْ؟ قَالَ: لاَ، ولكِنْ حَيَاءً مِمَّا جَنَيْتُ به.

فَنَزَعَ جَبرئيلُ التَّاجَ عَنْ رَأْسِهِ وَحَلَّ مِيْكَائِيْلُ الإِكْلِيْلَ عَنْ جَبِيْنِهِ، فَلَمَّا أُهْبِطَ بَكَى ثلاثمائة عَامٍ حَتَّى سَالَتِ الأَوْدِيَةُ مِنْ دُمُوعِهِ، فَأَوْحَى الله تعالى إليهِ مَا هَذِهِ البَلِيَّةُ الَّتِي قَدْ أَحَاطَتْ بِكَ؟ قال: إِلَـهِي عَظُمَتْ مُصِيْبَتِيْ، وأَحَاطَتْ بِيْ خَطِيْئَتِيْ فَكَيْفَ لا أَبْكِي. شعر:

تَـذَكَّـرْتُ أَيَّـامًـا مَـضَـتْ وَلَـيَـالِـيَـا ... جَـرَتْ وَجَـرَتْ مِـنْ ذِكْـرِهِـنَّ دُمُـوْعُ
أَلاَ هَـلْ لَـهَـا يَوْمًا مِنَ الـدَّهْـرِ أَوْبَـةٌ ... وَهَـلْ لِيْ إِلَى أَرْضِ الـحَـبِيْـبِ رُجُوْعُ
وهَـلْ بَـعْـدَ إِعْـرَاضِ الـحَـبِـيْـبِ تَوَاصُلٌ ... وهَـلْ لِـبُـدُوْرٍ قَـدْ أَفَـلْـنَ طُـلُـوْعُ

صفة رسول الله ﷺ:

كَانَ رَبْعًا لَيْسَ بِالطِّوَلِ[1] ولا بِالقِصَرِ[2]، أَزْهَرَ اللَّوْنِ، رَجْلَ الشَّعْرِ، أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ، أَجْوَدَ ذَا مَشْرَبَةٍ، تَزَوَّجَتْهُ خَدِيْجَةُ وله خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً، جَاءَتْ مِنْهُ بِزَيْنَبَ ورُقَيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ وَفَاطِمَةَ وَالقَاسِمِ وَالطَّاهِرِ وَالطَّيِّبِ. وقيل: ولدت له عبد الله فلقِّب بالطاهر والطيب.

وَوَلَدَتْ لَهُ مَارِيةُ إِبْرَاهِيْمَ، ومَا زَالَ نَشْرُهُ يَصُوْعُ ولاَ يَضْرَعُ، والصِّدْقُ صَدِيْقُهُ، وَالحَيَاءُ رَفِيْقُهُ، وَالعَفَافُ حَدِيْثُهُ، وَالتَّقْوَى دِيْنُهُ، وَالمَحَبَّةُ زَادُهُ، وَالمُرَاقَبَةُ مُرَادُهُ إلى أَنْ تَمَحَّضَتْ حَوامِلُ النُّبُوَّةِ في إبان التَّمَامِ.

فَآثَرَ الخُلُقُ طَلاَقَ الخَلْقِ فَتَحَرَّى غَارَ حِرَاءَ لِلْفَرَاغِ، فَرَاغَ إِلَيْهِ المَلَكُ فَأَغَارَ خَيْلَ الوِصَالِ في ذَلِكَ الغَارِ فَأَفَاضَ عَلَيْهِ حُلَّةَ ﴿اقْرَأْ﴾ [الإسراء: الآية ١٤] فَأَفَاضَ إلى حُلَّةِ «زملوني» فَسَكَّنَتْ خَدِيْجَةُ غُلَّتَهُ بِغِلَّةٍ عِلَّةَ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ إلى وَرَقَةَ فَقَرَأَ مِنْ وَرَقَة سِيْمَاهُ نَقْشَ فَضْلِهِ فَتَيَقَّظَ لِفَهْمِ أَمْرِهِ إِذْ نَامُوْا فَقالَ، هَذَا النَّامُوْسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، ولقَدْ عَرَفَهُ الأَحْبَارُ في الكَنَائِسِ والرُّهْبَانُ في الصَّوامِعِ، وَأَنْذَرَ بِهِ الرَّبِيُّ، وأَخْبَرَ بِهِ التَّابِعُ، وَكَانَتْ تُسَلِّمُ عليهِ قبل النُّبُوَّةِ الأَحْجَارُ وتُبَشِّرُهُ بِمَا أَوْلاَهُ الأَشْجَارُ، وكَانَ خَاتِمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وسَرايَا الرُّعْبِ

---

(١) وفي نسخة بالطويل.

(٢) وفي نسخة بالقصير.

تَتْرُكُ معه كالكسرة بن يديه، أُلْبِسَ إِهَابَ الميتِ، وتُوِّجَ تَاجَ السِّيَادَةِ وضُمِخَ بِأَذْكَى خَلُوْقٍ أذْكَى الأَخْلَاقِ، وأُحِلَّ دَارَ المَدارَاةِ، وَأُجْلِسَ عَلَى صَفْحَةِ الصَّفْحِ، ولُقِّمَ لُقَمَ لُقْمَانِ الحِكْمَةِ، وَوُضِعَتْ لَهُ أَكْوَابُ التَّوَاضُعِ، وَأُدِيْرَتْ عليه كُؤُوسُ الكَيْسِ مُتَضَمِّنَةً حَلَاوَةَ الحِلْمِ خِتَامُهَا مِسْكُ النُّسُكِ، وأُعْطِيَ لِقَطْعِ مَفَازَةِ الدُّنْيَا جَوَادَ الجُوْدِ وَتؤوّلَ قَلَمَ العِزِّ فَوَقَعَ البعث عَلَى صَحَائِفِ الكَدِّ «**كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

بُعِثَ ﷺ لأَرْبَعِيْنَ سَنَةً فَنَزَلَ عليهِ المَلَكُ بِحِرَاءَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ لِسَبْعِ عَشرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِن رَمَضَانَ.

وكانَ إِذَا أُنْزِلَ عليه المَلَكُ كَرَبَ له وتَرَبَّدَ وَجْهُهُ، وَعَرِقَ جبينه وَرُمِيَتِ الشَّيَاطِيْنُ بَعْدَ عِشْرِيْنَ يَوْمًا مِنْ مَبْعَثِهِ، وبَقِيَ ثَلاثَ سِنِيْنَ يَسْتَتِرُ بِالنُّبُوَّةِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: الآية ٩٤] فَأَعْلَنَ الدُّعَاءَ، ثُمَّ أُسْرِيَ بِهِ في سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشرَةَ مِنَ النُّبُوَّةِ، وغَزَا سَبْعًا وَعِشْرِيْنَ غَزْوَةً.

وكان عليه السَّلامُ يعُوْدُ المَرْضَى، وَيُجِيْبُ دَعْوَةَ المَمَالِيْكِ، ويَجْلِسُ عَلَى الأَرْضِ، ويَلْبِسُ الخَشِنَ، ويَأْكُلُ الشَّبعَ، ويَبِيْتُ اللَّيَالِيَ طَاوِيًا يَتَقَلَّبُ في قَفْرِ الفَقْرِ، وَلِسَانُ الحَالِ يُنَادِيْهِ يَا مُحَمَّدُ: نَحْنُ نَظُنُّ بِكَ عَنِ الدُّنْيَا لاَ بِهَا عَنْكَ.

ولَقَدْ شَارَكَ الأَنْبِيَاءَ في فَضَائِلِهِمْ وزَادَ عَلَى كُلِّ الأَنْبِيَاءِ. ذَهَبَتْ مُعْجِزَاتُهُمْ بِمَوْتِهِمْ وَمُعْجِزَتُهُ الكُبْرَى قَائِمَةً عَلَى منَارِ ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] تُنَادِيْ ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣].

ولَقَدْ أَعْرَبَ عَنْ تَقَدُّمِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَهُ آدَمُ وَمَنْ دُوْنَهُ تَحتَ لِوَائِيْ لو كَانَ مُوْسَى وَعِيْسَى حَيَّيْنِ مَا وَسِعَهُمَا إِلاَّ اتِّبَاعِيْ، فَإِذَا نَزَلَ عِيْسَى صَلَّى مَأْمُوْمًا؛ لِئَلَّا يُدَنَّسَ بِغُبَارِ الشُّبْهَةِ وَجْهَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِيْ، أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوْجًا إِذَا بُعِثُوْا، وَخَطِيْبُ الخَلَائِقِ إِذَا وَفَدُوْا، وَمُبَشِّرَ القَوْمِ إِذَا يَئِسُوْا، والأَنْبِيَاءُ قَدْ سَكَتُوْا لِنُطْقِهِ، وَالأَمْلاَكُ قَدِ اعْتَرَفُوْا بِحَقِّهِ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ تَحتَ أَمْرِهِ، والخُزَّانُ دَاخِلُوْنَ في دَائِرَةِ حُكْمِهِ، وكَلَامُ غَيْرِهِ قَبْلَ قَوْلِهِ لاَ يَنْفَعُ، وَلاَ شَفَاعَةَ لأَحَدٍ حَتَّى يَشْفَعَ، وجَوَابُ الحَبِيْبِ لَهُ

قُلْ مَا تَسْمَعُ، مَا ضَرَّهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا فَاتَ، وهُوَ سَيِّدُ الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ. وينشد:

الـمَـوْتُ لاَ وَالِـدَ أَبْـقَـى وَلا وَلَـدَا ... هُـوَ الـسَّـبِـيْـلُ إِلـى أَنْ لا تَـرَى أَحَـدًا
لِلْمَوْتِ فِيْنَا سِهَامٌ غَيْرَ مُخْطِئَةٍ ... مَنْ فَاتَهُ اليَوْمَ سَهْمٌ لَمْ يَفُتْهُ غَدًا
مَـاتَ الـنَّـبِـيُّ لَـمْ يُـخَـلَّـدْ لأُمَّـتِـهِ ... لَـوْ خَـلَّـدَ الله عَـبْـدًا قَـبْـلَـهُ خَـلَـدَا

أَعْقَلُ النَّاسِ مُحْسِنٌ خَائِفٌ، وأَحْمَقُ النَّاسِ مُسِيْءٌ آمِنٌ. قَالَ أَبُو طَارِقٍ: شَهِدْتُ ثَلَاثِيْنَ رَجُلًا مَاتُوْا في مَجْلِسِ الذِّكْرِ يَمْشُوْنَ بِأَرْجُلِهِمْ صِحَاحًا إلى المَجْلِسِ وَأَجْوَافُهُمْ والله فَرِحَةٌ، فَإِذَا سَمِعُوا المَوْعِظَةَ انْصَدَعَتْ قُلُوبُهُمْ فماتُوْا.

حكاية:

قَرَأَ في مَجْلِسِ الشِّبْلِيْ قَارِئٌ فَزَعَقَ رَجُلٌ فَقَالَ له الشِّبْلِيُّ: الله. فَزَعَقَ الثَانِيَةَ، فقال لَهُ الشِّبْلِي: الله. فَزَعَقَ ثَالِثَةً ورَابِعَةً وَمَاتَ. فَجَاءَهُ وَالِدُهُ فَادَّعَى عَلَيْهِ أَنَّهُ قَتَلَهُ، فَرَفَعَ إلى الخَلِيْفَةِ فَسُئِلَ الشِّبْلِيُّ عَنْ ذَلِكَ، فَقالَ رُوْحٌ حَنَّتْ فَرَنَّتْ فَسَمِعَتْ فَعَلِمَتْ فَصَاحَتْ فَدُعِيَتْ فَأَجَابَتْ، فَمَا ذَنْبِيْ أَنا؟ فَقَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ: لاَ ذَنْبَ لَهُ خَلُّوْا سَبِيْلَهُ. شعر:

خَلِيلَيَّ هَلْ بِالشَّامِ عَيْنٌ حَزِيْنَةٌ ... تَبْكِي عَلى نَجْدٍ فَإِنِّيْ أُعِيْنُهَا
قَدْ أَسْلَمَهَا الوَاشُوْنَ إلاَّ حَمَامَةً ... مُطَوَّقَةً وَرْقَاءَ فَاتَ قَرِيْنُهَا

ذَكَرَتْ نُفُوْسُ القَوْمِ العَذَابَ، فَأَنَّتْ وَتَفَكَّرَتْ في شِدَّةِ العَذَابِ، فَرَنَّتْ وتَذَكَّرَتْ مَا جَنَتْ فَحَنَّتْ أَزْعَجَهَا الحَذَرُ، ولَوْلا الرَّجَاءُ مَا اطْمَأَنَّتْ، آهٍ لِنَفْسٍ قَدْ ظَنَّتْ بِمَا بَدَّلُوْهُ، ثُم رَجَتْ مَا نَالُوْهُ بِئْسَ مَا ظَنَّتْ، مَا نَفْسٌ سَابِقَةٌ كَنَفْسٍ تَأَنَّتْ. وينشد:

مَا يَقْرَأُ وَأَنَّى يَقْرَأُ وَاشٍ كِتْمَانِي ... لَوْ أَنَّ دَمْعِيْ لَمْ يَنْطِقْ بِتِبْيَانِيْ
مَاءً وَلَكِنَّهُ ذَوْبُ الهُمُوْمِ وَهَلْ مَا ... تُولِّدُهُ نِيْرَانُ أَحْزَانِيْ
لَيْتَ النَّوَى إذْ سَقَتْنِيْ سُمَّ أَسْوَدِهَا ... سُدَّتْ سَبِيْلُ أَمْرِيْ في الحُبِّ تَلْجَافِيْ
قَدْ قُلْتُ بِالجَزَعِ لَمَّا أَنْكَرُوْا جَزَعِيْ ... مَا أَبْعَدَ الصَّبْرَ مِمَّنْ شَوْقُهُ دَانِيْ
عَجَّ لِيْ عَلَى الرَّبْعِ يُسْتَسْقَى لَهُ مَطَرًا ... فَفَاضَ دَمْعِيْ فَأَرْوَاهُ أَظْمَانِيْ

لاَ تُطِيْعَنَّ البَطَّالَ في مَنازِلِ الأَبْطَالِ، إنَّ مَنَازِلَ الرَّاحَةِ لا تُنالُ بِالرَّاحَةِ، مَنْ زَرَعَ حَصَدَ، ومَنْ جَدَّ وَجَدَ، أيُّ مَطْلُوْبٍ نِيْلَ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، وَأَيُّ مَرْغُوْبٍ لَمْ يَبْعُدْ عَلَى طَالِبِهِ الشُّقَّةَ، المُلْكُ لاَ يَحْصُلُ إلاَّ بِالتَّعْبِ، وَالعِلْمُ لا يُتْرَكُ إلاَّ بِالطَّلَبِ، واسْمُ الجَوادِ لا يَنالُهُ البَخِيْلُ، ولَقَبُ شُجَاعٍ بَعْدَ نَصَبٍ طَوِيْلٍ، يَا أَرْبَابَ القُلُوْبِ القَاسِيَةِ لا تَيْأَسُوْا مِنْ رَوْحِ الله، يَا أَهْلَ الخَوْفِ مِنْ عَوَاقِبِ الذُّنُوْبِ طَيِّبُوْا قُلُوْبَكُمْ ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]. قُلُوْبُكُمْ عَلَى أَصْلِ الطَّهَارَةِ وَإِنَّمَا نَشَأَتْ بَيْنَ أَنْجَاسِ المَعَانِيْ، فَكُلَّمَا لَطُفَ الفَهْمُ زَادَ الحَظُّ مِنَ الخَيْرِ. وينشد:

مَا رَأَيْنَا قَطُّ الفَضَائِلَ إلاَّ فِيْ ... خِفَافِ الرِّجَالِ لاَ فِي الثِّقَالِ
يُنْظَمُ الدُّرُّ في السُّلُوْكِ وَتَأْبَى ... عِزَّةُ الدُّرِّ نَظْمَهُ في الحِبَالِ

وعظ:

أَسْبَابُ حِرْصِكَ عَلَى الدُّنْيَا قَوِيَّةٌ، وَالهِمَّةُ خَسِيْسَةٌ لَيْسَتْ بِعَلِيَّةٍ، قَدْ ضَاعَ مَا مَضَى فَاسْتَدْرِكِ البَقِيَّةَ، إنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ عَمَلُكَ فَلْيَكُنْ لَكَ نِيَّةٌ، فَغُرُوْرُنَا بِأَحَادِيْثِ المُنَا ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥] يا مَن جَنَى الحُطَامَ وَلَمْ يَدْرِ مَا جَنَى، كُلُّ مَا جَنَيْتَ مَكْتُوْبٌ عِنْدَنَا.

هَذَا الفَقِيْرُ يَأْخُذُ مِنَّا وَلَنَا، فَإِنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعْنَا الخَيْرَ أَنْفُسَنَا، فَاجْتَهِدُوا يَا مَعَاشِرَ الأَغْنِيَاءِ وَالفُقَرَاءِ، قَصْدُنَا إنْ كُنْتَ تَلْقَى السَّيْفَ وَالْقَنَا فَأَلْقِنَا، أَمَا سَمِعْتُمْ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: الآية ٩٦]، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥].

اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَاعِيْ وَالرَّعِيَّةَ وَالإِمَامَ وَالأُمَّةَ، وَمَنْ وَلَّيْتَهُ شَيْئًا مِنْ أُمُوْرِ المُسْلِمِيْنَ أَوْ حَكَمْتَهُ ضُرًّا أَوْ نَفْعًا لأَحَدٍ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ.

تَمِّم اللَّهُمَّ أَحْوَالَنَا وَأَحْوَالَهُمْ بِالصَّلَاحِ، وَاجْعَلْنَا وَإِيَّاهُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ وَوَفِّقْنَا وإِيَّاهُمْ لِلسَّدَادِ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تَسليمًا كَثِيْرًا والحمد لله ربِّ العالمين.

المَجْلِسُ التَّاسِعُ والعِشْرُونَ
فِي قِصَّةِ الغَار وفَضْل
أبي بكر رضي الله عنه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وسلَّم تَسْلِيْمًا

الحَمْدُ لله الَّذِيْ أَحْكَمَ بِحِكْمَتِهِ مَا فَطَرَ وَبَنَى، وقَرَّبَ بِرَحْمَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَدَنَا، وَرَضِيَ الشُّكْرَ مِنْ بَرِيَّتِهِ لِنِعْمَتِهِ ثَمَنًا، وأَمَرَنَا لِخِدْمَتِهِ لاَ لِحَاجَةٍ بَلْ لَنَا، بَيَّنَ لِقَاصِدِيْهِ سَبِيْلًا وَسَنَنًا، وأَثَابَ حَامِدِيْهِ أَلَذَّ مَا يُحِبُّنَا، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

أَحْمَدُهُ مُسِرًّا لِلْحَمْدِ ومُعْلِنًا، وأُصَلِّيْ عَلَى رَسُوْلِهِ أَشْرَفَ مَنْ تَرَدَّدَ بَيْنَ جَمْعٍ مِنَّا، وعَلَى صَاحِبِهِ أَبِيْ بَكْرٍ المُتَحَلِّلِ بِالعَبَا رَاضِيًا بِالعَنَا، وهُوَ الَّذِيْ أَرَادَ بقَوْلِهِ وَعَنَى ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبَة: الآية ٤٠]، وعَلَى عُمَرَ المُجِدِّ في عِمَارَةِ الإِسْلام فَمَا وَنَا، وعلى عُثْمَانَ الرَّاضِيْ بِالقَدَرِ وقَدْ حَلَّ بِالفِنَاءِ الفَنَاءُ، وعَلَى عَلِيٍّ الَّذِيْ إِذَا بَالَغْنَا في مَدْحِهِ فَالفَخْرُ لَنَا، وعَلَى عَمِّهِ الَّذِيْ أَسَّسَ الله بِهِ قَاعِدَةَ المَجْدِ وَبَنَى.

اعلم أَنَّ أَبَا بَكْرٍ مَعْرُوْفُ الفَضْلِ في الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلامِ. وُلِدَ بِمِنًى، وَاسْمُهُ عَبْدُ الله بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعِيْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ.

وعِنْدَ مُرَّةَ يَلْقَى رَسُول الله ﷺ في النسبة وَأُمُّهُ أُمُّ الخَيْرِ بِنْتُ صَخْرٍ أَسْلَمَتْ وَكَانَتْ إِلَيْهِ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ الأَشْيَاقُ. وَهِيَ الدِّيَاتُ وَالمَغْرَمُ، فَكَانَ إِذَا احْتَمَلَ شَيْئًا

فَسَأَلَ فِيْهِ قُرَيْشًا صَدَّقُوْهُ وَأَمْضُوْا حِمَالَةَ مَنْ نَهَضَ مَعَهُ. وَإِنِ احْتَمَلَهَا غَيرُهُ خَذَلُوْهُ.

ولَمَّا جَاءَ الإِسْلامُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَلَقَّبَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ عَتِيْقًا لِجَمَالِ وَجْهِهِ. وقالَ: «**يَكُونُ بَعْدِيْ اثْنَيْ عَشَرَ خَليفَةً أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيْقُ لا يَلْبَثُ إلاَّ قَلِيْلاً**».

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّه قَالَ: مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إلاَّ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيْهِ الله بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ.

وَرَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ قالَ: رَآنِيْ رَسُوْلُ الله ﷺ أَمْشِيْ أَمَامَ أَبِي بَكْرٍ فقالَ: «**يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَتَمْشِيْ أَمَامَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ ولا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِيْنَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ**». شعر:

وَسَائِلٍ عَنْهُمْ مَاذَا يُقَدِّمُهُمْ ... فَقُلْتُ فَضْلٌ بِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ بَانُوْا
كَمْ عَرَضُوْا لِلْمَنَايَا الحُمْرِ أَنْفُسَهُمْ ... فَخَانَ قَوْمٌ تَوَقَّوْهَا وَمَا خَانُوْا

وَا عَجَبًا لِغَنِيٍّ يَبْخَلُ بِمَا يَفْنَى، ولِفَقِيْرٍ لا يَصْبِرُ عَلَى مَا لا يَلْقَى.

إخواني، إذا أَرادَ الله قَبُوْلَ نَفَقَةِ مُنْفِقٍ قَدَّرَ لَهَا فَاقَةَ مُحْتَاجٍ أَحْوَجَ مَا كَانَ الإِسْلَامُ في زَمَانِ أَبِيْ بَكْرٍ؛ فَلَذَلِكَ حَلَّاهُ بِحِلْيَةٍ مَا يَنْفَعُنِيْ مَالٌ كَمَالِ أَبِيْ بَكْرٍ.

أَنْفَقَتْ خَدِيْجَةُ وفي نَفَقَتِهَا شَائِبَةُ هَوَاهَا، وَأَنْفَقَ عُثْمَانُ وَالأَمْرُ قَدْ تَنَاهَا، ونَفَقَةُ أَبِيْ بَكْرٍ لِقَاعِدَةٍ بَنَاهَا. تَاللهِ لَقَدْ نَهَضَ وَحْدَهُ على قَدَمِ الوَحْدَةِ، إلى جَمِيْعِ الشِّرْكِ فَرَدَّهُمْ بِنَفْسِهِ يَوْمَ الرِّدَّةِ، فَهُوَ أَفْضَلُ في الإِسْلَامِ وَالعَوْنِ مِنْ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، لأَنَّ ذلكَ كَتمَ إِيْمَانَهُ فَخَافَتَ، ونَفْسُ الصِّدِّيقِ يَوْمًا حُذِّرَتْ وَلاَ خَافَتْ، وهُوَ أَكْرَمُ مَنْزِلَةً مِنْ صَاحِبِ يَس؛ لأنَّ ذَلِكَ جَاهَدَ سَاعَةً، وأَبُو بَكْرٍ جَاهَدَ مَعَ النَّبِيِّ سِنِيْنَ، نَطَقَتْ بِفَضَائِلِه الآيَاتُ والأَخْبَارُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَى بَيْعَتِهِ المُهَاجِرُوْنَ والأَنْصَارُ.

فَيَا مُبْغِضِيْهِ في قُلُوبِكُمْ مِنْ ذِكْرِهِ نَارٌ، إذَا تُلِيَتْ آيَاتُهُ عَلَا عَلَيْهِمْ فَصَارَ ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التّوبَة: الآية ٤٠]، دُعِيَ إلى الإِسْلَامِ فَمَا تَلَعْثَمَ وَلاَ أَبَى، وصَبَرَ في مَكَّةَ عَلَى هُدَى العِدَا، وَأَنْفَقَ مَالَهُ حَتَّى تَخَلَّلَ بِالعَبَا تَاللهِ لَقَدْ

زَادَ في السَّبَكِ عَلَى كُلِّ دِيْنَارٍ دِيْنَار، ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾.

حُبُّهُ وَالله رَأْسُ الحَنِيْفِيَّةِ، وبُغْضُهُ يَدُلُّ عَلَى خُبْثِ الطَّوِيَّةِ، ولَوْلاَ صِحَّةُ إِيْمَانِهِ مَا زَهِدَ في الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، مَهْلًا مَهْلًا دَمُ الرَّوَافِضِ قَدْ فَازَ، ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾.

لَقَدْ وَجَبَ حُبُّ الصِّدِّيْقِ عَلَيْنَا، فَنَحْنُ نَقْضِي بِمَدَائِحِهِ دُنْيًا ودِينًا، فَمَنْ كَانَ رَافِضِيًّا فلَا يَعُدْ إِلَيْنَا وَلْيَقُلْ في ذَلِكَ الوَقْتِ أَعْذَارٌ، ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾.

لَقَدْ دَخَلَ النَّبِيُّ مَوْضِعًا لَيْسَ فِيْهِ مَاكِثٌ، فَاسْتَوْحَشَ الصِّدِّيْقُ مِنْ خَوْفِ الحَوادِثِ فَارْتَفَعَ الطَّيْشُ وَطَابَ عَيْشُ المَاكِثِ، وقَامَ مُنادِي الصُّبْحِ يُنَادِيْ بَابَ الغَارِ، ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾.

مَنْ ذَا الَّذِي سَبَقَهُ بِالإِسْلَامِ مِنَ الصَّحابَةِ؟ مَنْ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى مَعَهُ؟ مَنْ آخِرُ مَنْ صَلَّى بِهِ؟ مَنْ ذَا الَّذِي ضَاجَعَهُ في تُرَابِهِ؟ فَاعْرِفُوْا يَا قَوْمِ حَقَّ الجَارِ ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]. شعر:

أُعَاذِلُ أَنَّ المَالَ غَيْرُ مُخَلَّدٍ ... وَأَنَّ الغِنَى عَارِيَةٌ فَتَزَوَّدِ
وكَمْ مِنْ جَوَادٍ يُفْسِدُ اليَوْمَ جُودَهُ ... وَسَاوِسُ قَدْ خَوَّفَتْهُ الفَقْرَ في الغَدِ

قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾، وَا عَجَبًا لِنَفْسٍ المَوْتُ مَوْئِلُها، وَالقَبْرُ مَنْزِلُهَا، واللَّحْدُ مَدْخَلُهَا، ثُمَّ يَسُوْءُ عَمَلُهَا ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾، كَم قَطَعَ زَمَانَهُ بِالتَّسْوِيْفِ، وبَاعَ دِيْنَهُ بِالحَبَّةِ وَالرَّغِيْفِ مُشْتَرِي الوَيْلِ بِتَطْفِيْفِ الطَّفِيْفِ يَتَمَنَّى العَوْدَ إِذَا رَأَتْ نَفْسَهُ مَا يُذْهِلُهَا ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

كَمْ مَشْغُولٍ بِالقُصُوْرِ يَعْمُرُهَا؟ لا يُفَكِّرُ في القُبُوْرِ ولا يَذْكُرُهَا، وَقَعَ في أَشْرَاكِ المَنَايَا وَهُوَ لاَ يَنْظُرُهَا، أُفٍّ لِدُنْيَا هَذَا آخِرُهَا، أَوَّاهٌ مِنْ أُخْرى هَذَا أَوَّلُهَا، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: الآية ١١].

إِذَا مَلَكَ شَمْسَ الحَيَاةِ المَغِيْبُ، قَامَ عَنِ المَرِيْضِ الطَّبِيْبُ، وأَخَذَ النَّفْسَ

مِنْ بَاطِنِهَا التَّوْبِيْخُ وَالتَّأْنِيبُ، فَلَوْ رَأَيْتَهَا تَسْأَلُ عَمَّا بِهَا، ولا تُجِيْبُ مَنْ يَسْأَلُهَا، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

آهٍ لِسَاعَاتٍ شَدِيْدَةِ السَّكَرَاتِ فِيهَا غَمَرَاتٌ لَيْسَت بِنَوْمٍ ولا سُبَاتٍ، والمَرِيْضُ عَلَى فِرَاشِ المُحَرَّمَاتِ، فَآهٍ ثُمَّ آهٍ مِنْ جِبَالِ حَسَرَاتٍ تَحْمِلُهَا ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

لَقَدْ صَاحَ بِكَ الصَّائِحُ بأخذ غادٍ ورائح ويَكْفِي مَا مَضَى مِنَ القَبَائِحِ فَاقْبَلِ اليَوْمَ هَذِهِ النَّصَائِحَ بأخذ غادٍ ورائح، فَإِنَّ المِسْكِيْنَ مَنْ لا يَقْبَلَهَا ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنَافِقون: الآية ١١]. شعر:

عُرِيْتُ مِنَ الثِّيَابِ وكُنْتُ غَضًّا ... كَمَا يُعْرَى مِنَ الوَرَقِ القَضِيْبُ
فَنُحْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعِ عَيْنِي ... فلا نَفَعَ البُكَاءُ وَلا النَّحِيْبُ
أَلا لَيْتَ الشَّبَابُ يَعُوْدُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرُهُ بِمَا صَنَعَ المَشِيْبُ

إخواني، لَمَّا أَغَارَت قُرَيْشٌ خَيْلَ الخَتْلِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ خَرَجَ إلى غَارٍ لَو دَخَلَهُ غَيْرُهُ كانَ غَرَرًا، فَأَمَّا الغَارُ فَهُوَ الثَّقْبُ في الجَبَلِ وهَذَا الغَارُ هُوَ جَبَلُ ثَوْرٍ بِمَكَّةَ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَشُقُّ ثَوبَهُ وَيَسُدَّ الأَثْقَابَ، فَبَقِيَ ثَقْبٌ فَسَدَّهُ بعَقِبِهِ.

فَمَكَثَا ثَلاثَ لَيَالٍ في الغَارِ فَغَرَّبَتْ قُرَيْشٌ بِالطَّلَبِ فَنَبَتَتْ شَجَرَةٌ فَسَدَّتْ بَابَ الطَّلَبِ، ثُمَّ حَاكَتْ وَجْهَ المَكَانِ فَحَاكَتْ ثَوْبَ نَسْجِهَا سِتْرًا، ثُمَّ حَمَى اللُّطْفُ الحِمَى بِحَمَامَتَيْنِ، فَمَا كانَ إلاَّ أنْ سَكَنَتَا من الغار فَمَا بَانَ المُسْتَتِرُ فَاتَّخَذَتَا مِنَ الغَارِ عُشًّا فَغَشَّى فَأَغْشَى مِنْ غَشْيِ العَشَى على أَبْصَارِ المُفْتَقِدِيْنَ، فَصارُوْا كَالأَعْشَى.

فَرَاغَ الأَعْدَاءُ نَحْوَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ فَرَأَوْا دَلِيْلَ فَرَاغِ الغَارِ الفَارَّ وَالسَّكِيْنَةُ فيهِ سَاكِنَةٌ فعَادُوْا عَمَّنْ عَادُوْا عَوْدًا بَحْتًا بِلا بَحْثٍ، فَقَالَ الصِّدِّيقُ عَنْ حَرِّ وَقْدِ الوَجْدِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إلى قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا. فقال المُصْطَفَى: «**ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا**».

فَلَمَّا رَحَلا لَحِقَهُما سُرَاقَةُ فَسَرَقَتِ الأَرْضُ قَوَائِمَ فَرَسِهِ، فَلَمَّا رَأَى أَرْضًا

صَلْدًا قَدْ فَرَسَتِ الفَرَسَ فَرَسَتْ إلى بَطْنِهَا وكَادَ يُقَارِنُ قَارُوْنَ في الخَسْفِ، أَشْرَقَتْ نَفْسُهُ على اليَقِيْنِ بِظَنِّهَا، فَأَخَذَ يَعْرِضُ المَالَ عَلَى مَن رَدَّ مَفَاتِيْحَ الكُنُوْزِ ويُقَدِّمُ الزَّادَ إلى شَبْعَانِ أَبِيْتُ عِنْدَ رَبِّي، فَجَازَ خَيْمَةَ أُمِّ مَعْبَدٍ، فَأَصْبَحَتْ شَاتَهَا وَأَصْبَحَتْ تَشْهَدُ، فَوَصَلَا إلى يَثْرِبَ عَلَى نَجَائِبِ السَّلَامَةِ وَفَاتَ الخَيْرُ مَكَّةَ، وفَازَتِ المَدِيْنَةُ بِالكَرَامَةِ. شعر:

إنَّ عَيْشًا إلى الفَنَاءِ مَصِيْرُهُ ... لَحَقِيْقٌ أن لا يَدُوْمَ سُرُوْرُهُ
وسُرُوْرٌ يَكُوْنُ آخِرَهُ المَوْتُ ... سَوَاءٌ طَوِيْلُهُ وَقَصِيْرُهُ
وَيْحَكَ ابْكِ عَلَى دِيَارٍ خُلِقَتْ ... لِلتَّقْوَى كَيْفَ أَخْرَبْتَهَا بِالذُّنُوْبِ

إخواني، الدُّنْيَا فَاجِرَةٌ إِذَا تزَوَّجَهَا ذُوْ غِيْرَةٍ طَلَّقَ ومَا يَدُوْمُ على صُحْبَتِهَا إلاَّ مُخَنَّثٌ.

كَانَ الصَّالِحُوْنَ يَفِرُّوْنَ مِنَ الدُّنْيَا إلى الله، وَالآن الفِرَارُ مِنَ الله إلى الدُّنْيَا وَيْحَكَ اسْتَدْرِكْ مَا فَرَطَ مِنْ عُمْرِكَ وَفَاتَ قَبْلَ حُضُوْرِ الوَفَاةِ.

أَمَا بَلَغَكَ فِعْلُ رَسُوْلِ الله ﷺ حِيْنَ كَانَ يَخْرُجُ إلى المَقَابِرِ فَيُنَادِي: «**يَا أَهْلَ القُبُورِ إنَّ أَمْوَالَكُم قَدْ قُسِمَتْ، ونِسَاءَكُمْ قَدْ نُكِحَتْ، وَمَنَازِلَكُم لِغَيْرِكُمْ عُمِرَتْ، يَا أَهْلَ دَارِ البَلَاءِ وَالوَحْدَةِ، وَالغُرْبَةِ وَالوَحْشَةِ، قَدْ أَنْبَأْنَاكُمْ مَا كَانَ بَعْدَكُم، فَلَيْتَكُمْ أَنْبَأْتُمُوْنَا بِمَا عِندَكُم، فَلَو أُذِنَ لَكُمْ لَقُلْتُمْ: قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا وقد حَلَلْنَا مَنَازِلَ الأَمْوَاتِ، وقَدْ بَلِيَتِ العِظَامُ فَهِيَ رُفَاةٌ، وَقَدْ خَلَتْ مِنَّا المَنَازِلُ وَالدِّيَارُ، وَدَرَسَتِ الآثَارُ وَنُسِيَتِ الأَخْبَارُ، وَمَلَّنَا الآبَاءُ، وهَجَرَنَا الإِخْوَانُ وَالأَقْرِبَاءُ، وتَرَكْنَا مَسَاكِنَنَا لِلْوَارِثِيْنَ، وَصِرْنَا أَحَادِيْثَ وعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِيْنَ. إنَّ أَقْوَامًا أَلْهَتْهُمُ الأَمَانِيُّ بِالمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوْا مِنَ الدُّنْيَا بِلَا حَسَنَةٍ، يَقُوْلُ أَحَدُهُم: إنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وكَذَبَ واللهِ لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ لأَحْسَنَ لَهُ العَمَلَ**». وينشد:

أُؤَمِّلُ تَوْبَةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ... وأَرْجُو العَفْوَ مِنْ مَوْلَى المَوَالِيْ
ومَا لِلْعَبْدِ إنْ رَكِبَ الخَطَا ... يَا كَقَرْعِ البَابِ في ظُلَمِ اللَّيَالِيْ
عَسَى المَوْلَى الكَرِيْمُ يَجُوْدُ يَوْمًا ... عَلَى ضُعْفِيْ ويُصْلِحُ سُوْءَ حَالِيْ

يا هَذَا، كَيْفَ تَطْمَعُ بِكَرَامَةِ المُحْسِنِيْنَ، وَأَنْتَ تُكْرِمُ الغَنِيَّ وتُهِيْنُ

المِسْكِيْنَ؟ كَأَنَّكَ أَمِنْتَ الوُقُوْفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العَالَمِيْنَ، إِذَا وُضِعَتِ المَوَازِيْنُ، ونُشِرَتِ الدَّوَاوِيْنُ، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٩١]، وخُتِمَ عَلَى اللِّسَانِ، ونَطَقَتِ الأَعْضَاءُ بِالْبَيَانِ، وشَهِدَتِ الجَوَارِحُ وَظَهَرَتِ الفَضَائِلُ[1].

وَقِيْلَ للظَّالِمِ: تَقَدَّمْ وَلِلْمَظْلُوْمِ تَحكَّمْ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يُونس: الآية ٣٠]، فَإِنْ أَنْتَ أَفْسَدْتَ جِسْمَكَ بِالمَعَاصِيْ فَالوَيْلُ لَكَ مِنَ الأَخْذِ بِالنَّوَاصِيْ، فَبادِرْ بِالتَّوْبَةِ طَلَبَ الأَمَانِ، وَاحْذَرْ عَلَى طَاعَتِكَ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ نَصِيْبٍ أَنْتَ؟ وَلأَيِّ دَارٍ خُلِقْتَ، وفي أَيِّ دِيْوَانٍ أُثْبِتَّ؟ أَتراكَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالجِنَانِ؟ أَمْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الجَحِيْمِ وَالنِّيْرَانِ؟

فَيَا مَنْ يَسْعَى كُلَّ يَوْم عَلَى مَا قَدَمِ زَلاَّتِهِ إِلَيْهَا هَلْ لَكَ صَبْرٌ عَلَيْهَا؟ فَانْظُرْ نَفْسَكَ، وَتَفَقَّدْ أَحْوَالَكَ، وتَذَلَّلْ لِمَوْلاَكَ، فإِنَّهُ كُلَّ وَقْتٍ يَرَاكَ. وينشد:

فَهَبْ لِيْ رِضَاكَ سَيِّدِي تَضَرُّعًا ... مَنْ لِيْ إِذَا صِرْتُ غَدًا إِلى البِلَا مُشَيَّعَا
وَعُدْتُ رَهْنًا بِالَّذِي كُنْتُ لَهُ مُجْمِعًا ... وَا حَسْرَتَا لَوْ أَنَّنِيْ أَذْكُرُ ذَاكَ المَصْرَعَا

وَقَدْ عَقَدْتُ تَوْبَةً لَعَلَّهَا أَن تَنْفَعَا، اللَّهُمَّ جُدْ عَلَى فَضَائِحِنا بِسْرِكَ الجَمِيْلِ، وجُدْ عَلَى أَعْسَارِنَا بِعطَائِكَ الوَاسِعِ الجَزِيْلِ، وفَرِّجْ بِرَحْمَتِكَ هُمُوْمَنَا، وَيَسِّرْ بِفَضْلِكَ أُمُوْرَنَا، وَاشْرَحْ بِهِدَايَتِكَ صُدُوْرَنَا، وَطَيِّبْ لَنَا وَقْتَنَا وَحُضُوْرَنَا، ولا تَكْتُبْنَا مِنَ الغَافِلِيْنَ، وَلا تَصْرِفْنَا عَنْ بابِ رحمتكَ خَائِبِيْنَ، وَفَرِّجْ عَنِ المَرْضَى وَالمَكْرُوْبِيْنَ، وَأَصْلِحْ وُلاَةَ المُسْلِمِيْنَ، وَاكْتُبْ سَلَامَةَ المُسافِرِيْنَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ، وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خاتم النَّبيين وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، وَسَلِّمْ تَسْلِيْمًا كَثِيرًا كَثِيرًا إِلى يوم الدِّين.

---

(١) وفي نسخة الفضائح.

المَجْلِسُ الثَّلاثُون
فِي فَضْلِ عُمَر بْنِ الخَطَّاب رَضِيَ الله عَنْهُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيمًا

الحَمْدُ لله خَالِقِ كُلِّ مَخْلُوْقٍ، ورَازِقِ كُلِّ مَرْزُوْقٍ، سَابِقِ الأَشْيَاءِ فَمَا دُوْنَهُ مَسْبُوْقٌ، مُوْجِدِ المَنْظُوْرِ وَالمَسْمُوْعِ وَالمَلْمُوسِ وَالمَلْبُوسِ وَالمَذُوْقِ، أَنْشَأَ الآدَمِي بالقدرة مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ مَدْفُوْقٍ، وَرَكَّبَ فيه العَقْلَ يَدْعُو إِلَى مُرَاعَاةِ الحُقُوْقِ، وَالهَوَى يَحُثُّ عَلَى مَا يُوْجِبُ العُقُوْقَ، فَاحْذَرُوْا وِفَاقَ المُشْتَهَى فَإِنَّهُ يَرْمِيْ لا مِنْ فَوْقٍ فُوْقٍ، سَمَحَ دَاوُودُ لِنَفْسِهِ بِنَظْرَةٍ فَاتَّسَعَتِ الخُرُوْقُ، وغَفَلَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عَن طَاعَتِهِ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [صَ: الآية ٣٣].

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا يَقْضِيْ وَيَسُوْقُ، مِمَّا يَعُمُّ وَمَا يَشُوْقُ، وَأُقِرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيْدِ هَاجِرًا يَغُوْثَ وَيَعُوْقَ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُوْلُهُ أَرْسَلَهُ وَقَدِ ازْدَحَمَتْ سُوْقُ البَاطِلِ في أَرْوَجِ سُوْقٍ، ودَمَّغَ لِحَقِّهِ أَهْلَ الزَّيْغ وَأَرْبَابَ الفُسُوْقِ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ الصَّدُوْقِ، وعَلَى عُمَرَ الفَارُوْقِ، وعَلَى عُثْمَانَ الصَّابِرِ على الشَّهَادَةِ عَلَى مُرِّ المَذُوْقِ، وعَلَى عَلِيٍّ مُطَلِّقِ الدُّنْيَا فَمَا غَرَّهُ الزُّخْرُفُ وَلا الرُّؤُوقُ، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ أَكْرَمِ الكُلِّ إِليهِ نَسَبًا وَأَخَصِّ العُرُوْقِ.

اللَّهُمَّ مَالِكَ المَسَالِكِ وَالسُّرُوقِ، احْفَظْنَا مِنْ مَسَاءَةِ الخَوَاتِمِ وَالظُّرُوْفِ، وَهَبْ لَنَا مِنْ فَضْلِكَ مَا يَصْفُوْ وَيَرُوْقُ، وَزِدْ لَنَا مِنَّة إِحْسَانِكَ فَوْقَ مَا نَرْجُوْ وَيَتُوْقُ، وَافْتَحْ لِي وَلِلْحَاضِرِيْنَ مُوْقَ بَصَرِ البَصِيْرَةِ لِنَتَجَنَّبَ المُوْق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ مَضَى قَبْلَكُم مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ يُحَدِّثُوْنَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِيْ هذِهِ أَحَدٌ فَإِنَّه عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**»، أَخْرَجَاهُ، أي: مسلم والبخاري.

وَاعْلَمْ أَنَّ عُمَرَ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ الحُسْنَى، وكانَ مُقَدَّمًا في الجَاهِلِيَّةِ والإِسْلَامِ.

أَمَّا في الجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَتْ لَهُ السِّقَايَةُ وَالمُفَاخَرَةُ، فَإِنْ وَقَعَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وغَيْرِهِمْ مُفَاخَرَةٌ بَعَثُوْهُ سَفِيْرًا، وَإِذَا فَاخَرَهُمْ حَيٌّ بَعَثُوْهُ مُفَاخِرًا ورَضُوْا بِهِ.

وَأَمَّا في الإِسْلَامِ فَفَضَائِلُهُ كَثِيْرَةٌ، وَهُوَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ رَيَاحِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَرْطِ بْنِ رَيَاحِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وعِنْدَ كَعْبٍ يَلقَى رسولَ اللهِ ﷺ في النَّسَبِ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قالَ: خَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّدًا السَّيْفَ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِيْ زُهْرَةَ قَالَ: أَيْنَ تَعْمِدُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: أُرِيْدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا. قَالَ: كَيْفَ تَأْمَنُ بَنِيْ هَاشِمٍ وَبَنِيْ زُهْرَةَ وقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلاَّ صَبَوْتَ وتَرَكْتَ دِيْنَكَ.

قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى العَجَبِ يَا عُمَرُ؟ إِنَّ خَتَنَكَ وَأُخْتَكَ قَدْ صَبَوَا وتَرَكَا دِيْنَكَ الَّذِيْ أَنْتَ عَلَيْهِ. فَمَشَى عُمَرُ عَائِدًا حَتَّى أَتَاهُمَا وَتَبِعَهُمَا رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ يُقَالُ لَهُ خَبَّابٌ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابُ حِسَّ عُمَرَ تَوَارَى في البَيْتِ، فَدَخَلَ عُمَرُ فَقَالَ: مَا هَذِهِ القَسِيْمَةُ الَّتِيْ أَسْمَعُهَا عِنْدَكُمَا؟ قَالَ: وَكَانُوا يَقْرَؤُونَ ﴿طه ۝١﴾، فَقَالاَ: مَا هَذَا حَدِيْثًا تَحَدَّثْنَا بَيْنَنَا. قَالَ: لَعَلَّكُمَا قَدْ صَبَأْتُمَا؟ فَقَالَ له خَتَنُهُ: أَرَأَيْتَ يَا عُمَرُ أَنَّ الحَقَّ في غَيْرِ دِيْنِكَ. فَوَثَبَ عَلَى خَتْنِهِ فَوَطِئَهُ وَطْءًا شَدِيْدًا فَجَاءَتْ أُخْتُهُ فَدَفَعَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا فَنَفَحَها بِيَدِهِ فَدَمَى وَجْهَهَا، فَقَالَتْ وَهِيَ غَضْبَانَةٌ: يَا عُمَرُ، إنْ كانَ الحَقُّ في غَيْرِ دِيْنِكَ أَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ.

فَلَمَّا يَئِسَ عُمَرُ قالَ: أَعْطُونِي هذا الكِتَابَ الَّذِي عِنْدَكُمْ فَأَقْرَأُهُ. فَقَالَتْ أُخْتُهُ: إِنَّكَ رِجْسٌ نَجِسٌ وَلا يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ، فَقُمْ فَاغْتَسِلْ أَوْ تَوَضَّأْ. فَقَامَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ أَخَذَ الكِتَابَ فَقَرَأَ ﴿طه ۝١﴾ [طه: الآية ١] حَتَّى انْتَهَى إِلى قَوْلِهِ:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: الآية ١٤].

قَالَ عُمَرُ: دُلُّوْنِيْ عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ قَوْلَ عُمَرَ خَرَجَ مِنَ البَيْتِ فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَبْشِرْ فَإِنِّيْ أَرْجُوْ أَنْ تَكُوْنَ دَعْوَةُ محمد رَسُولِ الله ﷺ لَكَ لَيْلَةَ الخَمِيْسِ «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَوْ بِأَبِيْ جَهْلِ ابْنِ هِشَامٍ**». قَالَ: وكان رَسُوْلُ الله ﷺ في الدَّارِ الَّتِيْ في أَصْلِ الصَّفَا، فَانْطَلَقَ عُمَرُ حَتَّى أَتَى الدَّارَ وعَلَى بَابِ الدَّارِ حَمْزَةُ وطَلْحَةُ وأُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا رَأَى حَمْزَةُ عُمَرَ وَجِلَ القَوْمُ مِنْ عُمَرَ. فَقَالَ حَمْزَةُ: فَهَذَا عُمَرُ، فَإِنْ أَرَادَ الله بِعُمَرَ خَيْرًا يُسْلِمْ وَيَتَّبِعِ النَّبِيَّ ﷺ، وَإِنْ يُرِدْ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ يَكُنْ قَتْلُهُ هَيِّنًا عَلَيْنَا، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلامُ دَاخِلٌ يُوْحَى إليه فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَتَى عُمَرَ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ أَثْوَابِهِ وَحَمَائِلِ السَّيْفِ فَقَالَ: «**مَا أَنْتَ مُنْتَهِيًا يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزِلَ الله فِيْكَ مَا أَنْزَلَ في الوَلِيْدِ بْنِ المُغِيْرَةِ، اللَّهُمَّ اهْدِ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**». فَقَالَ عُمَرُ: أشهد أَنَّكَ رَسُوْلُ الله، فَأَسْلَمَ.

قال ابن عباس: لمَّا أسلم عمر كبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. وَقَالَ: أُخرُجْ يَا رَسُولَ الله أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ إِنْ مُتْنَا وَإِنْ حَيِيْنَا؟ قالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**». قَالَ: فَفِيْمَا الاخْتِفَاءُ؟ وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالحَقِّ نَبِيًّا لَنُخْرِجَنَّ. قَالَ عُمَرُ: فَأَخْرَجْنَاهُ في صَفَّيْنِ، حَمْزَةُ في أَحَدِهِمَا، وَأَنَا في الآخَرِ لَهُ كَدِيْدٌ كَكَدِيْدِ الطَّحِيْنِ، حَتَّى دَخَلْنَا المَسْجِدَ فَنَظَرَتْ قُرَيْشٌ إلى حَمْزَةَ وإلى عُمَرَ فَأَصَابَتْهُم كَآبَةٌ لَم تُصِبْهُمْ مِثْلُهَا.

قَالَ: فَسَمَّانِيْ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ الفَارُوْقُ، وَفَرَّقَ الله بِيْ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ.

قالَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ: مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ.

الكَلَامُ على قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨﴾، وُجُوْهٌ أَذْعَنَتْ وَذَلَّت، وُجُوْهٌ أَلِفَتِ السُّجود فَمَا مَلَّتْ، وُجُوْهٌ تَوَجَّهَتْ إِلَيْنَا وعَنْ غَيْرِنَا تَوَلَّتْ زَالَتْ عَنْهَا فَتْرَة الهَجْرِ وَتَجَلَّتْ فَجَلَّتْ غَانِمَةً ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٨] تَجْرِيْ دُمُوعُهُمْ في الخُدُوْدِ كَالمِيَاهِ في الأُخْدُوْدِ، وتَعْمَلُ نَارُ الحَذَرِ في الكُبُوْدِ، فَيَتَمَنَّوْنَ

عَدَمَ الوُجُوْدِ، فَهُم بَيْنَ الرُّكُوْعِ وَالسُّجُوْدِ، ونَصْبِ الأَقْدَامِ القَائِمَةِ، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾.

يَتَفَكَّرُوْنَ في السَّابِقَةِ، وَيَحْذَرُوْنَ مِنَ اللَّاحِقَةِ، وَكَأَنَّهُمْ يَتَّقُوْنَ صَاعِقَةً، وَكَأَنَّ السُّيُوْفَ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ بَارِقَةٌ، فَيَا شِدَّةَ قَلَقِهِمْ مِنَ الخَاتِمَةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٨].

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ طَالَ مَا أَطَالُوا البُكَاءَ في اللَّيْلِ، تَجْرِيْ دُمُوْعُهُمْ مِثْلَ جَرْيِ السَّيْلِ وَتَسْبِقُ في صَحْرَاءِ الخُدُوْدِ كَالخَيْلِ، وَإِنَّمَا يُكَالُ للعَبْدِ على قَدْرِ الكَيْلِ، فَإِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ فَلِكُلٍّ عَيْنٌ جَارِيَةٌ جارية، ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

جَنَّ اللَّيْلُ وَهُمْ قِيَامٌ، وَجَاءَ النَّهَارُ وَهُمْ صِيَامٌ، ونَزَعُوْا قَبْلَ الكَلَامِ، وَسَلَّمُوا على الدُّنْيَا لدَارِ السَّلامِ، فَالْبُطُوْنُ جَائِعَةٌ، وَالأَجْسَادُ عَارِيَةٌ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ اتَّزَرُوْا بِمِئْزَرِ القَنُوْعِ، وَارْتَدُوْا بِرِدَاءِ الجُوْعِ وَالخُشُوْعِ، وَاسْتَلَذُّوْا بِشُرْبِ الدُّمُوْعِ، لَوْلاَ صَحْوُ السَّهْرِ وَالجُوْعِ كَمَا بَانَ عِندَ الجَبَلِ هِلَالُ يَا سَارِيَةُ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآية ١٢].

وعظ:

يَا غَافِلًا عَنْ هَذِهِ الدَّارِ، يَا رَاضِيًا عَنِ الصَّفَاءِ بِالأَكْدَارِ، البِدَارَ البِدَارَ سَابِقْ وُقُوْعَ المَوْتِ قَبْلَ فَوْتِ الأَقْدَارِ، وَيْحَكَ أَمَا تَرَى سَبْقَ الأَخْيَارِ، أَمَا شَوَّقَكَ مَدْحُ الأَبْرَارِ؟ أَمَا تَخَافُ الشَّيْنَ؟ أَمَا تَحْذَرُ العَارَ؟ إلى كَمْ هَذَا الجَهْلُ وَالنَّفَارُ؟ وَمَا هَذَا التَّقَاعُدُ وَالمُحِقُّ قَدْ سَارَ؟ إنَّ طُوْفَانَ الهَلاكِ قَدْ دَارَ حَوْلَ الدِّيَارِ، يَا سَكْرَانَ الهَوَى كَم قَتَلَ الخَمَّارُ؟ يا بَصِيْرًا وَهُوَ أَعْمَى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦]. شعر:

إِنَّمَا الدُّنْيَا بَلَاءٌ لَيسَ لِلدُّنْيَا ثُبُوْتٌ   إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسَجَتْهُ العَنْكَبُوتُ
إِنَّمَا يَكْفِيْكَ مِنْهَا أَيُّهَا الرَّاغِبُ قُوْت

وعظ:

يَا مَنْ أَنْفَاسُهُ مَحْفُوْظَةٌ، وأَعْمَالُهُ مَلْحُوْظَةٌ، أَتُنْفِقُ العُمْرَ النَّفِيْسَ في نَيْلِ

الهَوَى الخَسِيْسِ، جَدَّ الزَّمَانُ وَأَنْتَ تَلْعَبُ، وَالعُمْرُ في لاَ شَيْءَ يَذْهَبُ، كَمْ كَمْ تَقُوْلُ غَدًا أَتُوْبُ غَدًا، غَدًا وَالمَوْتُ أَقْرَبُ، أَمَا عُمْرُكَ كُلَّ يَوْمٍ يَنْهَبُ، أَمَا المُعْظَمُ مِنْهُ قَدْ ذَهَبَ، في أَيِّ شَيْءٍ في جَمْعِ الذَّهَبِ، تَبْخَلُ بِالمَالِ وَالعُمْرُ يَذهَبُ، يَا مَنْ إِذَا تَخَلَّى تَفَكَّرَ وَحَسِبَ، تأمل فَأَمَّا نُزُوْلُ المَوْتِ فَمَا حَسِبَ، تَطْلُبُ النَّجَاةَ لَكِنْ لا مِنْ بَابِ الطَّلَبِ، تَقِفُ في الصَّلَاةِ إِنَّ صَلاتَكَ لَعَجَبٌ، الجِسْمُ حَاضِرٌ في شعب الحسر بالعراق، وَالقَلْبُ في الحَلَبِ، الْفَهْمُ أَعْجَمِيٌّ، وَاللَّفْظُ لَفْظُ العَرَبِ، أَنَا أَعْلَمُ بِكَ مِنْكَ حُبُّ الدُّنْيَا قَدْ غَلَبَ. وينشد:

طُوْبَى لِمَنْ قَلْبَهُ بِالله مُشْتَغِلُ ... يَبْكِي النَّهَارَ وَطُوْلَ اللَّيْلِ يَبْتَهِلُ
خَوْفُ الوَعِيْدِ وذِكْرُ النَّارِ أَحْزَنَهُ ... فَالدَّمْعُ مِنْهُ عَلَى الخَدَّيْنِ يَنْهَمِلُ

وفي الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ قالَ: قالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «**إِن الله قَدْ جَعَلَ الحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ**».

وفي حَدِيْثِ ابْنِ عُمَرَ عنه عَلَيْهِ السَّلام: «**عُمَرُ سِرَاجُ أَهْلِ الجَنَّةِ**». وفي حَدِيْثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ.

وفي الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ قالَ: قَالَ عُمَرَ: وَافَقْتُ رَبِّي في ثَلَاثٍ؛ قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ الله، لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى. فَنَزَلَتْ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥]. وقلتُ: يا رَسُولَ الله، إِنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَحْتَجِبْنَ. فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ نِسَاؤُهُ في الغِيْرَةِ. فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: الآية ٥]. وفي حَدِيْث ابْن عُمَر عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلام أنَّه قَالَ: «**عُمَرُ سِرَاجُ أَهْلِ الجَنَّةِ**». وفي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلام قال: «**إن الله جَعَلَ الحَقَّ عَلَى لِسَانِ عمر وقلبه**». وفي حَدِيْث عُقْبَة بن عَامِرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلام أنه قال: «**لو كان بعدي نَبِيًّا لكان عمر**».

قَوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٢١] أيْ: واعظ مَا أَكْثَرَ المُذَكِّرِيْنَ وَمَا أَقلّ المُتَذَكِّرِيْنَ، النِّعْمَةُ تُذَكِّرُكَ، وتُغَيِّرُ أَحْوالِكَ يُنْذِرُكَ، وَأَخْذُ القُرَنَاءِ يُحَذِّرُكَ، غَيْرَ أَنَّ الصَّمَامَةَ في سَمْعِ القَبُوْلِ فَمَا تَنْتَفِعُ بِقَوْلِ مَنْ

يَقُولُ، يَا مُقِيْمًا قَدْ حَانَ سَفَرُهُ، يَا مَنْ عَسَاكِرُ المَوْتَى تَنْتَظِرُهُ، سَيَعُوْدُ الصِّحَّةَ السَّقَمُ وَسَيَغْلِبُ الوُجُوْدَ العَدَمُ. لِلسَّاعَاتُ مَرَاحِلُ، وَالمَوْتُ سَاحِلُ، البِدارَ البِدارَ قَبْلَ فَوَاتِهِ، اجْمَع الزَّادَ قَبْلَ شَتَاتِهِ، كَمْ أَخْلَى المَوْتُ دَارًا دَارًا؟ كَمْ تَرَكَ المَعْمُوْرَ قِفَارًا؟ كَمْ أَوْقَدَ مَنْ الأَسَفِ نَارًا؟ كَمْ أَذَاقَ الغُصَصَ المُرَّةَ مِرَارًا؟ لَقَدْ جَاءَتْ يَمِيْنًا وَيَسَارًا، فَمَا حَاشَا فَقْرًا ولاَ يَسَارًا. شعر:

إنَّ المَشَايِخَ بَعْدَ طُوْلِ حَيَاتِهِم ... تَمرُّ تَغرَقَ في ذُرَى الأَسْحَارِ
إمَّا سُقُوْطٌ بِالرِّيَاحِ إذَا جَرَتْ ... أَوْ لاَ مَحَالَةَ بَعْدُ بِالأَمْطَارِ
وَكَذَا المَنِيَّةُ لَيْسَ مِنْهَا مَهْرَبٌ ... طَرَقَتْ بِلَيْلٍ أَوْ ذَكَرَتْ[1] بِنَهَارِ

رَحَلَ القَوْمُ فَاسْأَلِ الأَطْلَالَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ فَفَنِيَتِ الآجَالُ، سَارُوْا إلى دَارِ الجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ، ونَدِمُوْا عَلَى مَا جَمَعُوْا مِنَ الأَمْوَالِ، وَنَدَبُوْا عَلَى قُبْحِ الخَطايَا وَالأَفْعَالِ، وَآلَتْ أَمْوَالُهُم إلى كَفِّ الآلِ، بَضَّعَ الأَهْلُ بَضَائِعَهُمْ وقَفَلُوا إلى الأَقْفَالِ، هَذَا مَصِيْرُكُمْ عن قَرِيْبٍ، أَمَا يَمُرُّ لَكُمْ عَلَى بَالٍ، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٥]. شعر:

إنَّ المَنِيَّةَ مَنْ تَذَكَّرَ يَوْمَهَا ... هَانَتْ عليهِ حَوادِثُ الأَيَّامِ
وَلَهَى عَنِ اللَّهْوِ المُضِرِّ بِأَهْلِهِ ... وَلَهَى عَنِ الزَّلاَّتِ وَالآثَارِ
خوف الحساب وما عليه ملام
وَإذَا نَظَرْتَ إلى الحَيَاةِ وَحُبِّهَا ... أَلْفَيْتَهَا حُلُمًا مِنَ الأَحْلَامِ

إخواني، كَأَنَّكُمْ بالأُمُوْرِ الفَظِيْعَةِ قَدْ حَلَّتْ، وَبِالدُّنْيَا الَّتِي قَدْ تَوَلَّتْ تَوَلَّتْ وَبِالنَّفْسِ العَزِيْزَة عِنْدَ المَوْتِ قَدْ ذَلَّتْ، حَتَّى يُقالَ هَذِهِ الغَمْرةُ قَدْ حَلَّتْ قَدْ تَجَلَّتْ فَيَا وَيْحَ نَفْسٍ كُلَّمَا عَقَدْنَا نَفْعَهَا حَلَّتْ.

الكَلَام عَلَى قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٢١].

أَحْضِرُوْا قُلُوبَكُم لِلنُّصْحِ وَالتَّوَاصِي، احْذَرُوْا يَوْمَ الأَخْذِ بِالنَّوَاصِيْ، تَذَكَّرُوْا

(١) وفي نسخة دقت.

جَمِيْعَ الدَّانِيْ وَالقَاصِيْ، أَسَمِعْتَ يَا مَنْ يَرُوْحُ في المَعَاصِيْ ويُذَكَّرُ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾.

وَا عجبًا كَيْفَ تُحَدِّثُ السَّكْرَى، وقَدْ مَلَأَتْهُمُ الغَفْلَةُ سُكْرَى، أَمَا يَعْقِلُوْنَ الإِنْظَارَ وَالنَّكْرَى، فَكَمْ يُتْلَى عَلَيْهِمُ الوَعْظُ ذِكْرَى، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنَّمَا تَنْفَعُ الذِّكْرَى المُتَذَكِّرَ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾.

أَيُّهَا النَّصِيْحُ أَتَرَى المَنْصُوْحَ أَصَمَّ بَيِّنْ لَهُ قُبْحَ مَا جَمَعَ وَضَمَّ؟ وأَنَّ أَفْعَالَهُ جَمِيْعًا تُوْجِبُ الذَّمَّ، حَتَّى رَأَيْتَ النِّسْيَانَ لِلْعَواقِبِ قَدْ عَمَّ عَمَّ؟ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾.

كَمْ مَوْعُوْظٍ زُجِرَ فَارْعَوَى؟ كَمْ فَاسِدٍ ذُبِحَ فَاسْتَوَى؟ كَمْ مُسْتَقِيْم بِالوَعْظِ بَعْدَمَا الْتَوَى، ثُمَّ عَادَ إلى الزَّلَلِ بِمُوَافَقَةِ الهَوَى، إنَّ الهَوَى يُغَيِّرُ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٢١].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ أَقْوَالٍ يُرادُ بِهَا سِوَاكَ، وَأَعْمَالٍ لاَ يُوَافِقُ رِضَاكَ.

اللَّهُمَّ اسْتَعْمِلْنَا بِمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ بِرَحْمَتِكَ ويُحِلُّنَا بِهِ دارَ القَرارِ مِنْ جَنَّتِكَ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ مَنْ صَارَ مِنْ وَالِدِيْنَا إِلَيْكَ.

اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنا ولَهُمْ في المَصِيْرِ إِلَيْكَ وفي القُدُوْمِ عَلَيْكَ، وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

المَجْلِسُ الحادِي والثَّلاثُونَ
فِي فَضْلِ عُثْمَان بْن عَفَّان رَضِيَ الله عنه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وسَلَّم

الحَمْدُ لله الَّذِيْ لَمْ يَزَلْ قَدِيْمًا دَائِمًا خَبِيْرًا بِالأَسْرَارِ وَعَالِمًا، قَرَّبَ مَنْ شَاءَ فَجَعَلَهُ صَائِمًا وقَائِمًا، طَرَدَ مَنْ شَاءَ فَصَارَ فِيْ بَيْدَاءِ الضَّلالِ هَائِمًا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَإِنْ بَاتَ العَبْدُ رَاغِمًا، يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّائِبِ إِذَا أَمْسَى نَادِمًا.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنَ التَّقْصِيرِ سَالِمًا، وأُقِرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيْدِ مُوْقِنًا عَالِمًا، وأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي سَافَرَ إِلى قَابَ قَوْسَيْنِ ثُمَّ عَادَ غَانِمًا، وعَلَى أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِهِ الَّذِيْ لَم يَزَلْ رَفِيقًا مُلائِمًا، وعَلَى عمَرَ الَّذِيْ لَمْ يَعْبُدْ رَبَّهُ مُسِرًّا كَاتِمًا، وعَلَى عُثْمَانَ الَّذِي قُتِلَ مَظْلُومًا ولم يَكُنْ ظَالِمًا، وفيهِ نَزَلَ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: الآية ٩]، وعَلَى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ في العُلُومِ بَحْرًا وفي الحُرُوْبِ صَارِمًا، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ الَّذِيْ لَمْ يَزَلْ حَوْلَ نُصْرَتِهِ حَائِمًا.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ ذِكْرَ الآخِرَةِ لِقُلُوبِنَا مُلَازِمًا، وَوَفِّقْنَا للتوفيق لِلتَّوْبَةِ تَوْفِيْقًا جَازِمًا، وذَكِّرْنَا رَحِيْلَنَا قَبْلَ أَنْ نَرَى المَوْتَ هَاجِمًا، وَاقْبَلْ صَالِحَنَا وَاغْفِرْ لِمَنْ كَانَ آثِمًا.

وَرَوَى أَبُو سَعِيْدٍ الخُدْرِيُّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلى آخِرِهِ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ عُثْمَانُ رَضِيْتُ عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ**».

وَاعْلَمْ أَنَّ عُثْمَانَ مِمَّنْ تَقَدَّمَ إسلامُه قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ رَسُولُ الله دَارَ الأَرْقَم. وعَن أَبِيْ سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَـٰن قَالَ: أَشْرَفَ عُثْمَانُ مِنَ القَصْرِ وهُوَ مَحْصُوْرٌ فَقَالَ: أُنْشِدُ بِالله مَنْ شَهِدَ رَسُوْلَ الله ﷺ يَوْمَ أُحُد إِذَا اهْتَزَّ الجَبَلُ فَوَكَزَهُ بِقَدَمَيْهِ وقال: «**اُسْكُنْ حِراءُ لَيسَ عَلَيْكَ إلاَّ نَبِيٌّ أو صِدِّيْقٌ أَوْ شَهِيْدٌ**». وأَنَا مَعَهُ فَأَنْشَدَ لَهُ رِجالٌ وقالَ: وأُنْشِدُ بالله مَنْ شَهِدَ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمَ جَيْشِ العُسْرَةِ قَالَ: «**مَنْ يُنْفِقُ اليَوْمَ نَفَقَةً متَقَبَّلَةً**»، فَجَهَّزْتُ نِصْفَ الجَيْشِ مِنْ مَالِيْ.

قَالَ: فَأَنْشَدَ لَهُ رِجَالٌ، وقالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ عَلِيٌّ إلى عُثْمانَ يَوْمَ الدَّارِ وَقَدْ أَغْلَقَ البَابَ ومَعَهُ حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وعَلَيْهِ سِلاحُه فقالَ لِلْحَسَن: اُدْخُلْ إلى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ فَأَقْرِئْهُ السَّلَامَ وقُلْ لَهُ: إِنَّمَا جِئْتُ لِنُصْرَتِكَ فَمُرْنِي بِأَمْرِكَ، فَدَخَلَ الحَسَنُ، ثُمَّ خَرَجَ فقالَ لأَبيه: إنَّ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يُقْرِئُ عليكَ السَّلامَ وَيَقُولُ لَكَ: لا حَاجَة لِيْ في القِتَالِ وإِهْرَاقِ الدِّمَاءِ. قال: فَنَزَعَ عِمَامَةً سوداء فَرَمَى بِهَا بَيْنَ يَدَي البابِ وَجَعَلَ يُنَادِي ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: الآية ٥٢].

وعظ:

مَنْ عَرفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، لَمْ يُؤْثِرِ الهَوَى ولم يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَمَنْ تَفَكَّرَ في رَحِيْلِ مَن كَانَ لَدَيْهِ، صَارَ النُّهُوْضُ مُتَيَقَّنًا عليه، كَمْ فَرِح بِشُهْرَةٍ وَإِهْلَالِهِ مُتَهَلِّلٍ بِرُؤْيَةِ هِلَالِهِ، اخْتَطَفَهُ المَوْتُ مِنْ خِلَالِهِ، كَمْ مَائِلٍ إلى جَمْعِ مَالِهِ تَرِكَةً تَرَكَهُ ومَرَّ بِأَثْقَالِهِ، هَلْ رَحِمَ المَوْتُ مَرِيْضًا لِضَعْفِ أَوْصَالِهِ؟ هَلْ تَرَكَ كَاسِبًا لأَجْلِ أَطْفَالِهِ. وينشد:

لَقَدْ أَخْبَرَتْكَ الحَادِثَاتُ نُزُوْلَهَا ... ونَادَتْكَ إلاَّ أَنَّ سَمْعَكَ ذُوْ وَقْرِ
تَنُوْحُ وتَبْكِيْ لِلْأَحِبَّةِ أنْ مَضَوْا ... وَنَفْسُكَ لاَ تَبكِي وَأنْتَ عَلَى الإِثْرِ

وَيْحَكَ يَا هَذَا، أَتَسْمَعُ مَا يَجْرِيْ، ومَا لَكَ عَيْنٌ تَجْرِيْ؟ وَوَيْحَكَ وَيْحَكَ تَعْرِفُ قُبْحَ مَا تَأْتِيْ ثُمَّ تُدْعَى إلى التَّوْبَةِ ومَا تَأْتِيْ، حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِيْ وَيُصِمُّ، وَيْحَكَ إِنَّما نَمْرُوْدُ رُمِيَ بِسَهْم وَاحِدٍ وَيَدٌ تَشْخَصُكَ في القَوْسِ لا تَبرَحُ، كُلَّما نَفِدَ نُشَّابُكَ اسْتَقْرَضْتَ، سَتَنْدَمُ إذَا شَاهَدْتَ عَمَلَكَ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾

[النَّازعَات: الآية ٣٥]. وَا عَجَبًا مَتَى تَنْتَبِهُ مِنْ رَقْدَةِ الغَفْلَةِ. وينشد:

يَا قَلْبُ مَا أَطْوَلَ هَذَا الغَرَام ... يَوْمَ نَأَى الحَيُّ ويَوْمَ المَقَامِ
مَتَى تَفِيْقُ اليَوْمَ مِنْ نَشْوَةٍ ... وَأَنْتَ سَكْرَانٌ بِغَيْرِ المُدَامِ

يَا وَحِيْدًا عَنِ السَّالِكِيْنَ، يَا بَعِيْدًا عَنِ العابِدِيْنَ، فُتِحَ البَابُ لأَرْبَابِ الأَلْبَابِ، ورُدَّ في وَجْهِكَ أَمَا لَكَ لِسَانٌ تَسْأَلُنَا بِهِ؟ أَمَا لَكَ وَقْتٌ تُنَاجِيْنَا فِيْهِ؟ وَلاَ قَلْبٌ تَجِدُنَا عِنْدَهُ؟ أَمُسْتَوْحِشٌ أَنْتَ مِمَّا جَنَيْتَ؟ فَأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسْ بِالله، ومَا أَظُنُّ قَسَاوَةَ قَلْبِكَ إِلاَّ مِنْ أَثَرِ سَخَطِكَ، وَالله إِنَّ الرَّمَدَ لا يَخْفَى مِنَ العَمَى.

إخواني، إِذَا رَأَيْتُم بَاكِيًا فَلَا تَعْجَبُوْا مِنْ قَاسِي القَلْبِ قَرَعَهُ سَوْطُ المَوَاعِظِ فَسَالَتْ عَيْنُهُ فَإِذَا مُوْسَى ضَرَبَ بعصَاهُ الحَجَرَ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: الآية ٦٠]. وينشد:

صَحَا كُلُّ عُذْرِيِّ الغَرَامِ عَنِ الهَوى ... وَأَنْتَ على حُكْمِ الصَّبَابَةِ نَازِلُ
نَزَلْنَا عَلَى التَّوْدِيْعِ مِنْ دَارَةِ الحِمَى ... فَظَنَّتْ عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ المَنَازِلُ
وَأَنْكَرَ صَحْبِيْ رَسْمَ دَارٍ عَرَفْتُهَا ... مَعَالِمُهَا بَعْدَ الحَبِيْبِ مَجَاهِلُ
مَنَازِلُ كَانَتْ لِلْبُدُوْرِ مَطَالِعُ ... وَلَكِنَّهَا بِالبَيْنِ عَنْهَا أَوَافِلُ

إخواني، العُمْرُ أَنْفَاسٌ تَسِيْرُ، لا بَلْ تَطِيْرُ، الأَمَلُ مَنَامٌ لا يُرَى فِيهَا إِلاَّ الأَحْلامُ، هَذَا سَيْفُ الموتِ قَدْ دَنَا، فَإِنْ ضَرَبَ قَدَّنَا فهَذَا حَادِي الرَّحِيْل ولا زَادَ عِنْدَنَا، انْتَبِهُوْا مِنْ رُقَادِ الغَفْلَةِ، تيَقَّظُوْا مِنْ نَوْمِ اليَقْظَةِ، عَرِّجُوْا عَنْ طَرِيقِ البَطالَةِ، ابْعُدُوْا عَنْ دِيَارِ الوَحْشَةِ، أَوَّلُ مَنازِلِ الآخِرَةِ القَبْرُ، فَمَنْ مَاتَ فَقَد حُطَّ رَحلُ السَّفَرِ، وَسَائِرُ الوَرَى سَائِرٌ مَنْ كانَ في سِجْنِ التُّقَى فَالمَوْتُ يُطْلِقُهُ، ومَنْ كَانَ هَائِمًا في بَوَادِي الهَوَى فَالمَوْتُ لَهُ حَبْسٌ يُوْبِقُهُ، مَوْتُ المُتَعَبِّدِيْنَ عِتْقٌ لَهُمْ مِنْ أَسْرِ قَلَقِ الكَدِّ وَرِفْقٌ لَهُمْ مِنْ تَعَبِ المُجَاهَدَةِ، ومَوْتُ العُصَاةِ سَبَبٌ يُسْتَرَقُّوْنَ بِهِ لِطُوْلِ العَذَابِ مَن كانَ وَاثِقًا بِالسَّلامَةِ مِنَ الخِيَانَةِ فَرِحَ بِفَكِّ بَابِ السِّجْنِ لَمَّا تَوَاعَدَ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ بِالصَّلْبِ أَنْسَاهُمْ أَمَل لِقَاءِ الحَبِيْبِ مَرَارَةَ الوَعِيْدِ، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ

إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأعراف: الآية ١٢٥]. يَا فِرْعَوْنُ غَايَة مَا تَعْمَلُ أَنْ تُحْرِقَ الجِسْمَ مَنْ لاَحَتْ لَهُ مِنِّي نَسِيَ تَعَبَ المَدَارِجِ. شعر:

أَبْصَرَ الرَّكْبُ عَلَى الجَزَعِ ضُحَا　　فَتَوَلَّى دَمْعُهُ مُنْسَفِحَا
يَا خَلِيْلَيَّ بِجَرْعَاءِ الحِمَى سَائِلًا　　مَنْ جَلَّ ذَاكَ الأَبْطَحَا
وَخُذَا عَنِّيْ أَحَادِيْثَ الغَضَى　　بَخِلَ الرَّاوِيْ بِهَا أَوْ سَمَحَا
وَاسْتَمْلَاهَا بِدَمْعِيْ وَاكْتُبَا　　عَنْ أَخِي الشَّوْقِ جَوَى مَا شَرَحَا
وإذَا هَبَّ الصَّبَا قُولا لَهُ　　عُدْ فَقَدْ هَيَّجْتَ قَلْبًا مَا صَحَا
يَا أُهَيْلَ الحَيِّ مِنْ كَاظِمَةٍ　　عَادَ مَسْتُوْرُ الهَوَى مُفْتَضِحَا

رَوَى حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ قَالَ: خَرَجَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَام إلى النَّاسِ ما قُتِلَتْ أُمه قَطُّ يَوْمَ الدَّارِ. فقالَ لَهُمْ: يَا قوم، إِنَّه والله مَا قَتَلَتْ أُمَّةٌ قَطُّ نَبِيًّا إِلاَّ قُتِلَ منهَا مكانَهُ سَبْعُوْنَ أَلْفًا، ولا قَتَلَتْ أُمَّةٌ قَطُّ خَلِيْفَةً إِلاَّ قُتِلَ مِنهَا مَكَانَهُ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُوْنَ أَلْفًا فَأَحْرَقُوا البابَ. فقالَ عُثْمَانُ: مَا عَنْدَهُمْ بَعْدَ هَذَا بَقِيَّةٌ، ثُمَّ دَخَلُوْهُ فَقَتَلُوْهُ. شعر:

قَتَلُوْهُ مَظْلُوْمًا مِنْ لَدَى المِحْرَابِ　　مِنْ غَيْرِ مَا جُرْمٍ سِوَى الأَحْقَادِ
ثُمَّ اسْتَحَلُّوْهُ عَقِيْلَةَ مَالِهِ　　ونَسُوْا جَمِيْلًا لَهُ وَأَيَادِيْ

أَخْرَجَ عُثْمَانُ المَالَ رَاضِيًا، فَمَاتَ عَنْهُ الرَّسُوْلُ رَاضِيًا، مَا كانَ لِلدُّنْيَا عِنْدَهُ قَدْرٌ، إِذَا وَازَنَهَا البَخِيْلُ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، تَأَوَّلَ بِإِعْطَاءِ الأَقَارِبِ صِلَةَ الرَّحِمِ، فَوَقَعَتْ فَتْوَاهُ بِيَدِ مَنْ فَهِمَ، فَنَهَضَ إلى قَوْمٍ وَثَارُوْا، ولَوْ كَانُوا الذِيْنَ أُعْطُوا مَا سَارُوْا. شعر:

فَكَيْفَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ　　وَأَيْقَنَ أَنَّ الله لَيْسَ بِغَافِلِ
وقَالَ لأَهْلِ الدَّارِ وَلاَ تَقْتُلُوهُم　　عَفَا الله عَنْ ذَنْبِ امْرِئٍ لَمْ يُقَاتِلِ

قال: رآهُ رَسُولَ الله ﷺ لَيْلَةَ قَتْلِهِ وهُوَ يَقولُ: أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ، فَأَصْبَحَ صَائِمًا، فَلَمَّا دَخَلُوْا علَيْهِ ضَرَبَهُ رَجُلٌ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَ يَدَهُ. فقالَ: أَمَا والله إِنَّهَا لأَوَّلُ كَفٍّ خطَّتِ المُفَصَّلَ.

فقالَ حَسَّانُ بْنُ ثابِتٍ: اللَّهمَّ إنهم قطعوا يده فاقطع أيديهم. قال: وكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَشِيَّةً، يدورون عِنْدَ بَابِ المَسْجِدِ لِلْكَلام على قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

عَزَّتِ الدَّارُ وَجَلَّ المَرَامُ، ونَالَ سَاكِنُهَا فَوْقَ المَرام، فَانْتَبِهْ يَا مَشْغُولاً عنها بِأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ، دَارُ الإِعْزَازِ والإِكْرَامِ، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

بُنِيَتْ لِقَوْمٍ كِرَامٍ لاَ غُرْمَ فِيهَا وَلاَ غَرَامَ، مَا سَاكِنُهَا مَنْ يُضَامُ، تَمَنَّهَا يَا مُشْتَرِيْنَ صَلَاةٌ وصِيَامٌ، نَعِيْمُهَا في دَوَامٍ، لَذَّاتُهَا في تَمَامٍ، الحُور في القُصُوْرِ وَالخِيَامِ، شَهَوَاتُهَا لَمْ تُخْطَر عَلى الأَوْهَامِ، انْتَبِهُوْا لِطَلَبِهَا يَا نِيَام، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

قَدْ جُمِعَتْ كُلُّ مُشْتَهَى، وَزَادَتْ على الغَرَضِ وَالمُنْتَهَى، عَجَبًا لِمَنْ غَفَلَ عَنْهَا وسَهَى، انْهَضْ عَلَيْهَا يَا غُلَامُ، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: الآية ٢٥].

أَيُّهَا السَّكْرَانُ بِالأَمَلِ لَقَدْ آنَ الرَّحِيلُ، وَمَشِيْبُ الرَّأْسِ وَالقَرِينِ لِلْمَوْتِ دَلِيْلٌ، فَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَةِ الغَفْلَةِ فَالعُمْرُ قَلِيْلٌ، اَطْرَحْ سَوْفَ وَحَتَّى فَهُمَا دَاءٌ دَخِيْلٌ.

إخواني، لَقَدْ وَعَظَكُمُ الزَّمَانُ وَمَا قَصَّرَ، وتَكَلَّمَ الصَّامِتُ ومَا أَقْصَرَ، وَلاحَ الهَوَى وَإِنَّما الشَّأْنُ فِيمَنْ أَبْصَرَ، ونَطَقَتِ المواعِظُ بِزَجْرٍ لا يُحْصَرُ، هَلَكَتْ ثَمُوْدُ بِصَيْحَةٍ، وعَادٌ بِرِيْحٍ صَرْصَرٍ، وَكِسْرَى وَقَصْرُ قَيْصَرَ تَاالله مَا يُبَالِيْ مِيْزَانُ الجَزَاءِ أَرَبِحَ أَمْ أَخْسَرَ، ولاَ حَاكِمُ العَدْلِ بِمَنْ أَفْلَسَ وَأَعْسَرَ، هَذَا أَمْرٌ مُجْمَلٌ، وفي غَدٍ يُفَسَّرُ، أَيُّهَا المُتَحَرِّكُ في الدُّنْيَا لاَ بُدَّ مِنْ سُكُوْنٍ، لاَ يَغُرَنَّكَ سَهْلُهَا فَبَعْدَ السَّهْلِ حَزُوْنٌ، كَمْ سَلَبَتْكَ مِنْ حَبِيْبٍ وَبَعْدَ الفَسْخِ يَهُوْنُ، مَا فَرْجُهَا مُستَتَمٌّ وَلا تَرْحُهَا مَأْمُوْنٌ، إِنَّهَا الدَّارُ الغُرُوْرِ ودَائِرةُ المَنُوْنِ، كَمْ تَلُوْمُ وَلَكِنْ أَيْنَ العَاقِلُ مِنَ المَجْنُونِ. ويقال:

يَا عَجَبًا لِلأَرْضِ مَا تَشْبَعُ ... وكُلُّ حَيٍّ فَوْقَهَا يَفْجَعُ
وقَومُ نُوحٍ أَدْخَلَتْ بَطْنَهَا ... وَظَهْرُهَا مِنْ جَمْعِهِمْ بَلْقَعُ
ابْتَلَعَتْ عَادًا فَأَفْنَتْهُمْ ... وَبَعْدَ عَادٍ هَلَكَتْ تُبَّعُ
يَا أَيُّهَا الرَّاجِيَ لِمَا قَدْ مَضَى ... هَلْ لَكَ فيمَا قَدْ مَضَى مَطْمَعُ

وعظ:

يَا مَنْ عَاهَدَنَا عَلَى الطَّاعَةِ في الإِعْلَانِ وَالإِسْرَارِ كَيْفَ اسْتَحَلَّ عَقْدَ التَّوْبَةِ وَعَقْدَ الإِصْرَارِ؟ ومَتَى يَخْرُجُ العَاصِيْ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ؟ شَيْبٌ وَعَيْبٌ نِهَايَةُ الإِدْبَارِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا غَدَّارَةٌ؟ أَمَا بَرْدُ لَذَّاتِهَا يَنْقَلِبُ حَرَارَةً؟ أَمَا رِيْحُهَا على التَّحْقِيْقِ خَسَارَةٌ؟ أَمَا يَنْقُصُ الدِّيْنُ كُلَّمَا زَادَتْ عِمَارَةً؟ أَمَا قَتَلَتْ أَحْبَابَهَا وَإِلَيْكَ الإِشَارَةُ؟ إذا قَالَ مُحِبُّهَا عَلَى التَّحْقِيْقِ أَهْلَكَتْهُ وَقَالَتْ: اسْمَعِيْ يَا جَارَةُ، يَا مُتَلَطِّخًا بِقُذَارِ الظُّلْمِ بَادِرِ الغَسْلَ قَبْلَ أَنْ تَحْزَنَ، لا يَغُرَّنَّكَ عَيْشٌ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، فَالمُحَاسَبَةُ أَمَرُّ مِنَ العَلْقَمِ.

إخواني، مَنْ رَأَى تَصَرُّف الدَّهْرِ انْتَبَهَ، أَمَا في القَبْرِ عِبْرَةٌ مَهْدُ الطِّفْلِ عُنْوَانُ اللَّحْدِ رِيْحُ الأَجَلِ، تَقْشَعُ غَيْمَ الأَمَلِ، الشَّبَابُ بَاكُوْرَةُ الحَياةِ، والشَّيْبُ رِدَاءُ الرَّدَى، لَوْ أَنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ يُبَاعُ لَبَذَلْنَا فِيْهَا أَنْفَسَ الأَنْفُسِ، إِذَا قَرَعَ المَرْءُ بَابَ الكَهُوْلَةِ فَقَدِ اسْتَأْذَنَ عَلَى البَلَاءِ، مَنْ عَرَفَ السِّتِّيْنَ أَنْكَرَ نَفْسَهُ، مَنْ بَلَغَ السَّبْعِيْنَ اخْتَلَفَ إليهِ رُسُلُ المَنِيَّةِ، يَا عَاصِي قَطَعَ الشَّيْبُ سِلْكَ العُمْرِ فَالْتَقِطْ بَاقِي الحُزْنِ وَا فَضِيْحَتَاهُ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّتَهُ ولا يَنْشُدُ قَلْبَهُ، وَا فَضِيْحَتَاهُ مِمَّنْ يُشْفِقُ أَنْ يُنْفِقَ دَرَاهِمَهُ وقَدْ ضَيَّعَ عُمْرَهُ. وينشد:

يَا صَاحِ إِنْ كُنْتَ لِيْ أَوْ مَعِيْ ... فَعُدْ إِلى أَرْضِ الحِجَازِ نَرْتَعِي

وَسَلْ عَنِ الوَادِيْ وَأَرْبَابِهِ ... وَانْشُدْ فُؤَادِيْ في رُبَا المَجْمَعِيْ

عِنْدَ مِنًى كُنْتُ وكَانَ الهَوَى ... فصَمَّ لاَعَنَهُمْ مَسْمَعِيْ

لَهْفِي عَلَى طِيْبِ لَيَالٍ خَلَتْ ... عُوْدِيْ تَعُوْدِيْ مُذْنَفًا قَدْ نُعِيْ

إِذَا تَذَكَّرْتُ زَمَانًا مَضَى ... فَوَيْحَ أَجْفَانِيْ مِنَ الأَدْمُعِيْ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا في هذا اليوم المُبَارَكِ مِنَ المَقْبُوْلِينَ. اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِالعِلْم، وزَيِّنَّا بالحِلْم وَالوَرَع. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا عِلْمًا نَافِعًا، ونَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْم لاَ يَنْفَعُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِنَا أَعْظَم بَرَكَةً عَلَيْنَا. اللَّهُمَّ أَدِمْ صَلَاحَنا مَا أَبْقَيْتَنَا. اللَّهُمَّ لا تَنْزَعْ عَنَّا صَالِحَ مَا آتَيْتَنَا. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِوَالِدِيْنَا وَلِذُرِّيَّتِنَا ولجمِيْع المسلمينَ. وصلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّيْنَ، وعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِيْنَ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، وسَلِّم تَسْلِيمًا كثيرًا كَثيرًا.

المَجْلِسُ الثَّانِي والثَّلاثُون
فِي فَضْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّد وآلِهِ وسلَّم

الحَمْدُ لله الَّذِي أَصْبَحَتْ لَهُ الوجُوهُ دَلِيْلَةً عَانِيَةً وحَذَّرَتْهُ النُّفُوْسُ مُجِدَّةً مُتَوانِيةً.

وعظ:

قَدَّمَ الدُّنْيَا الحقيرَة الفَانِيَةَ، وشَوَّقَ إلى جَنَّةٍ قُطُوْفُهَا دَانِيَةٌ، وخَوَّفَ عُطَّاشَ الهَوَى أَنْ يُسْقُوْا مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ.

أَحْمَدُهُ على تَقْوِيم شَأْنِهِ، وَأَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّ شَانٍ وشانِيَةٍ، وأُحَصِّنُ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيْدِ إِيْمَانِيَة، وأُصَلِّي عَلَى رَسُوْلِهِ صلاةً مُمَهِّدةً لِعِزَّةٍ بَانِيَةٍ، وعَلَى صَاحِبِهِ السَّابِقِ في الرِّفَاقِ وَالإِنْفَاقِ والصُّحبَةِ في الدَّارِ وَالغُربَةِ في الغَارِ أَرْبَعٌ لِلْفَخْرِ بَاينةٌ ولَهُ فَضِيْلَةُ التَّقَلُّلِ والتَّحَلُّلِ والرَّأْفَةِ وَالخِلافَةِ صَارَتْ ثَمَانِيَةً، وعَلى عُمَرَ مُقِيمِ السِّيَاسَةِ على كُلِّ نَفْسٍ جَانِيَةٍ، وعَلَى عُثمانَ اخْتَارَهُ الرَّسُولُ بَعْدَ مَوْتِهِ لابْنَتِهِ الثَّانِيَةِ، وعَلى عَلِيٍّ المُنَزَّلِ فِيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤]، وعَلى عَمِّهِ العبَّاسِ المُسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ فإِذَا أَسْبَابُ الغَيْثِ وَالغَوْث دَانِيَةٌ.

اعْلَم أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلامُ لا يُزاحَمُ في قُرْبِ نَسَبِهِ، وقَد أَقَرَّ الكُلُّ بفَضْلِهِ وعِلْمِهِ، وبُعِثَ رسول الله ﷺ وهُو ابن سبع سِنِيْنَ فَتَبِعَهُ ولم يَزَلْ مَعَهُ يَكْشِفُ الكُرُوْبَ عن وَجْهِهِ.

قالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه: انْطَلَقْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَتَيْنَا الكعبَةَ، فقَالَ لي رسول الله ﷺ: «**اجْلِسْ**»، وصَعِدَ عَلَى مَنْكِبَيَّ، فَذَهَبْتُ لأَنْهَضَ بِهِ، فَرَأَى مِنِّي ضُعفًا فَنَزَلَ وجَلَسَ لي رَسُولُ الله ﷺ وقال: «**اصْعَدْ عَلَى مَنْكِبَيَّ**»، فَصَعِدْتُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، قالَ: فَنَهَضَ بِيْ، قالَ فَإِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي لَو شِئْتُ لَنِلْتُ أُفُقَ السَّماءِ حَتَّى صَعِدتُ عَلَى البَيْتِ وعليه تِمْثَالُ صِفْرٍ أَوْ نُحاسٍ فَجَعَلْتُ أُزاوِلُهُ عَنْ يَمِيْنِهِ وعن شِمَالِهِ وبَيْنَ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ حَتَّى إِذَا اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ قالَ لِيْ رَسُولُ الله ﷺ: «**اقْذِفْ بِهِ**»، فَقَذَفْتُ بِهِ فَتَكَسَّرَ كَمَا يَتَكَسَّرُ القَوَارِيْرُ، ثُمَّ نَزلْتُ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا ورَسُولُ الله ﷺ نَسْتَبِقُ حَتَّى تَوَارَيْنَا بِالبُيُوتِ خَشْيَةَ أَنْ يَلْقَانَا النَّاسُ.

وكَانَ الخَلقُ يَحْتَاجُوْنَ إلى عِلْمِ عَلِيٍّ حَتَّى قالَ عُمَرُ: آه من مُعْضِلَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَبُو حَسَنٍ، فَلَمَّا وُلِّيَ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنِ الزُّهْدِ في الدُّنْيَا. وكانَ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَل يَقُولُ: إنَّ عَلِيًّا يقول: مَا زَانَتْهُ الخِلَافَةُ وَلَكِنْ هُوَ زَانَهَا. وينشد:

مَا زَانَهُ المُلْكُ إِذَا حَوَاهُ ... بَلْ هُوَ شَيْءٌ بِهِ يُزَانُ
جَرَى فَفَاتَ المُلوكَ سَبْقًا ... فَلَيْسَ قُدَّامَهُ عَنَانُ
نَالَتْ يَدَاهُ ذُرى فِعَالٍ ... يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهَا العَنَانُ

أَيُّهَا المُقْتَدِيْ عليكَ بالعُزْلَةِ، فإِنَّهَا تَضُمُّ شَتَاتَ قَلْبِكَ وتَحْفَظُ مَا لَفَقْتَ مِنْ عَزَائِمِكَ؛ لأنَّ حَالَكَ كَمُرقَّعَةٍ بَالِيَةٍ إنْ تَحَرَّكْتَ فيهَا تَمَزَّقَتْ العُزْلَةُ حَمِيَّةٌ مِنَ التَّخْلِيْطِ، وَكُفَّ كَفَّ التَّبْذِيْرِ تَخطّ عَيْنَ بَانِي الهَوَى فَتَأْلَفَ الفِطامَ عَنِ الطَّيْرَانِ عُزلَةُ المَرْءِ عِزٌّ لَهُ، واسْتَوْحِشْ مِمَّا لا يَدُوْمُ مَعَكَ، وَاسْتَأْنِسْ بِمَنْ لاَ يُفَارِقَكَ عُزْلَةُ الجَاهِلِ فَسَادٌ، وَأَمَّا عُزْلَةُ العَالِمِ فَمَعَهَا سِقَاؤُهَا وحِذَاؤُهَا إِذَا اجْتَمَعَ العَقْلُ واليَقِيْنُ في بَيْتِ العُزْلَةِ، وَاسْتُحْضِرَا وجَرَتْ بَيْنَهُمَا مُنَاجَاةٌ أُثْخِنَتِ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوْءِ بِجِراحَاتِ اللَّوْمِ، فَإِذَا الَّتِي كَانَتْ فَجرَتْ قَدِ انْفَجَرَتْ فَجُرَّتْ فَتَفَجَّرَتِ الأَحْزانُ بِسَوَاقِي الدَّمْعِ فَتُرْوِيْ حَرْثَ النَّدَمِ فَترى حَرْثَ التُّقَى قَدِ اسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ. وينشد:

قَدْ أَصْبَحَ جِسْمِي لِلسَّقَامِ غَرَضًا ... وَالعُمْرُ مَضَى وَمَا بَلَغْتُ الغَرَضَا
في حُبِّكُمْ السُّلُوُّ لِيْ مَا عَرَضَا ... وَالجَوْهَرُ قَدْ مَضَى فَبقوا العَرَضَا

قَدْ صِرْتُ بِهَجْرِكُمْ وَحُزْنِيْ حَرَضًا إنْ كَانَ رِضَاكُمْ بِهَذَا فَرَضَا
وَصْلِي مَعَكُمْ كَانَ زَمانًا ومَضَى كَالبَرْقِ عَلَى السَّحابِ أَوْ مَا وَمَضَا

إخواني، شَهَواتُ الدُّنْيَا لِعْبُ ولهو الخِيَالِ، ونَظَرُ الجَاهِلِ مَقْصُوْرٌ عَلَى الظَّاهِرِ، فَأَمَّا ذَوَا الفَهْمِ فَيَرَى مَا وَرَاءَ السِّتْرِ لاحَ لِلأَوْلِيَاءِ حَبُّ المُشْتَهَى، فَلَمَّا مَدُّوْا أَيْدِي التَّنَاوُلِ بَانَ لَهُمْ بِأَبْصَارِ البَصَائِرِ خَيْطُ الفَخِّ فطَارُوْا بِأَجْنِحَةِ الحَذَرِ، وصَوَّتُوا إلى الرَّعِيْلِ الثَّاني ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: الآيتان ٢٦، ٢٧].

يَا مَنِ انْطَوَى بُرْدُ شَبَابِهِ وَخُبِيَتْ حُلَلُ تَلَفِهِ وبَلَغَتْ سَفِيْنَةُ عُمْرِهِ، قِفْ عَلَى ثَنِيَّةِ الوَداعِ فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ نَظْرَةٌ بِتَنَعُّمٍ لَوْ فَتَحْتَ عَيْنَ اليَقْظَةِ رَأَيْتَ حِيْطَانَ العُمْرِ قَدِ انْهَدَمَتْ، صَاحَ دِيْكُ الإِيْقَاظِ في سَحَرِ لَيَالِ العِبَرِ فَمَا اسْتَيْقَظْتَ فَسَتَنْتَبِهُ إِذَا نَعَقَ غُرابُ البَيْنِ بَيْنَ الْفَيْنِ، لا تَحْسِبُوا الأَمْرَ سَهْلًا نَيْلُ السَّهِيْلِ أَسْهَلُ. وينشد:

يَا قَلْبُ إلاَمَ تُطَالِبُنِيْ بِلِقَاءِ الأَحْبَابِ وَقَدْ رَحَلُوْا
أَرْسَلْتُكَ فِي طَلَبِي لَهُمْ لِتَعُوْدَ فَضَعْتَ ومَا حَصَلُوْا
سَلِّمْ وَاصْبِرْ وَاخْضَعْ لَهُمْ كَمْ مِثْلَكَ قَبْلَكَ قَدْ قَتَلُوْا
مَا أَحْسَنَ مَا عَلِقْتَ بِهِمْ آمَالَكَ مِنْهُمْ لَوْ فَعَلُوْا

يَا مُهْلِكًا نَفْسَهُ الَّتِيْ لاَ قِيمَةَ لَهَا، لأَجْلِ دُنْيَا لاَ وَقْعَ لَهَا، إلى مَتَى هَذَا الحِرْصُ وَمَا تَنَالُ مِنْهَا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَكَ؟ أَمَا رَأَيْتَ مَرْزُوقًا لاَ يَتْعَبُ وَمُتْعَبًا لاَ يُرْزَقُ. هَذَا مُوْسَى في تَقَلْقُلَةِ أَرِنِي ومَا رَأَى، وَمُحَمَّدٌ ﷺ يُزْعَجُ مِنْ مَنَامِهِ وَمَا طَلَبَ. شعر:

قَضاهَا لِغَيْرِيْ وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا يَطْلُبُ مُوْسَى التَّجَلِّيْ وَيُرْزَقُ الجَبَلُ

إخواني، امْنَعُوْا أَنْفُسَكُمْ مَلاذَ مُباحِهَا لِيَقَعَ الصُّلْحُ على تَرْكِ الحَرَامِ، لَيسَ مَنْ بَارَزَنَا بِالمُحَارَبَةِ كَمَنْ أَقَلَّ فِعْلِ الدُّنْيَا تَمْزِيْقُ العُمْرِ بِكَفِّ التَّبْذِيْرِ، وَيْحَكَ خَاصِمْ نَفْسَكَ عِنْدَ حَاكِمِ عَقْلِكَ لاَ عِنْدَ قَاضِيْ هَوَاكَ، فَحَاكِمُ العَقْلِ دَيِّنٌ وقَاضِي الهَوَى يَجُوْدُ.

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا وَرَاءَكَ وَالآخِرَةَ أَمَامَكَ، وَالطَّلَبُ لِمَا وَرَاءَكَ هَزِيْمَةٌ، إِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنَ الدُّنْيَا مَنْ لاَ فَهْمَ لَهُ كَمَا أَنَّ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ تَسُرُّ النَّائِمَ.

الدُّنْيَا نَهْرُ طَالُوْتَ، وَالفَضَائِلُ تُنَادِيْ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩]، لَيْسَ مَعْدِنُ اليَاقُوْتِ كَمَعْدِنِ الجَصِّ، أَبْدَانُ العَارِفِيْنَ أَقْفَاصٌ لِطُيُوْرِ الأَرْوَاحِ فَتَمَنَّى الخُرُوْجَ إلى الحَبِيْبِ، وَأَجْسَادُ الغَافِلِيْنَ إِصْطَبْلٌ لِدَوَابِّ الهَوَى تَمْضَغُ اللُّجَمَ حُبًّا لِلْعَلَفِ، إِذَا مَاتَ المُقَصِّرُ تَشَبَّثَتِ الرُّوْحُ بِالجَسَدِ تَقُوْلُ: مَا أُحِبُّ أَن تَبْرَحَ، وإذا مَاتَ الصَّالِحُ تَشَبَّثَ الجَسَدُ بِالرُّوْحِ، الجَسَدُ يَقُوْلُ خُذْنِيْ مَعَكَ. وينشد:

سَارُوْا وَأَقَامَ فِي فُؤَادِيْ كَمَدُ ... لَمْ يَلْقَ كَمَا لَقِيْتُ وقَلْبِيْ أَحَدُ
شَوْقٌ وَجَوًى وَنَارُ وَجْدٍ تَقِدُ ... مَا لِيْ جَلَدٌ ضَعُفَتْ مَا لِيْ جَلَدٌ

رَوَى أَحْمَدُ حَدَّثَنَا وَهَبُ بْنُ إِسْمَاعِيْلَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيْعَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ جَاءَهُ ابْنُ النَّبَّاحِ فقالَ له: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ امْتَلأَ بَيْتُ المَالِ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ. قَالَ: الله أَكْبَرُ. قَالَ: فقامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى ابْنِ النَّبَّاحِ حَتَّى قَامَ عَلَى بَابِ بَيْتِ المَالِ لِلْمُسْلِمِيْنَ وَهُوَ يَقُوْلُ: يَا صَفْرَاءُ يَا بَيْضَاءُ غُرِّيْ غَيْرِيْ هَأُ وَهَا حَتَّى مَا بَقِيَ فِيْهِ دِيْنَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ. ثُمَّ أَمَرَ بِنَضْحِهِ وَصَلَّى فِيْهِ رَكْعَتَيْنِ.

قَالَ ضِرَارُ بْنُ ضَمْرَةَ: أَشْهَدُ بِالله لَقَدْ رَأَيْتُ عَلِيًّا في بَعْضِ مُوَافِقِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُجُوْفَهُ وغَارَتْ نُجُوْمَهُ، وَقَدْ مَثَلَ في مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيْمِ وَيَبْكِي بُكَاءَ الحَزِيْنِ كَأَنِّي أَسْمَعُهُ وهُوَ يَقُوْلُ: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيَّ تَعَرَّضْت أَمْ بِي تَشَوَّقْت؟ هَيْهَات هَيْهَات غُرِّي غَيْرِيْ، وقَدْ بَتَّلْتُكِ ثَلَاثًا لاَ رَجْعَةَ لِيْ فِيْكِ فَعُمْرُكِ قَصِيْرٌ، وعَيْشُكِ حَقِيْرٌ، وخَطَرُكِ كَثِيْرٌ إلاَّ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وبُعْدِ السَّفَرِ ووَحْشَةِ الطَّرِيْقِ.

كَانَ أَبُوْ بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَدْ خَطَبَ فَاطِمَةَ مِنْ رَسُوْلِ الله ﷺ، قالَ: «أَنْتَظِرُ

بِهَا القَضَاءَ». فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُوْ بَكْرٍ لِعُمَرَ، فَقَالَ: رَدَّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَخَطَبَهَا عُمَرُ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ لأَبِيْ بَكْرٍ. فقالَ عَلِيٌّ: لَعَلِّيْ أَخْطُبُ فَاطِمَةً، فَأَتَى رَسُوْلَ الله ﷺ، فسلَّمَ عليه، فقَالَ: «**مَا حَاجَتُكَ**»؟ قَالَ: ذَكَرْتُ فَاطِمَةَ. فقالَ: «**مَرْحَبًا وأَهْلًا**». فَأَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا قَالَ. فَقَالُوا: قَدْ أَعْطَاكَ الأَهْلَ وَالمَرْحَبَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا تُصْدِقُهَا**»؟ قَالَ: مَا عِنْدِيْ أُصْدِقُهَا. قَالَ: «**فَأَيْنَ دِرْعُكَ الخُطَمِيَّةُ**»؟ قَالَ: عندي، قال: «**أَصْدِقْهَا إِيَّاهَا**»، فَتَزَوَّجَهَا فَأُهْدِيَتْ لَهُ وَمَعَها حَمِيْلَةٌ وَمِرْفَقَةٌ مِنْ أُدمٍ حَشْوُهَا لِيْفٌ وَقِرْبَةٌ وَمُنْخُلٌ وَقِدَحٌ وَرَحًا وَجَرَّتَانِ وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ ومَا لَهَا فِرَاشٌ غَيْرُ جِلْدِ كَبْشٍ يَنَامَانِ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ ويُعَلِّقُ عَلَيْهِ النَّاضِحَ بِالنَّهَارِ. وكَانَتْ هِيَ خَادِمَ نَفْسِهَا بِالله مَا ضَرَّهَا ذَلِكَ. وفي الصَّحِيْحَيْنِ أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَال لَهَا: «**أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُوْنِيْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ**» ـ أَوْ ـ «**نِسَاءَ المُؤْمِنِيْنَ**»؟

وعظ وفصاحة:

لَمَّا تَبَخْتَرَ جَمَالُ فَاطِمَةَ في جِلْبَابِ كَمَالِهَا حِيْنَ شُرُوْعِ الشَّرْعِ في وَصْفِ جَلَالِهَا نَهَضَ الصِّدِّيْقُ خَاطِبًا لَهَا في خِطَابِهِ فَسَكَتَ الرَّسُوْلُ عَنْ جَوابِهِ، فَنَهَضَ عُمَرُ نَهْضَةَ اللَّيْثِ مِنْ غَابَةٍ، فَلَمْ يُجِبْ فَاشْتَدَّ الجَوى بِهِ، فَلَمَّا نَهَضَ عَلِيٌّ عَلَى أَقْدَامِهِ لِخِطْبَتِهَا وَجَدَ الوَحْيَ قَدْ سَبَقَهُ قُدَّامَهُ، إنَّ الله أَمَرَنِيْ أَن أُزَوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ، فَزَوَّجَهَا في صَفَرَ وَبَنَى بِهَا في ذِيْ الحِجَّةِ، فَوَلَدَتْ لَهُ الحَسَنَ في نِصْفِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثلاثٍ من الهِجْرَةِ، وَوَلَدَتْ لَهُ الحُسَيْنَ لِثَلاثٍ خَلَوْنَ من شَعبَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ. وفي الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ حَدِيْثِ البَرَاءِ، قالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَاضِعًا الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ وهُوَ يَقُوْلُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**». وقَدْ رَوَى أَبُو سَعِيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ**». شعر:

يَا بَنِيَّ بِنْتِ النَّبِيِّ المُصْطَفَى ... حُبُّكُمْ يَنْفَى عِنْدَ المَرْءِ الظَّنَنَ
إنَّ للهِ عَلَيْنَا مِنَّا حُبُّكُمْ ... شُكْرًا لِهَاتِيْكَ المِنَنَ
أَنْتُمْ مَنْ لَمْ يُرِدْ مُعْطِي الهُدَى ... غَيْرَ وُدِّ النَّاسِ إِيَّاكُمْ ثَمَنَ
أَنَا عَبْدُ الحَقِّ لاَ عَبْدُ الهَوَى ... لَعَنَ الله الهَوَى فِيْمَنْ لَعَنَ

السَّجع:

سُبْحَانَ مَنْ كَسَى أَهْلَ البَيْتِ نُوْرًا، وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يَقِي الرِّجْسَ وَسُوْرًا، فَإِذَا تَلَقَّوْا يَوْمَ القِيَامَةِ تَلَقَّوْا حُبُوْرًا، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

مَنْ مِثْلُ عَلِيٍّ؟ مَنْ مِثْلُ فَاطِمَةَ؟ كم صبوا على أمواج بلايا متلاطمة وأثروا العفراء ونار الجوع خاطمة، فَلَهُمَا نَضَارَةُ الوُجُوْهِ وَالأَهْوَالُ لِلْوُجُوْهِ خَاطِمَةٌ، يَا سُرْعَانَ مَا انْقَلَبَ حُزْنُهُمْ سُرُوْرًا، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وكانَ عَلِيٌّ أَعَزَّ الخَلْقِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ الله رَيْحَانَتَيْهِ مِنَ الدنيا وَلَدَيْهِ، فَإِذَا أَحْضَرَهُم الحَقُّ غَدًا عِنْدَهُ وَلَدَيْهِ أَكْرَمَهُمْ إِكْرَامًا عَظِيْمًا مَوْفُوْرًا، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وَا عَجَبًا ذُكِرَ في هَذِهِ الآياتِ نَعِيْمُ الجَنَّاتِ، مِنَ المَلْبُوْسِ وَالمَشْرُوْبِ وَالمَطْعُوْمَاتِ وَالأَرَائِكِ وَالقُصُوْرِ وَالعُيُوْنِ الجَارِيَاتِ، ولم تُذْكَرِ النِّسَاءُ وهُنَّ غَايَاتُ اللَّذَّاتِ احْتِرَامًا لِفَاطِمَةَ أَشْرَفِ البَنَاتِ. ومَنْ يَصِفِ الزَّهْرَاءَ لاَ يَذْكُرُ حُوْرًا، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢٢].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا إِيْمَانًا بِكَ، وكِفَافًا مِنْ رِزْقِكَ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا العِفَّةَ وَالعَافِيَةَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنَ النِّعْمَةِ تَمَامَهَا، ومِنَ العِصْمَةِ دَوَامَهَا، ومِنَ الرَّحْمَةِ شُمُوْلَهَا، ومِنَ العَافِيَةِ حُصُوْلَهَا، ومِنَ المِنَنِ كَمَالَهَا، ومِنَ المِحَنِ زَوَالَهَا.

اللَّهُمَّ شَرِّفْنَا بِالتَّقْوَى، وجَمِّلْنَا بِالعَافِيَةِ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِذُرِّيَتِنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ، وصلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّيْنَ، وعَلَى آلِهِ وصحبه وذرِّيَّته الطاهرين أَجْمَعِيْنَ، وسلَّم تسليمًا إلى يوم الدِّين.

المَجْلِسُ الثَّالِثُ والثَّلاثُونَ
فِي فَضْلِ عَائِشَةَ وأَزْوَاجِ رسول الله ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّد وآلِهِ وسلِّم

الحَمْدُ لله الوَاحِدِ الأَحَدِ القَدِيْمِ، المَاجِدِ العَظِيْم، المَنَّانِ الكَرِيْم، الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيْم، أَنْعَمَ بِالعَطَايَا فَإِنْعَامُه عَمِيْمٌ، وَسَتَرَ الخَطَايَا فهُوَ الحَلِيْمُ، ابْتَلَى بِمَا شَاءَ وهُوَ بِمَا يَكُوْنُ عَلِيْمٌ، فَالوَاجِبُ مِنْ بَلَائِهِ الرِّضَاءُ وَالتَّسْلِيمُ، سَافَرَتْ عَائِشَةُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ يَخُصُّهَا بِالتَّقْدِيْمِ، فَانْتَزَحَتْ لِشُغْلِهَا وَالشُّغْلُ بِهَا عَظِيْمٌ، فَحَمَلُوا هَوْدَجَهَا ظَنًّا أَنَّهُ فِي الكِنَاسِ الرِّيْم، فَصَادَفَهَا صَفْوَانُ وَقَلْبُ الرَّجُلِ سَلِيْمٌ، فَبَلَغَهَا قَوْلُ: مَنْ بَاتَ يَأْفِكُ وَيَفْتِكُ ويَهْتِكُ الحَرِيْمَ، فَمَا زَالَ السَّلِيْمُ يَبْكِي مِثْلَ بُكَاءِ السَّلِيْم حَتَّى بَدَأَ هِلَالُ الهُدَى فِي فَيْلِ البَلَاءِ البَهِيْم، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

أَحْمَدُهُ كُلَّمَا عَمَّت الغَافِلِيْنَ غَفَلَاتُهُمْ، وَأُصَلِّيْ عَلَى رَسُوْلِهِ الَّذِيْ هَلَكَتْ بِهِ عُزَّاهُمْ وَلَاتُهُمْ، وعَلَى صَاحِبِهِ أَبِيْ بَكْرٍ الَّذِي سُلِّمَتْ إِليهِ قَبْلَ المَوْتِ صَلَواتُهُمْ، وعَلَى عُمَرَ الَّذِي تَقَوَّمَتْ بِهِ حَالاتُهُمْ، وَعَلَى عُثْمانَ مُنْفِقِ المَالِ إِذا حَافَتْ بِالبُخَلَاءِ آفَاتُهُمْ، وعَلَى عَلِيٍّ الزَّاهِدِ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَنَعَتْ أَرْبَابَهَا شَهَوَاتُهُمْ، وعَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ الطَّاهِرَاتِ اللَّوَاتِيْ نُزِّهَتْ جِهَاتُهُمْ، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]، وعَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ آخِذِ البَيْعَةِ له عَلَى الأَنْصَارِ إِذَا حُمِدَتْ مَسْعَاتُهُمْ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: الآية ١١]، أَجْمَعَ

المُفَسِّرُوْنَ في هَذِهِ الآيَةِ ومَا يَتَعَلَّقُ بِهَا بَعْدَهَا نَزَلَتْ في قِصَّةِ عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا، والإِفْكُ الكَذِبُ وَالعُصْبَةُ الجَمَاعَةُ.

وفي المُخاطِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ قَوْلاَنِ:

أَحَدُهُمَا: عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ.

والثَّانِي: رَسُوْلُ الله ﷺ وَأَبُوْ بَكْرٍ وَعَائِشَةَ. وَالمَعْنَى تُؤْجَرُوْنَ، وَالأَجْرُ يُغَطِّي المَكْرُوْهَ. وفي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلإِنْسَانِ فِيمَا يُصِيْبُهُ مِنَ المَكْرُوْهِ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَا سَلِمَ أَحَدٌ مِنْ شَرِّ النَّاسِ، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ يَعْنِي مِنَ العُصْبَةِ الكَاذِبَةِ، ﴿ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ [النُّور: الآية ١١] أيْ: جَزَاءُ مَا اجْتَرَحَ مِنَ الذَّنْبِ عَلَى قَدْرِ خَوْضِهِ فِيْهِ.

وَاعْلَمْ أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كانَ يُقَدِّمُ عَائِشَةَ عَلَى جَمِيْعِ أَزْوَاجِهِ. وفي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيْثِ عَائِشَةَ، قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**رَأَيْتُكِ في المَنَامِ وَرَجُلٌ يَحْمِلُكِ في سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيْرٍ، فَيقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَقُولُ إنْ يَكُ مِنْ عَبْدِ الله يُمْضِهِ**».

وكَانَ عليه السَّلامُ أَوَّلَ مَنْ تَزَوَّجَ خَدِيْجَةَ ولَمْ يَتَزَوَّجْ عليهَا حتَّى مَاتَتْ، فَتَزَوَّجَ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، ثُمَّ عَائِشَةَ وهي بنتُ سِتِّ سِنِيْنَ، وتَزَوَّجَ حَفْصَةَ فَطَلَّقَهَا تَطْلِيْقَةً فقالَ له جبرئيل: إنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ فَرَاجَعَهَا.

وتَزَوَّجَ أُمَّ سَلَمَةَ، وأُمَّ حَبِيْبَةَ، وزَيْنَبَ بِنتَ جَحْشٍ، وزَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ، وَجُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الحَارِثِ وقَدْ كَانَ أَصَابَهَا في غزاةِ بَنِي المُصْطَلِقِ فَوَقَعَتْ في سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فكَاتَبَهَا فَقَضَى رَسُولُ الله ﷺ كِتَابَتَهَا وتَزَوَّجَهَا، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ بِذَلِكَ أَرْسَلُوْا مَا في أَيدِيْهِمْ مِنْ سَبَايَا بَنِي المُصْطَلِقِ فَأَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهَا مَائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ. وتَزَوَّجَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، وَمَيْمُوْنَةَ بنتَ الحَارِثِ.

وكانَ آثَرُ الكُلِّ عِنْدَهُ عَائشةَ وبَنَى بهَا وهي بِنْتُ تِسْعِ سِنِيْنَ.

وفي أفْرادِ البُخَارِي من حَدِيْثِ عَائِشَةَ أَنَّهَا قالَتْ: يَا رَسُوْلَ الله، أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلْتَ وَادِيًا فيهِ شَجَرٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا ووَجَدْتَ شَجَرًا لَمْ يُؤكَلْ مِنْهَا في أَيِّهِمَا كُنْتَ تَرْتَعُ؟

قَالَ: «**فِي الَّتِيْ لَمْ يَرْتَعْ مِنْهَا أَحَدٌ**» ـ يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا ـ. شعر:

مِنَ العَارِ بَعْدَ المُنْجِدِيْنَ هُجُوْعِيْ ... وَعُذْرُهُمْ أَنْ لاتَسُحَّ دُمُوْعِيْ
وَلِيْ زَفَرَاتٌ كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا ... يَقُوْمُ مِنْهُنَّ اعْوِجَاجُ ضُلُوْعِيْ
سَلامٌ عَلَى تِلْكَ الدِّيَارِ فَإِنَّهَا ... دِيَارِي الَّتِيْ أَشْتَاقُهَا وَرُبُوْعِيْ

ما كانَ سَبَبُ مَوْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه إلاَّ مَوْتَ الرَّسُوْلِ ﷺ، إِنَّهُ مُنْذُ فَارَقَهُ أَخَذَ الجِسْمُ في الذُّبُوْلِ، وَا حَسْرَتَا مَا أَحَرَّ الفِرَاقَ وأَغْلَقَ نِيْرَانَهُ بِالكَبُوْدِ، كَانَ مِعْوَلُ الأَحْزَانِ يَنْقُبُ قَلْبَ أَبِي بَكْرٍ وَالنَّاسُ لاَ يَعْلَمُونَ إلى أَنْ عَرْقَبَ الأَسَاسَ فَوَقَبَ[1] حَائِطُ العَمْرِ. وينشد:

وخِيَالِ الجِسْمِ لَمْ يُخَلِّلْهُ الهَوَى ... لَحْمًا فَيَخلَّهُ السِّقَامُ ولاَ دَمَا
وَخُفُوْقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتَ خُفُوْقَهُ ... يَا جَنَّتِيْ لَظَنَنْتِ فِيهِ جَهَنَّمَا
وَا شَوْقَاهُ إلى تِلْكَ الوُجُوْهِ ... وَا طَرَبًا عِنْدَ تِلْكَ القُبُوْرِ

إخواني، تَعَالَوْا نَنْدُب الذُّنُوبَ السَّالِفاتِ، وَالطَّاعَاتِ الفانِيَاتِ، ونَبْكِي عَلَى كُلِّ قَلْبٍ كَانَ حَيًّا فَمَاتَ، تَخَلَّفْنَا في البَيْدَاءِ والقَومُ في العَرَفَاتِ. وينشد:

كَتَمْتُ اسمَ الحَبِيْبِ مِنَ العِبادِ ... ورَدَدْتُ الصَّبَابَةَ في فُؤادِيْ
فَيَا شَوْقِي إلى بَلَدٍ خَلِّي لَعَلِّيْ ... بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى أُنَادِيْ

كَانَتْ عَائِشَةُ شَدِيْدَةَ المَحَبَّةِ لرسُولِ الله ﷺ، كَمَا كَانَ شَدِيْدَ الحُبِّ لَهَا. فلمَّا آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا نَزَلَ لِتِسعٍ وَعِشْرِيْنَ. فَقَالَتْ لَهُ: حَلَفْتَ شَهْرًا. فَقَالَ: «**الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُوْنَ**». فقالَتْ: طَالَ عَلَيْنَا زَمَنُ الهَجْرِ فَقَصَرْتَهُ بِالحِسَابِ. شعر:

عَدَدْتُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ ... وقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لاَ أَعُدُّ اللَّيَالِيَا

يَا عَائِشَةُ مَا هَذَا الشَّوْقُ الشَّدِيْدُ؟ قَالَ لِسَانُ حَالِهَا: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٦٠]؟ لَمَّا جَرَتْ كَلِمَاتٌ مِنْ عَفِيْفَةٍ مَا فَجَرَتْ بَلَغَ الحَسُوْدُ مَا تَمَنَّى يَوْمَ إنْ كُنْتِ هَمَمْتِ وَكانَ أَصْعَبُ مَا عُرِضَ إِعْرَاضٌ كَيْفَ تِيْكُمْ

---

(١) وفي نسخة فوقع.

وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِيْ عَلَيَّ صُدُوْدُكُمْ فَتَجَلَّدَ جَلْدَ الصَّبْرِ عَلَى حَمْلِ أَثْقَالِ البُعْدِ إلى أَنْ تَعَلَّلَ بالمُشاوَرَةِ حَتَّى بَلَغَ البَحْثُ عَنِ البَرَاءَةِ إلى بَرِيْرَةَ. قالَ للمرأة: مَا تَعْلَمِيْنَ مِنْ عَائِشَةَ. وينشد:

أَلاَ أَيُّهَا الرَّاكِبُ اليَمانُوْنَ عَرِّجُوا عَلَيْنَا فَقَدْ أَمْسَى هَوَانًا يَمَانِيًّا

قال: فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُ البَلَاءِ أَجَلَهُ حُلَّتْ مُرَاجَعَةُ الوِصَالِ فَانْعَقَدَ عَقْدُ التَّزْكِيَةِ بِنُزُوْلِ البَرَاءَةِ فَكَانَتْ أَشْرَفَ مِنْ كِتَابِ مهر ظَنَّ الحَسُوْدُ إلا جمع فَإِذَا الدَّارُ مِنِّى. ويقال: وقَدْ يَجْمَعُ الله السَّنَتَيْنِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لا تَلَاقِيَا. فَنَدَبَهَا الأَبُ إلى اسْتِرْضَاءِ البَعْلِ قُوْمِيْ فَقَبِّلِيْ، فَعَلِمَتِ الحَبِيْبَةُ أَنَّهُ قَدْ أَغْنَى عَنْ شَفِيْعٍ فَحَمَلَتْ عَلى عِرْضِ الإِعْرَاضِ عَلاوَةَ الإِدْلَالِ بِحَمْدِ الله لا بِحَمْدِكَ.

إخواني، فَضَائِلُ عَائشةَ كَثِيْرَةٌ بَعْضُها يَكْفِي وَبِحَسبِهَا أَنْزَلَ الله تَعَالَى آيَاتٍ يُتْلَى فيهَا.

رَوَى أَحْمَدُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَخالِدٍ، عَنِ الشَّبْعِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عن عائشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: رَأَيْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسِ دِحْيَةَ وهُوَ يُكَلِّمُ رَجُلًا، فقلتُ: يا رسولَ الله، رَأَيْتُكَ وَاضِعًا يَدَكَ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ وأَنْتَ تُكَلِّمُهُ. قالَ: «**أَوَ رَأَيْتِ**»؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**ذلك جبرئيلُ وهُوَ يُقْرِئُكِ السَّلامَ**». قَالَتْ: وعَلَيْهِ السَّلامُ.

فَانْظُرُوْا إِخْوَانِيْ كَيْفَ لَمْ يُوَاجِهْهَا جَبْرِئيلُ بالسَّلامِ لأَجْلِ زَوْجِهَا فَمَنْ هَذِهِ حَالَتُها مَعَ جَبْرئيلَ كيفَ يَجُوْزُ عليهَا الزُّوْرُ والأَبَاطِيْلُ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَقُلُوبُهُمْ بِالفَرحِ عِنْدَ مَدْحِ عَائِشَةَ طَائِشَةٌ، وأَمَّا الرَّافِضَةُ فَيَأْخُذُهُم حُمَّى النَّافِضَةِ.

وعظ:

إخواني، مَاتَ أَرْبَابُ العَزَائِمِ وخَلَتِ الدِّيَارُ، ذَهَبَ المُجاهِدُوْنَ وَمُحِيَتِ الآثَارُ، ومَا بَقِيَ غَيْرُ قُبُوْرِ القَوْمِ تُزَارُ، وَا عَجَبًا مِنْ أَحْيَاءِ تَمُوْتُ بِرُؤْيَتِهِم القُلُوْبُ، وَمِنْ أَمْوَاتٍ تَحْيَا بِزِيَارَتِهَا النُّفُوْسُ. وينشد:

يَا صَاحِبَيَّ سَلَا الأَطْلَالَ وَالدِّمَنَا مَتَى يَعُوْدُ إِلى الأَوْطَانِ مَنْ ظَعَنَا
أَسْتَوْدِعُ الله قَوْمًا مَا ذَكَرْتُهُمْ إلاَّ تَحَدَّرَ مِنْ عَيْنَيَّ مَا خُزِنَا
اشْتِيَاقُهُمْ كَاشْتِيَاقِ الأَرْضِ وَإِبلِهَا وَالأُمِّ وَاجِدَهَا والغَائِبِ الوَطَنَا

وعظ:

يَا مَنْ كَانَ لَهُ مَشْرَبٌ في المَحَبَّةِ فَتَكَدَّرَ، يَا مَنْ كَانَ عَلَى جَادَةِ طَرِيْقٍ مُسْتَقِيْمَةٍ فَتَعَثَّرَ، انْتَدِبْ لِلنَّدْبِ عَلَى مَا أَصَابَكَ وَاقْرَعْ بَابَكَ أَسَفًا عَلَى مَا نَابَكَ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ المُحْسِنَ حَيٌّ وإنْ مَاتَ، وَالمُسِيْءَ مَيِّتٌ وَإن كانَ في الحَيَاةِ، يَا لَهَا من مَوَاعِظَ لَوْ وَجدتْ سَامِعًا وجوَاهِرَ، لَوْ رَأَتْ جَامِعًا وَسِلَعَ نَصَائِحَ لا تَرَى لَهَا مُشْتَرِيًا ولاَ بَائِعًا. شعر:

يَا خَلِيْلَيَّ في القَلَائِدِ عِنْدِيْ كَثِيْرَةٌ فَاطْلُبُوْا لَهَا أَجْيَادًا
كُلَّمَا اسْتَنْهَضْتُهُمْ كَلِمَاتِي ضَرَبُوْا في ذُيُوْلِهِمْ أَوْتَادًا

وَا أَسَفَا أَصِفُ عَنْقَاءَ مُغْرِبًا وَأَجُلُّ رُزْمَةً مَا لَهَا مُشْتَرٍ لَكِنْ لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ أُخْرِجَ الحَزِيْنَ إلى بُسْتَانٍ لَعَلَّ غَمَّهُ يَقِلُّ هَذَا بُسْتَانُ وَصْفِ المُحِبِّيْنَ فإنْ كَانَتْ بِكَ زَكَمَةٌ تَمْنَعُ شَمَّ رَيْحَانٍ فَافْتَحْ عَيْنَيْكَ تَرَى الخُضْرَةَ. وينشد:

يَا صَاحِبِيَّ قَضِيْبُ الزَّنْدِ رَيَّانُ
وَالبَدْرُ مُلْتَحِفٌ وَالصُّبْحُ عُرْيَانُ
وَالنَّرْجِسُ الغَضُّ سَاهٍ وَالغَمَامُ نَدٍ
وَالظِّلُّ في طَرْدِ الرَّيْحَانِ حَيْرَانُ
قِفَا لَنَا بِعَسَى بِالذِّكْرِ وَاخْتَلِسَا لُبِّي
فَقَدْ نَفَحَ النِّسْرِيْنُ وَالبَانُ
أَوْ عَرَضَا بِهَوَى حُبِّيْ فَلِيْ وَلَهُ
في مَوْقِفِ الوُدَّانِ عَرَضْتُمَا شَانُ
فَالْيَأْسُ وِرْدِيْ إذَا سُحُبُ المُنَا
هَطَلَتْ وَالصَّبْرُ زَادِيْ إذَا أَهْلُ الحِمَى خَانُوْا

وفي أفْرادِ البُخَارِيْ مِنْ حَدِيْثِ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ

لأُمِّ سَلَمَةَ: «**لاَ تُؤْذِيْنِيْ فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَهَا**». هِيَ اخْتِيَارُ العَظِيْمِ العَلِيِّ لِلنَّبِيِّ، وَمِنْ طُفُوْلَتِهَا تُعْرَفُ بِالعِزِّ الأَبِيِّ، وَلَهَا عَقْلُ الكِبَارِ فِي سِنِّ الصَّبِيِّ، وهَلْ يَضُرُّهَا قَوْلُ الجَهُوْلِ الغَبِيِّ؟ أَوْ يَقْدَحُ فِي رِيْحِ المِسْكِ الذَّكِيِّ إِلاَّ يَهِيْمُ ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مَا تَزَوَّجَ الرَّسُوْلُ بِكْرًا سِوَاهَا، ولا أَحَبَّ زَوْجَةً كَحُبِّهِ إِيَّاهَا جَاءَهَا جَبْرَئِيْلُ فِي سَرَقَةٍ فَجَلَّاهَا وتَكَلَّمَ اللهُ بِبَرَاءَتِهِا، سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاهَا، وَمَا يَرْمِي الأَصِحَّاءَ بِالسُّقْمِ إِلاَّ سَقِيْمٌ، ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مَا خَفَا عَلَى حُسَّادِهَا طَهَارَةُ ذَيْلِهَا، وخيلها غَيْرَ أَنَّ الطِّبَاعَ الرَّدِيَّةَ فِي مَيْلِهَا، هَجَمَتْ عَلَيْهَا الأَحْزَانُ بِرَجِلِهَا وَخَيْلِهَا. فَكَانَتْ طُوْلَ لَيْلِهَا ونَهَارِهَا تَبْكِي بُكَاءَ اليَتِيْمِ، ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

تَكَلَّمُوا فيهَا بِتُرَّهَاتِ الأباطيل، وَرَامُوْا أَدَمَ السَّماءِ وهَيْهَاتَ، يا عايبهَا إِنْ عَرَفْتَ عَيْبًا فَهَاتِ، كَفَانَا اللهُ شُؤْمَ عُقُوْقِ الأُمَّهَاتِ، فَإِنَّهُ قَبِيْحٌ ذَمِيْمٌ ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مَا كانَ سِوَى غَيْمِ غَمٍّ تَجَلَّى وَانْصَرَفَ الحُزْنُ وَتَوَلَّى، بِالفَرَجِ الَّذِي تَوَلَّى، ولَيسَ المَمْدُوْحُ أَحْسَنَ الحُلِيِّ وتَجَلَّى، وتَوَلَّى القَادِحُوْنَ إِثْمًا وَكَلَّا أَيَقْدَحُ العُقَلَاءُ فِي أُمَّهَاتِهِمْ كَلَّا وهِيَ مِنْهُمْ عَقِيْمٌ، ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

حُوْشِيَتْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ أَوْ رَيْبٍ أَوْ فُجُوْرٍ، إِنَّمَا زِيْدَتْ بِمَا جَرَى فِي الأُجُوْرِ، لِتَرْهَبَ أُمُّ العَذُوْلِ أَوْ تَجُوْرَ، وَإِنَّمَا وَقَعَتْ فِي أَغْبَاشِ ظَلَامٍ دَيْجُورٍ، ثُمَّ بَانَ النُّوْرُ فِي سُوْرَةِ النُّوْرِ فَنَزَلَ فِي الكِتَابِ القَوِيْمِ ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ١١].

اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِنْ ذُنُوْبِنَا، وطَهِّرْنَا مِنْ عُيُوْبِنَا. اللَّهُمَّ إِنَّنَا آمَنَّا وبَيِّن لنا. اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ خَوْفَنَا مِنْكَ قَاطِعًا لِرَجَائِنَا لَكَ. اللَّهُمَّ بِأَحْسَنِ الصُّحْبَةِ عَلِّمنا بحلمك ببعدنا منك فقربنا، ومخافتك تؤمِنَّا منكَ فَاهْدِنَا يَا مَنْ يَدُهُ بِالعَطَاءِ ابْسُط مِنْ أَلْسِنَتِنَا بِالدُّعَاءِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِذُرِّيَّتِنَا ولجميعِ المسلمينَ، وصلَّى الله على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ وَسَلِّم تسليمًا.

المَجْلِسُ الرَّابِعُ والثَّلاثُونَ
فِي فَضْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ الله عَنْهُم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم

الحَمْدُ لله الَّذِيْ جَعَلَ العَقْلَ سِرَاجًا لأَرْبَابِ الحَقَائِقِ بِبَصَائِرِ البَيَانِ، وأَوْدَعَهُ مِنْ أَسْرَارِ سَرَائِرِ رَحْمَتِهِ[1] مَا لاَ تَصِلُ إلى إدْرَاكِهِ سَوَابِقُ الأَذْهَانِ، وأَبْدَعَ مِنْ لآلئ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ البرهاني مِنَ العَالَمِ العِلْوِيِّ عَالَم الإنْسَانِ، وَأَنْطَق بِمَوَادِّ فَيْضِ شَمْسِهِ مِنَ الجَوَاهِرِ البَسِيْطَةِ كُلَّ لِسَانٍ، فَقَالَ مَنْ شَهِدَتْ بِكَمَالِهِ قَوَاطِعُ البُرْهَانِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: الآيتان ١، ٢] قَدَحَ زِنَادَ الحِكْمَةِ بِأَحْجَارِ القَهْرِ فَنَتَجَ مِنْ احْتِكَاكِ أَحْجَارِهَا وُجُوْدُ الزَّمَانِ، وَبَسَطَ بِسَاطَ صَنْعَتِهِ عَلَى صَفَحَاتِ المَوْجُوْدَاتِ دَلاَلَةً عَلَى وُجُوْدِهِ قَبْلَ خَلْقِ المَكَانِ، وَأَلَّفَ بَيْنَ أَجْزَائِهَا المُتَضَادَّةِ في التَّرْكِيْبِ كَمَا فَرَّقَ بَيْنَهَا في الصُّوَرِ وَالأَلْوَانِ، وفَضَّلَ عَلَى جَمِيْعِ النُّسَخِ نُسْخَةَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَالعَيَانِ، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: الآيتان ٣، ٤]، كَحَلَ عُيُونَ العَنَاصِرِ بِمَرَاوِدِ الأَمْرِ فَفَارَ مِنْ بَيْنِهِمَا بُخَارٌ كَالدُّخَانِ، وَفَتَقَ رَتْقَهُ عِنْدَ التَّكَاثُفِ مِنْ غَيْرِ خَاصِيَّةٍ وَلاَ أَعْوَانٍ، فقَامَتِ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ بَأَمْرِهِ تَرْفُلُ في حُلَلِ الزُّمُرُّدِ وَالعِقْيَانِ، وَنَثَرَ دَنَانِيْرَ الشُّهُبِ عَلَى زُرْقَةِ وَجْهِ السَّمَاءِ فَكَأَنَّهَا عُيُونُ رُوْمٍ في مَحَاجِرِ سُوْدَانٍ.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٥]، جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ

---

(١) وفي نسخة حكمته.

يَتَعَاقَبَانِ عَلَى مَدَدِ الأَزْمَانِ لاَ يَجْتَمِعَانِ.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرَّحمـٰن: الآية ٦]، وَالسُّحُبُ أَمْطَرَهَا بِالوَابِلِ المنَّانِ، صَنْعَةً ظَاهِرَةً تَشْهَدُ لَهُ بِالجَلالِ وَالكَمَالِ في كُلِّ أَوَانٍ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمـٰن: الآية ٧]. فَانْظُرُوْا إلى البَدْرِ كَيْفَ يَرْفُلُ عِنْدَ التَّمَامِ في ثِيَابِ العُنْفُوَانِ، وكَيْفَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُوْنِ القَدِيْمِ عِنْدَ النُّقْصَانِ.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ [الرحمـٰن: الآيات ١٠ - ١٢].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيْرًا دَائِمًا مُتَرَدِّدًا عَلَى نِعْمَةِ الإِسْلَامِ، حَمْدًا لاَ يَكِلُّ مِنْهُ لِسَانٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُوْلُهُ الَّذِي قَطَعَ بِقَوَاطِعِ البُرْهَانِ عَبَدَةَ الأَوْثَانِ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وجَمِيْعِ أَصْحَابِهِ صَلاَةً دَائِمَةً في كُلِّ حِيْنٍ وَأَوَانٍ وسَلَّمَ تَسْلِيْمًا.

قال الله العظيم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَهِدَ لَهُ بِالرِّسَالَةِ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾ يَعْنِيْ أَصْحَابَهُ ﴿أَشِدَّآءُ﴾، وَهُوَ جَمْعُ شَدِيْدٍ، وَالرُّحَمَاءُ جَمْعُ رَحِيْمٍ، وَالمَعْنَى أَنَّهُمْ يُغَلِّظُوْنَ عَلَى الكُفَّارِ وَيَتَوَادُّوْنَ بَيْنَهُمْ.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، يَصِفُ كَثْرَةَ صَلَوَاتِهِمْ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾، وهُوَ الجَنَّةُ، ﴿وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] وهُوَ رِضَاءُ الله عَنْهُمْ وَهُوَ مَحَبَّتُهُ لَهُمْ.

واعْلَمْ أَنَّ فَضَائِلَ الصَّحَابَةِ عَلَى جَمِيْعِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم السَّلامُ ظَاهِرَةٌ، وكَانَ لِسَبَبِ سَبْقِهِمْ سَبَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: خُلُوصُ البَوَاطِنِ مِنْ شَكٍّ بِقُوَّةِ اليَقِيْنِ، وإِلى هَذَا أَشَارَ رَسُولُ الله ﷺ بقَوْلِهِ: «**مَا سَبَقَكُمْ أَبُوْ بَكْرٍ لِكَثْرَةِ صَوْمٍ ولا صَلاَةٍ، ولَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِيْ صَدْرِهِ**».

وَالثَّانِي: بَذْلُ النُّفُوْسِ بِالمُجَاهَدَةِ وَالاجْتِهَادِ. وَقَدْ عَلِمَ اللهُ مَا جَرَى لِمُوْسَى مَعَ أَصْحَابِهِ، وعَلِمَ صَبْرَ صَحَابَتِنَا، ولَمَّا اسْتَشَارَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ المِقْدَادُ: لَوْ ضَرَبْتَ بُطُوْنَهَا حَتَّى تَبْلُغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَتَابَعْنَاكَ وَلاَ نَقُوْلُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوْسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا.

وقالَ أَبُوْ طَلْحَةَ يَوْمَ أُحُدٍ: يَقُوْلُ: نَحْرِيْ دُوْنَ نَحْرِكَ. قَالَ أَبُو مُوْسَى: كَانَ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حِجَّةِ الوِدَاعِ أَرْبَعُوْنَ أَلْفًا مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ رَوَى عَنْهُ وسَمِعَ مِنْهُ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى اخْتَارَنِيْ وَاخْتَارَ لِيْ أَصْحَابًا فَجَعَلَ مِنْهُمْ وُزَرَاء وَأَنْصَارًا وأَصْهَارًا فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ**». شعر:

وَا أَسَفًا مِنْ فِرَاقِ قَوْمٍ ... هُمُ المَصَابِيْحُ وَالحُصُوْنُ
وَالمُزْنُ وَالأَمْنُ وَالرَّوَاسِيْ ... وَالخَيْرُ وَالعَقْلُ وَالسُّكُوْنُ
لَمْ تَتَغَيَّرْ لَنَا اللَّيَالِيْ ... حَتَّى تَوَفَّتْهُمُ المَنُوْنُ
فَكُلُّ نَارٍ لَنَا قُلُوْبٌ ... وكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُوْنُ

وعظ:

إخواني، مَرَّ الأَحْبَابُ عَلَى مَدْرَجَةٍ وخُيُوْلُ البَاقِيْنَ عَلى الرَّحِيْلِ مُسَرَّجَةٌ، يَا مَنْ شَاخَ فِي الأَوْسَاخِ إلى كَمْ تُمْلِئُ وَلاَ تَملّ، لَقَدْ أَتْعَبْتَ النُّسَّاخَ، يَا مَنْ ضَيَّعَ الشَّبَابَ وَلا يَسْمَعُ العِتَابَ وَقَدْ شَاخَ، تَأَهَّبْ لِلرَّحِيْلِ فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا إلاَ مَنَاخٌ، كَمْ بَاتَ مِنْ تَارٍّ في بَيْتٍ فَأَصْبَحَ فِيْهِ الصُّرَاخَ، الدُّنْيَا سُفْرَةٌ ولاَعِبُهَا يُفْنِي البَيَادِقَ وَالرُّخَاخَ. وينشد:

خَفِ اللهَ وَانْظُرْ فِي صَحِيْفَتِكَ ... الَّتِي حَوَتْ كُلَّمَا قَدَّمْتَهُ مِنْ فِعَالِكَ
وقَدْ خَطَّ مِنْهُ الكَاتِبَانِ فَأَكْثَرَا ... ولَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ يَقُوْلا بِذَلِكَ
فَوَاللهِ مَا أَدْرِيْ إِذَا مَا لَقِيْتُهَا ... أَتُوْضَعُ فِي يُمْنَاكَ أَمْ فِي شِمَالِكَ

وعظ:

أَيُّهَا المَشْغُوْلُ بِاللَّذَّاتِ الفَانِيَاتِ مَتَى تَسْتَعِدُّ لِمُلِمَّاتِ المَمَاتِ؟ أَتَطْمَعُ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا فِي لَحَاقِ السَّادَاتِ وأَنَّى نَجْعَلُكَ مِنْهُمْ وَأَنَّى هَيْهَاتَ، يَا عَظِيْمَ الجُرْأَةِ

يَا كَثِيْرَ الانْبِسَاطِ أَمَا تَخَافُ عَوَاقِبَ هَذَا الإِفْرَاطِ؟ أَلَكَ صَبْرٌ يُقَاسِيْ أَلَمَ السِّيَاطِ؟ أَلَكَ قَدَمٌ يَصْلُحُ لِلْمَشْيِ عَلَى الصِّرَاطِ؟ أَيُعْجِبُكَ لِبَاسُ الصُّحْبَةِ وَثَوْبُ البَلَاءِ يُخَاطُ. وينشد:

وكَمْ مِنْ فَتًى يُمْسِيْ وَيُصْبِحُ آمِنًا ... وقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وهُوَ لا يَدْرِيْ

إخواني، فَيَا شِدَّةَ الوَجَلِ عِنْدَ حُصُوْلِ[1] الأَجَلِ، يَا حَسْرَةَ الفَوْتِ عِنْدَ حُضُوْرِ المَوْتِ، يَا خَجْلَةَ العَاصِيْنَ، يَا أَسَفَ المُقَصِّرِيْنَ. وينشد:

إلى حَتْفِيْ سَعَى قَدَمِي ... أَرَى قَدَمِيْ أَرَاقَ دَمِيْ
فَمَا أَنْفَسَكَ عَنْ نَدَمِيْ ... فَهَا نَدَمِيْ فَهَانَ دَمِيْ

وعظ:

اسْتَلِبْ زَمَانَكَ يَا مَسْلُوبُ، وَغَالِبْ هَوَاكَ يَا مَغْلُوبُ، وحَاسِبْ نَفْسَكَ فَالعُمْرُ مَحْسُوْبُ، وَامْحُ قَبِيْحَكَ فَالقَبِيْحُ مَكْتُوبُ، وَا عَجَبًا لِنَائِمٍ وَهُوَ مَطلُوبُ، وَلِضَاحِكٍ وَعَلَيْهِ ذُنُوْبُ. وينشد:

ألاَ ذَكَّرَانِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ المَوْتُ ... ويُبْنَى لِجُثْمَانِيْ بِدَارِ البِلَاءِ بَيْتُ
وعَرَّفَنِيْ رَبِّيْ طَرِيقَ سَلَامَتِي ... وبَصَّرَنِيْ لَكِنَّنِيْ قَدْ تَعَامَيْتُ
وَقَالُوا مَشِيْبُ الرَّأْسِ يَحْدُوْ إلى البَلَاءِ ... فَقُلْتُ أَرَانِيْ قَدْ قَرُبْتُ وَدَانَيْتُ

فَضلٌ:

لله دَرُّ قَوْم أَخْلَصُوا الأَعْمَالَ وَحَقَّقُوْهَا، وقَيَّدُوْا شَهَوَاتِهِمْ بِالخَوْفِ وَأَوْثَقُوْهَا وَسَابَقُوا السَّاعَاتِ بِالطَّاعَاتِ فَسَبَقُوْهَا، وخَلَّصُوْا أَعْمَالَهُمْ مِنْ أَشْرَاكِ الرِّيَاءِ وَأَطْلَقُوهَا، وقَهَرُوْا بِالرِّيَاضَةِ أَعْرَاضَ النُّفُوْسِ الرَّدِيَّةِ فَمَحَقُوْهَا، فَعَنْ إِبْعَادِهِم وَقَعَ نَهْيُ النَّبِيِّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ٥٢]، خَلَّصُوْا الأَعْمَالَ مِنَ الأَكْدَارِ نَفْلًا وفَرْضًا، واجْتَهَدُوْا في طَاعَةِ مَوْلاهُم لِيَرْضَى، وخَلَّصُوْا أَنْفُسَهُمْ لِطَلَبِ الحَظِّ الأَحَظِّ حَضًّا، وغَضُّوْا أَبْصَارَهُمْ مِنْ غَض بِالشَّهَوَاتِ غَضًّا فَإِذَا أَبْصَرْتَهُمْ رَأَيْت أَجْسَادًا

(١) وفي نسخة حضور.

مَرْضَى، وعُيُونًا قَدْ أَلِفَتِ الشَّهْرَ كَمَا تَكَادُ تَطْمَعُ غَمْضًا، بَادَرُوْا أَعْمَالَهُمْ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا سَاعَاتٌ تُقْضَى فَأَمَدَّهُمْ بِالعَوْنِ السَّرْمَدِيِّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

ابْتَلَاهُمُ فَرَضُوْا وَصَبَرُوْا، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فَاعْتَرَفُوْا وشَكَرُوْا، وجَاؤوا بِكُلِّ مَا يَرْضَى ثُمَّ اعْتَذَرُوْا وَجَاهَدُوْا العَدُوَّ فَمَا انْقَشَعَتِ الحَرْبُ حَتَّى ظَفِرُوْا، وَنَالُوا غَايَةَ الإِمْكَانِ العَلِيِّ، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: الآية ٥٢].

مَنْ صَعِدَ إلى السِّتِّيْنَ تَعِبَ، مَنْ مَشَى إلى السَّبْعِيْنَ قَعَدَ، مَنْ قَارَبَ الثَّمَانِيْنَ وَقَعَ، مَا بَقِيَ لِلشَّيْخِ مِنْ مَنَاسِكِ حَجِّ العُمْرِ إلاَّ الوِدَاعَ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: «**أَهْلُ الجَنَّةِ مِئةٌ وَعِشْرُوْنَ صَفًّا، أُمَّتِي مِنْهُم ثَمَانُوْنَ صَفًّا**». وَرَوَى أَحْمَدُ حَدَّثَنَا يَزِيْدُ بْنُ حَكَم عَنْ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**إِنَّكُمْ تُوَفُّوْنَ سَبْعِيْنَ أُمَّةً أَنْتُم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله تعَالَى**». فَالحَمْدُ لله يَا صِبْيَانَ الهَوَى إنْ تُرِكَ الخَرُوْفُ فَلِلذَّبْحِ يُؤَخَّرُ وَكَمْ يُسْلَبُ رَضِيْعٌ فَاقْضُوْا مَا أَمَرَ رَبُّكُمْ عَجِلًا، وَيْحَكَ وَيْحَكَ كُلَّمَا عَلَتْ سِنُّكَ وَقَعَتْ آجُرَّةٌ مِنْ حَائِطِ عُمْرِكَ. وينشد:

إِذَا قَلَّ عَقْلُ المَرْءِ قَلَّتْ هُمُوْمُهُ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا مُقْلَةٍ كَيْفَ يَرْمُدُ

المُتَيَقِّظُ يَذْكُرُ لُبسَ الكَفَنِ فَلَا يَلَذُّ لَهُ المَلْبَسُ وَيَتَفَكَّرُ في سَكَرَاتِ المَوْتِ فَلَا يطْعَمُ لَهُ مَطْعَمٌ وَيَتَصَوَّرُ قُرْبَ الرَّحِيْلِ فَلَا يَطْمَئِنُّ لِهِ مَنْزِلُ. وينشد:

وَلَمَّا وَقَفْنَا بِإِسْلَامٍ تَبَادَرَتْ دُمُوْعِي إلى أَنْ كِدْتُّ بِالدَّمْعِ أَغْرقُ
فَقَلْتُ لِعَيْنِيْ هَلْ مَعَ الوَصْلِ عَبْرَةٌ فَقَالَتْ أَلَسْنَا بَعْدَهُ نَتَفَرَّقُ

وعظ:

وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا صَنَعْتَ بِعْتَ القُرْبَ بِالبُعْدِ، وَالعَقْلَ بِالهَوَى، وَالدِّيْنَ بِالدُّنْيَا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَلَا أَنْتَ مَعَ أَرْبَابِ الدُّنْيَا في لَذَّاتِهَا، ولا مَعَ أَهْلِ الآخِرَةِ في عِبَادَاتِهَا مَا وَقَعَ بِيَدِكَ مِنَ النَّبِيْذِ إلاَّ البَنْجُ تَضَعُ قَاعِدَةَ التَّوْبَةِ عَلَى طَرَفِ اللِّسَانِ فَإِذَا تَحَرَّكَتْ وَقَعَتْ مَا بَقِيَ لَذَّةُ الخِيَانَةِ بِرِدَّةِ الجِنَايَةِ، كَمْ ذَاقَ آدَمُ غُصَّةً بَعْدَ تِلْكَ اللُّقْمَةِ، تُذْهِبُ اللَّذَّةُ ويَرْسُبَ الأَسَفُ، وَيَبْقَى عَضُّ اليَدَيْنِ عَلَى قُبْحِ مَا سَلَفَ،

مَنْ قَلَّلَ فَمَ اللَّذَّةِ عَضَّتْهُ أَسْنَانُ النَّدَامَةِ مَضَتْ وَالله اللَّذَّاتُ، وَبَقِيَتِ التَّبِعَاتُ، ذَهَبَ مَا فِي خَرِيْطَةِ شَهْرِكَ، وبَقِيَتْ شُهْرَةُ الخِيَانَةِ. تَالله مَا يُسَاوِي النِّضَابُ خَجَلَ الفَضِيْحَةِ فَكَيْفَ بِأَلَمِ القَطْعِ. وينشد:

مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ إنْ مُتُّ شَوْقًا وَلا فِيْهَا لَهَا ثَمَنُ

وَيْحَكَ مَا خُلِقْتَ لِلدُّنْيَا إِنَّمَا هِيَ مَعْبَرَةٌ رَفِيْقَكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِيٌّ، وَيْحَكَ مَا أَكَلْتَهُ فَلِجِسْمِكَ، ومَا تَصَدَّقْتَ فَلِرُوْحِكَ، وَمَا خَلَّفْتَهُ فَلِغَيْرِكَ.

إخواني، إلى مَتَى يَقَعُ سِيَاطُ التَّوْبِيْخِ في ظَهْرِ التَّفْرِيْطِ وَمَا تَسْمَعُ أَنَّهُ مُعْتَذِرٌ وَاهًا لِحَجَرِ قَلْبٍ تَعْجِزُ عَنْهُ عَصَى مُوْسَى وَلِكَمَهِ بَصِيْرَةٍ لاَ بُدَّ تُصْلِحُهُ رُقْيُ عِيْسَى، وَيْحَكَ أَمَا لِهَذَا التَّرْحَابِ جَوَابٌ؟ أَسْتَعْجَمْتَ دَارَ نِعَمٍ فَكَلِّمْنَا يَا مَنْ كَاعَتِ النَّصَائِحُ عَنْ إِصْلَاحِهِ، حَتَّى يَئِسَتْ مِنْ فَلَاحِهِ. وينشد:

لَيْسَ التَّغَرُّبُ أَنْ تَشْكُو نَوَى سَفَرٍ وَإِنَّمَا ذَاكَ فَقْدُ الحُبِّ في الوَطَنِ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا رُشْدَنَا. اللَّهُمَّ مَلِّكْنَا أَنْفُسَنَا. اللَّهُمَّ ذَكِّرْنَا عُيُوْبَنَا. اللَّهُمَّ ارْفَعْ مَنَارَ دِينِنَا، وَارْحَمْ دِمَارَ يَقِيْنِنَا. اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ غَوَائِلَ البِدَعِ، وَأَمِّنَّا يَوْمَ الخَوْفِ والجَزَعِ. وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ، وَصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيْمًا كَثِيْرًا كَثِيْرًا.

المَجْلِسُ الخَامِسُ والثَّلاثُوْنَ
فِي فَضْلِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الحَمْدُ لله الخالِقِ وَالحَسَّاسِ، ومُبْدِعِ الأَنْوَاعِ وَالأَجْنَاسِ، القَوِيُّ في سُلْطَانِهِ، الشَّدِيْدِ البَأْسِ المُنَزَّهِ عَنِ السِّنَةِ وَالنُّعَاسِ، المُخْرِجِ رَطْبَ الثِّمَارِ في يَابِسِ الأَغْرَاسِ، نَفَذَ قَضَاؤُهُ فَلَمْ يَمْتَنِعْ بِاحْتِرَاسٍ، وقَهَرَ عِزُّهُ كُلَّ صَعْبِ، الرَّأْسِ لاَ يَعْزُبُ عَنْ سَمْعِهِ حَرَكَاتُ الأَضْرَاسِ، ولا دَبِيْبُ ذَرِّ النَّمْلِ بِاللَّيْلِ في مَطَاوِيْ قِرْطَاسٍ، نَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ. فَكَمْ مِنْ مُجْتَهِدٍ عَادَ بِاليَأْسِ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ بِمُقْتَضَى تَدْبِيْرِ الخَلْقِ والقِيَاسِ، قَدَّمَ نَبِيَّنَا عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ وَبَرٍّ قَدْ بَرَّ وَسَاسَ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَجْزَلَ لَهُ العَطَاءَ وجَعَلَهُ خَيْرَ نَبِيٍّ حَارَبَ وَسَطا، وقَالَ لأُمَّتِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَدُوْمُ بِدَوَامِ اللَّحَظَاتِ وَالأَنْفَاسِ، وأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الَّذِيْ شَرْعُهُ مُسْتَقِرٌّ ثَابِتُ الأَسَاسِ، وعَلَى صَاحِبِهِ الثَّابِتِ بِالعَزْمِ وقَدِ ارْتَدَّ النَّاسُ، وعَلَى عُمَرَ قَاهِرِ الجَبَابِرَةِ وَالأَشْرَاسِ، وعَلَى عُثْمَانَ الصَّابِرِ يَوْمَ الشَّهَادَةِ عَلَى مَرِيدِ الكَأْسِ، وعَلَى عَلِيٍّ أَهْدَى الجَمَاعَةَ إلى نَصٍّ وقِيَاسٍ وعَلَى عَمِّهِ صِنْو أَبِيْهِ العَبَّاسِ. قَالَ الله العَظِيْم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] وسطًا، أي: عَدْلاً خيَارًا. ومثله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: الآية ٢٨] أيْ: خَيرهُمْ وَأَعْدَلُهُمْ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَجِيْءُ النَّبِيُّ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلان وأكثر من ذلك فيدعى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُم هَلْ بَلَّغَكُم هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَم. فَيُقَالُ له: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ. فَيُقَالَ لَهُم: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُوْلُونَ: نَعَم. فَيُقَالُ: مَنْ أَعْلَمَكُمْ؟ فَيَقُوْلُوْنَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا وَأَعْلَمَنَا أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَلَّغَ». قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عَدْلاً، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

القَوْل الثاني: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: شُهَدَاء لِمُحَمدٍ عَلَى الأُمَم اليَهُوْد والنَّصَارَى والمَجُوْس، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] بِأَعْمَالِكُم، قَالَهُ مُجَاهِد.

وَاعْلَم أَنَّهُ كَمَا فُضِّلَ نَبِيُّنَا عَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاء فُضِّلَتْ أُمَّتُهُ عَلَى سَائِرِ الأُمَم. وَاعْلَم أَنَّ فَضِيْلَة هَذِهِ الأُمَّة عَلَى الأُمَم المُتَقَدِّمَةِ، وإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِ الحَقِّ لَهَا وتَقْدِيْمِهِ إِيَّاهَا، إِلاَّ أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا كَمَا جَعَلَ سَبَبَ سُجُوْدِ المَلاَئِكَة لآدَمَ عِلْمَهُ بِمَا جَهِلُوا.

وَكَذَلِكَ جَعَلَ لِتَقْدِيْم هَذِهِ الأُمَّة سَبَبًا هُوَ الفِطْنَة والفَهْم واليَقِيْن والعِلْم وتَسْلِيْم النُّفُوس، واعْتَبَرَ حَالَهُمْ بِمَنْ قَبْلَهُمْ. فَإِنَّ قَوْمَ مُوسَى رَأَوْا قُدْرَة الخَالِقِ وشَقّ النُّجُوْم، قَالُوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨]، ثُمَّ مَالَ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ إلى عِبَادَةِ العِجْلِ فَقَالُوْا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: الآية ٢٤]، ولَمْ يَقْبَلُوْا التَّوْرَاة حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِم الجَبَلَ.

ولَمَّا اخْتَارَ سَبْعِيْنَ مِنْهُمْ، وَقَعَ في نُفُوسِهِم مَا أَوْجَبَ تَزَلْزُل الجَبَل.

ولَمَّا صَعَدَ نَبِيّنا إِلَى جَبَلِ حِرَاءَ في جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَزَلْزَلَ الجَبَل فَقَالَ: اسْكُن حِرَاء فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ وصِدِّيْقٌ وَشَهِيْدٌ، فَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلى أَنَّهُ لَيْس عَلَيكَ مِمَّنْ يُثبط كَقَوْم مُوْسَى. ومَنْ تَأَمَّلَ حَال بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ رَآهم قَدْ أُمِرُوْا بِقَوْلِ: حِطَّة. فَقَالُوْا: حِنْطَة. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: الآية ١٥٤]، فَدَخَلُوْا زَحْفًا. وَقَالُوا عَنْ نَبِيِّهِم هواد ومن مَذْهَبِهِم التَّشْبِيْهِ وَالتَّجْسِيْم، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ التَّعْبِيْر، لأَنَّ الجِسْمَ مُؤَلَّفٌ وَلا بُدَّ لِلْمُؤَلَّف مِنْ مُؤَلِّف. ومِنْ غَفْلَةِ النَّصَارَى اعْتِقَادِهِم أَنَّ الله جَوْهَرٌ، وَالجَوَاهِرُ تَمَاثُلٌ وَلاَ مِثْلَ لِلْخَالِقِ، ثُمَّ يَقُوْلُونَ: عِيسَى

ابْنُهُ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الابْنَ بَعْضٌ وَالخَالِقُ لا، ثُمَّ عَلِمُوْا أَنَّ عِيسَى لا يَقُوْمُ إِلاَّ بِالطَّعَامِ والإِلـه مَنْ قَامَتْ بِهِ الأَشْيَاء لاَ مَن قَامَ بِهَا. وقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلام: «**أَهْلُ الجَنَّةِ مِئَة وعِشْرُونَ صَفًّا أُمَّتِي مِنْهُم ثَمَانُوْنَ صَفًّا**».

رَوَى أَحْمَدُ بْنُ يَزِيْد، حَدَّثَنَا عمير بْن حَكِيْم بْن مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**لأنكم تُؤتون سَبْعِيْنَ أُمَّةً أَنْتُم خَيْرَها وأَكْرَمَهَا عَلَى الله تَعَالَى**». وَالحَمْدُ لله الَّذِي أَعْطَانَا بِجُوْدِهِ وَفَضْلِهِ مَا لَسْنَا مِنْ أَهْلِهِ.

وعظ:

إخواني، تَفَكَّرُوا في عَبَثِ البكاءِ بإِخْوَانِكُم، وَاحْذَرُوا الإِتْيَان بِعَذَابِ قَوْمِكُم وَأَقْرَانِكُم، وَانْظُرُوْا قَبْلَ فِعْلِ الشُّكْرِ في إِصْلاحِ شَأْنِكُمْ وَقَدْ شَاهَدْتُم بِغِنَائِكُمْ سَلْبَ أَغْنِيَائِكُمْ.

إخواني، تَفَكَّرُوا في عَبَثِ البَلَاءِ بِإِخْوَانِكُم، واحْذَرُوْا.

إخواني، مَنْ مُنْكِر من شراب الدُّنْيا هَلَكَ مِن خِمَارِ الهَوَى. وَيْحَكَ كَمَا أَقَرَّت الفَانِي عَلَى البَاقِي الخرب مزاج الفهم من رَجُلٍ يَطْلُبُ بلادا لا قبل مات قبل انقضاء السفر.

ويحك سَائِل هَلْ مِنْ سَائِلٍ يَبْعَث إِلَيْكَ ونَفَحَات العَفْو يَتَعَرَّض لَكَ وأَسْبَاب المُصَالَحَة تَصحّ بك. تعال نُجَدِّد عَهْدَ الرِّضَى ونُصْبِحُ في الحُبِّ عَمَّا مَضَى ونَجِدُ عَلَى سُنَنِ العَادِمِيْن وأَضْمَنُ عَنِّي وعَنْكَ الرِّضَى.

وعظ:

لَيْتَكَ عَرَفْتَ قِيْمَةَ مَا ضَاعَ مِنْكَ، كُلُّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِكَ جَوْهَرَةٌ يُمْكِنُ أَنْ تَشْتَرِي بِهَا خُلُوْدَ الأَبَدِ في جَوَاهِلِ الأَحَدِ بِإِخْرَاجِهَا في الفعلة حسرات سنبين أقل ما يلحق المتواني فوت الموسم من تذكر خنق الفخ هان عليه ترك الحبة شَهَوات الدُّنيا شِباك مقصدها صَيْد العقل بأن طهرا يد الطمع، فكلما في الفخ باغريقًا في بحْرِ الهوى لا تحسبن السباحة كمن يدور حولك مركب فضيحة يناديك ﴿يَبُنَيَّ

ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هُود: الآية ٤٢]، وا عَجَبًا كُلَّمَا صَعَدَ سِنُّكَ نَزَلَتْ فِطْنَتُكَ، تستوثق من خَيْمَةِ الإِقَامَةِ بوجد وقد ضَرَبَ بُوقَ الرَّحِيْل. طَرِيْقٌ طَوِيْلٌ ولا زَاد وتَقْصِيْر، كُلَّمَا جَاءَ الأَجَلُ زَادْ ويُقَالُ: يَا مَنْ هَمع الجمع لما حاصله العوق كان بِكَ يَا نَائِم وقَدْ أَيْقَظَكَ المَوْتُ.

وعظ:

يَا مَنْ قَدْ جَالَ بِلَادَ العُمْر سِتِّيْنَ سَنَةً أَيْن غَنِيْمَتَكَ مِنَ السَّفَرِ، لَيْتَكَ صَحِبَتْكَ السَّلَامة، يا مُنَعَمًا بَضَائِعَ النِّعَم بِمُخَالَفَةِ المُنْعِم لَيْسَ مِنْ أَعْدَائِكَ أكتم أذًى لَكَ مِنْكَ، لَو نُودِيَ عَلَيْكَ في سُوْقِ البَيْعِ بِشَرْحِ صِفَاتِكَ مَا اشْتَرَيْتَ بفلس تَذَكَّر، يَا مَنْ جَنَى رُكُوْبَ الجنَازَة وتَصَوَّر، يَا مَنْ تَزَوَّدَ لِطُوْلِ الجِنَازَةِ. وينشد:

والـمَـرْءُ مَـا دَامَ فـي عَـيْـنٍ يَـغْـلِـبُـهَـا
فـي أَعْـيُـنِ الـعَـيْـنِ مـوفـور
عَلَى الخَطَرِ مَا ضَرَّ فعلته مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ
لا مَـرْحَـبًـا بِـسُـرُوْرٍ عَـادَ بِـالـضَّـرَرِ

وعظ:

يَا مَنْ عَلَى ظهر أحمالٌ مِنْ أَعَمَالِ القَبَائِحِ يَبْتَكِرُ بَيْنَ الوزدان تضع الأرز بكَفِّ النَّدَمِ الشباب قد قولا والضَّعْفُ هَذَا قَبْل مِعْوَلِ الكِبْر يعرقب حِيْطَانَ الأَجَلِ ويحك أخر يد قَلْبك أم جلمودْ مَا هذا التَّوَقُّفُ وكَمْ هَذَا الجُمُودُ؟ أَمَا يُؤثر عِنْدَكُم ذِكْر يَوْم الموعود لا بطرة بَيْنِ هَذِهِ الدَّعوة ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية ١٨]. وينشد:

مَـا أضـع هَـكَـذَا جـرا الـمـقْـدورُ الـجـبـر لـغـنـي وأَنَـا الـمَـكْـسُـوْرُ
مَـا سُـؤرُ هـوًى مـتـهـم مـهـجـورٌ مـا يـمـكـن أن يُـغَـيِّـر الـمَـسْـطُـورُ

وعظ:

يا مُذْنِبِيْنَ هَذَا أَوَانُ الإِنَابَةِ، يَا عَامِلِيْنَ عَنِ الحَقِّ وقد قبح بابَه، تَعَرَّضُوا للقُلُوبِ فَهَذَا وَقْتُ الإِجَابَةِ.

إخواني، يَتَحَدَّثُ الحيران بأنه تَابَ فُلَانٌ حَتَّى يَقُولَ الأَقْرانُ: إذا اجتماع في مَكَانٍ فَيَقُوْلُ ذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ كَانَ فيَقُولُونَ مَا الخَبَر؟ فَيُقَالُ: صخر قد لان. ويحك كتابك بالذُّنُوبِ مَلآنْ فَاسْتَدْرِكْ أَمْرَكَ مِنَ الآن، أَتُرَى تَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِكَ قَبْلَ خُرُوْجِ رُوْحِكَ؟ وينشد:

قُلْ لِلزَّمَانِ صلحًا قَدْ عَادَ لَيْلِي صُبْحًا
وأعزب الشوق الذي كان أجاجًا
ملحًا يا مذنبين لا تَبْرَحُوا مِنَ البَابِ
وَلَوْ طرِدْتُم إن ضيق الورع عليكم رزقًا

فوسعوه بالقناعة، وليشغلنكم ذكر ما مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ عَنِ النَّظَرِ الذي تعبدكم وأَكْثِرُوا صُحْبَةَ البَكَّائِيْنَ فَإِنَّهُ شَفِيْعٌ مشَفَّعٌ. وينشد:

إنْ كُنْتَ تَنُوحُ يَا حَمَامَ البَانِ ... لِلْبَيْنِ فَأَيْنَ شاهِد الأَحْزَان
أجْفَانُكَ للدُّمُوْعِ أَمْ أجْفَانِي ... لا يقبل مدَّع بِلَا بُرهَانِي

وعظ:

وَيْحَكَ إذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ قَلِيْلَةَ الشَّوْقِ إلى حُضُورِ المَجْلس، واحتل عليها بحجة الفرحة، وقل: ليس الخبر كالعيان لَعَلَّها إذا حَضَرَتْ تَأْنَس بأهل الدين والخبر عادة، فإذا جلست فأين طلب النفع والأعمال بالنِّسيان، وإذَا رَأَيْتَ التَّائِبِيْنَ قَدْ نَهَضُوا فَلَا تغيرهُمْ بما يحبوا فالبلاء مُوْكَّل بِالمَنْطِقِ، فإذَا صَحَّ عِنْدَكَ حُسْنَ قَصْدِهِمْ فَقُل لِلْنَّفسِ المُوَافَقَة شَرْطٌ، فَإِنْ قَالَتْ: مَا أجِدُ مَا يَجِدُوْنَ فَقُلْ إنْ لَمْ تَبْكُوْا فَتَبَاكَوْا. فَإِنْ قَالَتْ: لا أُطِيْقُ مَا يُطِيْقُوْنَ. فَقُل: النَّاسُ كأَسْنَانِ المِشْط. فَإِنْ قَالَت: هَؤُلاَءِ غُزَاة وأَنَا أظن يومي. فَقُلْ: المُؤْمِنِيْن تَتَكَافَأ دِمَاؤُهُم فَإِنْ اهْتلطت منها خوف العار من الهَزِيْمَةِ فَكُنْتَ مِنَ المُجَاهِدِيْنَ بِهَذَا الحلية والخوف خدعةً.

وعظ:

إخواني، الإِنَابَة في القلبِ جَلَّ عِنْدَ الإصْرَارِ، وَلَمْ يَبلَ بِعَبَائَةِ الهَوَيئ مَنْ

رَقَّ لِبُكَاءِ الطِّفْلِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى فِطَامِهِ، مَنِ اسْتَسْقَى غيبة الفهم فليجد رِدَاءَ الذَّنْبِ ومَنِ اسْتَطَالَ الطَّرِيْق ضَعف سَعْيُه. وينشد:

وَمَا أَنَا بِالمُشْتَاقِ إنْ قُلْتَ بَيْنَنَا طِوَال اللَّيَالِي أَوْ طِوَال السَّبَاسِبِ
وَمَا لِقُلُوْبِ العَاشِقِيْنَ مَزِيَّةٌ إذَا نَظَرْتَ أفْكَارَهَا في العَوَاقِبِ

فَصْل:

سُبْحَانَ مَنْ قَدَّمَنَا عَلَى جَمِيْعِ النَّاسِ، وَسَقَانَا مِنْ مَعْرِفَتِهِ أَرْوَى كَأْسٍ، وَجَعَلَ نَبِيَّنَا أَفْضَل نَبِيٍّ رَاعِيًا وَسَاسَ، فَلَمَّا فَضَّلَهُ عَلى الأُمَّة وأَنْعَمَ عَلَيْنَا بِعُلُوِّ الهِمَّةِ قَالَ لَنَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ في الأُمَمِ مِثْلَ أَبي بَكْرٍ، أو عُمَر لدى أعصر كسرى معا بالدين أو عُثْمَان الصَّابِر عَلَى مر الذين، أو علي بحر العلم العمر العميق، أو مثل حمزة والعباس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

فيهم مثل طلحة والزُّبير لقريش أو معد وسعيد هيهات من أين المهم صبر حباب وحبيب ومثل ومَن مثل الاثنين إن شَبَّهْنَاهُم بِهِم أبْعَدْنَا القِيَاس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

هَذَا شجرة الرِّضْوَانِ في أشجارهم هل وقعت بدر في أسمارهم إنما عُرِضَتْ لهم عُراة في جميع أعْمَارِهِم وجِهَادَنَا مَعَ الأنجاس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أَيْنَ أَصْحَابُ الأنْبِيَاء ومن أصْحَابنا، هَيْهَاتَ مَا القَوْمُ مِنْ أَضْرَابِنَا، ولا ثَوَابُهُم في الأُخْرَى مِثْلَ ثَوَابِنَا، نَتَقَ الجَبَلُ فَقَالُوْا أفلنا. ونَحْنُ قُلْنَا في كِتَابِنَا: عَلَى العَيْنَيْنِ والرَّأْسِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. مِنْ أَيْنَ أَصْحَابِ الأنْبِيَاء ومِن أَصْحَابِنَا. هَيْهَاتَ مَا القَوْمُ مِنْ أحْزَابِنَا ولا ثَوابُهُم في الآخِرَةِ مِثْل ثَوَابِنَا. نَتَقَ الجَبَلُ فَقَالُوْا: أفَلَنَا؟ ونَحْنُ قُلْنَا في كِتَابِنَا: عَلَى العَينين والرَّأْسِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ودّوا كِتَابهم ومَن سَطَّرَ وصَكَّ وطَلَبُوا صجًّا وقيد البحرُ بحرفك وشكوا عند الجبل وما بينا من شك إن تشبيه الشَّكِّ بِالله مِنْ وَسْوَاسِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

عَمرهم التعجيل وتناها وأعتقوا للخالق أشباهَا فَقَالُوْا يَوْمَ اليَمِّ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] ومَا في عَقَائِدِنَا التِبَاسٌ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. أَتَرَى أَصْحَابَنَا الفَقْرَ وَالمَجَاعَة، وَاشْتَغَلُوا عَنِ الدُّنْيَا بِالطَّاعَةِ، وَسَأَلَتْ النَّصَارَى مَائِدَةً لِلْمَجَاعَةِ وإِنَّمَا طَلَبُوا جوة الأَضْرَاسِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. أفيهم مِثْل أَبِي حنيفة ومَالِك أو كَالشَّافِعِي الهَادِي إلى المسَالِكِ كَيْفَ يَمْدَحُهُ وهو إذًا مِنْ ذلك مَا أَحْسن بُنْيَانه والأساس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أبيهم أغلى مِنَ الحَسَن، وأَنْبَل أو ابن سِيْرِين للدين بالورع يقبل أو كأَحْمَدِ بْنِ حَنْبَل الذي بَذَلَ نَفْسَهُ لِلْحَقِّ وسَل بِالله مَا فِيْهِم مِثْل أَحْمَدِ بْنِ حَنْبَل ارجع صوتك هَذَا ولا بأس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أعند رهبانهم كزهراويين؟ أفي متعبديهم كمعامد ابن عبد قيس؟ أفي خائفيهم كالفضل ليس ضوءُ الشمس كالمقياس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. أفيهم مثل بشر ومعروف؟ أفي سوائبهم طائفة صلت وقد صلت السيوف وزينت الأجرام؟ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] ( )[١] مُحَمَّدٌ اللَّهُمَّ خَلِّص لِوَجْهِكَ أعْمَالنا، اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا في الدَّارَيْنِ آمَالَنَا، واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ، وصَلَّى الله عَلى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيْمًا.

(١) الكلام طمس من الأصل.

المَجْلِسُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُوْنَ
فِيْ فَضْلِ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَر بن عَبْدِ العَزِيْزِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صَلَّى الله على سَيِّدنَا مُحَمَّد وعَلَى آلِهِ وسَلَّم تَسْلِيْمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي هُوَ عَلَى تَغَايُرِ الأَزْمنَةِ بِجَمِيْعِ الأَوْصَاب الألسنة ( )[١] محمُودٌ مُقَدَّسٌ بِالعَظَمَةِ والكِبْرِيَاءِ، مرتجع موجود أخرج من مكنتم العدم جميع بدِيع أوصاف أصنافِ اختلاف الوجود، ذو أطهر من طهور البرية جميع الذرية وجعل البطون لهم كالمهود، ثُمَّ صَوَّرَهُم بِحِكْمَتِهِ ولَطِيْفِ صَنْعَتِهِ مضغًا وعِظَامًا ولَحْمًا وأَلْبَسَهُم حُلَلَ الجُلُود، صوَّر من النطفة والطِّب والعِظَام المُنْتَصِبَة، فَمِنْهَا المُجَوَّف ومنها المَسْرُوْد، ومِنْها المُتَّصِل، ومِنْهَا المُنْفَصِل، ومِنْهَا المُعْوَجّ، ومِنْهَا المَمْدُوْد. ثُمَّ قَدَّر شَكْل الكل على وجهات الحَرَكَةِ الطَّارِقة للأنس المَبْسُوط والقِيَام والقُعُوْد، وأَرْبَطَهَا بِأَوْتَارٍ أَسَّسَهَا في أَطْرَافِ العِظَامِ لِيَحْصَل مِنْها المَقْصُوْد، وصَوَّرَ الوَجْهَ بِأَنْ نزف فيه السَّمْعَ والبَصَرَ، وَزَيَّنَهُ بِالأَجْفَانِ والأذجار والخُدُوْد، ثُمَّ رَجَعَ نصبة الأَنْفِ لِيَتَغَذَّى مِنْهَا القَلْب بالمعوى المتعاقد الممدُود وفتح الفَمَ، وأَوْدَعَ اللِّسَان المُعَبِّر على ما في الضمير من الأَمْرِ والنَّهْي والإقرار والجحود، وزَيَّنَهُ بالأَسْنَان المُبْيَضَّةِ الأَلْوَان فصغيرهما وعراويهما كعقد منظم منضود، ثم أخرجهم من الأَحْشَاءِ إلى الضوء المشرق والظِّلِّ المَمْدُوْد، وأَمَرَهُمْ بِالقِيَام والقُعُوْد، وكَلَّفَهُمْ بِالرُّكُوعِ والسُّجُوْدْ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى عُمْرُ الإِنْسَان وعَادَ وَالدًا

(١) الكلمة غير واضحة من الأصل المخطوط.

بَعدمَا كَانَ مَوْلُوْدًا، ابْيَضَّتْ لَمَّتُهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ سَوْدَاء كَالغَرَابِيْبِ السُّودْ من المَرَض، وَاعْتَرَضَ واعْتَدَى وَلَم يَنتَفع بِمَا عِنْدَهُ مِنَ المَوْجُوْد فَيَخْرُج مِنْ سَعَةِ القُصُوْرِ إلى ضِيْقِ اللُّحُوْدِ ويُجَاوِرُ في قَبْرِهِ الهَوامّ وَالدُّوْد، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْم العَرْضِ عَلَى المَلِكِ المَعْبُوْدِ فَيُحَاسَبُ عَلَى القَلِيْلِ وَالكَثِيْرِ وَمَا ارْتَكَبَ مِنَ الجَرَائِم وَمَا ضَيَّعَ مِنَ الحُدُوْدْ، ثُمَّ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ الأَلْسِنَةُ والأَيْدِي وَالأَرْجُلِ وَالجُلُود، فَيَا سَعْدَ مَنْ قُبِلَتْ أَعْمَالهُ، وَيَا شَقَاوَةَ مَنْ عَمَلُهُ عَلَيْهِ مَرْدُوْدْ. وينشد:

يَـا غَـافِـلًا قـم واقـصـد الـمَـلِـكَ الـوَدُوْدْ
واذر الـدُّمُـوْعَ عَـلَـى الـجُـفُـونِ مِـنَ الـخُـدُودْ
يَـا وَيْـحَ نَـفْـسِـيْ بِـالـمَـتَـاب مَـتَـى تَـجُـوْدْ
انْـظُـر وَفَـكِّـر وَاعْـتَـبِـرْ تَـبَـصَّـر وجُـودْ

مِن فَضَائِلِ عُمَر بْنِ عَبْدِ العَزِيْز رَضِيَ الله عَنْهُ:

دعَا يَوْمًا بِمَاءٍ وَأُوتِيَ بِإِنَاءٍ فِيْهِ مَاءٌ بَارِدَة، فَلَمَّا قَرَّبَهُ مِنْ فِيْهِ خَنَقَتْهُ العَبْرَة وبَكَى حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، فَقِيْلَ له: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فَدَيْنَاكَ بِأَنْفُسِنَا مَا الَّذِي نَزَلَ بِكَ؟ قَالَ: لَمَّا وَجَدْتُ بَرْدَ المَاءِ في فَمِيْ ذَكَرْتُ شِدَّةَ عَطَشِ أَهْل النَّارِ، وأنهم إذا استغاثوا لم يُغاثوا إلا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا، ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٥]. وأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا اسْتَغَاثَ بِالمَاءِ سُقِيَ شِرْبَةً يَتَنَاثَرُ مِنْهَا لَحْمَهُ مِنْ عَلَى عَظْمِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِمْ لَهَبُ النَّارِ جَرُوْا إلى أَوْدِيَةِ الزَّمْهَرِيْر رَجَاءً مِنْهُمْ أَنْ يَكُوْنَ أَخفَّ عَلَيْهِم فيقرض الزَّمْهَرِيْر أَطْرَافَهُمْ فَيَهْرُبُوْا إلى النَّارِ فتنتبذهم بِلَهِيْبِهَا وحَرِيْقِهَا فَيَرْجِعُوْنَ إلى الزَّمْهَرِيْرِ يَلْتَمِسُوْنَ الرَّاحَةَ حَيْثُ لا رَاحَةً ولا بَرَحًا كَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٤٤] دمغت النفس نفسها بِعَيْنِ العَجَبْ وذَكَرَهَا حساسة الأجَل فَإِنَّكَ والله مَا لَم تَجِدْ مَرَارَةَ الدَّوَاء في حَلْقِكَ لَمْ تَقْدِر عَلَى ذَرَّةٍ مِنَ العَافِيَةِ، أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ في حباحب الدُّنْيَا فمتى يصبح وارد الدَّهْرِ كَم قَتَلَتِ الدُّنْيَا قَبْلَكَ؟ كَمْ أَهْلَكَ حُبُّهَا مِثْلَكَ.

إخواني، ابْكُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنْ لَم تَجِدُوْا بُكَاءً فَارْحَمُوْا كُلَّ بَكَّاء.

وينشـــد:

قد كان يمنعني الحياء من البكا   واليوم يمنعه البكا أن يمنعا

وعظ:

بِالله عَلَيْكَ اعرف بما ضاع منك، وابْكِ عَلَيكَ إن كَانَ لَكَ قَلْبٌ فانقلب كان لك وقت بذهب، يا مظهرًا من الخير ما ليس في بطنه لا تَبعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ. لَوْ عَرَضْتَ خَبَايَا صَدْرِكَ عَلى جِيْرَانِكَ لَرَجَمُوْكَ بالحِجَارَةِ، لَوْ وَجَدْتَ عَلَى أوْصَابِكَ بِالصِّدْقِ تغير لونك، إن صاحب المعوج إذا رَأى المحك أو تعد أسمع الملابس ثياب الرياء لما استصلح الرَّابح الأمثال إلا من العمى إلا من على السكين السكون. وينشد:

لَئِنْ قَدِمْتُ من سَجْدَةِ البَين عليكم   تَلَقَّيْتُهَا بِالرَّحْبِ مِنْ كُلِّ جَانِب

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ رَضِيَ الله عَنْهُ إلى الجَرَّاح بْنِ عَبْدِ الله: إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَدَعَ شَيْئًا مِمَّا حَلَّ الله لَكَ لِيَكُوْنَ رَجَاءَ جَزَاءٍ بَيْنَكَ وبَيْنَ مَا حَرَّمَ الله عَلَيْكَ.

وعظ:

إخواني، جَاءَ طُوْفَانُ المَوْتِ فَارْكَبُوْا سُفُنَ التُّقَى أتَحْتَاجُ إلى أَحْكَامٍ تَامَّة، وَاللَّهُمَّ مُنَاجِز صغار في مواضع الرَّمي فما حكم تلك الذواذ زمار الورعٍ قبل أن يَصِيحَ نُوْحُ الآسي لا عَاصِمَ يَا مَعَاشِرَ الشُّيُوخ بمنارِ عومكم قد تصوم وبقي شفق الشَّيْب.

أيّها الشابُ كُلَّ يَوْمٍ تَخْلَعُ خَلْعَة مِنْ ثِيَابِ شَبَابِكَ إلى أنْ تَعْرَى مِنْ ثِيَابِ جَمَالِكَ. كَتَبَتْ يَدُ الشَّوْقِ في جوديك رسالة تُذِيْبُ فُؤَادَكَ مَضْمُوْنها قَرُبَ الرَّحِيْلُ ومَفْهُومُهَا قَدْ بَقِيَ القَلِيْل. اللَّهُمَّ ارْجِعْ مَنَار دِيْنِنَا وَارْحَمْ دَمَارَ يَقِيْنِنَا. اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ غَوَائِلِ البِدَعِ، وَسَلِّمْنَا مِنْ خبايل الجزعِ، وَاقْطَعْ عَنَّا غلاين الطَّمَعِ وَأَمِّنَّا يَوْمَ الخَوْفِ وَالجَزَعْ، وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّم تسليمًا.

المَجْلِسُ السَّابِعُ والثَّلَاثُونَ
فِي بِدَايَةِ إِبْرَاهِيْمَ بن أَدْهَم رَضِيَ الله عَنْهُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد وآلِهِ وسَلَّم تَسْلِيْمًا

الحَمْدُ لله الَّذِي تَجَلَّى بِسِرِّ جَوْهَرِ ضَرْبِ طَيْف خَيَال جَمَال أَنْوَارِ أبصار أَرْوَاحِ أَشْبَاحِ حقائق العَارِفِيْن، وأزال انْسِدَال ذَهَاب ظَلَام حِجَابِ الارْتِيَاب بِالتِهَاب إِبْراز إشراق تشعشع تمنيع نور عِلْمِ اليَقِين للعامِلِين، وبَسْطِ بِسَاطِ الانْبِسَاطِ عَلَى سِمَاطِ أَهْلِ الصِّراطِ تَحْتَ أَوْرَاقِ أشْرَافِ عِلم الرِّجَالِ للخائِفِيْنَ وغرس بين غرس الوداد في مُنَاجَاةِ قُلُوبِ خيمات السعادات تحت مياه الانتباه ببحبوحة القدس فخروا له ساجِدِين، فتَحَرَّكَ فَلَك قطب القلب من أجل قرب الرّبِّ باندفاع سَمَاع لغات أَوْتَارِ مِزمَارِ عَوْدِ تغريد رنَّات نغمات التائبين، إذا زعفار رفين رحيق شراب أعناب طروم الهموم، فسقاهم وأرواهم، فشربوا فطابوا وطلبوا فغابوا فأجناهم مولاهم عن سواهم حَتَّى بَدَت لهم شَمْس الأُنْسِ على ركائب رِحَالِ الجِمَال فقاموا هائمين، فاعتبروا في أوصاب اختلاف مياه مخلوقات سَيِّدِهِم ومَعْبُودهم، بصاحوا وباحُوا بِأَسْرَارِ إعْلان الله الله وحاجة الشريفين، فولهوا وتلهُوا بأدرج مصباح الفلاح في أجرام ميدان طرق التوفيق في أصْلِ لُبِّ القَلْبِ حَيْثُ نَظَرُوا إلى أَرْحَم الرَّاحِمِيْنَ، والحَمْدُ لله عَلَى نِعَمٍ لا يُحْصِيْهَا العَدُوّ، وصَلَّى الله عَلَى أَشْرَف مَن خدمه السَّعد، وعلى علي وحمله أصابه وبائعيهم ما نَسَمَ البَرْق وفهفهة الرعْدُ.

ركب إبراهيم بن أدْهَم يومًا للصيد وقد نصب له مج يهديهم ربهم حول حب يحبهم ويحبونه بصيد قبل أن يصيد، سمع هاتفًا يقول: ما لهذا خُلِقْتُ

ولا بهذا أُمِرْتُ. فكانت تلك اللفظة شربت شفاهَا حكم الأذل ومُزِيْل العِلَل فنهضت فولج الهوى. يا له من سهم ألهاه عن فرجوسه وبرسه كان زائد الفهم راقدًا في ليلة الغفلة مشغولاً بأحلام المُنَى، فيصيح به: قم فقام فقيل له: سِرْ فاستقام وركب الطبيب أدوية بريقه السقام، وعظه خطيب اليقظة فوصلت ملامته إلى جميع الأنف فنهضت حَمِيَّة الرجولية، يا بن أدهم: مبادرة الصيد أوَّلُ مَراتِب الشَّجاعة. يا بن أدهم: فتلك حُبُّ الدُّنْيا لهم لأخذ الثأر إن كان لك عزيمة.

وعظ:

يا مَن ضاع يوسف غفلة خبر بخيم الصالحين لعلك تجد ريح يوسف قف بالبحر على أقدام الذّلّ وقل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: الآية ٨٨] يا مخدوع الأماني، يا مخذول التواني غرق مركب عُمْرِكَ في بحر الكسل، وَيْحَكَ مَن لازَمَ المَنَازِلَ لَم يَرَ إلاَّ الأحلام متى تفتح عين عمرك بلا طول هذا الكرى؟ أما تستنشق ريح السَّهر؟ أما تجد برد هوى الفجر؟ أمَا تُعايِن ضوء الشَّيْب؟ أَمَا يُؤلِمُكَ عتاب الدَّهْرِ، استيقظ يا نائم إلى كَمْ هذا الكرى؟ هَبَّ نَسِيْم نجد. وينشد:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادني مسارك وجدًا على وجدِ
ألا حَبَّذَا نَجدٌ وطيب ترابها ... شغفت به إن كان نجدٌ على العهدِ
أَحِنُّ إلى نجد خيلن مولد دعاه ... ألهفوني وأهفو شوقًا إلى نجد
ولم يكُ قلب عند نجد وأهله ... فكيف بغير نكرة قلّ ما تجد
وصدى الفتى أهوى الزمن والمنى ... وإن كان لا يغوي الحب على الجد
محا الله شجا على الحب عاشقا ... ولا عاش في قرب ولا زال في بعد
وماذا عليهم لو قرأنا وصالنا ... وثم علينا ما يضر من الوجد
متى أهل نجد عائدون إلى نجد ... يداوون قلبًا قد تداوى من الصدِّ
خليليَّ إن كانت بحمص مَنِيَّتي ... فلا تتركاني واحملاني إلى نجد
وإن أنتما لم تحملاني فسلِّما علي ... ورداني على الأبلز الفرد
يقلن نسبًا يمتجين مودتي ... ليعلمن مني ما يسر وما أبدي

أأحبب ليلًا جهد حبي كله | فقلت نعم جهدي ووردت على الجهد

وعظ:

صَاحَ بِكَ وَاعِظ ومَا تَسْمَعُ وكَم حَصَلْتَ مَا يَكْفِي وما تقنع، لقد استقرضك مولاك فما لك تجمع، وضمن لك الحبة سبعمائة وما تزرع، تشتغل عن القرآن بالمنزل وتسمع من مغن يتغزل.

إخواني، أفيكم عازم على الصّلح؟ أمِنْكم مُصْبِح يضج من المنحر يا عاصي، منادي القبول على باب الوصول يُنادِي سارعوا. وينشد:

الغيمُ رطبٌ يُنادي | يا غافلين الصَّبوح
فقلت أهلًا وسهلًا | ما دَام في الجسمِ رُوحْ

ويحك ويحك يا عَاصِي قَدْ قَيَّد الطَّرْدُ قَدَمَيْكَ وَغَلَّلَ الأَبْعَادَ يَدَيْكَ أَفَمَا لَكَ عَيْنٌ تَبْكِي عَلَيْكَ.

وينشد:

وفي نظَرِ الصَّادِي إلى المَاءِ حسرة
إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا سَبِيلَ المواردِ

وعظ:

إخواني، ما قعودكم وقد سار الرَّكب؟ الحقوهم في المنزل، الموت مقاتل يقصد المقاتل. تالله لقد حصل للمتيقضين فوز الدارين ورضيتم بالبين من البين، تنبَّهوا يا نُوَّام كم ضيَّعتم من عام؟ الدنيا كلها منام؛ وأحلى ما فيها أحلام، غير أن عقل الشيخ بالهوى علام، قتل النفوس على مرّ هل هو إلا ثوب وطعام، آه للغافل إلى كم يُلام؟ أما توقظك الليالي والأيام؟ أين سكان القصور والخِيام؟ دارت عليهم كأس الحمام والتقطتهم النقاط الحمام، ما المخلوق فيها دوام سجل ثبت واستقل بالأعلام ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: الآيتان ٢٦، ٢٧].

حُكِيَ أن إبراهيم بن أدهم حمل حزمة حطب على صلبه، فرآه الأوزاعي

فقال له: يا أبا إسحٰق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال إبراهيم: دعني يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه مَن لم يوقف نفسه موقف ذلّ في طلب الحلال وجبت له الجنة.

إخواني، افعل أفعال المحبة بأربابها التلف والمجروح تلف وقوع السيف من يد المحبوب، فإن شكى المبتلي إلى المُبتَلَى كان معطي مقصوده التلذّذ بشرح الحال لا إزالة البلاء فرُوضِي المقتول كل الرِّضى، ليس بعجب مُحِبٌّ بجرف إنما العجب محبوب بجرف وينشد:

مستهام ضاق مذهبه ... في هوى مَن عزَّ مطلبه
كل امرئ في الهوى عجب ... وخلاصي منه أعجبه

وعظ:

وا عجبًا كيف يذلّ نفسه هذا ليمدحه الخلق فذهب والمزح، لو بذلها للحق لبقيت والذكر عمل المُرائي بطلت كلها فشوربًا منقطعين في يدي الغفلة أترى أيّ ذنب أفتطعمكم لو بقي عليكم من دين الزهد حبة لم يكتب لك التقوى. المكاتب عبد ما بقي عليه درهم قد عوقب احتيال المنوي عليك حتى أوقعك في شركه. فالآن فلا أقبل لك التوبة والمؤمن لا يلدغ من جُحْر مرتين.

اللَّهمَّ اجعل بطاعتك أشغالنا، اللَّهمَّ حقِّق بالزيادة آمالنا، اللَّهمَّ واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، اللَّهمَّ تقبَّل بفضلك أعمالنا، اللَّهمَّ اجبُر برحمتك أحوالنا، اللَّهمَّ اختم بالسعادة آجالنا، واجعل اللَّهمَّ إلى جنَّاتك مصيرنا ومآلنا، واغفر لوالدينا ولذريّتنا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا، والحمد لله ربّ العالمين.

المَجْلِسُ الثَّامِنُ والثَّلاثُونَ
في حكاية الجُنَيد رضي الله عنه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلّم تسليمًا

الحمد لله العظيم الشأن العميم الإحسان، الرفيع البُنيان، المنيع السلطان، المرفّع عباده بقواطع الأدلة وسواطع البرهان لا يقال متى؟ وإلى متى؟ وكل ذلك من شِيَم الحدثان خضعت لجلال هيبته الثقلان وذلَّت لعزِّ قُدرته ملائكة الموت بالإذعان ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإذعان ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: الآية ٩٣] بالانقياد والإتيان ببيان مَن في السمٰوات والأرض ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرحمٰن: الآيتان ٢٩، ٣٠] خلق الإنسان وشقَّ له سمعًا لاستماع الأذان وفمًا للمنطق وبصرًا للنظر وقلبًا لينطق في التحقيق والإيمان ونِعَمًا تشمل على البصير والطغيان ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمٰن: الآيات ١٩ - ٢١]، القلب أمير الجوارح، والأعضاء هي الأعوان، والقدمان كالمركب، والقدمان كالفهرمان، والسمع كالجواسيس، واللسان كالتُّرجمان، فسبحان مَن أنطق لحمًا، وأسمَع شحمًا، وأبصَرَ عظمًا كالأُذنين والعينين واللسان.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمٰن: الآيات ١٩ - ٢١]، تعالى جدّ ربّنا وتقدَّست أسماؤه قبل اختراع العناصر والأصابع وإلا وكان قبل اتصال الفلك بالدوران وقبل اتصال الشمس بالإيضاء

والقمر بالنقصان ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ [الرحمٰن: الآيتان ٣٣، ٣٤]، أنطق الآيق على أغصان الأيك بغرائب السجع وبدائع الألحان، وأبكى السحاب فأضحكت لبكائها نقور الأقحوان فشق أشرًا والورق والزمرّد وأحلاق النرجس وأكمام الأُقحوان ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: الآيات ١١ - ١٣].

أحمده حمدًا يُوجِب المزيد من الإحسان، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجو بها الإخلاص من النيران، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الراعي إلى الإيمان والمنادي إلى دار الأمن والأمان صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأشياعه وأتباعه والتابعين لهم بإحسان.

قال الجُنَيد: حَجَجْت سنة من السنين، فبينا أنا ذات ليلة أمشي في الطريق إذا بصوت موزون من كبد محزون وهو يقول: إلٰهي لا إلى بيتك أوصلتني ولا مع أهلي تركتني. قال: فتقدمتُ إليه وسلَّمت عليه فقال: وعليك السلام يا جنيد، فقلت له: يا حبيبي، ومَن أعلَمَك باسمي أني الجُنَيد؟ قال: التقت روحي وروحك في الملكوت فأعلمني باسمك مَن يعلم السِّرَّ وأخفى، ثم قال: سألتك بالله يا جُنَيد إلا ما أقَمْتَ معي، فإني أموت في هذه الليلة، فإذا أنا مُتُّ فاغسلني وكَفِّنِّي في ثيابي، واطلع على الرابية، وقل الصلاة على الغريب يرحمكم الله، فإذا صلَّيتم عَلَيَّ ودفنتموني ورجعتم وتركتموني وسِرتَ إلى مكة وقضيت حجَّك فارجع إلى بغداد واسأل عن درب الزعفراني واسأل به عن موضع أُمي وولَدَيَّ، فإذا وجدتهم أعلِمهم بموتي وقل لهم: الغريب يُقرِئكم السلام ويقول لكم: لا إلى بيته أوصلني ولا معكم تركني. قال: فلما كان الليل جنَّ وقال شعرًا:

أرأيت كيف سطا عليَّ زماني ... وبأيِّ سهم بالبعاد رماني
فارقت أحبابًا عليَّ أعزَّة ... كانوا بقلبي في أعزِّ مكاني
فرزيت بعد فراقهم برزية ... فمَحَت أُصول السرّ من كتماني
ولئن بكيت ولم تفض عيني دمًا ... لفراقهم يومًا فما أجفاني
فتنفسوا الصعداء وقالوا يا فتى ... أنضحت دمع العين بالهملاني

ما أنت أول مَن مضت أحبابه وجرت عليه نوائب الحدثاني
الدهر لا يبقى رمادًا واحدًا فلا بدّ من فرح ومن أحزاني
بنفسي محبوب جفاني خياله لمَّا عافني عن الهوا وجفاني
وأصبحت مقصوص الجناح بعد ومن فض لا يقوى على الطيراني
غريب من الأحباب ما بين أهله له أضلع طارت من الخفقاني
فإن عشت بعد اليوم ما لي حجة ولا عشق إلا أن يكون يماني

ثم مات رحمه الله فغسَّلته وكفَّنته وحفرت قبره، وطلعت على الرابية، وقلت: الصلاة على الغريب يرحمكم الله، قال: فإذا أنا بجماعة أقبلوا إليَّ من كلِّ فجٍّ عميق شُعثًا غُبْرًا، فلما صلَّينا عليه ودفنَّاه، وانصرفنا، فلما قضيت صحبني ورجعت إلى بغداد. فسألت عن درب الزعفران وإذا بصبيان يلعبون، وإذا بصبي معهم فلما رآني قام إليَّ وعانقني. وقال لي: يا عمَّاه لعلك أنت الذي أتيت تخبرني بموت والدي، فقلت في نفسي: وا عجبًا مَن أعلَمَه بذلك، ثم سِرتُ معه إلى العجوز فضرب الباب وإذا العجوز قد خرجت إلينا وفي يدها عصًا وزنبيل وسُبْحَة، وهي تُسَبِّح الله وتقدّسه بأنواع التسبيح فلما رأتني قالت: أهلًا وسهلًا يا جُنَيد، أين مات وَلَدي لعلَّه مات بعَرَفَة؟ قلت: لا، قالت: لعلَّه مات بالمزدلفة؟ قالت: لا، قلت: لعله مات بمِنَى؟ قلت: لا، قالت: لعله مات بمكة؟ قلت: لا. قالت: لعله مات بأفريقية؟ قلت: لا. قالت: لعله مات بشجر أُم غيلان؟ قلت: نعم. قال: فصاحت وقالت: وابُنَياه إلٰهي لا إلى بيتك أوصلته ولا معي تركته. إلٰهي ألحقني به إنك على كل شيء قدير. ثم رفع الصغير بصره إلى السماء وقال: إلٰهي لا مع والدي سيّرتني ولا مع جدّتي آنستني ألحِقني بهما إنك على كل شيء قدير فرمي وصاح صيحة خرَّ ميتًا رحمة الله علينا وعليهم.

وعظ:

عباد الله، إنما الدنيا ضروب الجزاء، والساعات ركائب المجد، وأوقات العافية أوقات تستدرك، وأحيان السلامة تنادي مَن جَدَّ أدرك.

إخواني، احذروا دنياكم فإنها خادعة، وانتظروا حتوفها فهي لا ريب

واقعة، أيها العبد إلى متى تشتغل بها عن مولاك وهو غيور؟ وكيف تغترّ بغرير هوى يغري ويفور؟ وكم عدلت عن العدل وحاضرت الحضور؟ أتظن البقاء وقلائد الفراق كالأطواق في النحور؟ أما تعتبر بأقران قرنوا بقرائن أعمالهم في القبور؟ أما مواضعهم تضعك على وضع الوضائع والفتور؟ أما حلُّوا اللحود؟ فحالت حلى تلك البدور.

أما منازلهم إذا نازلهم منازلهم زال عنهم السرور؟ أين هم الآن خلا فإليهم بالبثور؟ حال بهم عن المال ما لا يرد وصرفهم صرف الدهور أصبحت وجوههم الصبيحة مضطجعة شراب الدثور، مبانيهم أبنيت لم تبن الإناث من الذكور، انقصمت عُرى الأوصال، وحلّوا بالخصال الوصال منهم مهجور، سكنوا بعد بعد الودود في اللحود كمأسور تكدّر صافيهم بمصافيهم فمضى فيهم يجافيهم وما فيهم معذور، علا على أعلاهم تراب كثير موفور، وسكن المسكين في كمين إمكانه فاستكان في مكان محفور، بين مترفيهم قد اطمأن ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: الآية ١٤]، إذ الأذى كالحذا ولكل محتذي الغرور، وكم قال واعتذر فلم يذر. قيل: هذا الهذر زور صب الصابُّ في مَن صبا، فالصبا تسفي على منصبه والدبور، فانتبه فإن الموت يدور على ساكني الدُّور، ويلتقط أرباب القصور بلا قصور ولا فتور وكأنك بالأمر قد فصَّل ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: الآية ١٠]، فمَن جاز قنطرة الهوى آب بتجارة لن تبور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: الآية ٤٠].

لأغـذيـن الـعـيـن غـيـر مـفـكـر ... فيها جرت بالدمع أو فاضت دما
ولأهـجـرنَّ مـن الـرقـاد لـذيـذة ... حتى يصير على الجفون محرما
سفكن دمي فلأسفكنَّ دموعها ... وهي التي بدأت فكانت أظلما
هي أوقعتني في حبائل فتنة ... لو لم تكن نظرت لكنت مسلَّما

وعظ:

ويحك اخلُ بنفسك خلوة المشفق الناصح، وخاطبها خطاب البصير الناقد وحاسبها حساب الشريد المُفارق، وقل لها: لمثل الجنة فليعمل العاملون أين

الصالحون يا قوم؟ رحلوا وماتوا ونحن متنا وماتوا وينشد:

هاذه الخيف وهاتيك مناها هنا ضاع فؤاد في هاهنا

وعظ:

يا صاحب الخطايا لست معنا، يا مقبلًا على الهوى ما أنت عندنا ضاعت حيلتي في تحصيل قلبك، وا عجبًا لك أخوفك عواقب الذنوب وما تتوب؟ قد أوقدت نار المواعظ إلى جانب كسلك ونفس عزيمتك شديدة البرودة، وقد اتفق الأطباء على أن النفس البارد في المرض الحاد دليل هلاكه، يا مخالفًا من نهاه وأمره، يا مضيعًا في التجربة عمره، مَن ركب الهوى هوى والنفس إذا استعملت التقوى تقوى.

إخواني، لا تقولوا لمَن مات استراح إلى متى الأعمال كلها قباح؟ إلى كم فساد متى يكون الصلاح؟ ستفارق هذه الأجساد الأرواح، إما في غدو وإما في رواح، وسيفنى هذا المساء والصباح، وسيخلو البلى بالوجوه الصباح إما في الأمر شك أم الأمر مزاح. أين شارب الرّاح راح إلى قبر شفي عليه الرياح، حلٍّ للدود مباح لها اغتباق به ثم اصطباح، مشغول عمّن بكى عليه وناح، عنوانه لا يزول مفهومه لا براح، اللَّهمَّ مَن كاد فامكره وأرادنا بسوء فاخذله، ومَن نصب لنا فاحشره، ولا تَكِلنا إلى نفوسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك يا أرحم الراحمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

المَجْلِسُ التَّاسِعُ والثَّلاثُونَ
فيه خطبة ووَعْظ وشِعْر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

أحمد الله الذي أطلع من بحر الغيب نفائس جواهر الأرواح، وأودعها بسرّ حكمته في ظلم خزائن الأشباح فأدار الفُلْك ليعلم بدورانه وجود المساء والصباح وجعل الليل والنهار طرازين على كمي مرقعة الدهر لاصطياد الأرواح من أقفاص الأشباح، نثر دنانير الشُّهُب على زُرقة وجه السماء والليل مطوي الوشاح، فكأنهنَّ جمرات وُقِدَت في مواقيت السفر خلعت عليها أيدي الرياح أو عيون الروم، ركبت في محاجر السودان ركبها مقترح أجمل الاقتراح، مُجيب دعوة المضطر إذا دعاه وهو معتكف على صنم لذّاته وأفعاله القباح يسمع حنين الأطفال في ديجور الليل وجري الماء في الأعواد وخيل الليل تركض بالصباح، تكلم بكلام قديم أزلي. فالكلام صفة المتكلم.

العالم القادر القاهر يعلم ما سطر من الصبيان في المكانة وما رقموه في الألواح، استوى على العرش وما جلس وما نزل ولا انتقل، وهذا كلام ليس على قائله من جناح، من شراب الراح ارتاح، أو باح بأسراره وناح مَن خالف هواه استراح، فليت ما فيه مصباح روح ولا ارتياح، منادي القنا ينادي حيّ على الفلاح، سمع ما قرأ القارئ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: الآية ٣٥] قم في وقت السَّحر واسمع حنين أنين العاشقين وأنين المشتاقين، يا ذا الأفعال القِباح ينادون مولاهم بشفاه ذابلة ودموع وابلة وزفرات

قاتلة وألسنة فصاح فإن انقطع يا هذا قلبك في بادية ذنبك فنادِ على نفسك نداء مَن أعلن بقصته وباح، وتفكّر في أحواله ثم صاح:

لا خير في العيش بغير افتضاح قد
جئتكم مستأمنًا لا تقتلوني قد رميت السلاح
لا تقتلوني أنا في أسركم
والحب قد أثخن قلبي الجراح

أحمده على مَن منح من عطائه وأزاح، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجوا بها الفوز والنجاح، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المخصوص بالعلم والحلم والعطاء والبذل والجود والسماح، وصلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأشياعه صلاة تدوم وتقوم ما هَبَّت الرِّياح.

وعظ:

إخواني، التعب في الدنيا على ضربين؛ تعب آخره بكاء ونحيب، وتعب دعة وراحة كم بين حريم فيحرم من الدنيا وبين عبد يعبد المولى هذا محفوظ من الأسوأ في حصن من التقوى، وذلك مبذول للمِحَن والبلوى، هذا يوم القيامة في عزٍّ وكرامة وذلك في حسرة وندامة، وينشد:

من أجلك قد جعلت خزي الرِّضا ... للشامة والحسود حتى يرضى
مولاي إلى متى بهذا أخطأ ... عمري يفنى وحاجتي ما تُقضى

عبرة:

لو قطعني الغرام إربًا إربًا ... ما ازددت في هواك إلا حُبًّا
لا زلت بكم أسير وجْد ... ضنى حتى أقضي على هواكم نحبا

حكاية:

قال: دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة وقال له: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمّرتم دُنياكم وخرَّبتم أُخراكم، وأنتم تخافون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: فأخبرني كيف قدوم

الخلق على الله؟ قال: أما المُحسِن كما تقادم على أهله فرحًا مسرورًا، وأما المُسيء فكالعبد الآبق يقدم على مولاه خائفًا مذعورًا، قال: فأيّ الأعمال أفضل؟ قال: دعاء الملهوف للمُحسِن إليه، قال: فأيّ الصدقات أفضل؟ قال: جهد المُقِلّ لا مَنَّ فيه ولا أذى، قال: فأي القول أفضل؟ قال: كلمة حق في موضع يخاف فيه، قال: فأيّ الناس أعقل؟ قال: مَن عمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ودلَّ عليها، قال: فأيّ الناس أجمل؟ قال: مَن عمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ودلَّ عليها، قال: فأيّ الناس أجهل؟ قال: مَن باع آخرته بدنيا غيره، قال: يا أمير المؤمنين نَزِّه ربّك وعظِّمه أن يراك حيث نهاك أو يعفُ عنك حيث أمرك، قال: فبكى سليمان بكاءً شديدًا، فقال له رجل من جُلَسائه: أسأت إلى أمير المؤمنين. فقال له أبو حازم: اسكت، إن الله أخذ ميثاق العلماء قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٧]، فلما دخل إلى منزله أنفَذَ له جملة من التماثيل، فقال أبو حازم لرسوله: رُدَّها إليه وقل له: والله ما أرضَها لك فكيف أرضَها لنفسي خذها فأنت المحاسب عليه.

إخواني، كم من ملك نشرت على رأسه العلامات فلما لاقى علاماته وتبشر يا مضيا في هواه غرك الستر الجميل.

يا ليالي خلواتي قضى فيها تطول
ذاب قلبي من ضناها فأنا المضنى العليل
ليت شعري ما اعتذاري أدبنا ذنبي الجليل
يا ضعيف الوجه قل لي ما لمولاك تقول

وعظ:

يا هذا ما زلت تنفق مرتك وأيامك على كسب زلاتك وآثامك، وتشرب خمر التسويف من عامك إلى عامك حتى بلغت إلى وليمة أوجاعك وآلامك، وحبست على مرتبة كربك وأسقامك، ووقف الساقي بين يديك بكأس حمامك وينشد:

خذها إليك قد جافك توقيتها   واشرب بقيمة ما أبقيت من عمرك

ما زلت في طلب الأوطان منهمك حتى بلغت ولم تبلغ إلى وطرك
وكنت من تعب الأوطان في شغل حتى أتى سقم الهلاك عن سجوك
وكنت تطلب من أهل البلا خيرًا والآن تعرف ما قد غاب من خيرك

وعظ:

ويحك ويحك خذ بتلابيب نفسك قبل أن يحدوا بك ملك الموت.

إخواني، أتدرون ما يقال لكم أولاً؟ هيهات لو عرفتم شرف الحياة لاغتنمتموها بالطاعة، كم غرقت في بحر سوق من سفينة روح فلما أحسَّت بالهلاك صاحت رَبِّ ارجِعون. وينشد:

أليس من الخسران أن لياليا تروح بلا نفع وتحسب من عمري

حكاية:

مرَّ عيسى عليه السلام برجل وهو راكع فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام وقال له: يا عيسى بالذي خلقك إلا ما وضعت لي حجرك أضع رأسي ساعة فوضع له حجره، ووضع الرجل رأسه عليه، ورفع بصره ويديه إلى السماء، أو قال: اللَّهمَّ بحُرمَة هذا عليك إلا ما قبضت روحي في حجره فلم يستكمل الرجل آخر دعائه حتى خرجت روحه فطلب عيسى ما يكفِّنه فيه فلم يجد إلا عباءة خَلْقَة وطوية، وكان إذا أراد أن ينام وضعها تحت رأسه، فقال عيسى عليه السلام: إلٰهي إذا جمعت الأولين والآخرين وسألتهم عن مكاسبهم عن ما فاسأل هذا الرجل فأوحى الله إليه يا عيسى، وعزَّتي وجلالي لأسألَنَّه عن هذه العبادة من أين اكتسبتها، وعن هذه الطَّوِية من أين ترابها الذي طبعها منه لأني آليت على نفسي إن جاوزت ظلم ظالم فبات ظالم وعزَّتي وجلالي لأكلِّفَنَّ خالِط اللبن والماء وينشد:

نوح الحمام على الغصون شجاني ورأى العذول صبابتي فبكاني
إن الحمام ينوح من خوف الهوى وأنا أنوح مخافة الرحمٰن
فلئن بكيت فلا أُلام على البكا فلطالما استغرقت في عصيان

يا رب عبدك من عذابك مشفق   متوسل بتلاوة القرآن
فارحم تضرّعه وطول حُزنه   وامنن عليه اليوم بالغفران

اللَّهمَّ سلّمنا من الدنيا واختيالها، واختم لنا بخير عند زوالها، ونجِّنا في القيامة من أهوالها، واجمع بيننا وبين والدينا وذريّتنا ونبيِّنا في جنَّاتك وجميع المسلمين وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليمًا.

المَجْلِسُ الأَرْبَعُونَ
فيه خطبة وأشعار
ووعْظ وكيف بداية الجوزي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا

الحمد لله الذي أشرقت بنوره الظُّلم، وأجرى بقدرته القَلَم، وأصبغ علينا جزيل النِّعَم، ومَنَّ علينا بالنَّبِيِّ الأكرم، وفضَّلنا على ما هو الأهم، والحمد لله الذي أشرقت بنوره الأنوار، وتعالى عن إدراك الأبصار كان ولا مكان، ولا حَيِّز ولا أوان، ولا وقت ولا زمان، ولا طلٌّ ولا غمام، ولا سماء ولا دخان، ولا خلاء ولا عمران، لا إلٰه إلا هو الواحد المَنَّان باعِث الأرواح ومُرسِل الرِّياح بالأرزاق وأحيا ووعد بصدق، تنزَّهت عن الحدوث ذاته، وتقدَّسْت عن شبه المخلوقين صفاته، ودلَّت على قدرته آياته، كل شيء يفنى ويبيد وهو يبدئ الخلق ويُعيد، كلُّ كلام لا يُبدَأ فيه بحمد الله فهو أبتر، وكلُّ فِعْل لا يقال فيه لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم فقَلَّ ما يُعان فيه مولاه وينصر، وكل دعاء لا يُصلى فيه على النَّبيّ ﷺ فَقَلَّ ما ينجح صاحبه ويظفر صلُّوا على النَّبيّ المرتضى والرسول المصطفى، وينشد:

يا راكبًا نحو المدينة قاصدًا ... بلِّغ سلامي للنَّبيّ محمَّد
وقل السلام عليك يا عَلَم الهدى ... وعلى رجالٍ بالبقيع الأجود
إن الذي ورث النُّبُوَّة والهدى ... فهو الدليل لكل عبد ومرشد

وعظ:

يا مَن بضاعته كلها بهرج ضيَّقت الخناق على نفسك فلا مخرج، انتبه

سريعًا فالخيول تُسرَج، وتفكَّر في حلَّة من البلى لم تُنسَج.

يا عبد فلسه يا عدو نفسه هوِّن بأمر الدنيا تهن، وقدِّر أنها قَطّ لم تكن، واحفظ دينك من مكرها وصُن فمتى وفيت ومتى لم تخن، يا أرباب الهِمَم الشماط هذا الموت بكم قد أحاط، هذا العدو منازل فالزموا الرّباط، أما يزعجكم تخويف ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥٩]؟ أما ينذركم أعلام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٢]؟ أما يقصر من قصوركم ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: الآية ٤٥]؟ أما سمعتم مُنادي العبد ينادي ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٠]؟ إذا رأيتم المُبارزين بالخطايا قد اتسع لهم مجال الإمهال فلا تستعجل لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨] بينا القوم على سرور غرورهم ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]، يا هذا ظُلمك لنفسك غاية في القبح، إلا أن ظُلمك لغيرك أقبح، ويحك إن لم تنفع أخاك فلا تضرّه، أترى يصلح هذا القلب بعد الفساد، وينشد:

كلما أملت يومًا صالحًا عرض المقدور لي في أملي
وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجي منكم وتدني أجلي

يا مُدمِن الذنوب منذ كان غلامًا قل لي على ما عوّلت، قل لي على ما أين المجتمعون على خمورهم. ويحكم هذا الرحيل قد استعجلتم، فالبِدار البِدار، خلّوا كسلكم، ودعوا التواني فالتواني قد قتلكم، وا أسفا سبق الصالحون فماذا شغلكم ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٤٤] يا معدودًا مع الشيب في الصبيان، يا محبوسًا مع البصراء في العميان، يا واقفًا في الماء وهو عطشان، يا عارفًا بالطريق وهو حيران أما وعظت بآيِ القرآن؟

أما زجرت بنا الأقران، أما تعتبِر بصروف الزمان، أتعمر المنزل وعلى الرحيل السكان، أما يكفي وعظ؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٦] أفعالك مكتوبة فيا ليت ما كان كان تدفن الميت ولا وعظ كالعيان، ثم تعود غافلًا يا قرب هذا النسيان، وينشد:

إذا أنت لم ترع البروق اللوامحا ونمت جرى من تحتك السيل سائحا

غرست الهوى باللحظ ثم احتقرته وأهملته مستأنسًا متسامحًا
ولم تدرِ حتى أينعت شجراته وهبت رياح الوجد فيه لواقحا

شعر:

وأمسيت تستدعي من الصبر عازبا عليك وتستدني من النوم نازحًا

لله درّ أقوام علموا الرحيل واشتاقوا السفر وتذكروا الدنيا وقنعوا بما حضر ما لكم خبر بحالهم ولا عندكم منهم خبر، فمضوا في الجد وقعدوا وسهروا في الدجى، ورقدوا وآثروا بالزَّاد فزادوا على البرامك، هذا طريقهم فأين السالك أترضى بالتأخير عنهم هذا براؤك كأنك بهم، وقد دخلت عليهم الملائكة، كل يا مَن لم يأكل هذا بذلك وينشد:

في كل يوم زاجر وكم نذير زائر مسلم
وكم يناديك لسان غيره وأنت عن قول الهوى في صَمَم
أين الذين شيَّدوا واحترسوا أين مَن كان كثير النّعم
مضى الجميع هل ترى من أثر لهم صاروا جميعًا في بيوت الظلم

لو قيل: قولوا ما منا كم طلبوا الحياة يومًا ليتوبوا. فاعلم مضى الزمان في توان وهوى واستدرك ما قد بقي واغتنم وا حسرة مَن مضوا وخلفوا، لقد استبدل بالعسل الخل القوة، ويقال:

منازل دنياك شيدتها وخربت دارك في الآخرة
يا مَن كان له قلب فمات يا مَن كان له وقت ففات

استغث في بوادي القلق، ردوا على ليالي التي سلفت كانت بقربكم أيام أعياد إن عافني الدهر يومًا (   )[1] فإن قلبي إليكم رائح غادي عسى المنادِ (   )[2] سوى والبين حسَّادي.

(١) الكلام غير واضح من الأصل المخطوط.
(٢) الكلام غير واضح من الأصل المخطوط.

إخواني، مَن يمتلك سبيل القناعة يقع على كتفه ما وجده الإسكندر، فينقلب أغنى من قارون وبنيه أقرع من فؤاد أُم موسى، يا مشغولًا بالعمل للدنيا، والدنيا تعمل فيه تجمع ما يعوقك وتوصل ما يمزِّقك، ويحك ابنِ قصرًا وتهدم قصرًا، وا عجبًا لمَن يَجمَع المال جمع الثريًّا نفسها، ثم تأتي الأقدار متفرِّقة تفريق بنات تعشق. ويحك ويحك، أما حبّ الدنيا عندك فراسخ، وأما قلبك منك فراسخ، وإذا المقوى فمَن يبنيه، وإذا غاب القلب فمن يحدث، طلق كواذب آمالك لتكون وارث مالك أعظم المغبونين حسرة مَن يقع كدّه لغيره، أُمدُد يديك بالصدقة فإن لم تطق فاكففها عن الظلم، أطلِق لسانك بالذِّكر فإن لم تستطع فاحبسه عن الغيبة، ويحك كلما عاش أملك مات الفقير، لو سمعت كلامي بقلبك كان طول الأسبوع نصب عينك، وإنما تسمعه بأُذنك (وفوق أنين السماعين)[(١)]. قال رسول الله ﷺ: **«مَن أرضى الناس بسَخَط الله سخط الله عليه وأسخَطَ عليه الناس»**.

إخواني، الصبر مثل اسمه في كل نائبة، لأن عواقبه أحلى من العسل، ويقال شعر:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدّعاءُ
سهام الليل صائبة ولكن ... لها أمَد وللأمَد انقضاءُ

إخواني، (سوف لص)[(٢)] الشيب رأس مال الشباب، قيل لي اليوم: (الآن جرة الندم)[(٣)] طال ما امتُّم قلوبكم بالهوى فأحيوها اليوم بوابل العبرات، ذهب عرش بلقيس وبلي جمال شيرن وبقي نُسك رابعة كلامي يسلب الماء ذرفته والنحل ريعه يخجل بظم العقود ويسكر ولا زينة العنقود أحسن من نور الخمايل وأنفد من سِحْر بابل فربما لم تجدوا مثل هذه الفوائد ولأرسلتم في طلبها البرايد إذا خرجتم عن المجلس فقولوا في (   )[(٤)] في المنام لأن المخبر عن العجائب منهم.

---

(١) هكذا ورد في الأصل المخطوط.
(٢) هكذا ورد في الأصل المخطوط.
(٣) هكذا ورد في الأصل المخطوط.
(٤) الكلام غير واضح من الأصل المخطوط.

إخواني، (   )[١] ما كنت أن أتكلم عليكم ولا محرمتي ما رجوته، جاء في الحديث يقول الله عزَّ وجلَّ: يا داوود يُحزنني صوتك الرخيم فإذا قام داوود يذكر درس الشكر على الفجور رجوت أن أكون المعيد أنا.

إخواني، مجلسنا روضة طعامنا فيها الجوع، وشرابنا فيها الدموع، ونقلنا هذا الكلام المطبوع تداوي به الأمراض وتردّ الهارب وتوفّي الملسوع فليته كان كل يوم لأجل أسبوع. إلٰهي أيقظتني في الصِّبا، ووهبتني من العلم، وأذقتني طعم المعاملة، وأقمتني أذلّ الخلق عليك واصرف الوجود المنصرمة عنك إليك. ومزجت كأسًا بطعم بعذوبة الصبابة، وجعلتني في أخباري معروفًا بالأمانة فتركن إليَّ أهل المعاملة ورضوني حميدًا وقت الوزن. سيدي لو عرفوا إجلاسي ما عوملت غير أني مستور المضار زحفي الفقر طالما (اجتزت الفقر)[٢] بعد أن تهافتوا في النار فيصدرون وارد النار، إلٰهي إنعامك عليَّ بالهدى قوي رجاء في إتمام فضلك لزلَلي، أعلمني بسَعَة رحمتك إن لم أصلح للرضى فأهّلني للعفو إن لم أُهَيَّأ لسجون الأولياء فلا تحبسني في سجون الأعداء، وارحم غريقًا ما يسمع إغاثته سِواك، خلِّص أسيرًا ما يملك وحاكمه، ألا اعتق رقبة قد رقبت جودك لا تخيب أملًا طال تعلّقه بك، لا تنكس قلبًا قد عوَّل على فضلك يا كريم يا رحيم مرماهم[٣] ولجميع المسلمين وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلّم تسليمًا.

تَمَّ الكتاب بحمد الله وحُسْن عونه، انتسخ بباب بني شيبة بالحرم الشريف بإزاء باب أبو (   )[٤] العبد الفقير إلى رحمة ربه الراجي عفوه محمد بن محمد علي الأندلسي الأقليم القبالي الدار، والحمد لله على كل حال، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا.

---

(١) الكلام غير واضح من الأصل.
(٢) هكذا ورد في الأصل.
(٣) هكذا ورد في الأصل.
(٤) الكلام غير واضح من الأصل.

فهرس المحتويات